اوغست كورنو

ماركس وانجلز

حياتهما واعمالهما الفكرية







الجزء الرابع

تشكّل المادية التاريخيّة

(١٨٤٥ - ١٨٤٦)



دار الحقيقة - بيروت

المكتبة الاشتراكية

اوغست كورنو

ماركس وانجلز

حياتهما واعمالهما الفكرية

الجزء الرابع

تشكّل المادية التاريخيّة

(١٨٤٥ - ١٨٤٦)

نقله الى العربية

الياس مرقص

دار الحقيقة - بيروت

الطبعة الاولى
كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥

الفصل الاول

الحالة في أوروبا الغربية
(١٨٤٠ ــ ١٨٤٧)

ماركس وانجلز ، بعد انتقالهما من الديمقراطوية الى الشيوعية ، يحتكان بالحركة الثورية للبروليتاريا الانكليزية والفرنسية ويقيمان في **الأطروحات عن فويرباخ** و **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** و **الايديولوجيا الالمانية** المبادىء الجوهرية للمادية الجدلية والتاريخية بوصفها الاساس النظري لعمل البروليتاريا الثوري ، قبل شروعهما في أخذ قيادة هذا العمل الفعلية .

هذا الانضاج النظري وهذا العمل الثوري يحصلان في علاقات وثيقة مع التطور الاقتصادي والاجتماعي لانكلترة وفرنسا والمانيا ، وماركس وإنجلس هما على صلة مباشرة مع هذه البلدان .

الثورة الصناعية

ان حالة هذه البلدان في أربعينات القرن الماضي لا ندرسها هنا الا بقدر ما هي تحدد شروط حياة وكفاح البروليتاريا . هذه الحالة مطبوعة بالنمو المتسارع للانتاج

الصناعي ، النمو الحاصل بشكل مختلف وحسب ايقاع خاص في كل من هذه البلدان .

بينما فرنسا والمانيا بلدان زراعيان جوهريا ، فيهما يبقى الانتاج الصناعي حرفيا او مانيفاكتوريا ، في انكلترة الثورة الصناعية ، التي تنقل الزراعة الى مستوى ثان ، تنمو وتتطور بشكل متزايد السرعة : المصنع [الفابريك] يحل محل المانيفاكتورة ، واستخدام الآلة والبخار كقوة محرّكة يتعمّم .

ان النمو السريع لطلب المنتوجات المصنوعة يحفز اختراع واستعمال آلات تغدو ضرورية لتلبية الحاجات . في البداية ، الطلب يتصل على نحو خاص بخيرات الاستهلاك ، الامر الذي يفسر التطور الاولي الغالب لصناعة النسيج . يلزم مزيد من الآلات ، وبناء السكك الحديدية والسفن البخارية المتسارع يعطي بدوره دفعا كبيرا لصناعة التعدين التي تتجه اكثر فأكثر الى اللحاق بصناعة النسيج ثم الى تجاوزها في الاهمية .

ان تطور الصناعة يؤدي الى تغير عميق في البنية الاجتماعية . هذا التغير يتجلى في فقدان طبقة النبلاء لنفوذها ، بالتوافق مع التناقص النسبي للانتاج الزراعي ، في صعود البرجوازية الكبرى الحاصل بموازاة نمو الصناعة والتجارة، في انحدار الطبقات الوسطى ، طبقات الحرفيين وصغار الصناعيين ، الذين تنخفض قدرتهم على مقاومة مزاحمة المصانع بصورة مضطردة ، اخيرا في تشكل بروليتاريا متزايدة الاهمية والبؤس ، تصير ثورية بقدر ما هي تعي بشكل أوضح مصالحها الطبقية وتشرع تلعب دورا محدّدا في تطور المجتمع .

١ ــ انكلترة

التحول الاقتصادي والاجتماعي ، الذي سببته الثورة الصناعية التي بدأت في انكلترة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، يتواصل في القرن التاسع عشر بوتيرة متسارعة .

الانتقال من الانتاج المانيفاكتوري الى انتاج المصنع يسهّله نمو السوقين الداخلية والخارجية الناجم غن تزايد السكان وتوسّع الملك الكولونيالي .

ان مكننة الحياكة والغزل تنقل مستوردات القطن من مليون جنيه في ١٧٧١ الى ٥٢٨ مليون في ١٨٤١ ، تنزل عدد الحائكين باليد من ٢٤٠٫٠٠٠ الى ٦٠٫٠٠٠ بين ١٨٢٠ و١٨٤٤ بينما في هذه الفترة نفسها يرتفع عدد الحائكين بنول ميكانيكي من ١٠٫٠٠٠ الى ١٥٠٫٠٠٠ .

ان مكننة التعدين ، التي تعقب مكننة صناعة النسيج ، سريعة بشكل خاص اعتبارا من الاربعينات ، اثر بناء السكك الحديدية ــ طولها ينتقل من سنة ١٨٤١ الى سنة١٨٤٧ من١٣٦٠كم الى٧٧٠٠كم ــ والسفن البخارية المتسارع. بفضل تحسين

الافران العالية ، يمضي انتاج الحديد من ١٢٥٫٠٠٠ طن في ١٧٩٦ الى ٦٧٨٫٠٠٠ في ١٨٣٠ و ٢٫٢٥٠٫٠٠٠ طن في ١٨٥٠ . نمو الصناعة التعدينية يجرّ نمو الصناعة المنجمية . وهكذا يمضي استخراج الفحم الحجري من ٧٫٦ مليون طن في ١٧٩٠ الى ٤٩ مليون في ١٨٥٠ .

ان بناء سكك الحديد وسفن البخار والاقنية ، الذي يسهل النقليات ويزيد سرعتها ويخفض سعرها ، يساعد التوسع الصناعي والتجاري الذي يولد نمواً سريعا للرساميل المتداولة وانشاء مصارف وشركات بأسهم .

يلاحظ في الزراعة تطور مماثل بتمركز الاراضي بفضل احتكار الاملاك البلدية [القروية] وتصفية صغار الفلاحين ، وهكذا يمكن من الحصول على مردود أفضل للارض باستخدام الآلات وباستعمال للاسمدة اكثر اهمية . ان نمو الزراعة يحفزه من جهة اخرى ازدياد طلب المواد الغذائية الناجم عن تزايد السكان والرسوم الجمركية على الحبوب .

رغم ان انكلترة آنذاك تخطو خطوات مدهشة في المجال الاقتصادي وتملك تقدما كبيرا على البلدان الاخرى ، اكتسبته بفضل انطلاق ثورتها الصناعية ، فانها لم تبلغ بعدُ وتيرة التطور التي تميز الحقبة التالية لثورة ١٨٤٨ ، حيث المانيفاكتورة تصفّى تماما من قِبل المصنع .

في موازاة التطور الاقتصادي ، يحصل تحوّل عميق في البنية الاجتماعية للبلد . هذا التحوّل يتميز ، من جهة ، بالصعود السريع للبرجوازية الكبيرة التي بامتلاكها قوى الانتاج الصناعي تنازع الارستقراطية العقارية على السلطة ، ومن جهة أخرى بالانحدار النسبي لهذه الارستقراطية العقارية التي تتمكن مع ذلك من الاحتفاظ بقسم كبير من نفوذها بفضل احتكار الاراضي وتحديث الزراعة وحيازة مناجم الفحم والمعادن ، الحيازة التي تتيح لها المشاركة في التوسع الصناعي . التعارض بين الارستقراطية العقارية والبرجوازية الصناعية يتترجم على الصعيد السياسي فيالصراع بين المحافظين tories والاحرار whigs . مستفيدين من نجاحهم في انتخابات ١٨٣٢ الذي يحملهم الى السلطة ، الاحرار يجهدون لاضعاف قوة كبار الملاكين العقاريين بتخفيض رسوم الجمرك على الحبوب ؛ هذا يفسّر الدور الكبير الذي تلعبه منذئذٍ قوانين الحبوب في المجابهة بين الفئتين الكبيرتين في الطبقة الحاكمة .

بينما تزداد قوة البرجوازية الكبير وتبقى تقريبيا قوة كبار ملاكي الارض ، نرى تشدد انحدار الطبقات المتوسطة ، الحرفيين وصغار الصنّاع والتجار ، بتناقص قدرتهم على مقاومة الصناعة الكبيرة والتجارة الكبيرة ، ونمو بروليتاريا متزايدة العدد والبؤس ولكن ايضا متزايدة الكفاحية .

الاستفحال المتزايد للتزاحم بين العمال بسبب توسّع استخدام الآلات ، الذي يتيح استخدام نساء وأولاد يعملون بثمن بخس ، يولّد تخفيضا دائما للاجور وزيادة مستمرة لمدة الشغل . هذه تصل الى ١٨ ساعة في اليوم بالنسبة لبعض صنوف

الشغيلة . ويصبح بؤس العمال رهيبا في حال الازمة التي تفرض عليهم البطالـــة والمجاعــة .

ان توسّع البؤس يستتبع ، في الوقت نفسه مع تصاعد شرب الكحول والبغاء والجريمة ، ثورة العمال ضد الاستغلال القاسي الذي هم ضحاياه . هذه الثورة ، التي هي في البداية ذات طابع متفرّق ومتشتت ، تتحول اكثر فأكثر الى نضال منظم على الصعيد النقابي وعلى الصعيد السياسي في آن . بعد انتزاع حـــق التحالف والاضراب والتصويت ، نرى بالفعل تعزز العمل النقابـــي تحت قيادة **اتحادات الشغل** [trade - unions نقابات العمال] الذي يفضي الى الاضراب الكبير في صيف ١٨٤٢ والى النضال السياســـي بقيادة الشارتيـــة Chartisme التي تطالب بتساوي الدوائر الانتخابية وبالاقتراع العام والمتساوي والسرّي .

٢ ــ فرنسا

ان التطور الاقتصادي والاجتماعي لا يجري في فرنسا وبلجيكا وخصوصا في ألمانيا بنفس الوتيرة التي يجري بها في انكلترة .

الثورة الصناعية تبدأ في فرنسا مع نصف قرن من التأخر عنها في انكلترة . بينما في الاربعينات ، باتت انكلترة مصنّعة بشكل عميق ، تبقى فرنسا بوجـــه الاجمال بلدا زراعيا .

في الميدان الصناعي ، الانتاج الحرفي والمانيفاكتوري ما يزال هو الغالب . هكذا فان ٦ ملايين من العمال يشتغلون في المعامل [المشاغـــــل] والمانيفاكتورات و٣ر١ مليون فقط في المصانع [الفبارك]. ولكن ، خصوصا بعد ثورة ١٨٣٠ ، يؤدي نمو الصناعة الكبيرة الذي ازداد حيوية الى حلول الفبركة محل المانيفاكتـــورة تدريجيا . هكذا في الحياكة ينتقل عدد الانوال الميكانيكية من ٦٠٠ في ١٨٣٥ الى ٠٠٠ر١٢ في ١٨٤٢ . في الصناعة التعدينية ، التي يحفز انطلاقها كما في انكلترة بناء السكك الحديدية المسرّع ، ينتقل انتاج الحديد الصب من ٠٠٠ر٢٢١ طن في ١٨١٨ الى ٠٠٠ر٥٩١ طن في ١٨٤٧ ؛ عدد الافران العالية العاملة على الكوك يرتفع من ٣٣ في ١٨٣٩ الى ١٠٦ في ١٨٤٦ ، عدد الآلات البخارية من ٦١٥ في ١٨٣٠ الى ٠٠٠ر٥ في ١٨٤٧ . استخراج الفحم والفلز تحت فعل توسع الصناعـــــة التعدينية يحصل هو ايضا بوتيرة مسرّعة : من ١٨٣١ الى ١٨٣٧ يمضي انتـــاج الفحم من ٨ر١ مليون طن الى ٥ مليون ، وانتاج فلز الحديد من ٠٠٠ر٧٤٠ طن الى ٠٠٠ر٦٥٨ر١ طن .

كما في انكلترة ، يسهّل تطور الصناعة والتجارة تراكم الرساميل المتداولة وبالتالي توسع البنوك والشركات المساهمة . رغم هذا الاندفاع ، يبقى التطـــور الاقتصادي متأخرا جدا عنه في انكلترة ، وهذا ما يشهد عليه بصورة خاصة طول

الشبكة الحديدية الذي ليس في فرنسا عام ١٨٥١ سوى ٣٫٠٠٠ كم بينما يبلغ في العام نفسه ١٠٫٦٥٦ كم في انكلترة .

مع هذا الفرق في التوسع الاقتصادي بين انكلترة وفرنسا يتوافق فرق في التطور الاجتماعي والسياسي . في انكلترة ، طبقة صغار الفلاحين اختفت تقريبا بنزع ملكيتها . في فرنسا ، بالعكس ، طبقة الفلاحين الصغار والمتوسطين هي الغالبة ولكنها تعيش حياة منقوصة وقلقة في كثير او قليل . وتقطيع الاراضي الى أقصى حد لا يسمح بتحسين اساليب الزراعة .

أما طبقة النبلاء ، لئن كانت ما تزال في انكلترة تلعب دور طبقة حاكمة ، فانها في فرنسا ، وقد دمّرتها ثورة ١٧٨٩ ، عليها ان تترك المكان للبرجوازية الكبيرة التي وصلت الى السلطة مع ثورة ١٨٣٠ . وهذه البرجوازية الكبيرة يقودها اصحاب البنوك وهي تهيمن على الدولة الموضوعة في خدمة مصالحها الطبقية .

المعارضة مكوّنة من الطبقات المتوسطة ، المهددة تدريجيا على يد مزاحمة الصناعة الكبيرة والمحرومة من حق التصويت المحصور في دافعي ضريبة حق الاقتراع .

في نضالها ضد البرجوازية الكبيرة ، الطبقات الوسطى ، التي يقودها مثقفون وأصحاب مهن حرة ، أطباء ومحامون ، تميل الى التحالف مع البروليتاريا التي لا تمثل بعد خطرا يهددها .

ان حالة الطبقة العاملة المكونة آنذاك في غالبيتها من عمال ـ حرف compagnons رفاق) مُبرلَترَين اكثر فأكثر مشابهة لحالة البروليتاريا الانكليزية . يوم الشغل ١٥ ساعة وسطيا . الاجر اليومي المتوسط فرنكان للرجال، فرنك واحد للنساء ، من ٥٠ الى ٧٠ سنتيما للاولاد . والعاملات في منازلهنّ يتقاضين أجرا أقل ايضا ، من ٣٠ الى ٤٠ سنتيما في اليوم . ان كسب عمال ـ الحرف أعلى بقليل ويومهم ١٣ ساعة فقط .

لما كانت الطبقة العاملة الفرنسية ، وهي أضعف من البروليتاريا الانكليزية بسبب التأخر الاقتصادي ، لا تتمتع بحق التحالف والاضراب ، لذا فان كفاحها يرتدي شكلا مختلفا . يحصل بواسطة اضرابات غير قانونية وتُقمَع بقسوة : اضرابات العمال الخياطين ، الحذّائين ، النجارين ، التي تتعاقب اعتبارا من ١٨٣٠ ، اضرابات عمال حرير ليون ومناجم آنزن * ، وبواسطة انتفاضات تنظمها الجمعيات السرية : تمرد ١٨٣٤ بقيادة جمعية حقوق الانسان ، تمرد ١٨٣٩ بقيادة جمعية الفصول . في البداية ، كانت هذه الجمعيات ، ولاسيما جمعية حقوق الانسان ، تجمع عمالا وبرجوازيين ثوريين . ولكن افتراق المصالح والاهداف

[* عمال نسيج حرير ليون وهم الـ canuts (من canne : عصا) ، كانوا يعملون على نول زراعي . ـ آنزن تقع في منطقة الفحم شمالي فرنسا (قرب بلجيكا) .]

يخلق بين البرجوازيين والعمال انقساما يتشدد بقدر ما يحرز العمال وعيا طبقيا أوضح . هكذا في وجه جمعية حقوق الانسان حيث الغلبة للبرجوازية الثورية تنتصب جمعية الفصول المؤسسة في عام ١٨٣٧ على يد بلانكي Blanqui وباربيس Barbès ، والمؤلفة جوهريا من عمال .

ويحصل انفصال مشابه في الميدان الايديولوجي بين المذاهب الاشتراكيين: ل. بلان L. Blanc ، ف. كونسيدران V. Considérant ، برودون Proudhon الذين يدافعون عن مصالح الطبقات الوسطى المبرلترة اكثر فأكثر ، والمذاهب الشيوعيين : كابه Cabet ، دزامي Dezamy ، بلانكي ، الذين يدافعون عن مصالح الطبقة العاملة . بينما الأولون لا يقترحون سوى اصلاحات ، من نوع تنظيم الشغل ، يعتبرونها كفيلة بحل المسألة الاجتماعية في اطار المجتمع البرجوازي ، فان الآخرين يرمون الى تدمير المجتمع البرجوازي بإلغاء الملكية الخاصة وإقامة الشيوعية .

٣ ـ بلجيكا

التطور الاقتصادي والاجتماعي لبلجيكا ، التي صارت في سنة ١٨٣٠ دولة مستقلة مع ملكية دستورية ، مماثل تقريبا لتطور فرنسا . انها في الاربعينات بلد ما يزال زراعيا من حيث الجوهر . في ١٨٤٦ ٢ر٢ مليون شخصا يعيشون من الزراعة و١ر٢ مليون من الصناعة .

في ١٨٤٥ تنشب ازمة زراعية خطيرة ناجمة عن مرض البطاطا وعن سوء مواسم الحبوب ، وتستمر هذه الازمة حتى ثورة ١٨٤٨ . محصول البطاطا ينخفض بمقدار ٨٥ بالمئة ومجموع الانتاج الزراعي بمقدار الثلثين . وهذا يسبب غلاء كبيرا في المواد الغذائية . سعر الخبز مثلا يرتفع من ١٤ الى ٤٠ سنتيما للكيلوغرام .

حالة الصناعة أفضل ، ما عدا في الفلاندر المتخصصة في انتاج قماش الكتان والقنّب ، الذي تهبط صادراته بفعل المزاحمة الانكليزية من ٥٠٠ر٤ طن في ١٨٣٥ الى ٥٠٠ر١ طن في ١٨٤٨ . بالمقابل نشهد ، كما في انكلترة وفرنسا ، انطلاقا سريعا لصناعات القطن والتعدين والمناجم . هكذا من ١٨٣٥ الى ١٨٤٧ يرتفع استخراج الفحم الى ثلاثة أمثال وانتاج الصب الى خمسة أمثال .

ان تقدم الصناعة والتجارة يؤدي الى تراكم سريع للرأسمال المتداول ومعه انشاء بنوك كبيرة ــ «الجمعية العامة لصالح التجارة والصناعة» ، «بنك بلجيكا» ــ وشركات مساهمة .

بموازاة نهوض الصناعة والتجارة ، تتأكد اكثر فأكثر أهمية البرجوازية ، التي تتعارض مصالحها مع مصالح كبار الملاكين العقاريين . هذا التناحر يتعبَّر في البرلمان بالصراع بين المحافظين الكاثوليك الذين يدافعون عن مصالح الزراعة

والاحرار [الليبراليين] الذين يدافعون عن مصالح الصناعة والتجارة .

الطبقات الوسطى المسحوقة تدريجيا من قبل الصناعة الكبيرة والمحرومة من السلطة على يد نظام الاقتراع الضريبي ــ على سكان يبلغ عددهم ٤ ملايين هناك ٤٠,٠٠٠ ناخب فقط ــ تناضل ضد هيمنة كبار ملاكي الارض وخصوصا هيمنة البرجوازية الكبرى . هذا النضال له كمركز «الاجتماع الديمقراطي» المؤسس في عام ١٨٤٠ والذي يقوده آدولف بارتِلس ، ألكسندر وفيلكس دِلهاس ، لوسيان جوتران ، والجنرال مِلينه .

الطبقة العاملة تعيش كما في انكلترة وفرنسا في بؤس يستفحل بلا انقطاع . عامل الحياكة ، الذي كان يكسب في ١٨٤٠ من ٧٥ سنتيما الى فرنك باليوم ، لا يكسب في ١٨٤٦ سوى ما يتراوح بين ٣٥ و٧٥ سنتيما . عاملة الغزل ، التي كانت تكسب في ١٨٤٠ من ٣٠ الى ٥٠ سنتيما باليوم ، لا تنال في ١٨٤٦ سوى ١٥ الى ٢٠ سنتيما . من جراء القحط والمجاعة ، يبلغ البؤس درجة تجعل العمال يقترفون جنحا او جرائم كي يُحبسوا حتى لا يموتوا من الجوع . هذا الافقار يرافقه صعود الكحولية والبغاء والاجرام . وهو من جهة أخرى يعزز النضال العمالي بقيادة جان بيلرِن Jean Pellering الذي يؤسس في عام ١٨٣٣ «جمعية التربية العمالية» وجاك كاتز Jacques Katz الذي يطالب في ١٨٤٤ ، في **الروزنامة الشعبية لبلجيكا** بتنظيم الانتاج من قِبل الدولة من اجل حذف الاستغلال الرأسمالي . في ١٨٤٥ ، يطلب عمال الطباعة ، في منشور موجه الى البرلمان ، الاقتراع العام وتنظيم الشغل ، وفي ١٨٤٥ ، يعلن **نداء الى جميع البلجيكيين الحقيقيين صادر عن اصدقاء شعب بلاد الفلاندر** ، سُحب على ١٠٠,٠٠٠ نسخة، يعلن مسؤولية الرأسمالية عن شدة بؤس الطبقة العاملة .

تحت فعل هذا التصلب في النضال العمالي يحصل انفصال في المعارضة البرجوازية. الاكثر اعتدالا يغادرون «التآلف الديمقراطي» ليؤسسوا بقيادة آدولف بارتِلس «التآلف الليبرالي» ، بينما الاكثر راديكالية بقيادة لوسيان جوتران يوجهون «التآلف الديمقراطي» نحو اتحاد أوثق مع الحركة العمالية .

٤ ــ المانيا

في المانيا ، الثورة الصناعية اكثر بطأً منها في فرنسا وبلجيكا . فقط بعد الثورة الفرنسية وانتفاضة ١٨١٤ اللتين تزعزعان منظومة هيئات الحِرف والبنى الاقطاعية التيما تزال باقية في الارياف، وبعد انشاء الاتحاد الجمركي Jollverein في ١٨٣٤ ، الاتحاد الذي يقدم للصناعة الالمانية سوقا داخلية كبيرة ويتيح لها بنظام الحماية الجمركية ان تقاوم المزاحمة الانكليزية مقاومة افضل ، فقط بعد ذلك اصبحت شروط هذه الثورة مجتمعة .

ان تصنيع البلاد ، الحامل بادىء بدء بشكل بطيء ، نتيجة نقص أسواق التصريف وتراكم الرساميل غير الكافي والمزاحمة الانكليزية ، يتركز في رينانيا وفستفاليا وساكس وسيليزيا ، حيث توجد مناجم الفحم والحديد الرئيسية .

ان تطور الانتاج المُمكنَن يحصل بادىء بدء في صناعة النسيج . من ١٨١٥ الى ١٨٤٥ يزداد انتاج معامل غزل القطن سبعة أضعاف ، ويمضي عدد أنوال النسج من ١٨٣٥ الى ١٨٤٤ من ٦٠٠ الى ١٢٫٠٠٠ واستيراد القطن من ١٠٧٫٠٠٠ الى ٤٤٦٫٠٠٠ طن . انطلاق صناعة التعدين يسهّله ، كما في انكلترة وفرنسا ، بناء السكك الحديدية ، التي يرتفع طولها بين ١٨٤٠ و١٨٥٠ من ٩٤٩ الى ٦٫٠٤٤ كم ، اي ضعف الشبكة الحديدية الفرنسية . انتاج الحديد يرتفع من ٩٠٫٠٠٠ طن عام ١٨٢٠ الى ١٩٠٫٠٠٠ طن عام ١٨٤٠ ، وانتاج الصب من ٢٢١٫٠٠٠ طن عام ١٨١٨ الى ٥٢١٫٠٠٠ طن عام ١٨٤٧ . نمو الصناعة المنجمية يسير جنبا الى جنب مع نمو الصناعة التعدينية . من ١٨٣١ الى ١٨٤٠ ، يرتفع استخراج الفحم من ١٫٨ مليون طن الى ٣٫٤ مليون طن ، وانتاج فلز الحديد من ٧٤٠٫٠٠٠ الى ١٫٦٥٨٫٠٠٠ طن . في نفس الوقت ، ينتقل متوسط عدد الاشخاص المستخدمين في مشروع من ٧ حوالي عام ١٨٠٠ الى ١٠٠ في الاربعينات .

انطلاق الصناعة والتجارة يؤدي الى تراكم للرساميل المتداولة أسرع ، الامر الذي يتيح ، كما في فرنسا ، خلق بنوك وشركات مساهمة . عدد هذه الشركات يصعد بين ١٨٢٥ و١٨٥٠ من ١٦ الى ١٠٢ ومبلغ رساميلها في الحقبة نفسها من ٣٤ الى ٦٣٨ مليون مارك .

رغم هذا التوسع ، الذي يعيقه ويربكه عدا ذلك تجزّؤ البلاد الى عدد كبير من الدول المختلف بعضها عن بعضها الآخر اختلافا كبيرا ، تبقى ألمانيا في الاربعينات، اكثر ايضا من فرنسا وبلجيكا ، بلدا زراعيا في الجوهر . فالفلاحون والعمال الزراعيون يؤلفون حوالي ٥٠ بالمئة من مجموع الشغيلة ، والحرفيون ١٨ بالمئة ، وعمال المانيفاكتورات والفبارك ١٥ بالمئة فقط .

في ألمانيا الشرقية وسيليزيا ، يغلب الاستثمار الكبير . في هذه المناطق يحصل ، كما في انكلترة ، تركز للاراضي في أيدي كبار الملاكين العقاريين ، وهم بوجه العموم من النبلاء . بنزع يد صغار الفلاحين الذين أصابهم الافلاس من جراء التعويضات الباهظة التي كان عليهم ان يدفعوها بعد سنة ١٨١٤ ثمن تحررهم من العبوديات الاقطاعية وباحتكار الاملاك البلدية [القروية] ، يوسع صقور الريف الاشراف hobereaux املاكهم بمقدار ثلاثة ملايين أربنت * . وهم ايضا يزيدون سلطتهم وثروتهم باستثمار معامل كحول وسكر وقرميد وباستثمار مناجم الفحم في سيليزيا .

[* الاربنت وحدة قياس للمساحة فرنسية قديمة تعادل حوالي ٤٢ آر . ثلاثة ملايين أربنت تعادل في هذا الحساب ١٫٣ مليون هكتار] .

في ألمانيا الغربية والوسطى والجنوبية تغلب بالعكس الملكية العقارية الصغيرة والمتوسطة .

التطور الصناعي والتجاري لالمانيا يرافقه ، كما في انكلترة وفرنسا ، تحوّل اجتماعي عميق .

النبلاء يحافظون ، بشكل خاص في بروسيا ، على موقع أوّلي غالب من جراء حيازتهم الاراضي والمساندة التي يجدونها في الحكومات التي يقدمون اطاراتها . الطبقات الوسطى - من صناعيين صغار ، فلاحين صغار ، حرفيين وتجار - التي تصمد بصعوبة متزايدة لمزاحمة الملكية العقارية الكبيرة ، تفقر ، بينما تتنامى مع التوسع الصناعي والتجاري قوة البرجوازية الكبيرة التي تنفصل اكثر فأكثر عن الطبقات الوسطى . مع سير تعزز نفوذها ، تدخل هذه البرجوازية الكبيرة بشكل اكثر حزما في صراع ضد الحكومات الرجعية ، وبشكل خاص الحكومة البروسية ، التي تحابي الزراعة على حساب الصناعة وترفض للبرجوازية المرتبة الاجتماعية والسلطة السياسية اللتين تعودان لها شرعا بحكم دورها الاقتصادي . في الوقت نفسه مع دخولها في نزاع مع الحكومات الرجعية ، البرجوازية الكبيرة تكافح على نحو متزايد القوة عدوها الرئيسي ، البروليتاريا ، التي هي بالنسبة لها الخطر الاكبر .

بينما تزداد البروليتاريا الزراعية من جراء خراب الفلاحين الصغار ، تتشكل في المدن الصناعية بروليتاريا مدينية متزايدة العدد والبؤس . هذا التنامي للبؤس مردّه جوهريا استفحال المزاحمة بين العمال مع الاستخدام المتزايد الحجم لنساء وأطفال يعملون بثمن بخس . الاجور المخفضة باستمرار تكاد لا تكفي الحد المعاشي الادنى. الذين يتقاضون أفضل أجر هم عمال التعدين الذين يكسبون وسطيا ٣مارك في اليوم ، عمال النسيج لا يكسبون سوى ٩ مارك في الاسبوع . النساء يتقاضين نصف أجر العمال ، والاولاد ربعه . العمال الزراعيون والخدم في المدن يتقاضون أجرا أسوأ ايضا ، فالخدم لا ينالون سوى ١٢ مارك كل ثلاثة أشهر .

وتزداد حالة العمال بؤسا بفعل المزاحمة الاجنبية التي تُنزل الاجور الى أدنى مستوى. هكذا في سيليزيا ليس الاجر المتوسط لعمال الحياكة اليدويين في١٨٤٤ سوى ٢٠ بفنيغ في اليوم . وتغدو حالة العامل مأسوية في حال البطالة ، اذ لا يحميه اي قانون اجتماعي .

هذا الوضع يخفض معنويات العمال وينزع عزيمتهم ، ولكنه في الوقت نفسه يوقظ فيهم الحقد ضد مستغليهم ويدفعهم الى النضال . بما انهم محرومون من حق انشاء الجمعيات والاحزاب ، فان ثورتهم ترتدي بادىء بدء طابعا عفويا ومتفرقا . بأخذهم اكثر فأكثر وعي اسباب بؤسهم ومصالحهم الطبقية في سير كفاحهم ، يتعلم العمال شيئا فشيئا التنظيم . اول تمرد ، هام ومعمم ، هو تمرد عمال نسيج سيليزيا سنة ١٨٤٤ ، الذي يسِم بداية النضالات الطبقية الكبرى للبروليتاريا الالمانية .

النضالات السياسية والاجتماعية في ألمانيا (١٨٤٠ – ١٨٤٦)

هذه النضالات تجد تعبيرها في اربع حركات رئيسية : الحركة الليبرالية للبرجوازية الكبيرة ، الحركة الديموقراطية للعناصر الاكثر تقدماً في الطبقات الوسطى ، الاشتراكية «الحقة» التي تستجيب لاتجاهات الديمقراطيين ذوي ميل اشتراكي ، والشيوعية الحرفية والبروليتارية .

١ – الحركة الليبرالية

ان نهوض الصناعة والتجارة يولّد في الوقت نفسه مع توطد البرجوازية توطد الحركة الليبرالية التي تترجم على الصعيد السياسي عن مصالحها الطبقية. كما ان الإيالات الزراعية شرقي نهر إلب هي مركز الرجعية ضد كل تقدم ، فان المناطق الاكثر تصنيعا في ألمانيا، اي سيليزيا وساكس وخصوصا رينانيا وفستفاليا تشكل بؤرة المعارضة الليبرالية . ان خلق شركات أسهم وجماعات صناعية وغرف تجارة ، أعضاؤها يناقشون المسائل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي يضعها الدفاع عن مصالحهم ، يعزز وعي البرجوازية الكبيرة الطبقي ومعارضتها للحكومات الرجعية ، لاسيما حكومة بروسيا التي تربِّط الصحافة بالرقابة وتسحق كل محاولة رامية الى لَبرلة النظام بمساعدة الشرطة والقضاء والجيش . أجل ، تحت الضغط الاقتصادي اضطرت هذه الحكومة الى ترك الصناعة تنمو وتنبسط، ولكنها ساهرة ، برفضها ان ترفع بشكل كاف رسوم الحماية الجمركية خشية اجراءات مقابِلة تعرقل تصدير الحبوب ، على ان لا يحمل هذا النمو والتطور اي خطر لها او لصقور الريف . وهي تعارض ايضا ، مثل الحكومات الاخرى ، توحيد المانيا ، الامر الذي يقف عقبة دون تطورها الاقتصادي والاجتماعي . المعارضة الليبرالية موجهة ايضا ضد دول وسط وجنوبي ألمانيا ، حيث ، رغم النظام الدستوري لهذه الدول ، ما تزال النبالة الزراعية هي المهيمنة .

البرجوازية الكبرى تقف في الوقت نفسه ضد الاتجاهات الديمقراطية التي تظهر لدى قسم من الطبقات الوسطى وبخاصة ضد البروليتاريا التي تبدأ تدخل في صراع حازم ضد هذه البرجوازية . انها لا ترمي بالليبرالية الا الى اصلاحات تفيد مصالحها وحدها . هكذا فهي ، وهي تطالب بنظام دستوري ، تريده مصحوبا بالاقتراع الضريبي الذي يستبعد الطبقات الوسطى والبروليتاريا من اية مساهمة في السلطة . أما بصدد المسألة الاجتماعية ، التي جعلتها انتفاضة عمال نسيج سيليزيا راهنة ، فالبرجوازية الكبيرة تريد ان تقتصر مساعدة الدولة للطبقة العاملة على مداواة بؤسها اجتنابا للثورات . وهي بحكم ذلك لا تؤيد سوى تدابير احسانية وخيرية وتقف ضد اي مشروع لاصلاح المجتمع .

عملها نشيط بصورة خاصة في رينانيا حيث قوتها اكبر مما هي في اي منطقة اخرى . هذا العمل يمارس على نحو رئيسي بطريق الصحافة وفي مناقشات المجلس الرايني Diète . الصحف الليبرالية الرئيسية هي **صحيفة كولن** [كولونيا] ، وهي بقرائها البالغ عددهم تسعة آلاف أكبر جريدة في رينانيا (١) ، **جريدة آخن** [أيكس ـ لا ـ شابيل] ، و**صحيفة اوغسبورغ العامة** المقروءة آنذاك في المانيا كافة . في المجلس الرايني ، خصوصا اثناء دورة ١٨٤٥ ، تطالب بعزم أشد من اي وقت مضى بإقامة نظام ملكي دستوري ، يتيح لها الوصول الى السلطة على الاقل جزئيا ، وبتوحيد المانيا .

قادة الليبرالية الالمانية رجال أعمال كبار مثل ديفيد هانسيمان و لودولف كامبهاوزن و غستاف مِفيسن . نصيرا لنظام الحماية الجمركية ، ديفيد هانسيمان، بعد تأسيسه في ١٨٢٥ جمعية التأمين ضد الحريق في آخن ، يقدم في ١٨٣٠ مذكرة الى الملك ، يطالب فيها بنظام دستوري مع برلمان منتخب بالاقتراع الضريبي. ويسهم في الاربعينات اسهاما نشيطا في بناء سكك الحديد . بعكس هانسيمان ، المصرفي لودولف كامبهاوزن يدافع عن مبدأ حرية التبادل . يؤسس الجمعية الراينية للقَطر النهري ، ويسهم ايضا بنشاط كبير في الاربعينات في بناء الخطوط الحديدية . متحولا منذ ١٨٤٣ عن اتجاهاته التقدمية التي كانت قد دفعته الى المساهمة في الصحيفة الراينية ، المصرفي الشاب غستاف مِفيسن يبدأ يلعب دورا هاما في الحركة الليبرالية .

في دوقية بادن الكبرى التي تتمتع بالدستور الاكثر ليبرالية ، الزعيم الرئيسي لليبرالية هو فريدريك دانيل باسرمان الذي هو ايضا ، كزعماء الاحرار في رينانيا ، يعارض كل اصلاح ديمقراطي واجتماعي .

٢ ـ الحركة الديمقراطية

الى جانب الحركة الليبرالية للبرجوازية الكبيرة تنمو حركة ديمقراطية

---

١ ـ **صحيفة كولونيا** بعد ان كفت عن تكريس نفسها للدفاع عن الاتجاه المناصر لبابا روما ، توجهت نحو الليبرالية ، مع هاينريش بروجمان الذي حل في ١-١٠-١٨٤٥ محل كارل آندريه كرئيس تحرير .

[الاتجاه الروماني الديني الكنسي **ultramontanisme** جملة أفكار مؤيدة لروما ضد نوازع الاستقلال للكنائس الكاثوليكية المحلية او القومية (وضد الدول والحكومات) وهو اتجاه تقليدي يميني متطرف . ولا بأس من التذكير بأن رينانيا منطقة كاثوليكية وانها من جهة اخرى المنطقة المتقدمة في بروسيا المتأخرة (انها تابعة لمملكة بروسيا منذ ١٨١٥) . انظر الجزء الاول من هذا المؤلّف] .

تساندها العناصر التقدمية من الطبقات الوسطى : الحِرفيين ، صغار الصناعيين والتجار ، وخصوصا الاطباء والمحامين والمثقفين ــ اساتذة ، كتّاب ، صحافيين ــ الذين تفترق مصالحهم واتجاهاتهم السياسية والاجتماعية اكثر فأكثر عن مصالح واتجاهات البرجوازية الكبيرة . بما ان الليبرالية تظهر لهم عاجزة عن تحقيق الاصلاحات الضرورية لتحسين شروط حياة الشعب ، فانهم يفكرون بأن اقامة نظام ديمقراطي مؤسس على السيادة الشعبية من شأنها هي وحدها ان تعطي حلا عادلا لكل المعضلات السياسية والاجتماعية، بخاصة لمعضلة الفقر paupérisme *.

الحركة الديمقراطية تنال دفعا قويا في الاربعينات بفضل كراسة الطبيب يوهان ياكوبي المعنونة **جواب على اربع اسئلة بقلم بروسي من الشرق** (١٨٤١) ، التي تلاقي صدى كبيرا ليس في بروسيا وحسب بل في كل المانيا . المراكز الرئيسية لهذه الحركة موجودة في كونجسبرغ ، هامبورغ ، ساكس ، سيليزيا ، برلين ، دقية بادن ، رينانيا .

محركوها في كونيجسبرغ ــ مرفأ بروسيا ــ الشرقية الكبير ، حيث تجارة تصدير الحبوب ناشطة جدا ــ هم الدكتور ويت ، مدير **صحيفة كونجسبرغ** ، وخصوصا يوهان ياكوبي ، الذي تتخذ مبادؤه الديمقراطية اعتبارا من ١٨٤٣ طابعا راديكاليا اكثر فأكثر . في كراساته (**بروسيا عام ١٨٤٥** ، و ، **القول الملكي لفريدريك غليوم الثالث** ، ١٨٤٥) ، ياكوبي يطالب بدستور ديمقراطي من شأنه ، بتعميم الحرية والمساواة ، أن يتيح تحقيق شروط انسانية لحياة الجميع بدون مس الملكية الخاصة والنظام البرجوازي بأذى . دعاوته موجهة ليس فقط للطبقات المتوسطة بل ايضا لرفاق الحِرف والعمال حيث تجد صدى واسعا . لكي يعطي عمله قاعدة أمتن ، يدخل في علاقات مع المراكز الديمقراطية الاخرى التي تبدأ تتشكل في كل ألمانيا ، الامر الذي يعمم الحركة الديمقراطية .

مرفأ هامبورغ الكبير ، وهو آنذاك مدينة حرة ، يشكل مثل كونجسبرغ مركزا نشيطا للحركة الديمقراطية مع مجلة **الفصول** وجريدة **التلغراف لالمانيا** ، التي ، بعد ان ترك غوتسكو قيادتها في ١٨٤٤ ، تتبنى اتجاها اكثر فأكثر راديكالية . الى جانب معضلات سياسية ، تهتم هاتان الصحيفتان بمسائل اجتماعية . وهما تفكران كما يفكر ياكوبي انها يجب ان تُسوّى بدمَقرطة الدولة . هذا الدفع الاكثر جذرية يعطيه لـ **التلغراف من اجل المانيا** رئيس تحريرها جورج شيرجس ، صديق فايتلنغ Weitling و ا. بيكر A. Becher ، الذي ينجح ، بالكيفية التيبها يعالج المسائل السياسية والاجتماعية ، في جعل هذه الجريدة احدى أهم أدوات الدعوة

[* حالة او منظومة الفقر او الافقار التي لازمت الثورة الصناعية والنظام الراسمالي . انظر الجزء السابق من هذا المؤلّف] .

للافكار الديمقراطية (٢) .

ايضا في ساكس ، وهي قطر مصنّع بشكل قوي يملك دستورا ليبراليـــا نسبيا ، الحركة الديمقراطية تساعدها الصحافة . بعد ان ساند في **حوليات هاله والحوليات الالمانية** اليسار الهيغلي ـ الشاب ، اوتو فيغان Otto Wigand ، وهو ناشر في لايبتسيغ ، يصدر في ١٨٤٤ و١٨٤٥ **مجلة فصلية** تتخذ طابعا ديمقراطيا متزايد الوضوح (٣) .

يسهم ايضا في تطور الحركة الديمقراطية في ساكس **رسول الحدود ، مجلة سياسية وأدبية ، والبريد الالماني ، لسان شعبـــي للحياة والنشـــاط العام ، و الاوراق الوطنية الساكسونية .**

ان رئيس المعارضة الديمقراطية في ساكس هو روبرت بلوم R. Blum وهو من مواليد كولن عام ١٨٠٧ ، وقد اقام سنة ١٨٣٢ في لايبتسيغ حيث يقود دعاية ديمقراطية نشيطة بمقالاته في **التلغراف من اجل المانيا** و **الاوراق الوطنيــة الساكسونية** وفي روزنامته الشعبية **الى الامام** التي يجعلها اللسان الرئيســـــي للمعارضة الديمقراطية في المانيا .

أستاذ التاريخ في جامعة لايبتسيغ ، كارل بيدرمان يساند ايضا هذه المعارضة. يناضل في مجلتيه ، **المجلة الشهرية الالمانية من اجل الادب** و **الحياة العامـــة و حاضرنا ومستقبلنا** ، في سبيل دمقرطة النظام ، ويعطي في دروسه لمحـــة موضوعية عن الحركة الاشتراكية .

في سيليزيا ، حيث كما في ساكس تأخذ صناعتا النسيج والمعادن انطلاقـا كبيرا ، تنمو حركة ديمقراطية ذات اتجاه اجتماعي أشد ، تساندها **صحيفة برسلاو و جريدة سيليزيا** و **أخبار سيليزيا** . المحركان الرئيسيان لهذه الحركة ، وهمـا فلهلم فولف Wilhelm Wolff الذي سينتقل قريبا الى الشيوعية و ادوارد بِلتس ، يقودان حملة قوية لصالح الاصلاحات الديمقراطية والاجتماعية .

في برلين ، التي هي آنذاك مع سكانها البالغ عددهم ٤٠٠,٠٠٠ أكبر مدينة

---

٢ ـ شيرجس عدا ذلك يصدر من ١٨٤٥ الى ١٨٤٧ في هامبورغ مجلة شهرية ثم فصلية [تصدر كل ثلاثة شهور] مخصصة للحرفيين ، واسمها **المشغل** . تقنيّة في البداية ، تتخذ فيما بعد طابعـا اجتماعيا متزايد الشدة .

٣ ـ **مجلة فيغان الفصلية** ، لايبتسيغ ، ١٨٤٤ ، جـ١ ، ص ٣ـ٨ : «فاتحة» بقلم اوتو فيغاند ، **المرجع نفسه** ، ١٨٤٥ ، جـ٢ ، ص ١٢٢ : «بيان ايمان» بقلم اوتو فيغاند .

نجد الاتجاه نفسه في **الكونتوار الادبي لزوريخ وفنترثور** بقيادة فروبل Froebel ، الـــذي ينشر حتى اختفائه في سنة ١٨٤٦ المؤلفات الممنوعة من قبل الرقابة فـــي المانيا وفي **كتاب الجيب الالماني** الذي يصدره فروبل في ١٨٤٥ و١٨٤٦ .

صناعية وتجارية في المانيا (٤) ، الحركة الديمقراطية ، الموجودة تحت وطأة بوليس وقضاء وبروقراطية ورقابة الحكومة الاكثر رجعية في المانيا ، تصطدم بصعوبات اكبر منها في الاماكن الاخرى .

رؤساؤها هيغليون — شباب قديمون . بينهم كارل ناوفرك Nauwerk الاستاذ المحاضر في جامعة برلين ، يملك التصور الاوضح عن المهمات المطروحة على الحركة الديمقراطية . منذ ١٨٤٤ ، يبرز في دروسه عن **تاريخ المذاهب الفلسفية الاساسية عن الدولة** ان الدولة الديمقراطية هي شكل الدولة الاكثر عقلانية . ان تحقيق هذه الدولة يتضمن الغاء الفقر ، الذي تقع مسؤوليته على المنظومة الرأسمالية ولامبالاة الدولة . في مقال بعنوان «المسألة السيليزية» (٥) ، يبيّن ان منظومة الفبارك تولّد بالضرورة البطالة والتسوّل والكحولية والبغاء ويدعو الدولة الى الغاء هذا الشكل الجديد للرق الذي هو البروليتاريا . يؤيد أطروحات مشابهة في سنة ١٨٤٦ في مجلته ، **المجلة الشهرية للسياسة** . ان أفكارا مماثلة تعرض من قبل روتنبرغ في **المجلة الشهرية للاقتصاد السياسي والحياة الاجتماعية** ، من قبل تيودور موجه في **المجلة الشهرية من اجل تربية الشعب** ، من قبل لودفيغ بوهل في كراس **سيطرة احتكار المال والارض في بروسيا** (مانهايم ، ١٨٤٤) وكراس **نظرات على بؤس الطبقة العاملة والمهمات المطروحة على الجمعيات لرفع وضعها** (برلين ، ١٨٤٥) ، وكذلك من قبل جورج يوليوس وإدوارد ماين وكارل فريدريك كوبن في مقالات مختلفة .

في دول جنوبي — غربي المانيا التي ليست مصنّعة، تتخذ الحركة الديمقراطية طابعا مختلفا ، لانها تستلهم جوهريا مبادىء الثورة الفرنسية . في أصل هذه الحركة ، هناك عيد هامباخ (١٨٣٢) وكذلك **قاموس الدولة** الصادر عن روتك وفيلكر (١٨٣٤) والذي يعرف نجاحا كبيرا جدا . مركزها الرئيسي هو دوقية بادن الكبرى . هنا تجد الحركة سندا قويا في الصحافة ، بخاصة في **صحيفة مانهايم المسائية** ، وفي البرلمان حيث مداخلات النواب الديمقراطيين لها صدى كبير في المانيا كافة .

اخيرا في رينانيا وفستفاليا وهما اكثر الاقاليم تصنيعا في المانيا ، تنمو حركة

---

٤ — برلين تعد في سنة ١٨٤٧ حوالي ٧٠٫٠٠٠ من عمال المانيفاكتورات والمصانع ، ومستخدمي التجارة والحرفيين والصنّاع . الحرفيون مبرلترون في كثير او قليل . ثلثا الخياطين ليس عندهم شغل كاف ، النجارة والقفالة تميلان الى فقدان طابعهما الحرفي . هناك حوالي ٣٣ فبركة لبناء الآلات تستخدم ٤٫٢٠٠ عامل — فبركة بناء قاطرات بورسيغ تستخدم وحدها ١٫٢٠٠ منهم — ٣٥ معمل نسيج حرير ، ٢٢ مانيفاكتورة منسوجات مطبوعة ، ١٧ فبركة منتوجات كيميائية ، ١٥ معمل لتكرير السكّر ، ٣١ فبركة ورق ومطابع ومعامل بيرة .

٥ — صدر في **مجلة فيغاند الفصلية** ، ١٨٤٥ ، جا ، ص ٢٨٢ وبعدها .

ديمقراطية تتميز باتجاه اجتماعي مشدد على نحو خاص . قادتها الرئيسيون عاملون سابقون في **الصحيفة الراينية** : القاضي جورج يونغ ، المحامي يوسف ج. كومبس، الطبيب كارل لودفيغ دِستر ، الكاتب إغناتس برجرس . الاتجاه الاجتماعي الذي أعطاه ماركس **للصحيفة الراينية** والذي بُسط وأُنمي اثناء المناقشات الحاصلة في الحلقة الدراسية التي كان ماركس يشارك فيها ، يتشدد تحت تأثير الهياج الذي اثارته ثورة عمالِ النسيج . حلقة الديمقراطيين تتوسع عندئذ بانضمام اعضاء جدد ، مثل ب. رافو ، يميلون نحو الاشتراكية ، وانضمام ضباط ، مثل فريدريش آنيكه ويوزف فايدمير وأوغست فيليش ، يتوجهون نحو الشيوعية ولا يلبثون ان يتخلوا عن المهنة العسكرية .

ان تحريض الديمقراطيين يتمركز في البداية في الجمعيات من اجل رفع الطبقة العاملة ، حيث يقترحون ، مثل دستر و يونغ في كولن ، اجراءات جذرية لالغاء الفقر . تحت فعل اشتداد النضال العمالي ، يحصل بينهم انفصال ، فالاكثر اعتدالا مثل يونغ يبتعدون عن الشيوعية ، بينما آخرون مثل دِستر و فايد ماير يميلون اكثر فأكثر نحوها .

٣ ـ الاشتراكية «الحقة»

ان طابع الحركة الاشتراكية في ألمانيا محدد جوهريا بحالة البروليتاريا الالمانية ونضالاتها . ان انعطافا حاسما في هذه النضالات تسمه انتفاضة عمال الحياكة السيليزيين في حزيران ١٨٤٤ . فمعها يبدأ النضال الطبقي الواعي للبروليتاريا الالمانية ضد الرأسمالية التي تستغلها والدولة التي تضطهدها .

هذا التمرد ليس فقط ذا اهمية رئيسية بالنسبة لتطور نضال البروليتاريا الالمانية ، بل هو ايضا يفرض على الحكومات ، بخاصة الحكومة البروسية ، وعلى البرجوازية الكبيرة ، ان تعيد النظر في موقفها ازاء الطبقة العاملة . اذ فاجأتها هذه الانتفاضة واذ هي قلقة لصدأها في كل السكان ، الحكومة البروسية تتظاهر بالعكف على مصير البروليتاريا . في نداء مُطنب ، فريدريك غليوم الرابع يدعو كل الناس العطوفين الشجعان الى العمل على رفع شروط حياة العمال ، الذين كان لتوّه قد امر بذبحهم وحبسهم . يفعل ذلك بقصد مزدوج : تدارك كل تمرد بواسطة تدابير احسانية ، وإلقاء مسؤولية بؤس الطبقة العاملة على البرجوازية .

هذه الانتفاضة لها ايضا تأثير كبير على موقف البرجوازية الكبيرة ازاء البروليتاريا . حريصة كالحكومة على ايقاف هياج الطبقة العاملة الخطر ، تشارك في البداية مشاركة نشيطة في خلق جمعيات لصالح العمال ، ولكن مع تصميمها على حصر مساعدتها في أعمال خيرية . هذه الانتفاضة تقودها في الوقت نفسه الى تغيير موقفها تدريجيا من الحكومة البروسية . تبقى مقتنعة بأنها لا تستطيع ان

تحقق ظفر مصالحها الطبقية الا بنضال ضد نظام ما زال نصف ـ اقطاعي ومطلقا استبداديا ، ولكنها تدرك ايضا ان دعم هذه الحكومة ضروري لها لسحق التمرد البروليتاري ، وأنها بالتالي يجب ان لا تدفع نضالها ضدها الى النهاية . من هنا موقفها السياسي المتناقض .

بخلاف البرجوازية الكبيرة ، الطبقات الوسطى ، المفقَرة اكثر فأكثر على يد مزاحمة المانيفاكتورات والفبارك والمضطهَدة من قِبل الحكومات الرجعية ، تميل الى الاقتراب من الطبقة العاملة ، ولكنها بما انها متعلقة بمنظومة الملكية الخاصة فهي تعارض تحويل المجتمع تحويلا جذريا بالطريق الثوري وتفكر ان أفضل وسيلة لحل المسألة الاجتماعية هي دمقرطة الدولة .

اخيرا ان ثورة الحيَّاكين تمارس تأثيرا مقررا على تطور الاشتراكية والشيوعية في المانيا .

الاشتراكية **الحقة** ، الشكل النوعي الذي ترتديه الاشتراكية في المانيا من ١٨٤٤ الى ١٨٤٨ ، تولد في اللحظة التي فيها ثورة حيَّاكي سيليزيا تضع مسألة الفقر في امر اليوم .

انها جوهريا من صنع مثقفين ديمقراطيين متوجهين نحو الاشتراكية . بما انه لا يوجد آنذاك في المانيا ، بخلاف انكلترة وفرنسا ، لا بروليتاريا قوية ، ولا برجوازية صغيرة ثورية ، وهما تؤلفان في البلدين المذكورين القاعدة الاجتماعية للشيوعية والاشتراكية ، فان الاشتراكية الالمانية تتخذ طابعا فكريا ـ ثقافيا بصورة جوهرية .

مثل ماركس وانجلز في بداية توجههما نحو الشيوعية ، الاشتراكيون «الحقيقيون» يذهبون في انضاج تصوراتهم من انسانوية فويرباخ . ولكن بينما ماركس وانجلز لا يلبثان ان يرمياها ، هم لا يستطيعون الخروج منها . في **نقده** المسيحية ، كان فويرباخ قد بيَّن ان الانسان يخلق الله بتخريجه فيه صفاته النوعية ـ العامة **génériques** . من جراء خلع هذه الصفات ، يصير الانسان فردا معزولا وأنانيا وبذلك عينه لا انسانيا . لكي يعود حقا انسانيا ، يلزمه ، على حد قول فويرباخ ، بإلغاء الدين أن يسترجع الصفات المخلوعة في الإله . من هذا النقد للدين يُخرج في سنة ١٨٤٣ ، في **الاطروحات الموقتة لاصلاح الفلسفة** وفي **مبادىء فلسفة المستقبل** ، مذهب الانسية المؤسسة على تصور انتروبولوجي [انسانولوجي] للانسان والمجتمع ، الامر الذي يسوقه الى اعطاء حل مثالي للمشكلات الاجتماعية .

من إنسية فويرباخ ، هس يستمد في مقاله «عن جوهر المال» (١٨٤٤) مذهبا شيوعيا ، بتبيانه ان الاستلاب الديني ما هو الا انعكاس الاستلاب الواقعي للجوهر الانساني الذي يحصل ، في منظومة الملكية الخاصة ، بواسطة المال . في مقال آخر «اعلان ايمان شيوعي بأسئلة وأجوبة» (١٨٤٤) ، يبيِّن ان الفاعلية الانسانية، عنصر حياة البشر الجوهري ، تصير ، في هذه المنظومة ، بالنسبة للعمال ، فاعلية

منخلعة ؛ ان نتاج شغلهم يتحول الى سلع ليست ملكا لهم وتصير لهم باتخاذها شكل المال أداة هيمنة واضطهاد .

لتحرير البشر من قبضة المال واعطاء حياتهم وفاعليتهم من جديد طابعا انسانيا ، يجب ان تَحلّ محل النظام الرأسماليّ منظومة شيوعية ستحذف التزاحم والانانية . في مقالاته الاخرى (٦) ، هس يَكبّ على عرض هذه الافكار عرضا اكثر تفصيلا . على حد قوله ، ان مأثرة فويرباخ هي كونه ساعد البشر ، بنقده الدين ، على وعي طبيعتهم الحقيقية (٧) ، نقيصته هي كونه لم ير ان الجوهر الانساني مكون من عمل البشر الجماعي في المجتمع ، من هنا تصوره للانسانوية المفرط في العمومية والتجريد . للوصول الى تصور للانسية أصح يكفي ان نطبق المبادىء التي أرشدت فويرباخ في نقده للدين على نقد المجتمع البرجوازي (٨) .

هكذا فقط يمكن أن نصل الى تصور صحيح للمسألة الاجتماعية ولحلها ، وهذا ما لم يبلغه الفرنسيون ، لانهم لم ينظروا الا الى الجانب العملي في مسألة الانخلاع، دون ان يعتبروا في الوقت نفسه وجهها النظري (٩) .

منطلقا من فكرة ان الفاعلية الحرة ، التي تجمع في نفسها العمل واللذة ، هي وحدها تتيح للانسان ان يحقق جوهره ، يفكر هس ان هذه الفاعلية في النظام الرأسمالي تجعل مستحيلة بحكم ان السعي وراء الربح والتزاحم يحوّلان البشر الى أفراد منعزلين وأنانيين (١٠) . من هنا انفصال الشغيل عن نتاج شغله ، تحوّل هذا الاخير الى سلع والى مال ، و ، بحكم المال ، نزع انسانية البشر المنزلين الى مرتبة حيوانات (١١) .

---

٦ ــ انظر مصير الانسان ، صدر في مجلة **الناطق او الفاضح الرايني الفستفالي** (العدد ٥٠ ، ٢٢ـ٦ـ١٨٤٤) .

التقدم والنمو ، الحركة الاشتراكية في المانيا ، صدرا في مجلة **الوقائع الجديدة** (١٨٤٥) .

خطابان عن الشيوعية ، صدرا في مجلة **الحوليات الراينية عن الاصلاح العام** (١٨٤٥) .

عن البؤس في مجتمعنا وعن وسائل علاجه ، صدر في مجلة **كتاب المواطن الالماني** (١٨٤٥) .

هذه المقالات منقولة في : **ا. كورنو و ف. مونكه** : موزس هس ، الكتابات الفلسفية والاشتراكية ، ١٨٢٧ ــ ١٨٥٠ ، برلين ، اكاديمي فرلاغ ، ١٩٦١ .

٧ ــ انظر **م. هس** : الحركة الاشتراكية في المانيا ، **ا. كورنو و ف. مونكه** ، ص ٢٩٢ .

٨ ــ انظر **م. هس** : الحركة الاشتراكية ... ، **المرجع نفسه** ، ص ٢٩٣ .

٩ ــ **م. هس** : التقدم والنمو ، **المرجع نفسه** ، ص ٢٨٣ .

عن البؤس في مجتمعنا ووسائل علاجه ، **المرجع نفسه** ، ص ٣٢٣ .

١٠ ــ التقدم والنمو ، **المرجع نفسه** ، ص ٢٨٣ .

مصير الانسان ، **المرجع نفسه** ، ص ٢٧٥ .

١١ ــ **م. هس** : عن البؤس في مجتمعنا ووسائل علاجه، **المرجع نفسه** ، ص ٣١٣ : الانانية أكملت

فقط بالغاء هذا النظام واقامة نظام شيوعي سيحذف مع الملكية الخاصة تزاحم وأنانية وعزلة البشر والصراعات التي تضع بعضهم ضد بعضهم الآخر ، ستجتمع شروط تعاون حر وأخوي ، ضروري لتحقق كينونتهم الحقيقية .

بما ان عيوب المجتمع الحاضر ليست من صنع الافراد بقدر ما هي من صنع الظروف ، لذا فان الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية سيحصل بكيفية سلمية ومتدرّجة عن طريق تنظيم الشغل والتربية والتعليم وبتعميم الاخاء والحب (١٢) .

جاعلا هكذا من الشيوعية تحقيق انسانوية عاطفية ، يدع هس نفسه يسير في اعتبارات غامضة عن مصير وغاية الانسان ، مصحوبة بمواعـــظ ونبوءات صاحب رؤيـــا (١٣) .

يشرع هس في نشر مذهبه في رينانيا ، بصورة رئيسية في كولن Cologne حيث يقيم بعد رجوعه من باريس في أوائل ١٨٤٤ . بفضل الاهتمام الذي توقظه آنذاك مسألة الفقر والتحريض القائم حول هذه المسألة على يد الجمعيات الرامية

دورتها ، وجدت تحققها الكامل المثالي في التزامم الذي هو شكلها الكلاسيكي ، ص ٣١١ .

عن جوهر المال ، **المرجع نفسه** ، ص ٣٣٣ .

خطابان عن الشيوعية ، **المرجع نفسه** ، ص ٢٥٠ .

١٢ ـ خطابان عن الشيوعية ، **المرجع نفسه** ، ص ٣٥٩ .

عن البؤس في مجتمعنا ... ، ص ٣١٨ .

التقدم والنمو ، ... ، ص ٢٨٤ .

ايمان شيوعي بواسطة اسئلة وأجوبة ، ... ، ص ٣٦٥ : «هل من الضروري حذف الملكيـــة الحاضرة ، المال ، بمرسوم ؟ ـ هذا ليس ضروريا ولا ممكنا . شكل الملكية الراهن سيتحول تدريجيا الى ملكية شيوعية . ان شكلا للملكية عقلانيا يفترض شكلا للمجتمع عقلانيا ، يفترض مسبقا بدوره بشرا مثقفين ، بحيث ان التحول المفاجيء لشكل الملكية غير العضوي الى شكل عضوي يظهـــر مستحيلا . »

عن البؤس في مجتمعنا ووسائل علاجه ، ... ، ص ٣١٥ : «**تنظيم التربية والعمل** ، هذا مـا يجب علينا ان نحله محل أسلوب حياتنا السماوية والارضية الراهن» ، ص ٣١٨ .

عن جوهر المال ، ... ، ص ٣٣٤ : «الحب ، حيثما يظهر ، يتبين اقوى من الانانية» .

١٣ ـ خطابان عن الشيوعية ، ... ، ص ٣٥٢ .

مصير الانسان ، ... ، ص ٢٧٧ .

عن البؤس في مجتمعنا ... ، ص ٣٢٠ : «نعم ، نريد ان نعيد للبشرية إلهها ، سلطانها المنخلع وكينونتها المستلبة ... نعم ، نعتقد ان البشر لهم مصير اعلى من المصير الكائن في استغلالهم المتبادل. قيل لكم انه من الممكن ان يخدم المرء سيدين في آن ، الله والمال ، ولكن نحن نقول لكم ان ليس لنا ان نخدم أيا منهما ، اذا كانت لنا افكار ومشاعر انسانية ... لا نريد ان نمارس تجاهكم وظائـــف قاضٍ ؛ الزمن هو الذي سيحاكمكم وسينفّذ حكمه ، حكما سينزل بكم كدينونة الديان» .

الى انهاض الطبقة العاملة ، يجد هس عددا متزايـــدا من الانصار بين المثقفين المجذوبين نحو الاشتراكية . هؤلاء ينشرون أفكاره بنشاط ، والاشتراكيــة **الحقة** تنتشر بسرعة في كل المانيا . منطلقين من واقع ان تطور الرأسمالية يسير جنبا الى جنب مع تطور بؤس الشعب ويؤدي ، بانقسام المجتمع المتزايد الشدة الى طبقتين متنافيتين ، طبقة المالكين وطبقة غير المالكين ، الـى الصراع بين البرجوازيـــة والبروليتاريا (١٤) ، الاشتراكيون **الحقون** ينكرون ان هذا الصراع يمكن تجنبه فيما اذا اعطينا كل البشر وعي طبيعتهم الانسانية ، الامر الذي سيؤدي الى تآخيهم .

مُمَثلِنة هكذا المسألة الاجتماعية كما يفعل هس ، الاشتراكية **الحقة** تعيد مثله حلّها الى اخذ البشر وعي طبيعتهم الحقة ، الذي يجب ان يحصل بتطور التربية والتعليـم .

متجاوزين هس في تصورهم المثالي للاشتراكية ، يعزون اكثر منه ايضا وضع البشر اللاإنساني الراهن لا الى المنظومة الرأسمالية بوصفها كذلك بل الى احـــد وجوهها الخاصة ، الى المزاحمة التي ليس أثرها الاول بالنسبة لهم بؤس الطبقات الكادحة بقدر ما هو تعمُّم الانانية والعزلة اللتين تصيبان جميع البشر (١٥) .

من هذا التصور لدور وآثار المزاحمة ينبع عند الاشتراكيين **الحقّين** الحـل الطوباوي المعطى للمسألة الاجتماعية بإلغاء المزاحمة الذي بحذفه الانانية يعيد الى البشر صفتهم البشرية . ان تحول المجتمع يجب ان يحصل ، على حد تفكيرهم ، بالتحقق العملي للانسية الذي هو الشيوعية (١٦) .

---

١٤ ـ انظر **ل. (أو. لوننغ)** ، نظرات على الحاضر ، في صحيفة **باخرة فستفاليا** ، ١٨٤٥ ، جـ١ ، ص ٢٩٩ : «الرأسمال الكبير يلتهم اكثر فأكثر الرأسمال الصغير ... ينجم عن ذلك بالضرورة ان المزاحمة الحرة لا تترك في النهاية سوى ثروة هائلة من جهة وبؤس هائل من الجهة الاخرى وأن المجتمع ينشطر هكذا حتما الى معسكرين ، جماعة صغيرة من المالكين وجمهور لا يُعدّ من غـــير المالكين » .

١٥ ـ انظر ل. **(أو. لوننغ)** ، الاجر وطاقة العمل ، **في باخرة وستفاليا** ، ١٨٤٥ ، ص ١٦٧ : «الفكر المهيمن في المجتمع **الراهن** هو **الانانية** ، شكل هذا المجتمع هو **العزلة** ، العداء القائم فيما بين **الافراد** ، مبدأه هو : **كلٌ لنفسه وكلٌ ضد الجميع** . التعبير الكلاسيكي لهذا الفكر هو ... **التنافس الحر** الذي يؤلف ذروة الانانية وحدّها الاخير .»

١٦ ـ انظر الانسية والشيوعية ، في **باخرة فستفاليا** ، ١٨٤٦ ، ص ٤٥٨ : «الانسية لا تستطيع ان تحرر الانسانية ما لم تحذف البروليتاريا والبروليتاريا لا يمكن ان تحذف ما لم يحذف مبـــدأ المجتمع الراهن ، العزلة . فاذا ارادت الانسية ان يكون لها حظوظ في النجاح عليها ان تتحول الى شيوعية ؛ على الانسي ان لا يحصر عمله في نضال من اجل الحرية الروحية ، عليه ايضا ان يجهد لتحقيق الحرية المادية ، لحذف البؤس الذي يثقل كاهل الشعب والشروط الاجتماعية اللاأخلاقية التي تجعل مستحيلا تطور الروح .»

هذا التحقق سيحصل باجتماع او تآلف متزايد الوثوق بين البشر سيمكّن من اقامة تنظيم عقلاني للشغل ، التنظيم الذي هو ، في نظر الاشتراكيين **الحقّين** كما في نظر كل الاشتراكيين الاصلاحيين آنذاك ، حجر الزاوية لكل تحويـــل اجتماعي . بحذفه المنافسة والانانية ، سيعطي الشغل طابعا انسانيا حقا ، جاعلا اياه مصدر فرح ومجددا هكذا الحياة الانسانية (١٧) . تنظيم الشغل ، الـــذي يعتبرونه كالانانية والاجتماع او الاشتـــراك من وجهة نظر مطلقة ، يتصـــوره الاشتراكيون **الحقّون** تصورا اكثر خيالية ايضا من تصور الاشتراكيين الفرنسيين، اذ ، بدلا من ان يحللوا شروطه وآثاره الواقعية ، يجدون فيـــه كما في الاجتماع والحب العصا السحرية الكفيلة بحل جميع المشاكل الاجتماعية (١٨) .

هذا التصور المثالي للمسألة الاجتماعية يعلّل موقف الاشتراكيـــة **الحقة** ازاء الليبرالية وإزاء الاشتراكية على حد سواء .

بخلاف ماركس وانجلز اللذين لا يدينان الليبرالية بشكل مطلق ، معتبَريـــن انها تلعب آنذاك دورا ايجابيا بنضالها ضد الاقطاعية والحكم المطلق ، الاشتراكيون **الحقّون** يرفضونها بشكل قطعي ، لانها موجهة ضد الطبقة العاملة وخصوصا لانها تقوّي أنانية البشر وعزلتهم (١٩) .

ازاء الاشتراكيين الفرنسيين ، يُظهر الاشتراكيون **الحقون** الصلف والعجرفة، آخذين عليهم عجزهم عن الارتفاع بواسطة الانسية الى سمو النظر الفلسفي الذي هو وحده يمكّن من اعطاء المسائل الاجتماعية حلها الحقيقي .

---

١٧ – انظر **دكتور كونيغ** ، أفراح وأتراح الشغل ، في **مرآة المجتمـــع** ، ١٨٤٥ ، ص ٤٣ . «اللذة التي لا يرافقها العمل لا تسمح بالتمتع بالحياة حقا ، والشغل الذي لا ترافقه اللذة لا يشكل الفاعلية الانسانية الحقيقية .»

١٨ – انظر **او. لونغ** ، الاجر وطاقة الشغل ، **في باخرة فستفاليـــا** ، ١٨٤٥ ، ص ١٦٧ : «الفكرة المهيمنة في المجتمع **المقبل** هي **الحب** ، **الاخلاص** ، شكله هو **الاجتماع** ، **الاشتراك** ، **الاتحاد الاخوي** ، **العمل الجماعي** ، مبدأه : **كل واحد للجميع والجميع لكل واحد** . تحت هذه الراية فقط سيكون ممكنا تحقق سعادة متساوية ومنسجمة لجميع البشر ، وجود مرضٍ لكل فرد» .

١٩ – انظر الحالة الاجتماعية في العالم المتمدن ، **في مرآة المجتمع** ، ١٨٤٥ ، **العدد ١** ، ص‌ص ٢ و٣ : «الليبرالية السياسية ، التي ، في حضرة البؤس الروحي والمادي للشعب ، البؤس الذي يبلغ ذروته في الدول الاكثر حرية حيث يزدهر الربح ، تبقى أمينة لاوهامها بمواصلتها جهودها الفارغة والعقيمة لالغاء الشرور الاجتماعية ، لا يمكن الا ان تثير القرف ...

ما زالوا يرفضون ان يروا ان المزاحمة الحرة والربح الشخصي وغياب الشغل المنظّم والعلاقات الاجتماعية المضبوطة جيدا وتربية عقلية هي وحدها الاسباب الحقيقية لكل شرورنا الاجتماعية . ما زالوا يعتقدون انه من الممكن حذفها بمؤسسات سياسية وتدابير بوليسية وبالقوانين لصالح تطور الصناعة والتجارة» . انظر **ل. (لونغ)** ، أحداث العالم ، في **باخرة فستفاليا**، ١٨٤٦ ، ص ٢٥٥ .

هكذا ينساق الاشتراكيون **الحقون** ، مثل جميع الطوباويين ، الى نقل هذه المعضلة على صعيد نظراني والى اعتبار ان التطور الاجتماعي محدد جوهريا من قبل التطور الروحي . من هنا جهودهم لاقناع البشر بسمو مشاريعهم ، حيث ان هذا الاقتناع كافٍ لتحقيقها . ومن هنا ايضا الاهمية الأولية التي يعلقونها على الصراع الروحي ، على وعي البشر الحقيقة (٢٠) ، على التربية والتعليم اللذين بفضلهما سيكون ممكنا تحقق الشيوعية بكيفية سلمية. بما ان الاشتراكيين **الحقين** يدينون استعمال العنف الذي يعتبرونه نافلا ولا جدوى فيه (٢١) ويوجهون نداءهم الى العقل والحب لتحقيق الشيوعية ، فالمعضلات الاجتماعية تفقد عندهم طابعها الطبقي ، والكفاح الاجتماعي يتقلص جوهريا الى صراع ايديولوجي المستنيرين ، يعلل كون الاشتراكيين **الحقين** يتوجهون ، في دعاوتهم ، بالدرجة الاولى لا للبروليتاريا ، وهي ما تزال في مجملها فظة ، بل للبرجوازية المثقفة التي تظهر لهم أجدر بتحقيق الاصلاحات الاجتماعية (٢٢) .

عن ندائهم الدائم الى العقل وأكثر ايضا الى قوة الحب السحرية لحل المعضلة الاجتماعية ينجم ميلهم الى الكلامولوجيا ، الذي يتناسب عكسا عند كل واحد منهم مع استعداده لتحليل الوقائع الاجتماعية (٢٣) . بهذا يتمايز الاشتراكيون **الحقون** بعضهم عن بعض ، لدرجة انه يمكن اقامة نوع من سلّم يذهب من الذين يستندون في تصوراتهم الى معرفة للعلاقات الانسية . بينما يسعى بعضهم ، مثل فايدماير وهس ، الى تأسيس تصوراتهم ، على الاقل بقدر ما ، على تحليل الوقائع،

---

٢٠ ــ انظر ل. (لوننغ) ، نظرات على الازمنة الحاضرة ، في **باخرة فستفاليا** ، ١٨٤٥ ، ص٦٢ : «في وعي [وجدان] البشرية يجري الان قتال اهم وأغنى بمآثره من حملات **نابوليون** العسكرية الجبارة. **الروح** هو الذي يخوض الان المعارك ، امام سيفه تسقط الاباطيل التي كانت تنوء بكلكلها على البشرية وتتحول الى غبار ، تحت نفخته يقرقع العالم القديم بأسره وينهار» .

٢١ ــ **ل. (لونينغ)** ، من اجل العام الجديد ، في **باخرة فستفاليا** ، ١٨٤٥ ، ص ١٥١ : «زمن التمردات قد ولى . المسائل التي تخض الان العالم تطلب تحليلا دقيقا ومتعمقا من قبل الروح الانساني . العقدة الفوردية يجب ان تُفك لا ان تقطع بالسيف» . [«العقدة الفوردية» قطعها الاسكندر بسيفه] .

٢٢ ــ **او لونينغ** ، حالة الطبقة العاملة في انكلترة ، في **كتاب المواطن الالماني** ، ١٨٤٦ ، ص ٢٤٤ : «فلتتخلَّ البرجوازية عن الاحكام المسبقة التي تجعلها طبقة خاصة . اذ فقط حين سيكون التعارض بين البروليتاريا والبرجوازية قد وجد حله الصحيح في مفهوم الانسانية الذي هو مفهوم اعلى ، فقط حينئذ سيكون ممكنا اجتناب أهوال ثورة» .

٢٣ ــ **الحوليات الراينية من اجل الاصلاح الاجتماعي** ، ١٨٤٦ ، ص ١٤٩ : «**الحب** ! هذا هو أفضل الدروع . **الاتحاد** ! اذا ما كانت هذه الكلمة السحرية محفورة بأحرف من لهب في صدوركم، لن يكون عليكم الا ان تطلقوا بجرأة صيحة انتصار ، والارض ، أمّنا ، سترتجف فرحة في أسسها» .

يستسلم الآخرون ، خصوصا او. لونِنغ ، هـ. بتمان ، وبالاخص ك. غـــــرون K. Grun ، لشطحات خالصة .

اوتو لونِنغ Otto Luening (١٨١٨ ــ ١٨٦٨) ، طبيب في ريدا في فستفاليا يكتفي بالتعليق في مجلته **باخرة وستفاليا** على حوادث اليوم من وجهة نظر انسية عاطفية .

هرمان بُتمان Hermann - Buettmann (١٨١١ ــ ١٨٧٤) ، الذي اعتنـــــق الاشتراكية **الحقة** على يد هس ، شأنه شأن لونِنغ ، يتلذذ ايضا ، في المجلتين اللتين ينشرهما ، **كتاب المواطن الالماني والحوليات الرينانية من اجل اصلاح المجتمع** ، في كلامولوجيا إنسية (٢٤) .

هذه الجمل تبلغ ذروتها عند كارل غرون (١٨١٧ ــ ١٨٨٧) . بعد طرده من دولة بادن عام ١٨٤٢ بسبب الاتجاه الراديكالي المعطى **لصحيفة مانهايم المسائية** ، يعطي بادىء بدء مقالات ذات اتجاه فورييري لـ **صحيفة ترير** [تريف] ولـ **مجلة فيزل الاسبوعية** ، ثم يمدد في مقالات سطحية ولامعة وفي كتبه ، **الحركة الاجتماعية في فرنسا وفي بلجيكا** (١٨٤٥) ، **غوته منظورا اليه من وجهة النظر الانسانيـــــة** (١٨٤٦) ، الاطروحات الانسانوية في أسلوب المسلسل الصحفي (٢٥) .

شأنهم شأن كتّاب **المانيا الفتاة والهيغليين ــ الشباب** ، الاشتراكيون **الحقون**، الذين لا يستطيعون الاعتماد على طبقة اجتماعية ذات بأس ، ليس لهم او تقريبا من اجل دعايتهم وعملهم سوى الصحافة وهم هكذا مضطرون مثل هؤلاء الـى خوض الكفاح بصورة رئيسية على الصعيد الايديولوجي . صحافتهم تتألف بشكل خاص من مجلات ، بما انها تزيد عن ٢٠ ورقة فهي لا تقع تحت الرقابة .

المجـــــلات الرئيسية هي : **مرآة المجتمع ، باخرة وستفاليا ، كتاب المواطن الالماني ، الحوليات الراينية لاصلاح المجتمع ، والوقائع الجديدة** (٢٦) .

هذه المجلات تستلهم في دعايتها بصورة رئيسية كتـاب فر. انجلز عن **حالة**

---

٢٤ ــ انظر **هـ. بتمان** ، بعد الطوفان ، **الحوليات الرينانية لاصلاح المجتمع** ، ١٨٤٦ ، ص٢٢٦.

٢٥ ــ انظر **ك. غرون** ، مقدمة مجلة **الوقائع الجديدة** ، ١٨٤٥ ، ص‌ص ٦ و٧ : «من جهة اخرى، ثمة في المانيا تباشير ادب جديد ، ادب فتيّ ، جديد ، لانه يحوي علم ما هو جديد ، علم نظام جديد، فتيّ ، لان هذا العلم يدعو الى تصفية الانانية الهرمة المهترئة واقامة تجديد للمحبة الانسانية بجمال حياة اجتماعية حقيقية . ليس الامر هنا لمعانا ، فضيحة ، زمرة ، حذلقات ، بل ان نستخلص بوعي ووجدان كل نتائج الفلسفة الالمانية التي ستعطي الجياع الخبز الذي سيجعلهم يعيشون من جديـــد والظمآى الخمر الذي سيعزّيهم . القضية علمٌ ليس هو فقط على علاقات وثيقة مع الحياة وهـــو انعكاسها بل يصير هو نفسه حياة بتماسّه معها ، القضية هي تحويل العلم الى حياة» .

٢٦ ــ لن ندرس هنا **الوقائع الجديدة** لكارل غرون ، فهي بما انها مؤلفة من مقالات منعتها الرقابة عام ١٨٤٤ أقل اهمية بالنسبة للطور الذي ندرسه هنا .

الطبقة العاملة في انكلترة ، الصادر في ايار ١٨٤٥ . في هذا الكتاب ، حيث كان يصف بشكل لافت للانتباه بؤس البروليتاريا الانكليزية الرهيب ، كان انجلز يبين ان هذا البؤس هو النتيجة الحتمية لتطور الثورة الصناعية التي سببت باستفحال التزاحم بين العمال انخفاضا دائما في الاجور وتمديدا متزايدا ليوم الشغل . كان يُبرز في الوقت نفسه ان تفاقم البؤس يقود حتما باشتداد الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا الى ثورة شيوعية .

هذا التحليل لوضع البروليتاريا الانكليزية يُتخذ نموذجا من قِبل صحافة الاشتراكية **الحقة** في وصفها لشروط حياة البروليتاريا الالمانية . بحكم اتجاهها الى الطوباوية وكذلك خشية ملاحقات تجعل من البداية وجودها معرضا للخطر ، هذه الصحافة لا تبين بوضوح يساوي وضوح انجلز ان بؤس البروليتاريا هو العاقبة الضرورية للراسمالية وخصوصا لا يخلصون مثله الى ان هذا البؤس سينجب حتما ثورة اجتماعية .

ان مجلات الاشتراكية **الحقة** تُظهر فيما بينها فوارق مردها الكيفية التي بها تعالج المسألة الاجتماعية .

مرآة المجتمع ، مجلة للدفاع عن الطبقات غير المالكة ولشرح الحالة الاجتماعية الحاضرة ، الصادرة عن هس في ١٨٤٥ و١٨٤٦ ، هي الاقرب الى الطبقة العاملة. برنامجها يعرضه هس على النحو الآتي في «مقدمة» : «كي نجد ونطبق وسائل مداواة الادواء المعقدة والمحجوبة في أحيان كثيرة التي يقاسي منها مجتمعنا مداواة جذرية ، من الضروري قبل اي شيء ان نتعلم معرفتها . لذا فان **مرآة المجتمع** ستسعى الى كشفها واقفة على ارض الوقائع . سنهتم قبل كل شيء بحالة الطبقة العاملة ، التي نصيبها هو من بين جميع شرور مجتمعنا الراهن أشدها صراخا . سنعتبر حالة العمال الروحية والثقافية والاخلاقية كما سنعتبر وضعهم المادي . فضلا عن حالة الطبقات غير ـ المالكة سنصف حالة الطبقات المالكة . سنبيّن بالوقائع ان التزاحم الحر في الحصول على الخيرات ، في غياب تنظيم للشغل والعلاقات الاجتماعية ، يفقر الطبقات الوسطى بتركيزه الملكية في أيدي أقلية وباعادته هكذا بصورة غير مباشرة احتكار هذه الملكية ، وأن الصراع المتولّد من المزاحمة والذي نحن مساقون اليه يزعزع أسس مجتمعنا ويخرب أخلاقه ومعنوياته بانفلات الانانية» (٢٧) .

هذا البرنامج يلهم المقال الاساسي في **مرآة المجتمع** وعنوانه «الحالة الاجتماعية في العالم المتمدن» ، حيث نجد عرضا لشروط حياة البروليتاريا الالمانية والانكليزية والفرنسية والبلجيكية ، مع ملحوظات لا عد لها تُظهر بالتفصيل بؤس البروليتاريا الالمانية الذي لا يوصف . ولئن كان هذا الوصف لحالة البروليتاريا يستهدف ايقاظ الوعي الطبقي للعمال الالمان وشحذ ارادتهم النضالية ، فان

---

٢٧ ـ الى قراء ومعاوني «**مرآة المجتمع**» ، مرآة المجتمع ، ١٨٤٥ ، الملزمة ١ .

الاعتبارات النظرية بالمقابل بعيدة عن ان تساوي اعتبارات انجلز . بالفعل لا نجد هنا تحليلا واضحا ومتعمقا كما عند انجلز لاسباب بؤس البروليتاريا بوصفه نتيجة انبساط الثورة الصناعية ، ولا بشكل خاص منظور الثورة الشيوعية المحتومة بوصفها عاقبة وتتمة استفحال الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية . من هنا الاستنتاجات المثالية التي يخلص اليها هس الذي يصل الى تأييد ان مسؤولية بؤس الطبقة العاملة لا تقع على المنظومة الرأسمالية بقدر ما تقع على نقص فهم الطبقات المالكة والذي يستنجد بالبرجوازية المستنيرة لحل المعضلة الاجتماعية(٢٨).

رغم نقاط ضعفها ، كان لـ **مرآة المجتمع** مأثرة كونها تعرض ، لاول مرة في المانيا ، بكيفية واضحة دقيقة وتفصيلية ، حالة الطبقة العاملة وتنور هذه الطبقة عن شروطها الحياتية ومصالحها الطبقية ، مما يفسر كونها تحوي من تركيب الجمل الانسانوي أقل مما تحويه المجلات الاخرى .

باخرة فستفاليا الصادرة عن اوتو لوننغ من ١٨٤٥ الى ١٨٤٨ هي من بين مجلات الاشتراكية **الحقة** أقربها من حيث اتجاهاتها الى **مرآة المجتمع** . تفضح مثلها بؤس الطبقة العاملة جاذبة الانتباه الى الضرورة الملحة لحل المعضلة الاجتماعية. ولكنها تسعى في الوقت نفسه ، اكثر منها بكثير ، الى كسب البرجوازية المستنيرة لقضية الاشتراكية ، وهذا يفسر القسط الاوسع الذي تقيمه للحركة الليبرالية والديمقراطية . هذا الاتجاه المزدوج يميز مقالات الاساس التي يكتبها لوننغ عن «أحداث العالم» في **باخرة وستفاليا** .

اكثر ايضا من هس ، يعزو بؤس الطبقة العاملة الى التزاحم والانانية. وهكذا يجعل ، اكثر من هس ، الغاءها شرط حذف نظام الفقر وظفر الاخاء الانساني . من هنا ايضا غزارة أكبر في الجمل الانسانوية في هذه المجلة .

في **كتاب المواطن الالماني** وفي **الحوليات الراينية لاصلاح المجتمع** ، المسألة هي حالة الطبقة العاملة أقل بكثير مما هي الانسانوية .

ان اتجاه **كتاب المواطن الالماني** الصادر عن هـ. بوتمان في ١٨٤٥ و١٨٤٦ معرّف على النحو التالي في «مقدمة» محررة بقلمه : «نحن نعلن أنفسنا أنصار اشتراك [Communaute ، جماعة] يظهر لنا ضروريا ومن اجله نريد ان نناضل . فيه ستهيمن المصلحة العامة وليس الانانية ، كما هي الحال في الدولة التقليدية حيث الانانية انتشرت مثل سم يمنع تفتح الروح الحر والانسانية المحضة . يجب علينا اذن ان نكبّ على تحديد اسباب الانانية وعلى فضح أضرارها لتنوير وعي الجماهير » (٢٩) .

نفهم انه بمثل هذا البرنامج لا يمكن ان تكون القضية في هذه المجلة قضية

---

٢٨ – المرجع السابق ، ص ١ .

٢٩ – **كتاب المواطن الالماني** ، ١٨٤٥ ، «مقدمة» ، ص ٤ .

تحليل جدّي لمسائل اجتماعية . انه امر ذو دلالة ان المقال الوحيد الذي يتخذ هذه المسائل موضوعا له يعالج حالة المساجين . بالمقابل ، الكلامولوجيا الانسية تنفلت هنا بحرية تامة. احدى أجمل مساطر هذهالفرازيولوجيا هي مقال لـ ك. هاينتسن، حيث هذا الاخير ، اذ يدين كل ثورة للشعب ، يفكر انه يكفي لحل المسألة الاجتماعية ان **يوضع سيف الروح في يد القوة المعنوية ــ الاخلاقية وان يُعلَن الحق والحقيقة بقوة** (٣٠) .

الحوليات الراينية لاصلاح المجتمع ، الصادرة ايضا عن هـ. بتمان في ١٨٤٥ و١٨٤٦ ، لها نفس الطابع . في مقدمة اصدار شبيهة بمقدمة اصدار **كتاب المواطن الالماني** ، بتمان ، اذ يدين مذاهب الماضي وكل تجليات الانانية ، يتوخى في مجلته مساعدة كل اليائسين باعطائهم يقين وعزاء كون المستقبل سيجلب اليهم السلام والسعادة (٣١) .

خارج هذه المجلات ، **مرآة الشعب** ، الصادرة عن فردينان بهرند من ١٨٤٦ الى ١٨٤٨ في برسلاو ، تلعب دورا كبيرا في نشر الاشتراكية في سيليزيا ، بفضحها ، نوعا ما على طريقة **مرآة المجتمع** ، بؤس الطبقة العاملة وأسبابه .

الى جانب المجلات ، يظهر عدد متزايد من الجرائد التي تستوحي اتجاهها من الاشتراكية **الحقة** . يجب ان نذكر بشكل خاص **صحيفة ترير** التي تلاقي جمهورا متزايد الاتساع . موجهة نحو الاشتراكية **الحقة** على يد ك. غرون ، تسهم كثيرا في نشر الاشتراكية في المانيا .

رغم طابعها العاطفي والطوباوي ، الاشتراكية **الحقة** تلعب في البداية ، في وقت ليس فيه بعد حركة بروليتارية قوية ، دورا ايجابيا بصحافتها التي تجعل المعضلة الاجتماعية مسألة اليوم .

فحتى ذلك الحين لم تكن هذه المعضلة مطروحة بالحقيقة في المانيا ، بؤس الشعب كان يظهر فيها شيئا طبيعيا ، لا مفر منه ، اراده الله ، ولا يمكن مداواته الا بالاحسان . مستفيدة من انعكاس ثورة حيّاكي سيليزيا في المانيا كافة ومن الهياج الذي تثيره مسألة الفقر ، الاشتراكية **الحقة** ، بحكم كونها تعالج هذه المسألة

---

٣٠ ــ **ك. هاينتسن** ، كلمة عن المقاومة المشروعة ، **كتاب المواطن الالماني** ، ١٨٤٥ ، ج ١ ، ص ١ ــ ٢١ .

٣١ ــ **بتمان** ، «مقدمة» ، **الحوليات الراينية لاصلاح المجتمع** ، ١٨٤٥ ، ص ٥ : «فليفعل هذا الكتاب فعل المدوس Méduse على الذين لا يريدون ان يفهموا ، انهم يستحقون مصيرهم لانهم لا يريدون اجتنابه . الآخرون ، الذين يناضلون بالروح ، وخصوصا كل المضطهَدين ، سيعطيهم حرارة وعزاء ان المستقبل سيجلب ايضا الى قلوبهم الهدوء والسلام وسيبارك ايضا حقولهم وبيوتهم . هذا الكتاب مُهدى لليائسين» . [المدوس : حيوان هلامي بحري يضيء في الليل ، أطرافه تفعل فعل الوخز ، رأسه مخيف] .

على صعيد **الانسية** العاطفي وتعطيها حلا طوباويا رافضة كل منظور ثوري ، تجعل الاشتراكية مقبولة لدى مراتب واسعة جدا من السكان ، وبخاصة لدى البرجوازية المتوسطة . تجعل المسألة بصحافتها المتزايدة الانتشار مشكلة راهنة ، بحيث ان الافكار الاشتراكية تنتشر كالوباء ، أمام دهشة وخوف الحكومات والنبلاء والبرجوازية الكبيرة . فاتحة هكذا بشكل غير مباشر الطريق للماركسية، الاشتراكية **الحقة** تسهل انتشارها ، هازّة الطبقة العاملة من خمولها بوصف بؤسها وأسبابه ووسائل علاجه .

لئن يتبيّن هذا التيار مفيدا في البداية ، نظرا لحالة المانيا آنذاك ، فانه سرعان ما يصير ضارا للطبقة العاملة اذ يحوّلها عن نضالها الطبقي بتصوره العاطفي والطوباوي للمشكلة الاجتماعية . وهو من جهة اخرى يتخذ طابعا رجعيا بنقده المستمر لليبرالية التي يدينها ادانة مطلقة ، رغم النضال الحاد الذي تخوضه البرجوازية آنذاك ضد الرجعية .

هذان السببان يعللان النقد الصارم القاسي الذي يسلطه ماركس وانجلز على هذا المذهب منذ أواخر ١٨٤٥ .

٤ ـ الشيوعية الحِرفية

الى جانب الاشتراكية **الحقة** ، ولكن بكيفية أخرى ، الشيوعية الحِرفية الالمانية ، التي تنمو بدفع من **رابطة العادلين** ، تفتح ايضا الطريق للماركسية . بينما الاشتراكية **الحقة** تضع في امر اليوم مسألة الفقر جاذبة اليها اهتمام الجمهور الواسع بالحل الطوباوي والعاطفي الذي تعطيه لها ، الحِرفيون الالمان ، بدعاياتهم التي لا تكل وبانشاء جماعات سرية شرعت تضم رفاق الحِرف والبروليتاريين ، يهيئون انتشار الماركسية في صف الطبقة العاملة .

وُلدت الشيوعية الحِرفية الالمانية في الثلاثينات في باريس تحت دفع الحركة الثورية للطبقة العاملة الفرنسية والادب الاشتراكي والشيوعي الغزير الذي كان ينتشر آنذاك في فرنسا . باريس كانت المركز الرئيسي الذي يذهب اليه الحرفيون الالمان ، لاسيما الخياطون والنجارون ، للتحسن والاستكمال في حرفتهم . وكان اكثرهم تقدمية ينضوون في جمعيات سرية ، اولا **رابطة المنبوذين** ، ثم **رابطة العادلين** التي اتخذت منحى شيوعيا . فلهلم فايتلنغ Wilhelm Weitling وهو خياط شاب من **رابطة العادلين** ، كان قد أعرب في ١٨٣٨ عن شكاويهم وتطلعاتهم في مؤلف بعنوان **البشرية كما هي وكما يجب ان تكون** ، حيث عارض النظام الرأسمالي مولّد البؤس للطبقة العاملة بمنظومة شيوعية مستوحاة حِرفيا، يكون فيها جميع البشر أحرارا وسعداء . هذا الكتاب ، وأكثر منه ايضا مؤلَّفه التالي وهو أوسع وأكثر تعمقا ، **ضمانات الانسجام والحرية** ، الصادر في

سويسرة عام ١٨٤٢ ، يجدان صدى كبيرا بين رفاق الحرِف الثوريين الالمان الذين سرعان ما ينشرون مذهبه في المانيا اثناء جولاتهم .

لما كان رفاق الحرِف الثوريون في مستوى تقني وثقافي أعلى من مستوى عمال المانيفاكتورات والفبارك ، فقد كانوا أقدر منهم على مناقشة المسائل السياسية والاجتماعية وأقدر بالتالي على الدفاع عن مصالحهم ، من هنا الدور المهيمن الذي يلعبونه في فرنسا وفي المانيا قبل ثورة ١٨٤٨ في النضالات العمالية .

ان وعيهم الطبقي وحميتهم الكفاحية، اللذين يتعززان في سير هذه النضالات، يتيحان لهم ، بالفعل ، بلوغ مستوى ثوري لا تصل اليه البروليتاريا الالمانية الا بعد ثورة الحياكين عام ١٨٤٤ .

الشيوعية الحرِفية الالمانية تتخذ في كل بلد طابعا يختلف بحسب درجة نمو البروليتاريا .

في لندن ، حيث يوجد فرع نشيط جدا من **رابطة العادلين** يقوده ر. شابر R. Schapper ، ي. مول J. Moll ، و هـ. باور H. Bauer تفقد الشيوعية الحرِفية الالمانية بسرعة طابعها النوعي تحت التأثير المتزايد العمق الذي تمارسه عليها البروليتاريا الانكليزية .

في فرنسا ، حيث ما تزال الحرِف تلعب دورا كبيرا في الانتاج وحيث ما يزال عدد الحرفيين كبيرا ، يبقى نفوذ البروليتاريا أقل تأثيرا ، الامر الذي يتيح للشيوعية الحرِفية الفرنسية ان تحتفظ مدة أطول بطابعها الخاص (٣٢) .

هذه الحال أشد ايضا في المانيا حيث الحركة البروليتارية تبدأ وحسب تتشكل ، وخصوصا في سويسرة ، حيث من جراء غياب البروليتاريا غيابا يكاد يكون كاملا ثمة غلبة للحرِف اكبر منها ايضا في المانيا — في سنة ١٨٤٦ يوجد في كانتون زوريخ وحده ١٢٫٠٠٠ حرفي .

الرفاق الحرِفيون الالمان يكوّنون في سويسرة جماعتين ، احداهما تحت نفوذ الحركة الديمقراطية لـ **ألمانيا الفتاة** بقيادة فلهلم مار وهرمان دوليكه ويوليوس شتانداو ، أنصار إنسية فويرباخ . **في اوراق الازمنة الحاضرة من اجل الحياة الاجتماعية** ، ف. مار ينشر إنسية ديمقراطية تجد كثيرا من الصدى عند الحرفيين الالمان فتحوّلهم عن الشيوعية . **الالمان ـ الشباب** يَفضحون كملحدين ويلاحَقون. ف. مار يُطرد من سويسرة فيعود الى المانيا حيث يتخلى عن اهتمامه بالحركة الاجتماعية ، بينما دوليكه وشتانداو يلتجئان الى الجزائر . هذا يؤدي الى حل **المانيا الفتاة** ومعها الجماعة الحرِفية الالمانية الموجودة تحت نفوذها .

---

٣٢ — لن ندرس هنا الحركة الحرفية الشيوعية الالمانية في لندن وفي باريس ، فالاولى ستحلّل بمناسبة اتصال ماركس وانجلز مع **رابطة العادلين** بلندن ابان رحلتهما الى انكلترة في نيسان ١٨٤٥ ، والثانية بمناسبة التحريض الذي يقوم به انجلز داخل **رابطة العادلين في باريس** .

الرفاق الالمان الشيوعيون الآخرون يقودهم ، بعد طرد فايتلنغ ، تلميذه الرئيسي اوغست بيكر August Becher الذي يتوجه نحو تصورات اصلاحية اخذها عن لوي بلان Louis Blanc وفكتور كونسيدران Victor - Considerant اوغست بيكر يعرض في العدد الخامس من مجلته ، **الرسالة المرحة** ، ان هدف الشيوعية هو تجزئة الملكية الى قطع صغيرة ، الوسيلة الوحيدة لحذف استغلال البشر وحماية الحرية . من جهة اخرى ، في **رسالة الى الاغنياء** ، يدعوهم الى التخلي عن ثرواتهم لتلبية مطالب الفقراء .

يظهر التقلقل المذهبي لـ اوغست بيكر حين نراه يساند جورج كولمان Georges - Kuhlmann ، وهو عميل مأجور يستغل سرعة تصديق رفاقه فيبشرهم بمجيء فردوس على الارض ، فيه سيستطيع كل فرد ان يعطي نفسه بحرية لميوله . هذا الفردوس عدا ذلك ليس له طابع مساواة بل طابع هرمي مسلسل على اساس فرق القدرات والمواهب .

ا. بيكر مرتبط ايضا ب يوليوس ترايشلر Julius - Treichler ، الذي هو بخلاف كولمان اشتراكي شريف . في جريدته ، **الصحيفة العامة لفضح البؤس وعلاجه** ، يدعو الى تعميم التربية والتعليم بغية اصلاح المجتمع ، ولكنه في الوقت نفسه ينكر على الشعب قدرة ان يتحرر بسبب جهله ويفكر انه يقع على الدولة ان تؤمّن للبروليتاريا حياة لائقة .

اذ يهاجمه المحافظون ، يرى نفسه مضطرا ، مثل ا. بيكر ، الى تعليق تحريضه أثر قانون استثنائي ضد الشيوعية صُوّت عليه في اذار ١٨٤٦ . في هذا الشهر نفسه تختفي جريدة ترايشلر ، وبيكر ينفي نفسه ، الامر الذي يُنهي موقتا الحركة الشيوعية الحِرفية الالمانية في سويسرة .

الحركة البروليتارية
وتطور الشيوعية
حتى ثورة الحيّاكين عام ١٨٤٤

حتى سنة ١٨٤٤ لا نستطيع حقا ان نتحدث عن حركة عمالية المانية ، فالبروليتاريا الالمانية طبقة بائسة بوجه الاجمال منفعلة لا تثور الا بشكل متفرق حين يدفعها الى ذلك بؤس لا يطاق . مع تمرد الحياكين يشرع الوعي الطبقي في الاستيقاظ عند البروليتاريين الالمان ، الامر الذي يقودهم الى الانتظام والى اللجوء، مع الاضرابات ، الى وسائل كفاحية أفضل من التمردات المتقطعة .

الحركة الثورية البروليتارية تنال دفعا كبيرا بعد تمرد عمال النسيج ، بالتحريض الحاصل حول مسألة الفقر . العمال يدركون بسرعة كافية ان الاجراءات

الخيرية التي تفكر بها البرجوازية تخفيفا لبؤسهم ، مثل انشاء صناديق توفير في حين انه ليس لديهم ما يعيشون منه ، ما هي الا مسكّنات غير فاعلة .

من هنا ميلهم الى الاتحاد مع رفاق الحِرف الثوريين . حركتهم المطلبية ، التي تترجم عن نفسها باضرابات متزايدة العدد في الاربعينات ، تعتمد جزئيا على صناديق نجدة مؤسسة من قِبلهم . هذه الصناديق التي تعطي العمال ، في غياب اي حق تحالف ، امكانية ان يتداولوا فيما بينهم وتؤمن لهم بعض الاعانات في حالة العوز ، تقدم لهم ايضا فرصة خلق جماعات سرية ، تخفي طابعها غير القانوني تحت هيئة حلقات ثقافية (٣٣) . في هذه الجماعات يشرع يتحد رفاق الحِرف والبروليتاريون . ان تشكل هذه الجماعات ، الذي يُفقِد تدريجيا الشيوعية الحرفية طابعها النوعي ، يتيح تكوين حركة عمالية تميل اكثر فأكثر الى التوحد .

الرفاق الحِرفيون الثوريون هم في البداية محركو هذه الجماعات . هكذا يؤسس الرفيق الحذّاء فريدريش مِنتل ، بعد مغادرته باريس عام ١٨٤٥ ، حلقة حرفيين في مدينة كيل Kiel ، والنجار فريدريش مارتنس يخلق في العام ذاته جمعية ثقافية للعمال في هامبورغ ، بينما النجار ل. ج. شتيشاو يشترك في تأسيس حلقة عمال في مدينة هانوفر (٣٤) .

ان خلق هذه الحلقات ، التي يجتمع فيها رفاق من حِرف مختلفة وعمال من فروع صناعية مختلفة ، يتيح توحيدا تدريجيا للحركة العمالية الالمانية وأيضا توسيعها بفضل تراسل نشيط يقوم فيما بينها (٣٥) . وهو في الوقت نفسه يسهل الحركة المطلبية للطبقة العاملة ويعزز كفاحيتها، الامر الذي يتجلى في عدد الاضرابات المتزايد باضطراد . بينما لم يحدث من سنة ١٨٠٠ الى سنة ١٨٤٤ سوى ٢٣ توقف عن العمل بين العمال ورفاق الحِرف ، نعدّ من ١٨٤٤ الى ١٨٤٦ اضرابا للخياطين في فرانكفورت – على – الماين ، للناقلين النهريين في غلون ، لعمال سكك الحديد في دولة ساكس ، للحفارين في إنغولشتادت ، لعمال تكرير السكر

---

٣٣ – في ١٨٤٥ تنشأ في هانوفر حلقة مطالعة لعمال الطباعة ، في هامبورغ حلقة ثقافية للحرفيين والعمال ، في بريغ وبرسلاو كورال [جوقة غناء] للرفاق والعمال ، في برونسفيك وماغدبورغ وشتوتغارت حلقة ترويح لعمال الطباعة . انظر **تودت و رادانت : مساهمة في تاريخ منشا الحركة النقابية الالمانية** ، برلين ، ١٩٥٠ ، الجدول رقم ٨٢ . بخصوص هذه الحلقات المختلفة ، ويضاف اليها حلقات رياضيين ، لاحظ رئيس ولاية إرفورت في ٢٥ ايلول ١٨٤٥ في رسالة انه «في كورالات الحرفيين الشباب تتظاهر ميول اشتراكية وشيوعية» . **أرشيف الدولة – غوتا ، دائرة الحكومةفي هايلغنشتادت** ، رقم ١٠١١ : وثائق تتصل بالتحريض الديماغوجي ، الورقة ٥٨ .

٣٤ – انظر **ف. شيدر : بدايات الحركة العمالية الالمانية . الجمعيات في الخارج في العقد الاول بعد ثورة ١٨٣٠** ، شتوتغارت ١٩٦٣ ، صص ٣٠٤–٣٠٦ .

٣٥ – انظر **ف. شيدر** ، ص ٣٠٥ .

في ماغدبورغ ، لعمال الطبع على القطن في برلين ، للنجارين فـــي رينسبورغ ، للخياطين في كارلروه ، لعمال سكك الحديد في براندنبورغ وإيلبنغ (٣٦) . رغم ان هذهالاضرابات تنتهي عموما باخفاقات ناجمة عن قمع لا رحمة فيه وعن نقص الموارد الذي يحول دون مواصلتها لمدة طويلة ، فانها تشرع تتخذ ، في مجملها ، طابع صراع طبقي بين البروليتاريا والبرجوازية ، مقوية بذلك شعـــور التضامن بين العمال ووعيهم الطبقي وحميتهم الكفاحية .

ماركس وإنجلز وبدايات
تشكل حزب شيوعي ماركسي

في هذه الحالة العامة لاوروبا الغربية والحركة البروليتارية وتطور الاشتراكية والشيوعية ، بصورة رئيسية في ألمانيا ، البلد الذي يظل ماركس وانجلز على صلة وثيقة معه ، يضع ماركس وإنجلز أسس حزب شيوعي جديد ، هو الوحيد الـذي يدافع بكيفية حازمة ومنسجمة عن المصالح الطبقية للبروليتاريا . يقومان بذلك على صعيد عملي ، بادئَين في الاتصال مع المراكز الكبرى ، حيث تنمو حركات اشتراكية وشيوعية ، اولا بأول مع لندن وربنانيا ، ولكن ايضا على الصعيد النظري ، معمقين تصورهما للمادية التاريخية ، القاعدة النظرية لنضال البروليتاريا الطبقي ، التي لم يكونا الى ذلك الحين وضعا سوى خطوطها الاولى .

في ذلك لا يعتمدان على وضع المانيا الـذي ما زال متأخرا وعلى نضـــال البروليتاريا الالمانية الطبقي الذي ليس بعد الا في بداياته بقدر ما يعتمدان علـى التجربة التي استخلصاها من التطور الاقتصادي والاجتماعي في فرنسا وفـــي انكلترة وعلى شروط حياة ونضال البروليتاريين الفرنسيين والانكليز .

بنتيجة ذلك يضعان المشكلة الاجتماعية لا على صعيد الفقر pauperisme الذي يتصل بالفقراء عموما بما فيهم البروليتاريا الرثة Lumpenpoletariat بل على صعيد النضال الطبقي البروليتاري .

ان انضاج المادية التاريخية يحصل في عام ١٨٤٥ بثلاثة مؤلفات ، **الأطروحات عن فويرباخ** لـ ماركس التي ليستالا وثيقة قصيرة، **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** لـ إنجلز ، والمؤلَّف الرئيسي الذي حرراه بصورة مشتركة ، **الايديولوجيا الالمانية.**

معمِّقا وجامعا ـ مركِّبا في **الاطروحات عن فويرباخ** المبادىء الاساسية التي كانت تبرز من **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ومـــن **العائلة المقدسة** ، ماركس يبيِّن كيف ان من فكرة **البراكسيس** يخرج تصور جديد مادي للعالم ، ذو

---

٣٦ ـ انظر **تودت و رادانت** ، الجدول ، ص‌ص ٧٢-٧٨ .

طابع جدلي وتاريخي في آن ، يتميز عن التصور المثالي وعــن التصور المادي لفويرباخ على حد سواء ، وكيف ان هذا التصور الجديد يسمح هو وحده باعطاء تفسير مؤسَّس وصحيح للمعضلات الاجتماعية وللتاريخ .

بينما يثبت ماركس في هذه **الاطروحات** بعض المبادىء الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، يبيّن انجلز في **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** كيف ان العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لانكلترة الحديثة مقررة ومحددة من قبل تطور الثورة الصناعية . اذ يبرز هكذا ، بعد مقاله عن «حالة انكلترة» ، على نحو هو بالحقيقة اقل منهجية او منظومية ولكنه بالمقابل اكثر تفصيلا منه في مقاله **في الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** عن الـ «مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي»، كيف ان تطور قوى الانتاج هو الشرط الذي يكيف تطور العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وصراعات الطبقات ، فانه يعطي مثلا كبيرا أول عن الكيفية التي يمكن بواسطتها ، بتطبيق المبادىء الاساسية للمادية التاريخية ، تفسير التاريخ .

على قاعدة التصور المادي للعالم ، كما هو مخطوط في **الاطروحات عن فويرباخ** والتطبيق العملي لهذا التصور على تحليل حقبة محددة من التاريخ كما قام به انجلز في مؤلَّفه ، يبينان في **الايديولوجيا الالمانية** كيف ان سير التاريخ الانساني محدد من قبل التطور الجدلي لقوى الانتاج وللعلاقات الاجتماعية النابعة منها .

بفضل هذا الانضاج والتطبيق للمبادىء الاساسية للمادية التاريخية ، بات ماركس وانجلز الان قادرين على الاشتراك النشيط في كفاح البروليتاريا على صعيد دولي وعلى تسلم قيادته تدريجيا . هذا يعلل من جهة احتكاكَهما المتزايد المنهجية والنظامية مع الحركات العمالية لمختلف الاقطار وكذلك النضال الذي لا هوادة فيه الذي يفتحانه ضد المثالية والدوغمائية والطوباوية التي تعرقل الكفاح الذي تخوضه الطبقة العاملة .

في اللحظة التي فيها ينضجان مذهبهما ، ماركس وانجلز ما يزالان منعزلَين تقريبا ، ولكن لا يلبث ، بحكم توطد النضال العمالي في جميع البلدان ، ان ينضم اليهما رفاق فكر ونضال . انهم بادىء بدء ، من جراء علاقاتهما الوثيقة بشكل خاص مع المانيا ، المان : فلهلم فولف ، جورج ميرث ، جوزف فايدماير ، كارل دِستر ، الذين ، مع تحررهم التدريجي من الديمقراطية والاشتراكية **الحقة** ، يتملكون تصوراتهما ويشتركون بصورة متزايدة الوثوق في نضالاتهما .

١ . فلهلم فولف (١٨٠٩ ـ ١٨٦٤)

فلهلم فولف Wolff ، المولود في قرية من سيليزيا ، يتعلم منذ شبابه معرفة بؤس البروليتاريا الزراعية التي تعيش في شروط ما تزال نصف ـ اقطاعية والبروليتاريا الصناعية المستغَلة بشكل متزايد ، لاسيما الحياكين اليدويين

العائشين في قرى والذين تسحقهم مزاحمة المانيفاكتورات والفبارك . إبان وجوده في جامعة برسلاو حيث يدرس الفيلولوجيا الكلاسيكية * ، ينتسب الى **البورشنشافت** Burachenachaft ، التنظيم غير القانوني للطلبة الثوريين ، ويُحكَم من جراء ذلك في سنة ١٨٣٤ بالسجن لمدة ست سنوات . بعد اطلاق سراحه ، ينضم الى الحركة الديمقراطية التي تبدأ تتشكل في سيليزيا ويُظهر خلال تحريضه ، الى جانب طاقات كبيرة على الصعيد النظري ، مهارة خاصة في الدعاوة والتنظيم . منحازا بحزم متزايد للشعب المضطهَد ، يؤثر في كتاباته معالجة المسائل الاجتماعية . في مقال بعنوان «المعاقل» يظهر بتاريخ ١٨-١١-١٨٤٣ في **صحيفة برسلاو** ، ينشىء وصفا حادا للشروط التي لا تصدّق التي يعيش فيها الشيوخ والمرضى والعاطلون عن العمل مزروبين في ملاجىء خربة . هذا المقال ، الذي يلاقي صدى كبيرا ، يسهم بالمناقشات التي يثيرها في توجيه ف. فولف نحو الاشتراكية . كان في البداية يشاطر أوهام الاشتراكيين الاصلاحيين ، ويفكر ان التربية والتعليم هما الوسائل الانجع لتحويل المجتمع . ولكنه لا يلبث ان يدرك قصور الاصلاحات السياسية والاجتماعية على حد سواء ، الاصلاحات التي يعتبرها مسكّنات وقتية غير ناجعة ، ويفكر ان الثورة الاجتماعية هي وحدها مجدية لالغاء البؤس . تساعده في هذا التوجه مقالات ماركس وانجلز في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** ، حيث يبيّنان ان ثورة شيوعية تتولّد من تفاقم الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية تستطيع وحدها تحرير الطبقة العاملة .

تصوراته يعززها تمرد عمال النسيج السيليزيين في حزيران ١٨٤٤ ، متحزبا بشجاعة للحيّاكين المذبوحين والمسجونين ، لا يكتفي في مقالاته ، لاسيما في «البؤس والثورة في سيليزيا» المنشور في مجلة **كتاب المواطن الالماني** عام ١٨٤٥ ، لا يكتفي بأن يصف ، كما في مقاله عن «المعاقل» ، بؤس البروليتاريا وبأن يشجب النظام الذي يولده ، بل يبين ان الغاء هذا البؤس لا يمكن ان يأتي الا من ثورة اجتماعية .

دارسا اسباب هذا التمرد ، يشدد على انه العاقبة الحتمية للمزاحمة التي تسلطها آنذاك الحياكة الميكانيكية على الحياكة اليدوية ، المزاحمة التي تولّد بؤسا لا يوصف عند حيّاكي الارياف . ويضيف ان هذا البؤس ، عدا ذلك ، ليس سوى وجه خاص للبؤس العام النازل بالطبقة العاملة ، ضحية الاستغلال الراسمالي الذي لا يرحم . ان استفحال هذا البؤس ، الذي يزيد حدّة الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية ، يقود بالضرورة الى ثورة اجتماعية ، تمرد حياكي سيليزيا هو في المانيا نذيرها . ممجدا شجاعة الحياكين واستيقاظ وعيهم الطبقي

[* الفيلولوجيا هي دراسة اللغة من خلال نصوصها وآدابها . الادب الكلاسيكي هو الادب القديم اليوناني واللاتيني (وما نهج نهجه : اعتدال ونظام وكمال الشكل ...) .]

الذي تجلى في نشيدهم الكفاحي ، **المحكمة الدامية** ، فولف يبيّن، كما فعل ماركس قبله في مقاله ضد روجه ، ان الاهمية الخاصة لهذا التمرد كائنة في كونه أول تظاهرة ثورية كبيرة للبروليتاريا الالمانية . موسعا اعتباراته الى مجموع الطبقة العاملة الالمانية ، فولف يحلل بؤس الفلاحين الصغار والعمال الزراعيين وأسبابه. يبرز ان الاصلاح الزراعي البروسي ، الذي يمجّد كفعل تحريري كبير للطبقة الفلاحية ، قد أهلك الفلاحين الصغار باجبارهم على دفع تعويضات باهظة للتحرر من العشور والالتزامات . اذ سقطوا في البؤس ، يأتون معززين البروليتاريا الزراعية ، التي يعادل نصيبها نصيب البروليتاريا المدينية كآبة .

بعد هذا المقال الذي فيه يؤكد نفسه شيوعيا بصورة مكشوفة ، يقطع فولف مع الديمقراطيين والاشتراكيين **الحقين** الذين ، وهم ينتقدون الشروط الاقتصادية والاجتماعية التي تولد البؤس ، لا يفكرون الا باصلاحات غير فاعلة ما دامت لا تصيب نظام الملكية الخاصة بأي أذى .

مثل ماركس وانجلز ، فولف يقدّر آنذاك ان المهمة الاكثر إلحاحا هي تنوير البروليتاريا عن اسباب بؤسها وشروط تحررها . هذا هو الموضوع الرئيسي لنشاطه حتى لقائه مع ماركس وانجلز في نيسان ١٨٤٦ . فاضحا الاصلاحية الديمقراطية والاشتراكية ، يضع ، في مقالاته الصادرة في شباط وأيلول ١٨٤٦ في **باخرة فستفاليا** ، البروليتاريا في حذر ازاء مشاريع الاصلاح التي لا يمكن الا ان تحوّلها عن نضالها الطبقي . يتعرض بشكل خاص للديمقراطي ادوارد بلتس الذي بات الان ، بعد ان كان قد انتقد بشجاعة نظام سيليزيا الذي ما يزال نصف ــ اقطاعي ودعا الى اصلاحات ديمقراطية واجتماعية ، بات يوجه ، كما فعل قبله أ. روجه ، حملاته ضد الشيوعية خوفا من ثورة بروليتارية (٣٧) .

مع فعله بواسطة الصحافة ، ف. فولف يقود في الوقت نفسه دعاية نشيطة بين المثقفين والحرفيين والعمال ويثير تشكيل جماعات شيوعية في كل سيليزيا ، الامر الذي يدعى **محرض الفقر** .

مرغما على الهرب افلاتا من الملاحقات ، يلتجىء الى لندن ، ثم الى بروكسل، حيث يصل في نيسان ١٨٤٦ . لقاؤه في هذه المدينة مع ماركس وانجلز يسم طورا جديدا في حياته . اذ كسب تماما الى تصوراتهما ، يصبح بقوة طبعه وصفاته كداعية وكمنظم وشجاعته امام اي امتحان واحدا من أصلب رواد الشيوعية الالمانية .

---

٣٧ ــ منشورات **أ. بلتس** : العدالة الارثية . مقتطفات من مذكرات **فلاح سيليزي** ، **برونسفيك** ١٨٤٣ . ادارة الكومونات الريفية ، برسلاو ، ١٨٤٥ . تحت اسم مستعار ، ترويمند فِلب : عن تأثير الفبارك والمانيفاكتورات في سيليزيا (اربع رسائل) ، لايبتسيغ ، ١٨٤٣ ــ ١٨٤٦ .

٢ ـ جورج فيرث (١٨٢٢ ـ ١٨٥٦)

جورج فيرث Georg Weerth ، وهو ابن رئيس معتمدين في الكنيسة البروتستانتية ، مضطر ، مثل ف. انجلز ، ان يناضل في شبابه ضد الافكار المحافظة لعائلته . مستخدَما تجاريا عند قريب ثري في بون عام ١٨٤٢ ، يذهب في عام ١٨٤٣ الى برادفورد كمسافر تجاري ، وقد اعتنق الافكار الديمقراطية . هنا تعتريه الدهشة امام تطور انكلترة الصناعي الخارق ، ولكن يثيره في الوقت نفسه ، كما حدث لانجلز من قبل ، مشهد الاحياء العمالية الكئيب وبؤس البروليتاريا الانكليزية . تعاطفه مع الطبقة العاملة يوجهه من الان نحو الشيوعية ، التي يرى فيها الحل الوحيد للمسألة الاجتماعية . أفكاره الجديدة تظهر اولا بأول في رسالة الى شقيقه بتاريخ ٢٤ـ١٢ـ١٨٤٤ يكتب فيها : «قريبا ستلقى في النفايات ألوهية الذهب وروتشيلد سيموت من الجوع فوق كنوزه . هنا ستكفي سنتان من الجدب الزراعي وأزمة تجارية حتى تنفجر ثورة ، موجهة لا ضد الحكم الملَكي والحماقات البرلمانية او الدين بل ضد الملكية . العامل الذي لم يستطع يوما تحقيق أهدافه بالتحريض الشارتي والعرائض والمهرجانات الثورية سيدمر قاعدة المجتمع الراهن بتعرضه للمال . أنا مقتنع انه عما قريب ستنفجر هنا نفس الثورة التي عرفتَها في سيليزيا ، مع هذا الفارق ان العامل في سيليزيا ألقي في السجن بينما هنا سيتسلم الحكم» (٣٨) * .

زعلاقاته الودية مع ف. انجلز ، الذي كان يقيم في مدينة مانشستر المجاورة (٣٩) ، تثبته في هذه الافكار . ممتلئا حقدا ضد النظام الرأسمالي وايمانا في ضرورة ثورة شيوعية (٤٠) ، يدخل في علاقات مع قادة الحركة الشارتية وبخاصة مع جوليان هارني وإرنست جونس ، ويحتك ، كما كان انجلز يفعل في مانشستر ، بحياة العمال .

في قصائده ورواياته يبرع في انشاء وصف أخاذ عن وحشية النظام الرأسمالي وبؤس الطبقة العاملة وحميتها الثورية ويصير هكذا أول كاتب ألماني كبير للبروليتاريا (٤١) .

---

٣٨ ـ ج. فيرث : **المؤلفات الكاملة** ، اصدار ب. كيزر ، برلين ١٨٥٦ ـ ١٨٥٧ ، جـ٥ ، ص ١٤٠ .

٣٩ ـ انظر جريدة **الاشتراكي الديمقراطي** ، العدد ٢٤ ، ٧ـ٦ـ١٨٨٣ . ماركس ـ انجلز ـ المؤلفات ، جـ٢١ ، ص ٦ : ذكريات انجلز عن ج. فيرث .

٤٠ ـ انظر رسائل ج. فيرث الى فريدريش فيرث (برادفورد ، ٢٢ـ١ـ١٨٤٥) ، **المؤلفات الكاملة**، جـ٥ ، ص ١٥٠ . والى شقيقه فلهلم (فرادفورد ، ١٢ـ٤ـ١٨٤٥) ، ... ، ص ١٥٦ .

٤١ ـ هكذا مثلا القصيدة التي يبيِّن فيها كيف يدفع البؤس خياطا مسكينا الى الانتحار :

نشره من نفس الطالع . هكذا مثلا بنفس الكيفية الأخّاذة يصف في مقاله عن

كان خياطٌ فقير
ينهك نفسه في الخياطة .
فعل ذلك مدة ثلاثين عاما
دون ان يعلم تماما لماذا .
وحين مع يوم السبت
وصل الاسبوع من جديد الى نهايته ،
شرع يبكي ،
دون ان يعلم تماما لماذا .
حينئذ اخذ الابَر الجميلة
ومعها المقصّ
وشرع يحطمها
دون ان يعلم تماما لماذا .
ثم عقد حول عنقه
حبلا متينا تماما
وشنق نفسه على خشبة
دون ان يعلم تماما لماذا .
جرس صلاة المساء
شرع عندئذ يدق
والخياط مات
دون أن يعلم أحدٌ لماذا .

انظر **المؤلفات الكاملة** ، جـ١ ، ص ١٩٩ .

المنظور الثوري الغائب في هذه القصيدة يظهر في قصائد اخرى ، مثلا في **اغنية الجوع** :

مولاي وملكي المبجّل
أتعرف الحكاية الحزينة ؟
أكلنا قليلا يوم الاثنين
ولم نأكل ابدا يوم الثلاثاء .
الاربعاء كان يوم صوم مسيحي
الخميس كان القحط
والجمعة كنا
نصف ميتين من الجوع
لذا احرص جيدا
على ان يُصنع لنا خبز طيب يوم السبت

«البروليتاريين في انكلترة» (٤٢) ، شروط وجود العمال الانكليز المرعبة ، سقوط الايرلنديين ، قسوة أرباب العمل ، لاإنسانية ملاجيء الليل وبيوت الشغل حيث يعامل المحتجزون معاملة أسوأ منها في السجون .

في مقال آخر عن «جوزيف رينر ستيفنس ، مبشر في ستانلي بريدج ، والحركة العمالية الانكليزية في عام ١٨٣٩» (٤٣) ، يحلل ، بصدد عمله لصالح الطبقة العاملة ، أسباب بؤس هذه الطبقة وموقف البرجوازية ازاءها والكفاح الذي تخوضه من اجل التحرر . في دفاعه عن البروليتاريا وفضحه للاإنسانية الطبقة البرجوازية ، يتعرض بشكل خاص لنظرية مالتوس التي تعزو البؤس الى زيادة السكان السريعة بالمقارنة مع زيادة الانتاج والتي تقترح كعلاج ابادة قسم كبير من الفقراء . بالمقابل يشيد بالموقف الشجاع لقسيس ستانلي بريدج الميثودي الذي كان ، في خطاب ألقاه بتاريخ ١-٢-١٨٣٩ ، قد أعلن ان الملكة والاساقفة وأعضاء البرلمان على حد سواء لا يكترثون كثيرا لبؤس الشعب . لمعالجة هذا البؤس ، كان يطالب ، مرتكزا على الكتاب المقدس ، بعدد من الاجراءات ذات الطابع الشيوعي ويدعو الشعب الى الثورة لتطبيق هذه الاجراءات ، مما أدى الى حبسه .

هذا التوجه الثوري يقرّب ج. فيرث اكثر فأكثر من ماركس وانجلز ، فيتبنى تماما نظراتهما إبان زيارته لبروكسل في تموز وآب ١٨٤٥ ويصير منذئذ واحدا من أفضل رفاقهما في النضال .

٣ ـ جوزف فايدماير (١٨١٨ ـ ١٨٦٦)

يوسف فيدميير Joseph Weydemeyer دخل المدرسة الحربية في برلين يعيَّن عند تخرجه في فوج مدفعية في فستفاليا . اذ كان منذ ذلك الحين معتنقا الافكار التقدمية ، يذهب في عام ١٨٤٤ الى باريس حيث يتعرف على ماركس . في السنة نفسها ، يشارك في **صحيفة ترير** ويسهم في اعطاء هذه الجريدة حياة

والاّ في يوم الاحد انت من سَنَشوي
وسنلتَهِم ، يا مولانا !

انظر **المرجع نفسه** ص ١٩٣ . انظر ايضا : صاهر المدافع ، **المرجع نفسه** ، ص ٢٠٣ .

٤٢ ـ صدر في **الحوليات الرينانية لاصلاح المجتمع** ، ١٨٤٥ . انظر **المؤلفات الكاملة** ، جـ٢ ، ص ص ٣٠١ ـ ٣٢٦ .

٤٣ ـ هذا المقال صدر ايضا في **الحوليات الرينانية لاصلاح المجتمع** ، ١٨٤٦ . انظر **المؤلفات الكاملة** ، ص ص ٦٠ ـ ١٠٢ .

جديدة بطريقته الحية في معالجة المسائل الاجتماعية ، مستوحيا في ذلك بشكل خاص كتاب ف. انجلز عن **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** .

مساهمته في **صحيفة ترير** لا تسير بدون صدام ، ليس فقط مع الرقابة بل ايضا مع رئيس التحرير ، فالثر ، الذي يخشى ان يضع الاتجاه الجذري الذي يعطيه للجريدة وجودها في خطر . هذا الاتجاه ، من جهة اخرى ، موضع ثناء من لدى الاوراق الادبية في لايبتسيغ التي تقدم **صحيفة ترير** و**مرآة المجتمع** مثلا يحتذى للجرائد الاخرى بطريقة معالجتهما المسائل الاجتماعية (٤٤) .

بنتيجة هذا الميل ، ما يلبث فيدمير ان يقطع مع كارل غرون الذي يسقط اكثر فأكثر في صناعة الجُمل وكذلك مع فالثر بمناسبة رسالة من هس تفضح أساليب الاستغلال الرأسمالية .

لما كان فالثر لا يوافق على هذا النقد ، كتب اليه فايدماير في ١٠ نيسان ١٨٤٥ : «فيما يخص المقطع موضع الطعن ، فكلّ يعلم ، اذا كان قد اهتم قليلا بالعلاقات الاجتماعية الحقيقية ، أن أجر العمال معاد الى حد أدنى ، من جراء المزاحمة الموجودة بينهم ، أن قيمة قوى الشغل تنخفض بقدر ما تزداد هذه القوى، انه بتمديد زمن الشغل يحصل تزايد في قوى الشغل يجعل زائدا عن اللزوم قسما من القوى التي كانت مستخدَمة ، انه لئن كان هذا التمديد الذي لا يشمل في البداية سوى قسم من العمال يستتبع بادىء ذي بدء رفع الحد الادنى للاجر فان هذا الاجر لا يلبث ان يخفّض من جديد الى الحد الادنى بينما يطبق تمديد زمن الشغل على الجميع ... كما ورد في المقطع المجَرّم ... اما فيما يخص بقية المقال ، فانني لا أعتقد انه يمكن ان نلوم هس على كونه يبرز الطابع الحقيقي لمؤسسات هي ، تحت قناع حب البشر والعناية برفاه العمال ، لا تخدم سوى مصالح الصناعيين» (٤٥) .

بعد ثلاثة شهور ، في ١٥ نوفمبر ١٨٤٥ ، فالثر ، الذي يخاف على جريدته اكثر فأكثر وليس بغير حق ، يصرف فايدماير (٤٦) .

---

٤٤ ـ انظر **اوراق من اجل التسلية الادبية** ، لايبتسيغ ، ١٣ـ٢ـ١٨٤٦ ، العدد ٤٤ . مذكور من قبل **ك. اوبرمان : المسألة الاجتماعية** ، مرجع مذكور ، ص ٢٧٨ .

٤٥ ـ مذكور في **ك. اوبرمان : المسألة الاجتماعية** ، ص ٢٨١ .

٤٦ ـ فعلى احتجاج يرسله الى المحكمة العليا للرقابة بصدد حذف مقالات عديدة ، لاسيما لفايدماير ، عن مسائل اجتماعية ، تجيب المحكمة في ٢ـ١٢ـ١٨٤٥ : «ان هذه المقالات التي تتصل جميعا بالحالة الاجتماعية والعلاقات الاجتماعية الراهنة ، تقيم الدليل الجلي على ان كاتبيها يتجاهلون عن قصد الجهود المبذولة لمساعدة الذين هم في البؤس ولتخفيف الفوارق بين الاغنياء والفقراء . الوصف الحاقد للتضادات التي تفصل المالكين عن غير ـ المالكين ، الالحاح الذي به يؤكَّد وجوب قيام تحويل كامل لطريقة التحصيل الراهنة التي يحميها القانون ، مضافا اليهما هجمات عديدة

في اعلامه رئيس الاقليم نبأ ذهاب فايدماير ، كان الرقيب المحلي ، كما فعل قبله رقيب كولن عند مفادرة ماركس **الصحيفة الراينية** ، يهنّيء نفسه على المنحى الجديد المعطى للجريدة (٤٧) .

فايدماير الذي كان في تلك الاثناء قدم استقالته كضابط ليساهم في **صحيفة ترير** لن يلبث ان يلتحق بماركس وانجلز في بروكسل . اثناء اقامته هناك في ربيع ١٨٤٦ يتبنى بصورة أكمل نظراتهما ويصير واحدا من خيرة رفاقهما.

٤ ـ كارل لودفيغ دستر (١٨١٣ ـ ١٨٥٩)

كارل **لودفيغ دِستر Karl Ludwig d'Ester** ، الطبيب في مدينة كولن الذي يعرف جيدا جدا بحكم مهنته الشروط البائسة التي فيها يعيش الناس الفقراء لا يلبث ان يتحزب للشعب المضطهَد والمستغل . ديمقراطيا بادىء بدء ، يرتبط بعرى الصداقة مع ج. يونغ ويشاركه بنشاط في خلق **الصحيفة الراينية** وكذلك في المناقشات حول القضايا الاجتماعية الحاصلة في الحلقة الصغيرة حيث يجتمع مع ك. ماركس ، ج. يونغ ، هـ. برجرس ، م. هس ، المحامي كومبس ، والضابط آنيكه . قراءة **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** ، و**الى الامام** ، والمناقشات الحاصلة في أواخر سنة ١٨٤٤ في **جمعية كولن من اجل انهاض الطبقة العاملة** ، تجعله يمضي بسرعة من الديمقراطوية الى الاشتراكية . يفكر ، مع هس ، ان هذه الجمعية عليها ان لا تكتفي باجراءات انسانية ـ خيرية وأن أصلاحات اجتماعية عميقة هي وحدها كفيلة بمداواة الفقر .

في مطلع ١٨٤٥ ، يتسلم ترير **المجلة الاسبوعية لاتحاد حرفيي مدينة كولن من اجل الخير العام** ، ويعطيها طابعا اشتراكي الميل بمقالاته عن معضلات اقتصادية

موجهة ضد الملكية ، هذا معمول لتثوير الاذهان باثارة السخط ازاء وضع الاشياء الموجود وهو يشكل بالتالي خطرا على السلام الداخلي وعلى أمن الدولة» . انظر ارشيف مرسيبورغ T,VVR,D.Z.A ٩٩١ ، رقم ٣ ، وثائق محكمة الرقابة العليا عن **صحيفة ترير** ، أورده **ك. اوبرمان: المسألة الاجتماعية**، ص ٢٨٤ .

٤٧ ـ انظر ارشيف الدولة في كوبلنتس ، فرع ٤٠٣ ، رقم ٣٨٠٥ ، ورقات ١٢٩ وبعدها . مذكور في **ك. اوبرمان** ، ص ٢٨٥ : «اني أعزو الاتجاه الاكثر اعتدالا وتغيُّر اللهجة في **صحيفة ترير** ... الى إبعاد المحرر ـ المشارك ضابط المدفعية المستقيل فايدماير... فالثر ما كان يستطيعان يخفي على نفسه لمدة أطول التأثير السيء لفايدماير ، الذي هو باتجاهه الشيوعي او على الاقل البالغ الجذرية مسؤول عن الحالة التي جعلت العمل مزعجا جدا في الرقابة . الامور تسير على نحو افضل بكثير منذ ابعاده عن الجريدة ...» .

واجتماعية . ففي هذه المقالات يبين ان المزاحمة الحرة لا تفيد بالواقع الا الاغنياء، اذ ان الفقراء غير مسلحين لمقاومتها . هذا يقوده الى طلب تعميم ومجانية التعليم لكي يستطيع كل انسان بسط ملكاته . يبرز من جهة أخرى واجب الحرفيين والعمال في ان يتحدوا كي يستطيعوا مقاومة الرأسمال الكبير .

بما ان هذه المجلة لا تقدم له سوى امكانيات ضيقة في عرض أفكاره ، يصبح مديرا ــ مشاركا لمجلة اشتراكية ، هي **جريدة الشعب . مجلة شعبية شهرية لقضايا اليوم الرئيسية** ، تصدر من يناير ١٨٤٥ حتى أوائل ١٨٤٦ في كولن . مقالاته تتصل جميعا بقضايا اقتصادية واجتماعية . يبرز اهمية ثورة حياكي سيليزيا التي تشكل في نظره اهم حدث في عام ١٨٤٤ ، ينقد الاصلاحات ذات الطابع الخيري ، مثل انشاء صناديق توفير ، التي لا تستطيع ان تداوي البؤس بشكل حقيقي ، يرفض الاقتراع الضريبي بوصفه أداة هيمنة للطبقات المالكة ، فالتمثيل الحقيقي للشعب لا يمكن ان يتأسس الا على الاقتراع العام . يلح من جهة اخرى على ضرورة انشاء جمعيات عمالية من اجل تحطيم سلطان الرأسمال الكبير ، يبيِّن ان التجارة في النظام الرأسمالي مؤسسة على احتكار الخيرات المنتَجة من قِبل العمال ، ويظهر اخيرا ، بتحليل للاجور والاسعار ، ان العمال مع الاجور التي يتقاضونها لا يستطيعون اشباع حاجاتهم الابتدائية ، لاسيما انهم تحت وطأة البطالة قسما من السنة .

ان جريدة الشعب ، التي تمارس ، بفضل التوجيه الذي يعطيها اياه ، تأثيرا كبيرا على الحركة الاشتراكية في كولن ، تتوقف عن الصدور في مطلع ١٨٤٦ لاسباب مالية .

مقتنعا اكثر فأكثر ان المسألة الاجتماعية لا يمكن ان تحل الا بتحويل جذري للمجتمع ، يتقرب دِستر تدريجيا من تصورات ماركس وانجلز ، و ، منذ أواخر ١٨٤٥ ، ينضم اليهما للمشاركة في نضالاتهما .

الفصل الثاني

فر. انجلز
« حالة الطبقة العاملة في انكلترة »

فر. انجلز في بارمن

بعد لقائه مع ماركس في باريس ، من أواخر آب الى أوائل ايلــول ١٨٤٤ ، انجلز يلتحق في بارمن بعائلته التي كان غادرها قبل عامين ذاهبا الى انكلترة . واذ اصبح شيوعيا ، فانه يرى سلفا الصعوبات التـــي ستنشب مع ابيه المحافـــظ والارثوذكسي جدا ، ويحاول باديء بدء تجنب اي سبب نقاش بمزاولته حياة هادئة ومنزوية (١) . ولكن ما ان بدأ يقوم بالدعاية الشيوعية حتى انفجر بين ابيه وبينه

---

١ ــ انظر رسالة انجلز الى ماركس في باريس (بارمن ، أوائل اوكتوبر ١٨٤٤) ، في **ماركس ــ انجلز ــ المؤلفات** [M. E. Werke ، واختصارا NEW] ، جـ٢٧ ، ص ٥ : «ها انا منـذ ثلاثة اسابيع في بارمن ، أتسلّى كما استطيع مع بعض الاصدقاء وعائلة كبيرة العدد ، يوجد فيهـــا لحسن الحظ نصف دزينة من ممثلات لطيفات للجنس الجميل . ليس العمل ممكنا هنا ، لاسيما وان شقيقتي خطبت شيوعيا من لندن ، اميل بلانك ، الذي يعرفه إفربك ، وبالتالي فان كل البيت مقلوب رأسا على عقب . ارى ، على إي حال ، ان عقبات كثيرة ستعترض عودتي الى باريس وانه سيكون

نزاع ، زاده خطورة قرفه المتزايد من صنعة التاجر .

فهو يستفظع هذه المهنة اكثر فأكثر ، اذ ينفر من الاشتراك بصفته ابن صناعي في استغلال الطبقة العاملة . «نزولا عند الحاحات صهري ، وأمام وجوه اهلي الحزينة ، كنت قد سلمت بمزاولة التجارة مرة اخرى وعملت مدة خمسة عشر يوما في المكاتب .... ولكني كنت مشمئزا قبل ان أبدأ ، فالتجارة تقرفني ، بارمن تقرفني ، وكذلك تبذير الوقت . انه بالنسبة لي لامر فظيع بشكل مطلق ان أشارك، ليس فقط كبرجوازي بل اكثر ايضا كصناعي ، في استغلال البروليتاريا . عدة ايام أمضيتها في مصنع ابي كانت كافية لافهامي هذه الشناعة ، التي لم أكن قد فكرت فيها بشكل كاف . كنت حسبت ان لا أبقى هنا الا مدة كتابة شيء ما يستتبع ملاحقتي ويتيح لي ان أعبر الحدود بدون ضجة . ولكن حتى هذا فوق قواي . لو لم يكن عليّ ان أسجل يوما بيوم في كتابي **(حالة الطبقة العاملة في انكلترة)** سلوك البرجوازية الانكليزية المشين ، أعتقد انه لما كان باستطاعتي ان أتحمل ، ولكن هذا على الاقل غذّى غضبي . يستطيع المرء عند الاقتضاء ان يتكيف مع كونه شيوعيا وكونه في الوضع الخارجي برجوازيا ومستغِلا شريطة ان لا يكتب ، ولكن من المستحيل ان يقوم بالدعاوة الشيوعية وأن يكون في الوقت نفسه مستغِلا .... يضاف الى ذلك الحياة في أسرة جُبلت بالارثوذكسية والروح البروسية ؛ هذا كله لا يطاق ، وسأنتهي في هذه الحال الى ان أصير أنا نفسي برجوازيا ــ صغيرا وان أُدخِل هذه الحالة الروحية في الشيوعية» (٢) .

هذه الفوضى الداخلية تزيدها خطورة قصة حب غير سعيدة ، تألمه كثيرا (٣). لكي يتكرر ، يفكر بادىء بدء بالذهاب الى باريس لملاقاة ماركس ، ولكنه يدرك ان هذا غير ممكن مباشرة . يفكر عندئذ بمتابعة دروس في جامعة بون . ووالده ، الذي أدرك انه بات عليه أن يتخلى عن مشروع جعله خلفه ووريثه ، يقبل مبدئيا ، بأمل ان ذلك سيحوله عن الشيوعية (٤) .

عليّ ان اسلّم بالبقاء ستة شهور او عاما كاملا في المانيا . بالطبع سأبذل كل ما في استطاعتي كي أتجنب ذلك ، ولكن ليس عندك فكرة عن المسكّنات والصعوبات التي بها أصطدم» .

من انجلز الى ماركس في باريس (بارمن ، ٢٠-١-١٨٤٥) ، **المرجع السابق** ، ص ١٧ وبعدها : «على كل حال ، ليس عندي هنا اية مناسبة تدعني أنساق مع مزاجي . فأنا أعيش حياة جديرة تماما ببرجوازي عادي ، حياة هادئة مطمئنة ، كلها وقار ، أبقى منزويا في غرفتي ، حيث أعمل ؛ لا أخرج تقريبا ، وأنا عاقل مثل صورة . اذا ما استمرت هذه الحال ، يُخشى ان يغفر لي الرب كتاباتي ويقبلني في الجنة . حتى انني بدأت أتمتع بسمعة طيبة في بارمن» .

٢ ــ من انجلز الى ماركس في باريس (بارمن ، ٢٠-١-١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ١٨ .

٣ ــ **نفس الشيء** ١٩-١١-١٨٤٤ و٢٠-١-١٨٤٥ ، ص ٩ وص ١٤ .

٤ ــ **نفس الشيء** ٢٢-٢/٢٦ الى ٧-٣-١٨٤٥ ، ص‌ص ٢٠-٢٢ .

غير ان التوتر يشتد بين والده وبينه مع سير اظهاره المتزايد الصراحة للشيوعية ، بصورة خاصة بعد اجتماعات إلبرفلد الشيوعية . يرسم عن هذه الاجتماعات لوحة أخاذة وطريفة معا في رسالة الى ماركس : «اني أعيش الان حياة كلب حقيقية اثر الاجتماعات (المقصود الاجتماعات التي كان قد نظمها مع هِس في إلبرفلد) وبسبب الموقف «الفلتان» لبعض الشيوعيين هنا ، وبالطبع أنا أعاشرهم، وقد انفلتت عصبية ابي الدينية ، وقد زادها حدّة تصريحي بأني قررت ترك التجارة نهائيا . وأمام اظهاري لنفسي شيوعيا على المكشوف ، ضوعف هذا التعصب بتعصب برجوازي مساو . تتصور الان حالتي . بما انني عازم على الانصراف في غضون خمسة عشر يوما فانني أتجنب اي نقاش واقبل كل شيء دون ان انطق بكلمة . وبما انهم غير معتادين على مثل هذا من جهتي ، فان هذا يشجعهم في موقفهم تجاهي . اذا وصلتني رسالة شمّوها من جميع وجوهها قبل تسليمي اياها لانهم يشكّون ان الرسائل جميعا آتية من شيوعيين . في الوقت نفسه يتخذون وجوها محزونة تجعلك مجنونا . اذا بقيت في غرفتي أعمل ، فالقضية بالطبع هي الشيوعية ، ويهبوني نفس الوجوه . مهما أفعل ، سواء كنت آكل ، أشرب ، أنام ، أسمع صوتا ، فدائما هذه الوجوه الكالحة اللعينة أمام أنفي ، سواء خرجت او بقيت في البيت ، سكتّ او تكلمت ، قرأت او كتبت ، فدائما يحضر لي هذا الوجه المقيت ، وجه والدي . الى هذا يضاف انه أحمق لدرجة انه يضع في نفس السلة الليبرالية والشيوعية واصفا الاثنين بالثورية ويجعلني بلا انقطاع مسؤولا ، رغم احتجاجاتي ، عن سفالات البرجوازية الانكليزية في البرلمان . كتتويج للمجمتع ، انه فصل التقوى في البيت . منذ ثمانية ايام ، اثنان من أشقائي وشقيقاتي نالا المَيرون واليوم كل البيت يهرول الى المناولة . جسد الرب فعل فعله ، وهذا الصباح الهيئات المكتئبة تتخطى كل تصور . اكمالا للشقاء (كذا) كنت البارحة مساء مع هس في إلبرفلد ، حيث عرضنا لمدة ساعتين المذهب الشيوعي. بطبيعة الحال ، ان غيابي الطويل مساءً كان ثمنه نفس الوجوه . باديء بدء يلمّحون انني لعلي اعتُقلت ، ثم يتشجعون ويسألوني اين كنت . ـ عند هس . ـ عند هس ! يا إله ، يا عظيم ! وصمت ، ثم تشديد وجوه اليأس المسيحي . «اية علاقات اخترت !» ، تنهدات ، الخ ، هذا يفقدك العقل . ليس عندك فكرة عن اللؤم الذي يُستخدم لانقاذ نفسي . لا ينقصني الان الا ان يعلم ابي وجود **العائلة المقدسة** وسيكون قادرا على قذفي خارج المنزل . الى هذا يضاف غمّ ان ارى ان لا شيء مجدٍ مع هذا النوع من الناس ، انهم يتلذذون في تعذيب انفسهم برؤى جهنم ، وأنهم خارج متناول أدنى شعور عدالة . لو لم يكن بسبب والدتي التي لها اساس انساني جميل ولكنها خاضعة حرفيا لوالدي والتي أحبها حبا جما ، لما خطر في بالي لحظة ان أتنازل أدنى تنازل لتعصب واستبدادية والدي . ولكن والدتي، العليلة ، تتقرّض ألما بسببي وهذا يكلفها في كل مرة صداعا يدوم ثمانية ايام . لم أعد أطيق ذلك ، عليّ ان أرحل ، ولا أدري كيف أتحمل الاسابيع القليلة التي

بقيت لي هنا (٥) » .

كانت فاعلية انجلز النظرية في بارمن تسير جنبا الى جنب مع نشاطه السياسي الذي كانت تسنده . موضوع هذه الفاعلية النظرية هو بادىء ذي بدء مواصلة نقد **الهيغليين ـ الشباب** ، وانجلز يتحدث عن ذلك في رسائله الى ماركس الذي صار بالنسبة له أفضل رفيق للفكر والكفاح (٦) .

يحدثه ثانويا عن النجاح الثابت **للحوليات الفرنسية ـ الالمانية** في رينانيا ، عن قلة الاهتمام الذي تثيره **الى الامام** (٧) ، ولكن خصوصا عن جماعة **الاحرار** اي **الهيغليين ـ الشباب** ببرلين ، التي تبدو لم تعد تهم احدا ، ويمارس قريحته على حسابها .

«يُسمع حديث عن خطوات الاشتراكية في سائر أنحاء المانيا ولكن لا ذكر لبرلين في اي مكان . هؤلاء الدهاقنة الصغار سينتهون الى تأسيس ديمقراطية سلمية (كذا) في الهاسنهايد (وهي نوع من ارض بائرة على أبواب برلين) ، في حين كل المانيا ستكون الملكية الخاصة قد ألغيت وسيقفون عند ذلك . سترى انه عما قريب سيظهر فيآخر أعماق البراندنبورغ مسيح جديد سيكيف فوريه بالصلصلة الهيغلية ، سيستنتج الفالانستير من المقولات الازلية ، سيجد فيه مؤسسة أنجبها أخذ وعي الفكرة المطلقة وفيها سيشارك الرأسمال والموهبة والعمل، حسب أسلوب محدد ، في الربح (٨) » .

---

٥ ـ من انجلز الى ماركس (بارمن ١٧ـ٣ـ١٨٤٥) ، **المرجع السابق** ، ص ٢٦ .

٦ ـ من انجلز الى ماركس (بارمن أوائل اوكتوبر ١٨٤٤) ، **المرجع نفسه** ، ص ٨ : «منذ وجودي هنا ، لم أشعر نفسييوما مرتاحا سعيدا كما كنت في الايام العشرة التي أمضيتها بقربك» .

٧ ـ انجلز الى ماركس (بارمن أوائل اوكتوبر ١٨٤٤) ، **المرجع نفسه** ، ص ٦ : «هنا لم يبق حديث عن الاخوة باور ولايعلم احد شيئا بخصوصهم . بالمقابل ما زال القراء ينتزعون **الحوليات** . مقالي عن كارلايل اعطانا سمعة جبارة بين الناس هنا ، بينما ، وهذا امر مضحك ، لم يُقرأ مقالي عن **الاقتصاد** الا قليلا جدا ، ولكن يجب ان لا نعجب لذلك» .

انجلز الى ماركس (بارمن ٢٠ـ١ـ١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ١٦ : «البارحة وصلتني **الى الامام** التي لم أرها منذ رحيلي . بعض كلمات طيبة من برنيس أضحكتني كثيرا .بهذا الفتى يعرف كيف يُضحكك ، وهذا امر نادرا ما يحصل لي في قراءاتي . من جهة اخرى ، ان هذه الجريدة سيئة ، ليست على ما يكفي من الفائدة والتثقيف كي يستمر كثير من الالمان في صرائلها» .

٨ ـ انجلز الى ماركس (بارمن ، ١٩ـ١١ـ١٨٤٤) ، **المرجع نفسه** ، ص ١٣ .

انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٠ـ١ـ١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ١٧ : «آخر هؤلاء «الاحرار» ، ماين وروتنبرغ وأقرانهما لا يدَعون شيئا يحوّلهم عن عاداتهم . كل يوم في الساعة الثانية بعد الظهر ، يذهبون ، كما كانوا يفعلون قبل ست سنوات ، الى مقهى شتيهلي ويغتابون الصحافة . بيد انهم حققوا تقدما ، فقد وصلوا الى **تنظيم الشغل** ولكنهم لن يذهبوا أبعد» .

آتيا الى الحديث عن **العائلة المقدسة** ، يبدي دهشته لكون الكراس المتوقع قد تحول الى مجلد كبير ، ولكنه في الوقت نفسه يبدي فرحه لرؤية ان ذلك اعطى ماركس فرصة ان ينشر أمورا كثيرة كانت ستبقى لولا ذلك في دُرج . انه ايضا مفاجأ بكونه ، رغم مساهمته المتواضعة جدا ، مذكورا من قبل ماركس على الكتاب بوصفه مؤلفا ــ مشاركا . كذلك يخشى ان يسبب له الكتاب ، ولو بسبب عنوانه فقط ــ **العائلة المقدسة** ــ متاعب اضافية مع والده (٩) . وعند تسلمه الكتاب ، يتحمس للطريقة العظيمة التي بها ماركس يصفي الاخوة باور ، ولكنه يخشى في الوقت نفسه ، نظرا لضعف الصدى الذي وجدته **الصحيفة الادبية** بين الجمهور ، ان يكون ماركس قد توسع وأسهب في هذا النقد ، وأن يكون الطابع المجرد للكتاب سببا يجعله غير مفهوم لغالبية القراء (١٠) .

ماكس شتيرنر

ان نقد انجلز يتجه بصورة رئيسية ضد ماكس شتيرنر Maxe Stirner الذي كان ، في كتابه المعنوَن **الوحيد وخاصيته** ، قد دفع الى الحد الاقصى النظران الفلسفي . بما ان نقد شتيرنر سيكون الموضوع الاولي الغالب في **الايديولوجيا الالمانية** ــ فهو يؤلف ثلثيها ــ ، لذا من الضروري أن نحلل هذا الكتاب الذي هو المؤلَّف الهام الوحيد لشتيرنر .

هذا المؤلَّف يمثل الحد الاخير في عملية تذويت الهيغلية ✱ ، العملية الحاصلة في سير انبساط وتطور اليسار الهيغلي . بخلاف ماركس وانجلز اللذين كانا ، في

---

٩ ــ انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٠ــ١ــ١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ١٦ .

انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٢ــ٢٦/٢ ، ٧ــ٣ــ٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ٢٢ .

١٠ ــ انجلز الى ماركس (بارمن ، ١٧ــ٣ــ١٨٤٥) ، **المرجع السابق** ، ص ٢٥ وبعدها : «**النقد النقدي** ــ وأعتقد انني كتبت اليك انه وصل ــ كتاب هائل . مناقشاتك عن المسألة اليهودية وتاريخ المادية والاسرار رائعة وسيكون لها اثر ممتاز . ولكن رغم ذلك الكتاب كبير اكثر مما يجب . الازدراء السلطاني الذي نعلنه ازاء **الصحيفة الادبية** لا يتفق مع اتساع النقد الذي نخصها به . يضاف الى ذلك ان كل القسم الذي يتصل بالنظران وبالكائن المجرد ليس في متناول الجمهور الكبير ولن ينال كثيرا اهتمام القراء . ولكن بعد قولي هذا ، ان الكتاب مكتوب بشكل رائع ويميت من الضحك. باور وأقرانه لن يجدوا شيئا كجواب . حين سينشىء برجرس تقريرا عن الكتاب في الدفتر الاول من مجلة بُتمان ، سيكون بوسعه ان يذكر السبب الذي جعلني لم أساهم الا قليلا في تأليف الكتاب ولم استطع الذهاب الى عمق الاشياء ، ألا وهو قصر مدة اقامتي في باريس» .

[✱ Subjectivrisation ، تحويلها ذاتيا الى ذاتوية ، حذف موضوعيتها وموضوعَوِيتها] .

الوقت الذي كانا فيه يتوجهان نحو الشيوعية ، ينتقلان من المثالية الى المادية ، وبخلاف القسم الاكبر من **الهيغليين الشباب** الذين كانوا يتطورون نحو النظريات الديمقراطية ، كان برونو باور وماكس شتيرنر قد تحولا نهائيا عن النضال السياسي، الامر الذي كان يشدد توجههم صوب فردَوِية فوضوية .

في **الصحيفة العامة الادبية** ، ب. باور ، مقيما الفردية العظيمة في معارضة **الجمهور** ، كان قد بيَّن كيف تتوصل الى كيان استقلالي كامل بتحررها من قبضة الدولة والمجتمع اللذين يظهر عدمهما حين نقيسهما مع كلية وعي الذات . شتيرنر يدفع الى نهايته هذا الدفاع عن الفردية ، راميا ليس فقط أولوية او غلبة الدولة والمجتمع ، بل ايضا هيمنة الروح . واضعا ، بعد كيركفارد ، ضد هيغل الذي لا يهتم الا بالكلي ، بالعام ، بوصفه تعبير الروح ، ما يوجد من خاص ، شخصي ، وحيد ، في كل فرد ، انه يعتبر انسانا حقيقيا لا الانسان الكلي ، بل الفرد الخاص، الأنا ، لا الأنا المطلق لفيخته ، بل الانا الذي بوحدانيته يتميز عن الانَوات الاخرى (١١) .

من هنا بالنسبة للفرد الخاص المتميز بوحدانيته ضرورة ان ينعتق من كل ما من شأنه ان يهدد او ان يحد هذه الوحدانية .

هذا النضال التحرري الذي يخوضه الانسان كي يؤكد نفسه بوصفه انا خاصا وفريدا يؤلف في نظر شتيرنر جوهري التاريخ . وهذا يسوقه الى تقسيم التاريخ الى طورين كبيرين : طور ما ــ قبل ــ التاريخ حيث البشر لم يبلغوا بعد الفردية وطور التاريخ الانسانيَ الحقيقي حيث يتأكدون كأفراد في حريتهم التامة وفي فردانيتهم .

مستوحيا هيغل الذي كان قد بيَّن في **فينومينولوجيا الروح** ان انبساط هذا الاخير يمر بمراحل ثلاث : الوعي الحسي ووعي الذات والروح ، شتيرنر يعرض ان المراحل الثلاث في تطور الانسان موسومة بالواقعية ، التي تميز الطور الذي فيه الغلبة للطبيعة (الوعي الحسي) ، بالمثالية التي تميز الطور الذي فيه الغلبة للروح (وعي الذات) ، وأخيرا بالانانية (التي توازي مرحلة الروح عند هيغل) التي تميز الطور الذي فيه يتحرر الفرد من هيمنة الطبيعة وهيمنة الروح معا .

بمساعدة هذه المجردات الثلاثة : واقعية ، مثالية ، أنانية ، يعمل شترنر في تلوّنات لا نهاية لها بغية اعطاء لوحة عجيبة عن التاريخ الانساني .

مرتكزا بادىء بدء على النشوء والتطور الفيزيولوجي للانسان ، يبين ان الطفل الذي لا يتحرر من العالم المحسوس واقعي ، ان الشاب الذي يسعى الى اكتشاف جوهر الاشياء ويجده في الروح مثالي ، وان الرجل اخيرا الذي يرفض قبضة عالم

---

١١ ــ انظر م. شتيرنر : **الوحيد وخاصيته** ، ترجمة روكلير ، باريس ، ستوك ، ١٩٠٠ ، ص ص ١٥٩ ــ ١٦١ ، ٢١٤ ــ ٢١٧ ، ٤٤٣ .

الاشياء وقبضة عالم الافكار على حد سواء أناني (١٢) .

التاريخ الانساني يقدم انبساطا مماثـلا . العصر القديم ، الذي هو طور طفولة البشرية ، يتميز بالواقعية . ففي هذا الطور لا يستطيع البشر الخروج من غلبة الطبيعة (١٣) . العصر الوسيط ، الذي يمتد بين العصر القديم والعالم الحديث ، يؤلف يفاعة البشرية المطبوعة مثل مراهقة الانسـان بسيطرة الفِكرَوِيـة اي المثالية (١٤) . متحررين من قبضة الطبيعة ، البشر يرون في الروح جوهر العالم، ولكنهم يسقطون بذلك عينه تحت سيطرته . عهد المثالية هذا تدشنه المسيحية التي تخفض المادة لصالح الروح (١٥) . هذه الرَوحنة للعالم تواصلها العقلانية (١٦) اولا، ثم الفلسفة النظرانية الالمانية التي تجعل الروح كيانا ، الفكرة المطلقة ، خالقـة العالم (١٧) . بهذا التأليه للروح ، اصبحت المثالية خالقة أوهام وفي نفس الوقت اداة سيطرة واضطهاد (٨) .

الطور الثالث في تاريخ البشرية هو طور الانانيـة ، حيث الانسان ، متحررا في آن معا من هيمنة الطبيعة وهيمنة الروح ، يخضعهما لارادته . واصلا هكـذا الى كيان ذاتي كامل ، الانسان يصير فردا أنانيا لا يطيع سوى غاياته ١٩) .

هذا الطور بدأ بالثورة على كل المؤسسات القائمة : كنيسة ، دولة ، مجتمع ، التي تمنح نفسها حق الحد من استقلال الفرد . ويسِمها في ايامنا بشكـل خاص النقد الذي سلّطه ب. باور وفويرباخ على العقائد . ومع اعترافه بمأثرتهما ، يفكر شتِرنر انهما أخطآ في كونهما لم يتعرضا الا للوجه الديني في سيطرة الروح دون سواه وفي كونهما نقدا الدين باسم كيانات ـ هويّات : «وعي الذات» ، «جوهـر الانسان» ، ليست شيئا آخر سوى بدائل عن الله .

في نضاله ضد العقيدة ، ب. باور دمر فعلا الايمان بمفاهيم مطلقة ، ولكنه ظل امينا للتصور الهيغلي عن انبساط فكر قائم فوق الطبيعة صار عنده الوعـي الكلي ـ الكوني ، وهو الانبساط الذي اليه يقلص التاريخ الانساني (٢٠) .

فويرباخ تبيَّن عن جذرية أشد في تدمير العقائد ولكنه اذ اعتبر النوع الانساني

---

١٢ ـ **المرجع نفسه ، حياة انسان** ، ص‌ص ٨ـ١٤ .
١٣ ـ **المرجع نفسه** ، ص ٢٠ .
١٤ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٢٠ ، ٢١ ـ ١١٠ .
١٥ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٢٦ ، ٢٩ .
١٦ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٩٨ـ٩٩ .
١٧ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٨٠ ، ٩٩ ـ ١٠٠ .
١٨ ـ **المرجع نفسه** ، ص ٣٤ .
١٩ ـ **المرجع نفسه** ، ص ٨١ .
٢٠ ـ ص‌ص ١٧٦ ـ ١٧٧ .

جوهر الانسان فقد جعله ايضا بديلا عن الله وأحل محل الايمان بالله الايمان بالبشرية (٢١) .

بقي ان نقوم بعدهما بنقد الخصم الرئيسي للفرد ، بنقد المثالية ، التي تحوّل الروح الى قوة خارقة قائمة فوق الطبيعة ، الى إله جديد يعارض البشر ويقهرهم (٢٢) .

فبإعطائها طابعا مطلقا لمفاهيم من نوع روح العالم ، الوعي الكلي ، جوهر الانسان ، الحق ، الدولة ، المجتمع ، الانسانية ، المثالية تحوّلها الى **فِكَر ثابتة** idées fixes ، جاعلة هكذا من العالم مملكة أشباح وأطياف ومن البشر الذين يعبدونها ممسوسين (٢٣) .

النضال ضد المثالية ، اي ضد هيمنة الروح ، يقتضي ليس فقط نقدا للدين والفلسفة ، بل ايضا وخاصة نقد جميع العقائد السياسية والاجتماعية ، التي يعني بها شترنر ـ وهذا ما يميز جيدا توجهه السياسي الجديد ـ لا النظريات الرجعية بل الليبرالية السياسية والاشتراكية والانسية التي يشملها تحت كلمة عامة هي «الليبرالية» . كالدين ، الليبرالية لها كنتيجة جوهرية اخضاع الانسان لمفاهيم . فهي تحل محل الله كائنا أسمى جديدا : الدولة ، المجتمع ، الانسانية ، يصير ، مثل الله ، أداة اضطهاد (٢٤) .

الليبرالية السياسية تنادي بعبادة الدولة ، القوة السلطانية التي يخضع لها كل شيء (٢٥) . الليبرالية الاجتماعية ، الاشتراكية ، تسلم ، هي ، الفرد لطغيان المجتمع . بتحميلها المجتمع وحده حق الملكية ، تجعل من كل فرد صعلوكا (٢٦) . اما الليبرالية **الانسانية** ، أما الانسانوية ، فتضحي هي ايضا بالفرد على مذبح تجريد : الانسانية (٢٧) .

الكفاح المحرر الذي سيدمر كل الفِكَر **الثابتة المتسلطة** لا يمكن ان يحصل بواسطة ثورة ، فالثورة عمل جماعي يسيَّر باسم مبادىء عامة لا يمكن توفيقها مع نوعية الافراد الخصوصية . لا يكمن ان يرتدي الا شكل ثورة فردية ، بها الفرد

---

٢١ ـ صص ٣٥ ـ ٣٦ ، ٥٣ ، ٢٠٩ .

٢٢ ـ صص ٣٠ ـ ٣٧ ، ٨٠ .

٢٣ ـ صص ٣٧ ـ ٥٢ .

٢٤ ـ صص ١١٥ ـ ١٧٢ ، ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

٢٥ ـ صص ١١٣ ، ١١٥ ـ ١٣٧ : الليبرالية السياسية ، صص ٢١٠ ـ ٢١٢ ، ٢٦٨ ، ٢٧٢ ـ ٢٨٢ ، ٢٨٦ ـ ٢٨٧ .

٢٦ ـ صص ١٣٧ ـ ١٤٧ : الليبرالية الاجتماعية .

٢٧ ـ صص ١٤٧ ـ ١٧٢ : الليبرالية المحبة للبشرية .

ينفي ويرمي كل الافكار وكل العقائد التي تعارض استقلاله (٢٨) .

بما ان الاضطهاد الذي يثقل كاهل البشر ليس معزى الى علاقات اقتصادية واجتماعية ، بل الى اسباب من مملكة الروح ، فانه ينجم عن ذلك ان التحرر من هذا الاضطهاد حاصل في مملكة الوعي ، انه يقع على عاتق الفكر وحده ويتقلص الى نفي لمفاهيم ، لفكَر ثابتة ، صارت هي أعداء الفرد الحقيقيين الوحيدين .

كي يحرر نفسه ويؤكدها كشخصية ، يكفي للفرد أن ينفي الطابع المقدس المعزو للافكار والذي يجعلها قوى خارقة (٢٩) وان يفعل بوصفه أنانيا خالصا لا يدع نفسه يُقاد الا من قِبَل مصلحته وحدها ولذته وحدها (٣٠) .

الانانية ، التي أدانها فويرباخ بوصفها علامة نزع الانسانية ، تصير هكـــذا الصفة الجوهرية للفرد الذي يجب عليه ، بعكس ما فعله الى هنا البشر ، الذين ناضلوا في سبيل اشياء هي غريبة عنهم : الله ، الحقيقة ، الحـــق ، الحرية ، الانسانية ، أن لا يدافع الا عن قضيته هو (٣١) .

لهذا الغرض ، عليه ان ينبذ هيمنة العالم المحسوس ، الطبيعة ، وهيمنـــة الروح سواء بسواء . يتحرر من الاولى بعدم تحميله معنى وقيمة لعالم الاشياء الا بالنسبة الى الأنا ، مما يجعل ان هذا العالم يتغير حسب أحكام الأنا والاهـــداف التي يقترحها على نفسه (٣٢) . والطبيعة تفقد هكذا مع طابعها محض الموضوعـــي قبضتها على البشر . على اي حال فان النضال الجوهري الذي يخوضه الانانـــي مصوّب ضد الطبيعة أقل منه ضد الروح . والاناني يتحرر من هيمنة هذا الروح بتعريته المفاهيم ، الفِكَر **الثابتة** ، من طابعها المقدس (٣٣) . هذا يتصل بادىء ذي بدء بالفكر ، الذي يعطى ، بدون حق ، طابعا مطلقا ، اذ ان الفكر ما هو الا نتـــاج ملَكة الفهم عند البشر (٣٤) .

منكرا على الفكر كل قيمة مطلقة ، الاناني لا يعترف لا بحقيقة أزلية — فكـــل حقيقة ليست ذات معنى وقيمة الا بالنسبة الى الأنا (٣٥) — ، ولا بأخلاق مطلقة ، فالخير والشر ليس لهما معنى للأناني ، الذي يضبط أعمالـــه لا بحسب مبادىء أخلاقية بل بموجب مصلحته ولذته (٣٦) . انه لا يسمح لا لتفكيراته ولا حتى لعواطفه

---

٢٨ — ص‌ص ٢١٩ ، ٣٨٧ — ٣٨٨ .

٢٩ — ص‌ص ٨٢ — ٨٤ .

٣٠ — ص ٨٨ .

٣١ — ص‌ص ١—٤ ، ٦٩ ، ٤٠٠ .

٣٢ — ص‌ص ٤١١ — ٤١٤ .

٣٣ — ص‌ص ٨٢ وبعدها .

٣٤ — ص‌ص ٤١٩ — ٤٢٠ .

٣٥ — ص‌ص ٤٢٦ — ٤٢٧ ، ٤٣٣ — ٤٣٤ .

٣٦ — ص‌ص ٥٦ وبعدها ، ٨٤ ، ٢١٣ ، ٤٣٨ — ٤٣٩ .

أن تمارس عليه سلطة مقررة : فهو ينبذ أفكاره حين تكف عن أن تناسبه ويعتمدها من جديد حين يحلو له . وكذلك الامر بالنسبة لعواطفه وحتى الحب الذي ليس له سوى أداة لذته (٣٧) . اذ لا يعترف بعقائد ، بأخلاق ، بواجبات ، بالتزامات ، الاناني ينبذ سلطة الدولة التي هي ، في جميع أشكالها ، ذات طابع استبدادي(٣٨)، وسلطة المجتمع الذي يُخضِع الفرد لقواعده (٣٩) ، وهو بالتالي يرفض الدخول او الاستيعاب في حزب او في تنظيم اجتماعي (٤٠) .

محررا من كل واجب ومن كل رابط ، يستطيع الاناني ان يكرس نفسه بشكل تام لانماء شخصيته ، لتطوير أناه منظورا اليه في وحدانيته . هذا لا ينتج عن الحرية التي لها بذاتها طابع سلبي ما دامت ليس لها التملك كموضوع بقدر ما ينتج عن قدرة الفرد على ان يتملك كما يشاء كل ما يتيح له ان يتمتع بالحياة تمتعا مليئا (٤١) .

من هذه القدرة على رفض كل تحديد او تقرير [من قِبل الغير] وعلى عدم اطاعة سوى ارادته تنبع قوة الأنا ، قوة التوحيد (٤٢) ، وهي بالواقع قوة نظرية تماما ، ومن هذه القوة ينبع حقه في ان يتملك ما يعجبه (٤٣) ، تلك القوة وهذا الحق اللذان يجعلانه سيد العالم (٤٤) .

رغم ان الاناني لا يقيم حسابا الا لمصلحته وحدها ولذته وحدها ، فانه بالواقع لا يعيش وحده ، بل في جماعة وعليه ان يتكيف بطريقة ما مع الحياة في مجتمع (٤٥) . وهو يحقق ذلك برفضه المجتمع الراهن الذي يضطهد الفرد وبعدم قبوله الحياة الاجتماعية الا في شكل اجتماع حر لافراد يظلون أسيادا مطلقين لافعالهم (٤٦) .

مُعتقا هكذا من كل ما كان من شأنه ان يقيد استقلاله ، الوحيد يستطيع ان يتعاطى لذة العيش تماما حسب مشيئته (٤٧) .

---

٣٧ – ص ٣٦١ .

٣٨ – ص‌ص ٢٣٢ – ٢٣٨ .

٣٩ – ص ١٣٩ .

٤٠ – ص‌ص ٢٨٢ – ٢٨٥ .

٤١ – ص‌ص ١٨٦ – ٢٠٤ .

٤٢ – ص‌ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

٤٣ – ص‌ص ٢٢٢ – ٢٣٢ ؛ ٢٤٥ – ٢٤٦ .

٤٤ – ص‌ص ٢٥١ – ٢٥١ ، ٣٢٨ .

٤٥ – ص‌ص ١٧٤ – ١٧٥ .

٤٦ – ص‌ص ٣٧٥ – ٣٨٤ .

٤٧ – ص‌ص ٣٩٣ – ٣٩٥ .

في هذا المؤلَّف ، كان شتيرنر يقود الى نهايتها الفردَوِية الفوضوية التي كان قد توجه نحوها مع ب. باور ، منفصلا عن الليبرالية ونافضا يده من كل عمل سياسي . بنفي كل واقع ، النفي الذي كان من قبل يطبع **النقد النقدي** لبرونو باور ، كان شتيرنر يجعل من الأنا مفهوما خالصا ، أقنوم روح خالصة ، ومن العالم اسقاط أشباح . مقلصا الانسان الى أنا مطلق والفاعلية الانسانية الى تصفية تصورات باطلة ، أفكار **ثابتة** ، كان يدفع الفلسفة التأملية المضارِبة الى درجتها الاخيرة .

كانت فلسفته بالواقع التعبير الايديولوجي لموقعه الاجتماعي . فتمجيده للفرد المعتبَر في فردانيته يتفق مع ذهنية البرجوازي ـ الصغير الذي بما انه يعي عجزه الكامل ازاء الدولة والمجتمع فانه يقلص معارضته الى ثورة محض لفظية بتأكيده استقلاله المطلق . وهذا التمجيد كان يحدده ايضا عجز شتيرنر عن تنظيم حياته التي كانت سلسلة اخفاقات ، العجز الذي كان شتيرنر يسعى نوعا ما الى تعويضه بتمجيد قدرة الأنا الكلية .

ان نقد انجلز لشتيرنر يدخل في سياق مجمل الانتقادات التي أثارها **الوحيد وخاصيتّه** ، الذي كان له دوي كبير بين **الهيغليين الشبان** ، شيليغا Szeliga دافع عن ب. باور مؤكدا ان شتيرنر يستلهم مذهبه دون ان يستطيع تجاوزه (٤٨).

ب. باور كتب من جهته انه لئن نجح شتيرنر في فضح فراغ وبطلان الليبرالية السياسية والاشتراكية والانسية فانه قد فشل في هجماته على **النقد النقدي** وبيَّن بدفاعه عن الوحيد انه لم يتحرر من العقدية [الدوغمائية] (٤٩) .

روجه ، بالعكس ، مدفوعا بالحقد على الشيوعية ، أفاض في رسائله ثناء على شتيرنر ، الذي يشكل دحضه للشيوعية ، على حد قوله ، فعل تحرير حقيقيا . وقد شدد هذا الثناء في كتابه المعنون **سنتان في باريس** ، حيث أكد على اهمية الدور الذي لعبه شتيرنر في تطور المانيا من ١٨٤٢ الى ١٨٤٥ (٥٠) .

---

٤٨ ـ انظر **شيليغا** ، الوحيد وخاصيته لماكس شترنر ، في **أوراق المانيا الشمالية من اجل النقد والادب والتسلية** ، برلين ، اذار ١٨٤٥ ، الدفتر ٩ ، ص ص ١ ـ ٣٤ .

٤٩ ـ **(ب. باور)** ، تحديد طابع لودفيغ فويرباخ ، **في مجلة فيغاند الفصلية** ، جـ٣ ، ص ص ٨٦ ـ١٤٦ . هذا المقال ، الذي كان يحوي ايضا جوابا على هجمات كتاب **العائلة المقدسة** ، كان آخر تظاهرة **للنقد النقدي** .

٥٠ ـ انظر **آ. روجه : مراسلات ومقالات لسنوات ١٨٢٥ ـ ١٨٨٠** ، جـ١ : **١٨٢٥ ـ ١٨٤٧** ، برلين ١٨٨٦ .

آ. روجه الى فروبل (باريس ، نوفمبر ١٨٤٤) ، ص ٣٧٩ .

آ. روجه الى فروبل (باريس ، ٦ـ١٢ـ١٨٤٤) ، ص ٣٨٢ .

آ. روجه الى والدته (باريس ، ١٧ـ١٢ـ١٨٤٤) ، ص ٣٨٦ .

فويرباخ نفسه وجد للوهلة الاولى كتاب شتيرنر ، رغم هجماته ضد الانسية، كتابا عبقريا بسبب تمجيده للحرية (٥١) . واذ وصل الى التفكير في اعتراضات شتيرنر ، رد عليها نافيا الطابع المجرد للانسية التي ليست على حد قوله سوى تعبير الاشتراك الانساني (٥٢) .

على هذه الانتقادات التي انضمت اليها انتقادات هس ، أجاب شتيرنر بأن المرء حين ينطلق من مفهوم عام ، من الفكرة المطلقة، من وعي الذات، من جوهر الانسان، وهي جميعا نفي الانسان الحقيقي ، الفرد ، الأنا ، فانه يعجز عن تعريف هذا الاخير الذي لا يمكن ان يُفهم الا في وحدانيته (٥٣) . اما هس ، فقد كان شتيرنر يلومه على كونه يعارض سطحيا الانانية بالاشتراكية ، دون ان يرى ان الانانية تخدم في آن معا كأساس للفردَوِية التي تذهب من مبدأ ان العزلة اكثر نفعا للانسان من التعاون وكأساس للاشتراكية التي تفكر بالعكس أن التعاون هو الاصلح له والاكثر فائدة (٥٤) .

نظرا الى انه بنقد الليبرالية والاشتراكية والانسية ، اي بنقد كل حركة تقدمية ، كان شتيرنر ، مثل ب. باور ، يساعد الرجعية ، فقد شعر ماركس وانجلز بواجب ان يصفياه ، كما فعلا قبل قليل مع ب. باور في **العائلة المقدسة**. هذا النقد سيكرسان له القسم الاكبر من **الايديولوجيا الالمانية** .

ان نقد شتيرنر سيكون قبل ذلك موضوع رسائل متبادلة بين انجلز وماركس وهس ، وهذا التراسل هو نوعا ما مقدمة النقد الوارد في **الايديولوجيا الالمانية** .

هذه الرسائل تظهر بوضوح اختلاف درجات التطور الايديولوجي لماركس وانجلز وهس .

واضعا من الان فصاعدا في مركز تصوراته الدور المقرر الذي تلعبه **البراكسيس** ، اي فاعلية الانسان المنتجة في تطور المجتمع والتاريخ ، ماركس يرفض ، بالمبدأ ، مذهب شتيرنر الذي اذ يعتبر الفرد خارج علاقاته الاجتماعية يقلصه الى أنا مجرد ، الامر الذي يفسر شطحاته عن حرية وقوة وحق الوحيد .

آ. روجه : **سنتان في باريس . دراسات وذكريات** . الجزء الاول والثاني . انظر بشكل خاص، جـ٢ : نقد الليبرالية والاشتراكية والانسية . والانانية والفاعلية العملية : انا والعالم .

٥١ — انظر بولن Bolin : **ل. فويرباخ ، فعله ومعاصروه** ، شتوتغارت ، ١٨٩١ ، ص ١٠٦ .
ل. فويرباخ الى شقيقه ١٣–١٢–١٨٤٤ .

٥٢ — انظر **فويرباخ** ، حول كتاب «جوهر المسيحية» بالنسبة الى كتاب «الوحيد وخاصيَّته»، في **مجلة فيغان الفصلية** ، ١٨٤٥ ، جـ٢ ، ص‌ص ١٩٣ — ٢٠٥ .

٥٣ — انظر م. شتر . (شترنر) ، نقاد شترنر ، **مجلة فيغاند الفصلية** ، لايبتسيغ ، ١٨٤٣ [؟ — ١٨٤٥ ، ١٨٤٦ ؟] ، جـ٣ ، ص‌ص ١٤٧ — ١٩٤ ، بخاصة ص‌ص ١٤٧ — ١٧٠ .

٥٤ — عن هس ، انظر **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٧٣ ، ١٨٦ — ١٩٤ .

انجلز ، الذي لم يكن بعد قد وصل الى تصور للمادية التاريخية مُقام بنفس المتانة ، لم يكن يستطيع ان ينقد شترنر نقدا بهذا العمق وهذه الجذرية ، من هنا تردداته في الحكم الذي يصدره عليه .

هس ، الذي كان بخلاف ماركس وانجلز لا يقوم بتحليل دقيق للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والذي كان بحكم ذلك عاجزا عن التحرر من المثالية والدوغمائية ، كان في مقالاته كما ايضا في نقده لشترنر يواصل العمل بالمفاهيم الفويرباخية ، مفاهيم جوهر الانسان والانانية والغيرية .

منذ صدور كتاب شترنر الذي كان الناشر فيغاند قد أرسل اليه اوراقه الجيدة ، انجلز يفتتح المناظرة حوله في رسالة الى ماركس بتاريخ ١٩-١١-١٨٤٤ (٥٥) .

بتصوره الانسان في شكل أنا مطلق، فرد منعزل عن الناس الآخرين، التصور الذي يجعل كتابه انعكاس المجتمع البرجوازي الواقع تحت هيمنة التزاحم والانانية ، شترنر ، دون ان يريد ذلك ، قد سلَّط الضوء على لاإنسانية هذا المجتمع لدرجة انه تخرج منه ضرورة جلية ، ضرورة تدمير هذا المجتمع واقامة مجتمع شيوعي في مكانه (٥٦) .

رغم الرفض الشكلي - القطعي لمبدأ الكتاب بعينه ، كان انجلز يعترف لشترنر بمأثرة كونه ، بنقده انسية فويرباخ المجردة وبدفاعه ، مهما كان نابيا ، عن الفرد، قد بيَّن انه لكي نصل الى تصور صحيح للانسان يجب ان ننطلق لا من الانسان المجرد المعتبَر في عموميته بل من الانسان الواقعي ، التجريبي [غير النظري ، الحسي ، الاختباري] ، الذي يمثله الفرد (٥٧) . ينبغي هكذا ان نرتكز في دراسة

---

٥٥ - انظر م.ا.م (M.E.W = ماركس - انجلز - المؤلفات) ، ج٢٧ ، ص ص ١١ - ١٣ .

٥٦ - ايضا م.ا.م. ، ج ٢٧ ، ص ١١ : «هذا العرض للانانية ليس شيئا آخر سوى ابراز واضح وواعٍ لما يؤلف جوهر المجتمع الحاضر والانسان الراهن . لذا فان الكتاب مهم ، أهم مما يظن هس مثلا . لا يجوز ان نتجاهله ببساطة ، يجب بالعكس ان نستخدمه لاظهار كل جنون الازمنة الحاضرة ولتبيان ، **بأخذنا نقيضه** ، ان هذه الانانية ، مدفوعة هكذا بشكل واعٍ الى ما بعد الحد، لا يمكن الدفاع عنها بوصفها كذلك ولا بد ان تتحول الى شيوعية» .

٥٧ - **المرجع نفسه** ، ص ص ١١ وبعدها : «شتيرنر على حق حين يرفض «انسان» فويرباخ ، على الاقل كما يتصوره هذا الاخير في **جوهر المسيحية** . **انسان** فويرباخ مشتق من الله ، بواسطة الله وصل فويرباخ الى **الانسان** ، الذي يحتفظ عنده ، بحكم ذلك ، بهالة التجريد اللاهوتية . الوسيلة الحقة للوصول الى الانسان هي العمل بكيفية معاكسة . يجب ان نذهب من الأنا ، من الفرد التجريبي ، العياني ، لا لكي نبقى عنده ، مثل شترنر ، بل لكي نبلغ الانسان الواقعي . الانسان ليس ابدا سوى شبح حين لا تكون قاعدته الانسان الاختباري . باختصار ، يجب ان ننطلق من التجريبية والمادية ، كي تستجيب تصوراتنا ، لاسيما تصورنا الانسان ، لشيء ما حقيقي . يجب ان نشتق العام من الخاص ، ولكن ليس بكيفية مجردة او على نحو نظراني كما فعل هيغل» .

الانسان والتاريخ على الانسان الفردي ، لا على الأنا المعزول لشترنر ، بل على الفرد معتبرا في علاقاته الاجتماعية ، وأن نرى مع شترنر لا في الحب بل في الانانية نابض الفاعلية الانسانية الرئيسي . هنا ايضا ، يجب ان لا نعتبر ، كما يعتبر شترنر ، الانانية بشكل مجرد ، وأن نجعلها صفة مطلقة ، بل يجب ان نرى ان الانانية في نهاية المطاف تقود الانسان ، بواسطة السعي وراء السعادة ، الى الحب، الذي يشكل اساس الحياة الاجتماعية ويحوّل الانسان في آخر الحساب الى فرد نزيه وغيري (٥٨) .

هذه المحاولة لوضع أنانية شترنر ، بتكييفها مع الحياة الاجتماعية ، في خدمة الشيوعية ، لا يبدو انها كانت تلائم ذوق ماركس ، فماركس ألذي لا يفصل الافراد عن علاقاتهم الاجتماعية ما كان يستطيع الا ان يرفض بوصفها محض صناعة جُمل مجموع تصورات شترنر . ولا شك انه من وجهة النظر هذه كان يريد ان ينشىء بنفسه نقدا لشترنر ، ينشره في **الى الامام** ، وهذا المشروع لم يتحقق نظرا لزوال الجريدة المذكورة (٥٩) .

أجاب ، نوعا ما بقسوة ، على رسالة انجلز ، الذي ، بعد استلامه الجواب ، كتب اليه يقول انه ، بعد التفكير ، يشاطر الان تماما آراءه بصدد شترنر ، وأخبره في الوقت نفسه ان هِس هو ايضا قيد تحرير نقد لشترنر (٦٠) .

ان نقد شترنر يشكل مع نقد باور موضوع كراس صغير بعنوان **آخر الفلاسفة**،

---

٥٨ ــ انظر **المرجع نفسه** ، ص ١١ وبعدها : «يجب في المقام الثاني ان نقول له ، لشترنر ، ان الفؤاد الانساني مباشرة نزيه ومحمول على التضحية بحكم أنانيته ذاتها ... ان الشيء الحق في مذهبه هو انه لكي نرفع قضية ما يجب علينا اولا ان نجعلها موضوع ميولنا الانانية ... هكذا، بهذا المعنى ، بدافع الانانية نحن شيوعيون ونريد ان نكون **بشرا** وليس محض أفراد ... اذا كان **الفرد** الواقعي هكذا هو القاعدة الحقيقية ... للانسان كما نفهمه ، يكون بدهيا ان الانانية ، لا ببساطة الانانية الشترنرية ذات الطابع الثقافي الفكري ، بل ايضا **أنانية الفؤاد** ، هي ما يجب ان يكون نقطة انطلاق حبنا للانسانية ، والا فان هذا الحب يطفو ويتماوج في الهواء» .

٥٩ ــ انظر ماركس الى هـ. بورنشتاين (باريس ، ديسمبر ١٨٤٤) ، **المرجع نفسه** ، ص ٤٣٢ .

٦٠ ــ انظر انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٠-١-١٨٤٥) ، **المرجع نفسه**، ص ١٤ . «أما بخصوص شترنر ، فأنا مع أريك تماما . حين كتبتُ اليك كنت ما أزال تحت الانطباع المباشر اكثر مما يجوز . منذ ذلك الوقت وضعته نوعا ما جانبا ، استطعت ان أفكر فيه على نحو أفضل ، وأجد فيه الان ما تجده انت . هس ، الذي ما يزال هنا والذي تحدثت اليه قبل اسبوعين في بون ، وصل ، بعد الترددات ، الى نفس النتائج التي وصلت انت اليها . قرأ لي مقالا عن كتاب شترنر ، مقالا سينشره قريبا . دون ان يكون قرأ رسالتك يكتب نفس الشيء . تركت له رسالتك لانه يريد ان يستخدم بعض مقاطعها وأنا مضطر اذن ان أجيب عليها غيبا» .

كتبه هس في مطلع ١٨٤٥ وصدر في تموز من السنة نفسها (٦١) .

هذا الكراس سبقته مناظرة بين روجه وهس . عند عودته من سويسرة ، في ٢٢–١–١٨٤٥ ، كان روجه قد وجد رسالة من هس ، يلومه فيها لكونه أصبح غير وفيّ لقضية الحرية ويخبره بأنه قيد كتابة نقد لشترنر . في جواب حريف ، أبدى روجه دهشته لرؤيته هس يهاجم شترنر ، نظرا الى انه يطمح مثله الى تحقيق الحرية ، مع هذا الفرق الوحيد وهو انه يعالج مشكلة الحرية من وجهة النظر الاجتماعية في حين ان شترنر يعتبرها من وجهة النظر الفردية . وامتدح ، بهذه المناسبة ، شترنر لكونه دحض الشيوعية بشكل عظيم ووجّه الى هس لوم الانضمام الى هذا المذهب (٦٢) .

في مناظرته مع ب. باور وشترنر ، هس ينطلق من فكرة أن حل مشكلة العلاقات بين الفرد والمجتمع يشترط حذف عزلة البشر . لكونهما أنكرا ذلك ، لا ب. باور ولا شترنر استطاعا ان يحلا هذه المشكلة . فكلاهما ينطلقان في تصوراتهما لا من الانسان المعتبَر في علاقاته الاجتماعية ، بل من الفرد المنعزل والاناني ، المعارض للمجتمع ، مع هذا الفرق الوحيد وهو ان ب. باور في مدحه للانانية يقصد بالاحرى الانانية في وجهها النظري بينما شترنر في مدحه للانانية يعتبرها بالاحرى في وجهها العملي (٦٣) .

ان التمجيد الذي ينشئه شترنر عن الوحيد ليس في الواقع شيئا آخر سوى تمجيد المجتمع البرجوازي (٦٤) ، حيث الانانية ، اذ تحكم وتسود ، تولّد ، مع انفلات جميع الاهواء ، الحرب بين البشر (٦٥) .

لقد رأى فويرباخ في التناحر بين الفرد والنوع ، اي المجتمع ، اساس الدين، حيث يتخذ هذا التناحر شكل تعارض بين الانسان والله . في معارضة الدين الذي يستتبع انخلاع الجوهر الانساني في الله ، فويرباخ وضع تصورا إنسيا مؤسسا على اتحاد الافراد في الجماعة او الاشتراك الانساني ، بحذف انعزال وأنانية البشر . الا انه فشل في مشروع عرض كيف يحصل الاندماج أو الاستيعاب الفعلي للافراد في النوع ، اي في الجماعة المشتركة (٦٦) التي لا يمكن ان تتحقق

---

٦١ – م. هس : **آخر الفلاسفة** ، دارمشتادت ، ١٨٤٥ . انظر م. هس : **الكتابات الفلسفية والاشتراكية** ، **مرجع مذكور سابقا** ، ص ص ٣٧٩ – ٣٩٣ .

٦٢ – رسالة هس الى روجه غير معروفة الا بواسطة جواب روجه . انظر **روجه : سنتان في باريس** ، **مرجع مذكور** ، ص ص ٤٠٠ – ٤٠٤ . روجه الى هس (أواخر يناير ١٨٤٥) .

٦٣ – م. هس : **آخر الفلاسفة** ، **مرجع مذكور** ، ص ص ٣٨٩ – ٣٩١ .

٦٤ – **نفس الشيء** ، ص ٣٩٢ .

٦٥ – **نفس الشيء** ، ص ٣٨٧ وبعدها .

٦٦ – **المرجع نفسه** ، ص ٣٨٤ . في هذا النقد لفويرباخ ، هس يلتقي مع شترنر ، **الذي كان** ،

الا بالاشتراكية (٦٧) . فويرباخ يدرك ذلك على اي حال ، اذ انه يتوجه نحـــو الاشتراكية ، في حين ان باور وشترنر المعزولَين في تجريداتهمـــا يحكمان على ذاتيهما بأن يبقيا آخر الفلاسفة (٦٨) .

نرى من هذا الكراس ، وكذلك المقالات الاخرى لـ هس ، كل الفرق الذي كان يفصله منذئذ عن ماركس وانجلز . في حين انهما يجهدان اكثر فأكثر لاسناد تصوراتهما على تحليل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، كان هو مستمرا فـي العمل بمفهومي الانسية والانانية الفويرباخيين ، الامر الذي لم يكن يتيح له الخروج من المثالية والطوباوية .

هذا النقد لشترنر ، الذي كان يعقب بصورة فورية تقريبا نقد ب. باور على يد ماركس وانجلز في **العائلة المقدسة** ، يشكل نوعا من تمهيد لتصفيــة الحساب العامة مع الفلسفة التأملية المضارِبة ومع المثالية في **الايديولوجيا الالمانية** .

التحريض الشيوعي لانجلز في رينانيا

كما بالنسبة لماركس ، الدعاوة والفاعلية الثوريتان كانتا بالنسبة لانجلز شرط وقاعدة فاعليته النظرية .

بيد ان الفاعلية الثورية ، بشكل خاص الدعاية الشيوعية ، التي يزاولها فـــي رينانيا منذ وصوله من انكلترة ، تصطدم من الوهلة الاولى بحواجز اكبر مما كان يتوقع . فهو يجد في بارمن حالة مختلفة تماما عنها في انكلترة . بدلا مـــن البروليتاريا المكافحة والواعية مصالحها الطبقية ، التي عرفها في مانشستر ، يجد طبقة عاملة تعيش خاملة في البؤس . مُخضَعة لاضطهاد مثلث من جانب الدولة والكنيسة والبرجوازية ، ترضخ لمصيرها الذي يظهر لها قدرا لا مفر منه او تقوم، مدفوعة الى نهاية التحمل ، بأعمال لصوصية (٦٩) . تحت فعل خيبة ان يجـــد

في مقاله «نقاد شترنر» يأخذ على فويرباخ تصوره الخليط ــ الناشز للانسان ، المعتبَر من جهـــة بكيفية مثالية تحت شكل النوع ، ومن جهة اخرى بكيفية واقعية تحت شكل فرد خاص ، عياني . من هنا الطابع المتناقض ايضا لفلسفته التي هي خليط من مادية ومثالية. انظر **شترنر** ، مرجع مذكور، ص ١٨٥ .

٦٧ ــ **المرجع نفسه** ، ص ٣٨٢ وبعدها .

٦٨ ــ **المرجع نفسه** ، ص ٣٩٢ .

٦٩ ــ على سؤال طرحته في يناير ١٨٤٦ الحكومة على رئيس الاقليم الرايني [الراينانى] لمعرفة ما اذا كان يمكن في حال اضطرابات الاعتماد على الجيش ، أجاب هذا الاخير انه لا يوجد اثر في

الطبقة العاملة تقريبا كما وصفها في ١٨٣٩ في **رسائله من وادي نهر الفوبر Wupper** ★ ، يكتب لماركس : «لقد سقط العمال منذ عدة سنين الى درك الحضارة . انهم يحتجون ضد النظام القائم بتصاعد الجرائم، أعمال النهب والقتل. في المساء ، الشوارع غير أمينة ، البرجوازيون يُضربون ضربا مبرحا ، يُطعنون بالسكين ويجردون مما يحملون . لو كان البروليتاريون هنا يتطورون مثل البروليتاريين الانكليز ، لادركوا ان هذه الطريقة في الاحتجاج بكيفية فردية بأعمال عنف ضد النظام القائم لا تقود الى شيء ولاحتجوا بصفتهم بشرا بعمل شيوعي » (٧٠) .

خائبا لرؤية ان المحاولة التي كان يبذلها مع هس ، الصائر آنذاك بالنسبة له رفيق كفاح لا ينفصل ، محاولة التوجه مباشرة الى البروليتاريا وضمها الى الشيوعية ، تصطدم بعدم فهم ولامبالاة العمال (٧١) ، لم يبق لهما سوى ان يتوجها الى العناصر الديمقراطية من البرجوازية ، لمحاولة اقناعها بأفكارهما .

ان ما كان يقرب آنذاك انجلز من هس ويسمح له بأن يخوض معه الكفاح الطيِّب ، هو انه كان ما يزال مثل هس ، وان بدرجة أقل ، تحت نفوذ إنسية فويرباخ (٧٢) وأنه كان يشاطر أوهام هس عن خطوات الاشتراكية والشيوعية في ألمانيا .

سعيدا جدا برؤية أن تطور الصناعة السريع ، منذ رحيله الى انكلترة ، قد أدى الى انقلاب اجتماعي في رينانيا (٧٣) ، كان في جهوده الرامية الى كسب

رينانيا للتحريض الشيوعي وانه هو لا يفكر ان مثل هذا التحريض يمكن ان يجد ارضا صالحة في هذا الاقليم . فالطبقة الدنيا خاضعة خضوعا عميقا لنفوذ الاكليروس الكاثوليكي ، التي مبادؤها على طرفي نقيض مع المذهب الشيوعي ، لدرجة يمكن معها اعتبار الكنيسة الكاثوليكية دواء — مضادا ضد هذا السم . انظر **ج. ماير : فريدريش انجلز ، سيرة حياة** ، برلين ، ١٩٣٣ ، جـ ١ ، ص ٢٠٣ .

[★ فوبر نهر صغير في منطقة الرور (وهي اليوم أهم منطقة صناعية في العالم ، او تقريبا) . ومدينتا بارمن وإلبرفلد متحدتان اليوم في مدينة واحدة اسمها فوبرتال Wuppertal] .

٧٠ — انظر رسالة انجلز الى ماركس (بارمن ، أوائل اوكتوبر١٨٤٤) ، م.١.م. ، جـ٢٧ ، ص٧ .

٧١ — انجلز الى ماركس (بارمن ، أوائل اوكتوبر ١٨٤٤) ، **المرجع نفسه** ، ص ٦ : «لو كان باستطاعتنا ان نفعل مباشرة على الشعب ، لكسبنا المعركة بسرعة ، ولكن هذا تقريبا مستحيل ... لو كنا فقط نستطيع ان نبين الطريق الصحيح لهؤلاء الشجعان ، ولكن هذا مستحيل او تقريبا» .

٧٢ — انظر بين جملة أمور رسالة انجلز الى ماركس في أوائل اوكتوبر ١٨٤٤ ، **المرجع نفسه**، ص ٧ ، وفيها يعارض أعمال السطو الفردية التي تقوم بها البروليتاريا الالمانية بالكفاح الذي يخوضه البروليتاريون الانكليز ، ويطبعه حسب انجلز كونهم يقومون به لا بوصفهم أفرادا بل بوصفهم « بشرا » .

البرجوازية المتقدمة للشيوعية ينساق مع حماس شبابي يدفعه الى ان يعير طابعا شيوعيا لاتجاهات تقدمية وحسب . مسرورا ومفاجأً برؤيته التغيرات التي حصلت في البرجوازية الالمانية ، يكتب الى ماركس : «أمضيت ثلاثة ايام في كولن ودهشت للدعاية الهائلة التي عملناها هناك ... وذهبت في وقت لاحق الى دوسلدورف حيث نستطيع ايضا ان نعتمد على عدد من الشجعان العازمين . وما يسرني اكثر، مع ذلك ، هو رجالنا في إلبرفلد الذين تشبعوا بالتصورات الانسية . هؤلاء «الكدعان» بدؤوا حقيقة يرمون في البحر التقاليد العائلية ويضعون اهلهم في مكانهم حين يسمح هؤلاء لانفسهم بمعاملة الخدم والعمال معاملة فظة ، وهذا ليس شيئا قليلا في مدينة بطريكية العادات مثل إلبرفلد . هناك ايضا زمرة اخرى من نفس النوع ، هي ايضا جيدة جدا ، ولكن عواطفها اكثر تشوشا . في بارمن مفوض الشرطة شيوعي . قبل البارحة كان عندي رفيق صف قديم ، هو أستاذ ثانوية ، أصابته العدوى هو ايضا دون ان يسبق له ان احتك مباشرة بشيوعيين . لو فقط كان بوسعنا ان نفعل مباشرة على الشعب ، ولكن هذا لسوء الحظ مستحيل ، لاسيما وأننا نحن الكتاب علينا ان نعمل بحذر كي لا نقع في الحبس . منذ ان كتبت لك هذا ، كنت في إلبرفلد ، حيث التقيت من جديد ببعض الشيوعيين الذين كنت أجهلهم من قبل . حيثما يلتفت المرء ، يصطدم بشيوعيين» (٧٤) .

المقالات التي كان ينشرها في أوكتوبر وديسمبر ١٨٤٤ في **العالم الخلقي الجديد** [الانكليزية] تعكس أفكارا مماثلة (٧٥) . في المقال الاول عن «الاشتراكية في البر الاوروبي» ، يبرز ، كما في رسائله الى ماركس ، الخطوات الكبيرة التي خطتها الاشتراكية في المانيا ، مؤولا الاتجاهات التقدمية لقسم من البرجوازية على انها اشتراكية (٧٦) . في المقال الثاني عن «تقدم الشيوعية السريع في المانيا» ، يعرض

---

٧٣ ــ الرسالة نفسها ، **المرجع نفسه** ، ص ٦ والتالية . «منذ مغادرتي ، خطا وادي الفوبر من جميع النواحي خطوات إكبر مما خطا في الخمسين سنة الاخيرة . الاشتراك في السياسة ، في حركة المعارضة ، تعمم ، الصناعة حققت تقدما هائلا ، بنيت أحياء جديدة ، أزيلت غابات بكاملها ، ونحن هنا الان فوق المستوى الوسطي للحضارة الالمانية ، في حين كنا قبل اربع سنوات تحته ــ باختصار، تتهيأ هنا أرض رائعة لافكارنا ، ولو كان باستطاعتنا تحريك صبّاغينا وغسالينا ذوي المزاج الحار ، لغمرك وادي الفوبر بشعور من العجب» .

٧٤ ــ نفس الرسالة ، ص‌ص ٥ــ٧ .

٧٥ ــ انظر **(ف. انجلز)** : الاشتراكية في البر الاوروبي ، **في العالم الخلقي الجديد** ، ٥ــ١٠ــ١٨٤٤ ، م.أ.م ، جـ٢ ، ص‌ص ٥٠٧ ــ ٥٠٨ . و**(ف. انجلز)** : خطوات سريعة للشيوعية في المانيا ، في **العالم الاخلاقي الجديد** ، ١٣ــ١٢ــ١٨٤٤ ، **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥٠٩ ــ ٥٢٠ .

٧٦ ــ انظر **المرجع نفسه** ، ص ٥٠٨ : «في مدينة كولن ، خطت الشيوعية خطوات جبارة . إبان اجتماع عقد في مشرب بيرة ، القاعة ، وهي على ما يكفي من الاتساع ، امتلأت بجمهور من

انه قد تشكل بسرعة كبيرة في المانيا حزب شيوعي قوي تسانده صحافة متزايدة العدد . هذا الحزب بالحقيقة يعتمد بصورة رئيسية على الطبقات الوسطى ، ولكنه لن يتأخر ، كما يبين ذلك تمرد حياكي سيليزيا ، في الحصول على دعم الطبقة العاملة . واذا كان للشيوعية ان تواصل نموّها بهذه السرعة فان حظوظها في النجاح تكون اكبر مما هي في انكلترة (٧٧) .

الناس مؤلف بصورة رئيسية من محامين وأطباء وفنانين الخ كان هناك ايضا ثلاثة او اربعة ملازمين من سلاح المدفعية ، احدهم «كدع» ذكي جدا . في دوسلدورف عندنا بعض الانصار بينهم شاعر موهوب جدا . في إلبرفلد نصف ـ دزينة من اصدقائي وبعض الآخرين هم شيوعيون . بالواقع ، يكاد لا يكون هناك مدينة في المانيا الشمالية لا نصادف فيها بعض خصوم الملكية الخاصة الحازمين والذين هم في الوقت نفسه ملحدون» .

٧٧ ـ **المرجع نفسه** ، ص ٥٠٩ وبعدها : «العوائق التي كانت تعترض الشيوعية كانت هائلة : رقابة خارقة القسوة على الصحف ، غياب حق الاجتماع وانشاء جمعيات ، تشريع وقضاء استبدادي ... ورغم أنف ذلك ، ما هي الان الحالة في المانيا ؟ بدلا من المسكينين الاثنين اللذين كانا وحدهما يهتمان بالمسائل الاجتماعية ... لدينا الان دزينات من كتاب ماهرين يبشرون بالانجيل الجديد آلافا من الناس المتعطشين لسماع كل ما يتصل بالشيوعية . لدينا جرائد مختلفة ذات اتجاه اشتراكي جذري بقدر ما تتيح الرقابة ، لاسيما صحيفة **تريرِ وصدى فيزيل** . كذلك ننشر في باريس ، مستفيدين من حرية الصحافة ، جريدة هي **الى الامام** . فضلا عن ذلك ، خارج الصحافة الموالية للحكومة حصرا ، لا توجد مجلة لا تتحدث لصالح الاشتراكية والاشتراكيين ... الحكومات نفسها مضطرة للسماح بكل الحركات الشرعية التي تقود الى الاشتراكية . في كل مكان تنشأ جمعيات غرضها النهوض بوضع العمال المادي والخلقي ، بعض من اعلى موظفي الحكومة البروسية يساهمون بنشاط في هذه الحركة . باختصار ، أضحت الاشتراكية في المانيا مسألة اليوم ، تشكل في غضون سنة حزب اشتراكي قوي يوحي للاحزاب الاخرى بالاحترام وفيه يساهم بشكل خاص الليبراليون مساهمة نشيطة ... انه لامر مدهش انك لا تستطيع ان تسافر ، على الاقل في المانيا الشمالية ، سواء في سفينة او قطار او عربة ، دون ان تصادف رجلا عنده بعض الافكار عن المسألة الاجتماعية ويتفق معك على التفكير بأنه ينبغي عمل شيء ما من اجل تحويل المجتمع . بالضبط انا عائد من رحلة في بعض المدن المجاورة ولم اجد واحدة منها الا وصادفت فيها دزينة او نصف ـ دزينة من الاشتراكيين المتازين ... عندنا أنصار في كل الاصناف الاجتماعية : تجار ، صناعيون ، محامون ، موظفون ، اطباء ، صحافيون ، مزارعون الخ .

نجد حتى الان دعمنا الرئيسي في البرجوازية ، وهو امر ربما سيفاجيء القارىء الانكليزي ، اذا كان يجهل ان هذه الطبقة هي في المانيا اقل أنانية وأكثر موضوعية وأكثر ذكاء منها في انكلترة ، لسبب بسيط وهو انها اكثر فقرا . نحن نأمل مع ذلك انه سيكون بوسعنا قريبا ان نعتمد على الطبقة العاملة التي يجب دائما وفي كل مكان ان تؤلف القوة الرئيسية والعنصر الجوهري في الاحزاب الاشتراكية . هذه الطبقة قد انتُشلت هنا من سباتها من قِبل البؤس والاضطهاد والبطالة

رغم حماسه الذي يحمله الى انشاء أوهام بصدد مستقبل الشيوعية المباشر ، لم يكن انجلز يدع نفسه لإنسية عاطفية كما كان هس . ما كان يمنعه من ذلك هو تحزّبه الحازم لصالح البروليتاريا ، تصوره لدورها الثوري ، التصور الذي كان استخرجه من تحليله حالة وعمل البروليتاريا الانكليزية ، وأيضا تراسله النشيط مع ماركس ، الذي كانت الانسية الفويرباخية بالنسبة اليه تشكل منذ ذلك الحين مرحلة ايديولوجية تجاوزها .

مناقشا في رسائله الى ماركس أفضل وسائل لرفع الشيوعية ، كان يُبرز الحاجة الملحة الى تنوير الناس عن طابع الشيوعية الحقيقي (٧٨) فقد كان يلفت نظره التردد المذهبي السائد بصدد الشيوعية ، ليس فقط بين الديمقراطيين بل ايضا بين الشيوعيين الرينانيين . لذا كان يسعى في دعاوته وكتاباته الى تبديد الاوهام والطوباويات بتبيان ان الشيوعية هي النتيجة اللازمة عن تطور التاريخ الحديث ، وكان يحث ماركس على انجاز أعماله ونشرها ، لانها المؤهلة على النمو الافضل لتوضيح جميع المعضلات (٧٩) .

هو نفسه كان آنذاك ينشر مقالا عن الوسائل العملية لتحقيق الشيوعية ، يرد

وأيضا من قبل الاضطرابات في المناطق الصناعية في سيليزيا وبوهيميا ... بالواقع ، ان الاشتراكية لها الان في المانيا موقع اقوى عشر مرات من موقعها في انكلترة » .

٧٨ — انظر انجلز الى ماركس (بارمن ، ١٩—١١—٤٤) ، **م.١.م** ، ج٢٧ ، ص ٩ : «ان احدنا يجب ان يبقى مقيما هنا ، لان الناس يحتاجون الى ان يُحَثّوا لكي يظلوا في الطريق الجيد ولكي لا ينساقوا مع شتى ضروب الاوهام . هكذا فان يونغ وآخرين كثيرين معه يرفضون القبول بأن ثمة فرقا في المبادىء يفصلنا عن روجه ويستمرون في التفكير بأن القضية ليست سوى خلافات شخصية. حين يقال لهم ان روجه ليس شيوعيا ، فانهم لا يصدقون ذلك ويفكرون انه لمن المؤسف ان نكون قد رمينا بلا اعتبار في البحر «سلطة ادبية» مثل روجه . ما الجواب على ذلك ؟ يجب انتظار ارتكاب روجه من جديد هفوة ضخمة تفتح أعين الناس» .

٧٩ — من انجلز الى ماركس في باريس (بارمن ، أوائل اوكتوبر ١٨٤٤) ، **المرجع نفسه**، ص٥ : «الاخوان نشيطون جدا ولكن نقص سند نظري متين يبرز جدا . طالما لم تبلور مبادؤنا على الصعيد المنطقي والتاريخي معا من التصورات الموجودة ومن تطور التاريخ ولم تُعرض في بعض الكتابات كنتائج ضرورية لازمة عن تلك التصورات وهذا التاريخ ، لن تكون سوى ترددات وتلمّسات» . انظر **المرجع نفسه** ، ص ٨ : «اعمل بحيث تُنشر قريبا المواد التي جمعتها . آن الاوان وأكثر» . من انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٠—١—١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ١٦ : «ما نحتاجه الان أشد الاحتياج هو بعض المؤلفات الكبيرة كي نعطي نقطة استناد لانصاف — العلماء العديدين الذين هم ممتلئون ارادة طيبة ولكنهم عاجزون عن التصرف بأنفسهم . أكمل مؤلفك عن الاقتصاد السياسي ، حتى اذا كانت اشياء كثيرة لا ترضيك ؛ هذا قليل الاهمية ، الاذهان ناضجة ، علينا ان نضرب الحديد وهو حام ، وقد آن الاوان ونيف» .

فيه على الاعتراض الاساسي لخصوم الشيوعية ، الذين يوافقون عن طيب خاطر على ان الشيوعية مقبولة نظريا ولكنهم ينفون انها ممكنة التحقيق عمليا (٨٠) .

مواجها في مقاله عن «تقدم الشيوعية السريع في المانيا» احتمال اقامة مستعمرات شيوعية في رينانيا (٨١) ومقدرا ان وجود مثل هذه المستوطنات يقدم الدليل على امكانية تحقيق الشيوعية فعليا ، انجلز يعرض في مقاله عن «وصف المستعمرات الشيوعية المنشأة حديثا والتي ما تزال باقية» يعرض في آن المبادىء التي عليها تقوم هذه المستعمرات وتفاصيل تنظيمها (٨٢) . فهي تضم ، على حد قوله ، عدا عن فبارك ومشاغل ، حقولا ومراعي وحقول كرمة واسطبلات خيل وزرائب مواشي . كل فرد يستلم مجانا من المخزن العام كل ما يحتاجه... لا يوجد في هذه المستوطنات لا بائسون ولا مجرمون ، والنزاعات ، اذا ما وقعت نزاعات ، تحسم من قبل اللجنة الادارية (٨٣) .

المستعمرات الاميركية الاولى تأسست على يد فرقة الشيكر [Shaker المرتجفين] الدينية . المستعمرات التي تأسست فيما بعد على يد أنصار للمبشر الفورتمبرجي راب Rapp لها طابع مماثل (٨٤) . أوين Owen أسّس في انكلترة مستعمرة مشابهة في هارموني [Harmony = انسجام] في اقليم

---

٨٠ – من انجلز الى ماركس (بارمن ، أوائل اوكتوبر ١٨٤٤) ، **المرجع نفسه** ، ص ٨ : «سأكب الان انا ايضا على العمل بصورة جدية وأبدأ من اليوم . كل الالمان يتساءلون كيف يمكن ان تتحقق الشيوعية عمليا . للاجابة على هذا ، سأكتب الان كراسا صغيرا يبين لهم ان الامر قد حصل ويصف بطريقة شعبية كيف ان الشيوعية حققت فعليا في انكلترة وفي اميركا . ذلك لن يتطلب مني اكثر من يومين او ثلاثة ايام وسينير كل هؤلاء الشجعان ، سبق وأدركت ذلك بمحاوراتي مع الناس هنا».

٨١ – **العالم الخلقي الجديد** ، ١٣–١٢–٤٤ ، العدد ٢٥ . انظر **م.ا.م.** ، ج٢ ، ص ٥١١ : «اذا خطونا في السنوات الاربع او الخمس القادمة خطوات بسرعة تلك التي خطوناها في الشهور الاثني عشر الاخيرة ، سنكون في وضع يمكننا من تأسيس جماعة شيوعية . كما ترون ، نحن النظريين الالمان نصير رجال اعمال عمليين . فقد كلفنا احد اخواننا بأن يضع مشروع تنظيم ودستورا لجماعة قابلة للحياة حسب مخططات أوين ، فوريه ، الخ ، وبأن يستخدم لهذا الفرض تجارب المستعمرات الاميركية وكذلك تجربة مستعمرتكم ، مستعمرة هارموني Harmony = انسجام] التي ، هذا ما أرجو ، تتطور جيدا» .

٨٢ – **كتاب المواطن الالماني** ، ١٨٤٥ ، ص‌ص ٣٢٦ – ٣٤٠ . انظر **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥٢١ – ٥٣٥ . نفهم من رسالة لانجلز بتاريخ ١٠ ايار ١٨٤٥ الى جريدة **العالم المعنوي الجديد** انه كان كاتب هذا المقال . انظر **المرجع نفسه** ، ص ٥١٨ .

٨٣ – **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥٢٢ – ٥٢٥ .

٨٤ – ص‌ص ٥٢٥ – ٥٣١ .

٨٥ – ص‌ص ٥٣١ – ٥٣٤ .

هامبشاير . بما انها أنشئت على اساس قروض ، فانه لا يسودها نفس الوفاق الكبير بين اعضائها الذي يسود المستوطنات الاخرى ، الامر الذي لا يمنعها من ان تكون مزدهرة (٨٥) .

ان نجاح هذه المستوطنات يبين ان نظام اشتراك [شيوعية] الخيرات هو ليس فقط ممكن نظريا بل هو ايضا ممكن التحقيق عمليا . البشر يعيشون فيها حياة أفضل وهم يعملون أقل ، ويتمتعون بأوقات فراغ للتثقف اكثر مما في النظام الرأسمالي . ان انشاء مثل هذه المستعمرات هو بشكل خاص لصالح العمال ، لانه يؤمِّن لهم ضمان العمل وحياة مستقلة (٨٦) .

كما في نقده لشتيرنر ، لم يكن انجلز يبيِّن ، في تصوره لقيمة ودور المستوطنات الشيوعية ، نفس سلامة الحكم التي كان يظهرها ماركس ، الذي كان يفكر ان تأسيس مستعمرات شيوعية في النظام الرأسمالي لا يمكن ان يفضي الا الى فشل ، فنمو هذا النظام لا بد ان يضيق عليها الخناق دافعا اياها الى الهلاك ، وهذا ما حصل دوما . وبالفعل ، في نفس الوقت الذي كان فيه انجلز يتنبأ لهذه المستعمرات بمستقبل جميل ، كانت بدأت تتدهور قبل ان تختفي .

كذلك كان انجلز يهتم كثيرا بالمسألة التي كانت آنذاك موضع نقاش كثير ، وهي مسألة معرفة ايهما أصلح لتطور المانيا الاقتصادي ، نظام حرية التبادل ام نظام الحماية . كان ينوي بهذا الصدد كتابة كراس عن لِيست List ، رائد ومحرك نظام الحماية لالمانيا، وكان سيعرض بشكل مطوّل افكاره عن هذا الموضوع في خطبه في إلبرفلد .

ان مزاجه الثوري لم يكن راضيا ، عدا ذلك ، عن مناقشات نظرية ، وكان يتوق بفارغ الصبر الى المشاركة بصورة مباشرة اكثر ونشيطة اكثر في نضال البروليتاريا (٨٧) .

المشاركة المباشرة في هذا النضال كان يسهلها الطابع الراهن الآني الذي كانت تتخذه ، عقب اضراب حياكي سيليزيا ، مسألة الفقر ، المسألة التي كانت آنذاك تناقش كثيرا ، لاسيما في الجمعيات الرامية الى النهوض بوضع الطبقة العاملة ،

---

٨٦ ـ ص ٥٣٤ وتتمتها .

٨٧ ـ انظر انجلز الى ماركس (بارمن ، ١٩-١١-٤٤) ، **م.أ.م.** : جـ٢٧ ، ص ١٢ : «هذه المناقشات النظرية الزائدة تضجرني اكثر فأكثر ، وكل كلمة نضيعها في الحديث عن «الانسان» ، كل سطر عليّ ان أكتبه او أقرأه ضد اللاهوت والتجريد او ضد المادية المبتذلة يحملني على أعصابي. انه لشيء آخر ان نهتم ، رافضين كل هذه الهلوسات ـ فالانسان النظري بلا وجود واقعي ليس سوى هذا ـ بأشياء عيانية ، حية ، بتطورات تاريخية ونتائجها . هذا على الاقل افضل ما لدينا ان نعمله، ما دمنا مرغمين على استخدام أقلامنا دون ان نستطيع تحقيق أفكارنا مباشرة بأيدينا وعند اللزوم بقبضاتنا » .

وكانت الحكومة آنذاك تشجع انشاءها تداركا لاضطرابات جديدة . انجلز وهس استخدما التعارض الذي كان يظهر في هذه الجمعيات بين البرجوازية الكبيرة التي كانت تريد حصر المساعدة المقدمة للطبقة العاملة في تدابير احسانية والديمقراطيين الذين كانوا يفكرون ان الفقر لا يمكن اقتلاعه الا باصلاحات اجتماعية عميقة ، من اجل ابعاد البرجوازية الكبيرة عن قيادة هذه الجمعيات واعطاء هذه الجمعيات طابعا اكثر جذرية (٨٨) .

كان يساعدهما في ذلك ميل ما الى الاشتراكية كان يتظاهر حتى في الصحافة الليبرالية . فمنذ حزيران ١٨٤٤ ، كتب يونغ الى ماركس ان **صحيفة كولن** تتحدث عن الشيوعية اكثر مما كانت سابقا تتحدث **الصحيفة الراينية** (٨٩) . وهذا الاتجاه انما كان يشتد وحسب . وفي يناير ١٨٤٥ ، كان باستطاعة انجلز ، الذي حمّسه نمو الصحافة الشيوعية ، ان يكتب الى ماركس : «ان ما يسرني بشكل خاص هو انغراس الادبيات الشيوعية في المانيا الذي بات الان امرا واقعا (هكذا حرفيا !) .

---

٨٨ - **نفس المكان** ، ص ١٢ : «عندنا الان في كل مكان اجتماعات عامة لتأسيس جمعيات انهاض الوضع العمالي ، هذا يثير هياجا كبيرا عند الالمان ويجذب انتباه البرجوازي العادي الى المسألة الاجتماعية . يدعى الى هذه الاجتماعات بدون شكليات ، بدون طلب الاذن من الشرطة . في كولن نصف لجنة انضاج النظام الداخلي بين أيدينا ، في إلبرفلد هناك على الاقل عضو واحد من جماعتنا . بمساعدة العقلانيين ، هزمنا في اجتماعين أنصار الاكليروس هزيمة كاملة ؛ كل ما هو مسيحي استبعد من النظام التأسيسي بأكثرية ساحقة . كان بالنسبة لي مشهدا مفرحا ان ارى هؤلاء العقلانيين يتخبطون بشكل مضحك بين مسيحيتهم النظرية وإلحادهم العملي . مبدئيا ، كانوا يعطون الحق للمعارضة المسيحية ، ولكن في التطبيق العملي المسيحية ، التي تشكل ، مع ذلك ، باعترافهم ، اساس الجمعية ، يجب ان لا تذكر بأي حال في النظام التأسيسي ، هذا الدستور يجب ان يحوي كل شيء ما عدا هذا الذي يؤلف مبدأ الجمعية ذاته . هؤلاء الشجعان تمسكوا بقوة بموقفهم الراديكالي لدرجة اننا بدون ان نأخذ الكلام حصلنا على افضل نظام ممكن ، نظرا للظروف المعطاة» .

٨٩ - انظر من ج. يونغ الى ماركس (كولن ، ٢٦-٦-٤٤) (صورة طبق الاصل في المعهد من اجل الماركسية - اللينينية بموسكو (اختصارا : م.م.ل.م.) ، ١ ، ٥ ، رقم ٥٤) : «حديث كل يوم الفقر ، الاشتراكية ، احدهم يتناول موضوعا وآخر يتناول آخر ، لدرجة ان البرجوازي الصغير ينتهي الى تصديق ما يُسرّ له يوميا دون تخويفه ، بل سيصل الى توزيع ما عنده اذا ما أوحي له خلال عدة سنوات بأن هذا ضروري» . انظر **ف. انجلز** ، «تقدم الشيوعية السريع في المانيا» ، **العالم المعنوي الجديد** ، ١٣-١٢-٤٤ ، انظر **م.ا.م.** ، جـ٢ ، ص ٥١١ : «قرأت اليوم مقالا في جريدة **صحيفة كولن** الليبرالية . الكاتب الذي كان لاسباب مختلفة موضع هجمات من قبل الاشتراكيين يدافع عن نفسه في هذا المقال ضد هذه الهجمات . ولكن كيف ؟ انه يؤكد انه هو نفسه اشتراكي مع فارق وحيد هو كونه يريد البدء باصلاحات سياسية بينما نحن نريد تحقيق كل شيء دفعة واحدة . و**صحيفة كولن** هذه هي ثاني جريدة في المانيا بنفوذها وتعداد اصدارها» .

بدأ ذلك قبل سنة خارج المانيا في باريس والآن غمر الالماني المتوسط . جرائد ، مجلات اسبوعية ، شهرية ، فصلية ، دون حساب احتياطي المدفعية الثقيلة الذي يتهيأ . كل شيء على ما يرام وقد تم بسرعة لا تصدق» (٩٠) .

هذا الاحتياطي من مدفعية غليظة ، الذي نوّه به انجلز ، كان المجلات الاشتراكية **كتاب المواطن الالماني** و**الحوليات الراينية لاصلاح المجتمع** وهما بقيادة بتمان Puettmann ، **باخرة فستفاليا** لـ أو. لوننغ O. Luening و**مرآة المجتمع** التي كان ينوي اصدارها مع هس عند الناشر بيدِكر Baedeker في إلبرفلد . كانا يريدان فيها ان يصفا بؤس الطبقة العاملة الالمانية بكيفية مماثلة للكيفية التي كان بها انجلز آنذاك يصور بؤس البروليتاريا الانكليزية في كتابه عن **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** (٩١) .

لما كان بيدِكر رجلا فزّيعا ، فقد قدما اليه هذه المجلة على انها صحيفة غير سياسية ، ستقتصر على مساندة عمل جمعيات انهاض شرط الطبقة العاملة ، واصفة بؤسها . وكان انجلز وهس يبديان فرحا كبيرا لكونهما وجدا ناشرا لهذه المجلة ، فالامر لم يكن بلا مجازفات ، اذ ان مجلة كهذه كثيرا جدا ما كان يُقبض عليها منذ صدورها .

هس تكفَّل باصدار المجلة وجاء يقيم لهذا الغرض في إلبرفلد . كي لا يقطع تماما مع عائلته ، امتنع انجلز عن الظهور كمحرر ــ مشارك ، ولكنه هو الذي طبع المجلة بطابعها واتجاهها . فبفضله أعطت المجلة البروليتاريا ، بوصف بؤسها وأسبابه وصفا تفصيليا ، وعي حالتها ومصالحها الطبقية ، وأيقظت حميتها الكفاحية ، وقد جذبت ايضا انتباه البرجوازية الى الحاح تسوية المشكلة الاجتماعية.

---

٩٠ ــ انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٠ــ١ــ٤٥) ، انظر م.ا.م. ، جـ٢٧ ، ص ١٥ .

انظر **ف. انجلز** : «خطوات سريعة للشيوعية في المانيا» ، **العالم الخلقي الجديد** ، ١٠ــ٥ــ١٨٤٥ ، م.ا.م. ، جـ٢ ، ص ٥١٨ وبعدها : «اما بخصوص الادبيات الشيوعية ، فقد نشرت فاعلية كبيرة في هذا المضمار . الجمهور متعطش لان يُنار ويلتهم ايجابيا كل كتاب يعالج المسألة الاجتماعية ... صدر قبل قليل طائفة من المجلات الشهرية : **باخرة وستفاليا** في بيلفلد ، اصدار لوننغ ، تحوي بحوثا شعبية عن الاشتراكية ومعلومات عن حالة الطبقة العاملة ، **جريدة الشعب في** كولن ، وهي ذات ميل اشتراكي أوضح تحديدا ، و**مرآة المجتمع** للدكتور هس في إلبرفلد التي أُسِّست صراحة بهدف نشر الوقائع التي تميز الوضع الاجتماعي الراهن والدفاع عن حقوق الطبقة العاملة . كذلك تأسست مجلة فصلية ، **الحوليات الالمانية** للدكتور بتمان ، عددها **الاول** تحت الطبع وسيصدر قريبا» .

٩١ ــ انظر **التلغراف من اجل المانيا** ، اذار ١٨٤٥ ، العدد ٤٥ ، ص ١٨٠ : «انجلز (فريدريش اوسفالد) وهس ، المحرر السابق في **الصحيفة الراينية** ، موجودان حاليا في بارمن . ينويان اصدار مجلة شهرية فيها سيفضحان دناءات الازمنة الحاضرة وسيبشران بالاشتراكية» .

تحسبا للرقابة وتجنبا لمنع المجلة مباشرة ، نادرا ما اهتمت المجلة بمناقشات نظرية عن الشيوعية ، بالمقابل فالشروط اللاإنسانية التي كانت فيها تعيش البروليتاريا في المانيا وفي انكلترة وفرنسا وبلجيكا ، على حد سواء ، كانت تحلّل بشكل واسع (٩٢) .

كان هس يسعى لكي يُبقي في **مرآة المجتمع** الاتجاه الذي اراده انجلز وهو الاتجاه الذي كان يجعل المجلة اول لسان بروليتاري في ألمانيا ؛ كان يبرز ، على الارجح بناء على مبادرة من انجلز ، في «مقدمة الاصدار» ، طابع المجلة الراديكالي بنقد فيلانتروبية [خيرية] البرجوازية : هذه البرجوازية لا تُعنى ببؤس البروليتاريا الا حين يصبح موضوع فضيحة ، ثم تترك العمال يموتون جوعا حين تكف المسألة الاجتماعية عن كونها خطرا عليها ؛ ولكن هس كان يدع نفسه في مقالاته ، بخلاف انجلز ، لطوباوية عاطفية مردّها افتتانه بالانسية .

نظرا لكونها تكتفي بوصف بؤس الطبقة العاملة ، كانت **مرآة المجتمع** تتميز بشكل عميق عن الكتاب الذي كان انجلز يكتبه آنذاك عن حالة الطبقة العاملة الانكليزية ، حيث لم يكن يكتفي بتصوير بؤس هذه الطبقة بل كان يحلل اسبابه ويستنتج من ذلك ان تفاقم الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا الناجم عن هذا البؤس يجب حتما ان يؤدي الى ثورة شيوعية .

رغم اتجاهها الاكثر اعتدالا ، المجلة أثارت على الفور اشتباه الحكومة التي امرت المراقبين بأن يُبدوا قسوة خاصة ازاءها (٩٣) . كما أبرزت ذلك الصحافة التقدمية لقيت **مرآة المجتمع** من البداية استماعا واسعا لدى البرجوازية التقدمية وأيضا لدى العمال وأسهمت هكذا في نشر الافكار الاشتراكية على نطاق واسع(٩٤).

---

٩٢ ـ انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٠ـ١ـ١٨٤٥) ، انظر **م.ا.م.** ، ج ٢٧ ، ص ١٤ وبعدها : «نظرا للحالة الراهنة يمكن في اية لحظة ان يخطر في بال هؤلاء الاوغاد ان يزعجونا . سنرى بـ **كتاب المواطن** لـ بتمان الى اين يمكن ان نمضي دون ان نلاحَق وأن نُسجن . آخر نبأ عندي لك هو اننا ننشر **هس وأنا** ... اعتبارا من اول نيسان مجلة ، **مرآة المجتمع** ، حيث سنصف البؤس الاجتماعي والنظام البرجوازي . البيانات الاعلانية جاهزة ... ان ما يلزمنا قبل كل شيء ، هو حالات بؤس اجتماعي خاصة تصيب نظر البرجوازي الصغير الذي يجب كسبه للشيوعية . التحرير لن يكلفنا كثيرا من الجهد ولن يكون صعبا ان نجد معاونين يقدمون لنا مادة أربع ورقات في الشهر . لن يكون عندنا عمل كثير وسيكون بوسعنا انفعل فعلا مفيدا» .

٩٣ ـ انظر رسالة وزير الداخلية فون آرنيم بتاريخ ١٨ـ٣ـ١٨٤٥ الى الرئيس فون شبيغل في دوسلدورف ، مذكورة في **ك. اوبرمان : المسألة الاجتماعية** ، مرجع مذكور ، ص ٢٦٨ .

٩٤ ـ انظر **صحيفة ترير** ، رقم ١٧٣ ، ٢٢ـ٦ـ١٨٤٥ ، وردت في **ك. اوبرمان** ، ص ٢٧٧ وبعدها : «كم كانت صحيفة لها كموضوع الدفاع عن مصالح الطبقة الفقيرة ووصف العلاقات الاجتماعية الراهنة تستجيب لحاجة هذا يظهر من واقع ان **مرآة المجتمع** تبيع من الان في إلبرفلد وحدها مئتي نسخة بين العمال وأن الطلبات الآتية من جانبهم تصل بلا انقطاع . لقد اعتُبر العمال حتى الان طبقة غبية . فظة ، خارج متناول الافكار ، ولدينا هنا الدليل الجلي على العكس» .

في نفس الوقت الذي كانا فيه يهتمان بشكل نشيط باصدار هذه المجلة ، كان انجلز وهس يسعيان الى تجنيد معاونين لمجلة **الحوليات الرينانية** وقد توجها لهذا الفرض الى ماركس .

كذلك كانا يشاركان في المناقشات عن المسألة الاجتماعية التي كانت تحصل في جمعيات انهاض شروط حياة الطبقة العاملة ، في اجتماعات كانت تنعقد بإذن من الشرطة في مدن عديدة ، ليواصلا فيها دعاوتهما الشيوعية .

ان نجاح هذه اللقاءات التي كانت تجمع عددا غير متوقع من الناس المهتمين بالمسائل الاجتماعية (٩٥) أعطاهما فكرة ان ينظما بنفسيهما لقاءات مماثلة في إلبرفلد . بخصوص هذه اللقاءات كان انجلز يكتب الى ماركس : «هنا في البرفلد تحصل معجزات . لقد عقدنا البارحة اجتماعنا الشيوعي الثالث في اكبر قاعة في فندق إلبرفلد الرئيسي . الاول كان قد ضم اربعين شخصا ، الثاني مئة وثلاثين ، والاخير مئتين على الاقل . كل إلبرفلد وبارمن ، من ارستقراطية المال حتى عالم السمانة (**حرفيا**) ، مع غياب البروليتاريا وحدها ، كان هنا . هس ألقى خطابا ، ألقيت قصائد لـ مولر وبتمان وشيلي Shelley ، وقرىء مقال عن المستعمرات الشيوعية صدر في **كتاب المواطن الالماني** . ثم جرى نقاش استمر حتى الساعة الواحدة صباحا . هذا الموضوع يثير اهتماما هائلا . الحديث الوحيد بات هو الشيوعية وفي كل يوم يصل الينا منتسبون جدد . ان شيوعية وادي نهر الفوبر (حيث توجد بلدتا بارمن وإلبرفلد) * هي حقيقة (**حرفيا !**) وهي موشكة ان تصير قوة . ليس عندك فكرة عن البيئة المناسبة التي نجد هنا . هذا الشعب الاكثر بلادة وخمولا وابتذالا ، الذي لم يكن الى هنا يهتم بشيء ، أخذ يشتعل حبا للشيوعية » (٩٦) .

في الاجتماع الاول ، الذي أعطي طابعا فنيا حيث افتتح بعزف من عازفي القيثار تبعته تلاوة قصائد شعرية ، كان هس قد عرض المبادىء العامة للشيوعية، الامر الذي أعطى مجالا لنقاش حي (٩٧) .

---

٩٥ ـ انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٠ـ١ـ١٨٤٥) ، انظر **م.ا.م** ، جـ٢٧ ، ص ١٥ : «اجتماع كولن حقق معجزات تكتشف شيئا فشيئا الجماعات الشيوعية المنعزلة ، التي تشكلت في السر ، بصورة مستقلة عنا» .

انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٢ـ٢٦/٢ ، ٧ـ٣ـ١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ٢٠ : «يجب من جهة اخرى ان أعود الى بيلفلد عند شيوعيي هذه البلدة» .

[* أشرنا سابقا الى ان هاتين المدينتين المتجاورتين تؤلفان اليوم مدينة فوبرتال] .

٩٦ ـ انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٢ـ٢٦/٢ ، ٧ـ٣ـ١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ٢٠ .

٩٧ ـ عن هذه اللقاءات انظر تقرير الشاعر الفريد شولتس الذي كان قد اشترك فيها . أعيد طبعه في **هـ. فيفنر** : إلبرفلد في اربعينات القرن التاسع عشر ، **المجلة الشهرية الجامعة للقصص**

في الاجتماعين الآخرين ، هس وإنجلز ـ وما يزال انجلز يتكلم تحت اسمه المستعار : فريدريش اوسفالد ــ أكبا على تبيان حتمية تحوّل المجتمع البرجوازي الى مجتمع شيوعي . في الاجتماع الاخير ، عرض انجلز تصوراته بشكل اكثر صراحة بكثير ، لاقتناعه ان هذه اللقاءات ستُمنع عما قريب .
كان سعيدا سعادة خاصة بالفرصة المتاحة له ان يتكلم علانية وان يفعل هكذا فعلا مباشرا على جمهور من المستمعين . «التعامل مع كائنات حية ، التحدث اليهم مباشرة ، هذا شيء آخر تماما غير هذه الكتابة اللعينة حيث ليس لدى المرء سوى جمهور مجرد قائم أمام «عيني الروح» (٩٨) » .
هس مع طبيعته الاندفاعية كان يُظهر حماسا فائقا ولم يكن بعيدا عن الاعتقاد، نظرا لنجاح لقاءاتهما ، بنجاح الشيوعية الفوري (٩٩) .
انجلز وهس نشرا خطبهما في **الحوليات الراينية لاصلاح المجتمع** حيث يرجح أنهما أكملاهما بحجج كانا يفكران بعرضها فيالاجتماع القادم الذي لم يحصل(١٠٠).
لتقدير هذه الخطب تقديرا صحيحا ، يجب ان نعتبر في اية ظروف وأمام اي جمهور ألقيت . مراعاة للجمهور الذي كان عليهما ان يوفراه ، وحرصا على حماية امكانات عقد اجتماعات اخرى وعلى سلامتهما ، تجنبا ابراز ان الشيوعية لا يمكن ان تتحقق الا بثورة بروليتارية ، بل بالعكس أكبا على تبيان انها على الارجح ستتحقق بكيفية سلمية .
وفقا لطبيعته العاطفية ولروحه المشبعة بالانسية ، كان هس يعرض في خطبه (١٠١) ان الداء العميق الذي يشكو منه المجتمع هو التنافس الذي يسبب مع اثراء قلة من ذوي الامتيازات تفاقم البؤس وصراع الطبقات بين البروليتاريا والبرجوازية (١٠٢) .

العالية ، سنة ١٩١٣ . انظر ايضا «الشيوعية في رينانيا وفستفاليا» **في يانوس** ، برلين ، ١٨٤٧ ، ص ٧٢٢ وبعدها . تقرير مختار إلبرفلد الى المحافظ بتاريخ ٢٥-٢-١٨٤٥ ، منشور في : **هيرش : مفكرون ومكافحون ، مساهمة في تاريخ الحركة العمالية** ، فرانكفورت ــ على ــ الماين ، ١٩٥٥ ، صص ١٠٢ ــ ١٠٦ .

٩٨ ــ انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٢-٢٦/٢ ، ٧-٣-١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ٢١ .

٩٩ ــ الرسالة نفسها ، **المرجع نفسه** ، ص ٢١ : «هس يُظهر من جديد مزاجه الدموي الهائل . لان كل شيء يحصل على هذا النحو الممتاز ولان تقدمنا فعلا جبار ، هذا الرجل الطيب ينساق لاوهامه » .

١٠٠ ــ انظر **الحوليات الراينية لاصلاح المجتمع** ، ١٨٤٥ ، صص ٣٦-٦٢ ، ٨٣-٩٣ . خطب منقولة في **م. هس : الكتابات الفلسفية والاجتماعية** ، مرجع مذكور آنفا ، صص ٣٤٨-٣٥٩ .

١٠١ ــ خطب هس منقولة في م. هس : الكتابات الفلسفية الاجتماعية ، مربع مذكور ، صص ٣٤٨ ــ ٣٥٩ .

١٠٢ ــ انظر **المرجع نفسه** ، صص ٣٥٥ ــ ٣٥٨ .

آخذين وعي الشروط اللاإنسانية التي فيها يعيشون ، البشر سعوا الى حذفها بإلغاء الدين والدولة . ولكن هذا لا يكفي ، اذ ما دامت قائمة الظروف التي تنجب التنافس والانانية ، هذه الشروط عينها ستبقى (١٠٢) . ان الشيوعيـة وحدها ، بحذفها التزاحم والفوضى في الانتاج ـ اللذين ينجبان ازمات متزايـدة الخطورة ويغرقان ملايين الكائنات البشرية في البؤس ويوسعان الهوة التي تفصل الاغنياء عن الفقراء ـ ، تستطيع ان تعيد الانسجام بين البشر .

تقبل الشيوعية كنظرية ، كتصور مجرد ، ولكن تعتبر غير ممكنة التحقيق . بالواقع ليست الشيوعية البتة تجريدا ، طوباوية ، بل هي النتاج الضروري لتطور الصناعة الحديثة والمزاحمة الذي يقود الى ثورة اجتماعية لا يمكن تجنبها الا بحذف الفقر (١٠٤) .

ان خطب انجلز كانت تتميز بحدّة عن خطب هس بموضوعيتها الاكبر ومعرفته الافضل بالمسائل الاقتصادية والاجتماعية (١٠٥) . لما كان اكثر اطلاعا من هس على ذهنية الصناعيين والتجار الذين كانوا يؤلفون غالبية المستمعين ، فقد توجه الى حسّهم العملي اكثر منه الى قلبهم . أكب بوضوح ودقة اكبر بكثير من هس على تبيان ان الشيوعية هي النتيجة الضرورية لتطور المنظومة الرأسمالية وان الشروط الاولية لثورة شيوعية : تفاقم الازمات ، افقار الطبقات الوسطى ، نمو البروليتاريا وبؤسها ، احتدام الصراع الطبقي بين المالكين وغير المالكين ، موجودة ليس فقط في انكلترة وفرنسا ، بل هي ايضا قيد التحقق في ألمانيا .

كان يعرض اولا بأول ان المزاحمة الحرة التي تلازم النظام الراسمالي تجعل مستحيلا قيام تنظيم عقلي للانتاج والمجتمع . الافتراق المتنامي بين الانتاج والاستهلاك يجعل ان الصناعي ، نظرا لتوسع السوق توسعا متزايدا ، لا يستطيع ان يأخذ حساب الحاجات الواقعية الواجبة تلبيتها ، الامر الذي يؤدي الى الانتاج الفائض والكساد وانخفاض الانتاج والازمات .

الفوضى المتزايدة في الانتاج والازمات تستتبع ، مع خراب الطبقات المتوسطة وبؤس البروليتاريا المتنامي ، تركز الرأسمال بين أيدي أقلية من المالكين تتقلص باستمرار ، من هنا تفاقم الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا ، الذي لا بد ان يقود الى ثورة اجتماعية والى الشيوعية ((١٠٦) .

من اجل وضع حد لحالة الاشياء هذه ، ينبغي ، على حد قوله ، تنظيم الانتاج بكيفية عقلانية ، وهذا من شأنه ان يحذف الازمات . ان احصاءات جيدة سيكون

---

١٠٣ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٣٤٩ ـ ٣٥٢ .

١٠٤ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٣٥٢ ـ ٣٥٨ .

١٠٥ ـ انظر **الحوليات الراينية لاصلاح المجتمع** ، ١٨٤٥ . م.ا.م. ، ج٢ ، ص‌ص ٥٣٦ ـ ٥٥٧.

١٠٦ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥٣٦ ـ ٥٣٨ .

من شأنها حساب الحاجات بشكل دقيق وضبط الانتاج بموجبها . عندئذ لن يبقى هناك كتل من السلع المصرّفة بثمن بخس نتيجة للكساد ، وسيختفي الوسطاء والمضاربون وتجار الجملة الذين ، دون ان ينتجوا ، يعيشون طفيليين على الانتاج. ستزول في الوقت نفسه البطالة والتسوّل والبغاء . وهذا سيجعل نافلا الجهاز القضائي وكذلك البوليس والجيش ، لانه لن يبقى هناك سرقات واضطرابات اجتماعية وحروب (١٠٧) .

على الاعتراض القائل ان الشيوعية قد تكون ضرورية لبلدان ، مثل انكلترة ، تفتك فيها الازمات ، ولكن ليس لالمانيا التي يحميها من الازمات نظام الحماية الجمركية ، انجلز يجيب ان ادخال الشيوعية ينكشف عن كونه ضروريا لالمانيا ايضا . صحيح ان هذا امر ينفيه الاقتصاديون الالمان ، ولكن فقط لانهم لا يُعنون الا بانتاج الثروات وليس بتوزيعها ولانهم بالتالي ينفضون يدهم من المسألة الاجتماعية . فهم لا يفكرون الا بالوسائل التي من شأنها تأمين التطور الطبيعي ــ السوي للانتاج الصناعي في المانيا وتجنب الازمات . ما يميز بعضهم عن البعض الآخر ان بعضهم ، مثل ليست List ، يفكرون ان ذلك لا يمكن ان يتحقق الا بمنظومة حماية جمركية تضع ألمانيا في مأمن من المزاحمة الانكليزية ، بينما الآخرون هم من انصار حرية التبادل (١٠٨) .

كان انجلز يفكر آنذاك ان الصناعة الالمانية تحتاج الى رسوم جمركية عالية كي تتطور ، وهذا من شأنه في الوقت نفسه ان يعزز البرجوازية وان يشدد نضالها ضد الرجعية . ولكنه لم يذهب اكثر الى الامام ، لم يناقش اكثر مسألة معرفة اي النظامين أصلح لتطور الاقتصاد الرأسمالي الالماني ، نظام الحماية ام التبادل الحر: اصحاب النظامين لا يفكرون الا بالربح الذي يمكن ان تجنيه البرجوازية ولا يسعون الا الى خدع البروليتاريا بوعود كاذبة يعلقونها على النظام الذي ينادون بـه . أكب بالعكس على تبيان العواقب الوخيمة التي سيحملها حتما للبروليتاريا تطبيق هذا النظام او ذاك وكيف انهما بالضرورة سيسهمان في اقامة الشيوعية .

هناك ، على حد قول انجلز ، ثلاثة احتمالات بالنسبة لتطور المانيا الاقتصادي: تبنّي حرية تبادل تامة ، زيادة رسوم الحماية ، ابقاء المنظومة الراهنة التي ليست كافية كنظام حماية من اجل وضع الصناعة الالمانية في مأمن من المزاحمة الاجنبية.

اذا تُرك نظام الحماية واعتُمد التبادل الحر ، لن تستطيع الصناعة الالمانية الصمود للمزاحمة ، من هنا ازمة وبطالة وخطر ثورة اجتماعية . اذا زيدت رسوم الحماية ، الصناعة الالمانية ، التي أمنت السيطرة على السوق الداخلية ، ستنمو وتتطور بسرعة ، حتى اللحظة التي ستكون فيها السوق في حالة اشباع. واذا أريد

---

١٠٧ ــ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥٤١ ــ ٥٤٦ .

١٠٨ ــ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥٤٩ وبعدها .

عندئذ زيادة الانتاج ، سيكون من الواجب تخفيض رسوم الحماية ، وهذا سيسلم الصناعة الالمانية للمنافسة الاجنبية ، من هنا ايضا كساد ، ازمة ، بطالة ، واضطرابات اجتماعية . اخيرا اذا أبقي الوضع القائم ، سيكون هناك ركود بعد اشباع السوق الداخلية ثم انحسار ، وهذا سيثير كذلك ازمة عامة مع كل عواقبها.

سيحصل الشيء نفسه فيما اذا وصلت الصناعة الالمانية ، بفضل منظومة الحماية ، الى مزاحمة الصناعة الانكليزية في السوق العالمية . سيكون هناك عندئذ صراع مميت بين هذين البلدين . اذا الصناعة الالمانية ، من جراء السبق الانكليزي في الميدان الاقتصادي ، سقطت في هذا الصراع ، ذلك سيثير انقلابا اجتماعيا عميقا في ألمانيا . اذا بالعكس خرجت المانيا منتصرة من هذا القتال ، ستصاب انكلترة بالخراب ولا تلبث ان تكون فريسة ثورة اجتماعية سيكون لها انعكاسات هائلة في اوروبا كافة (١٠٩) .

نرى هكذا ــ يستنتج انجلز ــ كيف انه ، في نظام حرية التبادل كما في نظام الحماية الجمركية ، بحكم المزاحمة والازمات وخراب الطبقات الوسطى وتركز الرساميل بين أيدي المالكين وتفاقم بؤس البروليتاريا ونضالها ضد البرجوازية ، يبدو قيام ثورة شيوعية امرا لا مفر منه ، في المانيا وفي انكلترة وفرنسا على حد سواء .

فعلا ، كما في انكلترة ، تشكلت في ألمانيا في المناطق الصناعية بروليتاريا يزداد عددها باضطراد ، يدفعها البؤس الى التمرد ، كتمرد حياكي سيليزيا . في الارياف ايضا، تتكون ، من جراء ازدياد فقر صغار الفلاحين بشكل دائم، بروليتاريا زراعية ، تأتي معززة بروليتاريا المدن (١١٠) .

ان الثورة التي تتهيأ ، الحرب المكشوفة بين الفقراء والاغنياء ، تهدد بأن تصير أشد عنفا وأكثر دموية مما كانت الثورات الماضية . وهي لن تبلغ هدفها اذا لم تقتلع البروليتاريا الداء من الجذر بإلغائها الملكية الخاصة الغاء جذريا . فاذا ما تركتها تبقى واكتفت بتوزيعها بشكل مختلف ، ستكون قد أبقت الشروط التي تقود الى الثورة . ولكن مثال الثورة البرجوازية في انكلترة وفي فرنسا يبين ان ثورة من الثورات لا تقف ابدا في منتصف الدرب قبل بلوغها هدفها . كذلك ستكون الحال بالنسبة للثورة البروليتارية التي لن تنتهي الا حين ستكون قد حذفت سبب الفقر بإقامتها نظاما شيوعيا (١١١) .

هذه الثورة ستحصل بكيفية مختلفة في كل بلد رأسمالي . هناك ، بالفعل ، وسائل مختلفة لتحقيق الشيوعية : في انكلترة ، سيبدؤون على الارجح بتأسيس مستعمرات شيوعية ، تاركين لكل فرد حرية ان ينضم اليها ، الفرنسيون بالعكس

---

١٠٩ ــ المرجع نفسه ، ص ص ٥٥٠ ــ ٥٥٤ .

١١٠ ــ المرجع نفسه ، ص ص ٥٤٩ وبعدها .

١١١ ــ المرجع نفسه ، ص ص ٥٥٥ ــ ٥٥٦ .

سيجهدون لاقامة نظام شيوعي بطريق الدولة ، اما في المانيا فان الحركة البروليتارية ما تزال حديثة العهد لدرجة لا نستطيع معها ان نتبين منذ الان بأية كيفية ستتحقق الشيوعية (١١٢) .

كي نتجنب حصول الثورة الشيوعية بواسطة العنف وغلبة اليأس والانتقام ، ينبغي اتخاذ الاجراءات الضرورية التي تمكن الشيوعية من التحقق تدريجيا . يجب اولا بأول تأمين تربية وتعليم جميع الاطفال على نفقة الدولة . هكذا نجتنب ان يكون الفقراء بشكل مزدوج ضحايا الوضع الاجتماعي الراهن وأن يكون الجهل بالنسبة لهم التكملة المحتومة للبؤس . وهذا في الوقت نفسه سيسهّل تشكل بروليتاريا منورة ، اذ هي مصممة تماما على تغيير شروط وجودها تنفذ ذلك بكيفية معقولة وسلمية (١١٣) . كذلك يجب تحويل المساعدة المقدمة للفقراء ، بجمع العاطلين عن العمل في مستعمرات يزاولون فيها اعمالا صناعية وزراعية . بهذه الطريقة سيصير الفقراء ، بعملهم ، مفيدين للمجتمع بدلا من ان يكونوا بطالين ومحطمي المعنويات . الوسائل اللازمة لبلوغ ذلك يجب الحصول عليها بواسطة ضريبة تصاعدية على الرأسمال تحل محل نظام الضرائب الراهن الظالم (١١٤) .

نرى هكذا ان الشيوعية ليست حلما طوباويا ، بل هي النتيجة اللازمة عن تطور الرأسمالية التي تنجب ، بالازمات والبرلترة المتزايدة للسكان ، أسباب دمارها . الشيوعية ستخلق مجتمعا فيه سيستطيع كل انسان ان ينمي بحرية قابلياته ومواهبه وسيعيش في انسجام مع البشر الآخرين . منهيا خطابه ، كان انجلز يدعو مستمعيه الى الاهتمام جديا بالشيوعية والمساعدة على تحقيقها ، لانها تنجم عن مسيرة التاريخ ذاتها وتستجيب لمتطلبات القلب والعقل (١١٥) .

رغم اللهجة المعتدلة للخطب والتنازلات المجراة للجمهور والظروف ، لم تكن السلطات مستعدة للتسامح مع هذه الاجتماعات الشيوعية مدة أطول ، لاسيما وأن الخطباء كانوا يدعون عواطفهم الحقيقية تظهر اكثر فأكثر . من الوهلة الاولى ، كانت هذه الاجتماعات مشبوهة في نظر السلطات ، رغم ان قضاة حضروها واشتركوا في المناقشات ، ولكنهم ، في غياب المحافظ ، لم يعلموا اية اجراءات يتخذون ، لاسيما وأن الخطب الاولى لم تكن تفسح مجالا للتدخل (١١٦) .

---

١١٢ – **المرجع نفسه** ، ص ٥٤٧ .

١١٣ – **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥٤٧ – ٥٤٨ .

١١٤ – **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥٥٦ – ٥٥٧ .

١١٥ – **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥٥٦ – ٥٥٧ .

١١٦ – انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٢–٢٦/٢ ، ٧–٣–١٨٤٥) ، **م.ا.م.** ، ج ٢٧ ، ص ٢٠ : «لست أدري كم من الوقت ايضا سيسمحون بهذه الاجتماعات . البوليس على كل حال في أشد ارتباك ، لا يعلم ماذا يجب ان يفعل ، نظرا لان الخنزير المحافظ موجود في برلين . اذا منعوها ،»

ولكن حين علم المحافظ لدى عودته ان عدد المستمعين لا يفتـــأ يزداد وأن الاجتماعات تلقى صدى متعاظم الاتساع في الصحافة (١١٧) وأنها تهدد بأن تسبب اضطرابات (١١٨) ، دعا مختار إلبرفلد الى ان يأمر صاحب الفندق بأن يرفـــض القاعة للمنظمين ، الامر الذي وضع حدا للاجتماعات .

الاجراءات التي اتخذها المحافظ ثبتها رئيس الاقليم الذي امر بتاريـــخ ٢٨ شباط مختار إلبرفلد بأن يحظر بعد الان هذه الاجتماعات ، مستعينا ، اذا ما دعت الحاجة ، بالشرطة ، وصادقت عليها الحكومة التي كانت تخشـــى ان ترى العمال يشتركون فيها (١١٩) .

بعد هذه الاجتماعات ، توترت العلاقات بين انجلز ووالده لدرجـــة جعلت اقامته مدة أطول في المنزل الابوي امرا مستحيلا . كان منذ أمد طويل يتوق بفارغ الصبر الى الالتحاق بماركس في باريس اولا ثم في بروكسل . وكان قد أجَّـــل رحيله لانه وجد في رينانيا أرضا صالحة لنشاطه السياسي . لما كـــان الان مهددا بملاحقات ، فقد قرر ان يعجل رحيله ، مع ـ عدا ذلك ـ موافقة ابيه الذي كـــان يخشى الفضيحة التي تترتب على اعتقال ابنه ، وسافر في أوائل نيسان / ابريل

سنحاول حل المسألة رغم ذلك ، واذا كان ذلك مستحيلا سيبقى اننا سنكون قد أثرنا تحريضا لدرجة ان الناس يقرؤون الان بشغف كل ما يهم قضيتنا» .

١١٧ ـ انظر الرقيب الرايني ، ١٨٤٥ ، العدد ١٢ ، ص ٢ . المعارضـــة ل **ك. هاينتسن** ، مانهايم ، ١٨٤٦ ، ص ١١٨ . **التلغراف لالمانيا** ، ١٨٤٥ ، العددان ٨٧ و٩٣ ، ص‌ص ٣٤٨ و٣٦٨ . **جريدة الصباح للقارىء المكوّن** ، شتوتغارت ـ توبنجن ، العـــــدد ٧٨ ، ١ـ٤ـ١٨٤٥ ، ص ٣١١ وبعدها . ـ هذه الاشارات أنا مدين بها لفضل السيد برت آندرياس ، جنيف .

١١٨ ـ انظر تقرير رئيس بلدية إلبرفلد فون كارناب بتاريخ ٢٥ـ٢ـ١٨٤٥ الى الحاكم [المحافظ]: «ما زلت أعتقد ان ذهنية برجوازية هذه المدينة عاقلة ووقورة بحيث لا تستطيع تظاهرات كهذه ان تجد صدىً ما في الوسط الذي حصلت فيه حتى الان . ولكنني لا أريد ان أتحمل اية مسؤوليـــة فيما يتعلق بالآثار التي قد تترتب على تظاهرات أخرى مماثلة في المدينة الصناعية التي هي إلبرفلد». ورد في **ه. هيرش : مفكرون ومكافحون** ، مرجع مذكور ، ص ١٠٦ .

١١٩ ـ رئيس الاقليم وضع في ١ـ٣ـ١٨٤٥ تقريرا مفصلا عن التحريض الشيوعي في رينانيا ، عن اجتماعات إلبرفلد وعن الاجراءات التي اتخذها درءا لخطر انتشار أفكار شيوعية في المـــدن الصناعية . ان لقاءات مماثلة حصلت في مدن أخرى مثل بيلفلد وريدا حُظّرت بعد الان هي ايضا.

انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٢ـ٢٦/٢ ، ٧ـ٣ـ١٨٤٥) ؛ انظـــر **م.ا.م** ، ج٢٧ ، ص ٢١ : «البارحة صباحا جاءنا نبأ ان لقاءنا القادم سيشتته الدرك والخطباء سيُعتقلون . البارحة صباحا حظّر المختار على السيدة اوبرماير السماح بعقد مثل هذه الاجتماعات في منشأتها ، وأسمعوني انه فيما اذا حصلت هذه الاجتماعات رغم ذلك فسيكون هناك ملاحقات وتوقيفات» .

الى بروكسل لينضم الى ماركس (١٢٠) .

«حالة الطبقة العاملة في انكلترة» (١٢١)

النتيجة الجوهرية لمكوث انجلز في بارمن هي دراسته عن حالة البروليتاريا الانكليزية ، الدراسة التي كانت تتيح له ليس فقط البقاء ايديولوجياً في المستوى الذي كان قد بلغه إبان مكوثه في انكلترة ، بل ايضا تخطي هذا المستوى .

هذا الكتاب يؤلف نوعا ما تتويج الاعمال المنشورة من قِبله منذ ١٨٤٢ عن حالة انكلترة . كان التحليل المتزايد التفصيل لعلاقات هذا البلد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية يتيح له بلوغ تصور مادي للتاريخ متزايد العمق والتخلص بذلك عينه على نحو متزايد الكمال من بقايا المثالية الآتية من تكوّنه الهيغلي ـ الشاب وأيضا من النفوذ الذي كانت ما تزال تمارسه عليه انسانوية فويرباخ (١٢٢) .

---

١٢٠ ـ انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٠ـ١ـ١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ١٤ : «اذا ما عملت لي الشرطة صعوبات فاني سآتي على كل حال ، ونظرا لحالة الاشياء يمكن في اية لحظة ان يأتي الى ذهن هؤلاء الاوغاد ان يزعجونا» .

انجلز الى ماركس (بارمن ، ١٧ـ٣ـ١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ٢٧ : «الحالة باتت لا تطاق. عليّ ان أذهب ، ولا ادري كيف سأتحمل الاسابيع القليلة التي بقيت لي هنا» .

١٢١ ـ **فر. انجلز** [بالالمانيـة] : **حالة الطبقة العاملة في انكلترة ، حسب ملاحظات المؤلف ومصادر أصلية موثوقة** ، لايبتسيغ ، اوتو فيغاند ، ١٨٤٥ . م.ا.م ، جـ٢ ، صص ٢٢٥ـ٥٠٦ .

[بالفرنسية] : **حالة الطبقة الكادحة في انكلترة** ، باريس ، دار النشر الاجتماعية ، ١٩٦٠ .

[بالالمانية ورد : الطبقة ال arbeitendes ، و Arbeit = **شغل** ، كدح ، عمل ... بالفرنسية ورد : laborieuse ... بالطبع ليس هناك تطابق حرفي معزول للمصطلحات بين المانية ، فرنسية ، انكليزية ، عربية ... كورنو ، بخلاف عنوان الطبعة الفرنسية ، يقول : ... الطبقة **العاملة** ... ouvrière ...]

١٢٢ ـ انظر **الصحيفة الراينية** ، كولن ، ١٨٤٢ : «تصور انكليزي للازمات الداخلية» ، ٨ ديسمبر. «الازمات الداخلية» ، ٩ ، ١٠ ديسمبر . «موقف الاحزاب السياسية» ، ٢٤ ديسمبر . «حالة الطبقة الكادحة في انكلترة» ، ٢٥ ديسمبر . «القوانين على الحبوب» ، ٢٧ ديسمبر .

الجمهوري السويسري ، زوريخ ، ١٨٤٣ : «رسائل من لندن» ، ١٦ و٢٣ ايار ، ٩ و٢٧ حزيران.

الحوليات الفرنسية ـ الالمانية ، باريس ، ١٨٤٤ : «مسودة نقـد للاقتصاد السياسي» ، صص ٨٦ ـ ١١٤ . «حالة انكلترة . الماضي والحاضر» ، بقلم **توماس كارلايل** ، صص ١٥٢ ـ ١٨١ .

الى الامام ، باريس ، ١٨٤٤ : «حالة انكلترة» ، ٣١ آب ، ٤ ، ٧ ، ١١ ـ ١٨ ـ ٢١ ـ ٢٥ ـ ٢٨ سبتمبر ، ٥ ، ١٦ ، ١٩ اوكتوبر .

بهذا الكتاب ، الذي اشتغل عليه انجلز بصورة كثيفة متواترة منذ عودته من انكلترة في اوكتوبر ١٨٤٤ حتى منتصف آذار ١٨٤٥ ، كان يحقق المشروع الـذي أفصح عنه هو وماركس بصورة مشتركة في مقدمة **العائلة المقدسة** ، مشروع العمل، بعد هذه الحرب ضد النقد النقدي ، كلاً بمفرده وبكيفية مستقلة على انضـاج تصورهما المادي الجديد عن العالم (١٢٣) .

كي يسير بهذا المشروع الى نهاية جيدة ، كـان المناسب والمؤشر لانجلز ان يواصل تحليل حالة انكلترة ، التحليل الذي كان قد حدد بشكل حاسم توجه فكره نحو المادية التاريخية . كان يريد باديء بدء كتابة تاريخ عام لتطور انكلترة الاقتصادي والاجتماعي (١٢٤) ، ولكنه قرر اخيرا الاقتصار على وصف شروط حياة البروليتاريا الانكليزية ، الوصف الذي كان بالنسبة له ذا فائدة اكثر مباشرية ، لانه كان يأتـي مسندا الدعاية النشيطة التي كان يبذلها لصالح الشيوعية (١٢٥) .

فقد كان ، بوصف شروط حياة العمال الانكليز البائسة التي كانت تثـير صراعا طبقيا متزايد الحدة بين البروليتاريا والبرجوازية الانكليزية ، يريد ايقـاظ وعي البروليتاريا الالمانية الطبقي معززا حقدها ضد المنظومة الرأسمالية وأيضـا النضال ضد الفيلانتروبيين والطوباويين الذين كانوا يزعمون انهم بأدويتهم السحرية

---

١٢٣ ــ انظر **م.أ.م.** ، جـ٢ ، ص ٨ : «سنسبق هذه المجادلة بمؤلفات ، فيها كل منا سيعرض بصورة مستقلة نظراته وسيوضح موقفه ازاء المذاهب الفلسفية والاجتماعية الجديدة» .

١٢٤ ــ **فر. انجلز : حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، المقدمـة . انظر **م.أ.م.** ، جـ٢ ، ص ٢٣٢ : «الصفحات التالية تعالج موضوعا كان مفروضا فيه في البداية ان لا يكون سوى فصل من مؤلَّف اوسع عن تاريخ انكلترة الاجتماعي . ولكن اهمية هذا الموضوع ما لبثت ان قادتني الـى معالجته على حدة» . انجلز لم يستطع تحقيق مشروعه الاصلي ، ولكن هذا المشروع ظل يشغله ، كما يتبين من الوثائق المنشورة في **ارشيف ماركس ــ انجلز** (طبعة روسية) .

١٢٥ ــ انجلز الى ماركس (بارمن ، ١٩ــ١١ــ١٨٤٤) ، **م.أ.م.** ، جـ٢٧ ، ص ١٠ : «سأنشيء لوحة جميلة عن كل الجرائم الاجتماعية التي يرتكبها الانكليز ، اني أتهم علنا البرجوازية الانكليزية بالاغتيال وبأعمال النهب وبكل الجرائم . أكتب مقدمة انكليزية خاصة ، سأسحبها على حدة وسأرسلها الى قادة الاحزاب والى الكتّاب والى البرلمانيين الانكليز . هؤلاء «الكدعان» سيتذكرونني . عدا ذلك ، من البدهي انني استهدف في الوقت نفسه البرجوازية الالمانية ، التي اقول لها انها ليست أفضل من البرجوازية الانكليزية ، انها فقط اكثر جبنا وأقل انسجاما مع نفسها وأقل مهارة في فن استغـلال الشعب . »

انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٠ــ١ــ١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ١٦ : «أعمالي عن انكلترة لن تخطيء هدفها بالتأكيد ، فالوقائع واضحة بشكل حاد ، ولكني أريد ان تكون يداي حرتين كي أعرض اشياء كثيرة هي ، بالنسبة للحظة الحاضرة وللبرجوازية الالمانية ، اكثر وضوحا ايضا وستحـدث اثرا اكبر » .

سيضعون حدا لاستغلال الطبقة العاملة (١٢٦) . وبالفعل ، كان الاشتراكيون والشيوعيون الالمان، وهم جميعا في كثير او قليل تحت سطوة الانسية الفويرباخية، يُظهرون اكثر ايضا من الاشتراكيين والشيوعيين الانكليز ميلا الى الطوباوية . وعلى هذه النقطة كان يتخطاهم ايضا محبو الانسان البرجوازيون ، الذين كانوا ، وهم في جهل كامل لوضع الطبقة العاملة الحقيقي ، يفكرون انهم يستطيعون حذف البؤس بتدابير احسانية او بأدوية مسكّنة من نوع خلق صناديق توفير ، وهذا في اللحظة التي كان فيها الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا يستفحل باضطراد في ألمانيا بعد انتفاضة حياكي سيليزيا (١٢٧) .

كما يظهر من رسائله الى ماركس ، انجلز أكب على هذا العمل بحماس حقيقي (١٢٨) . كي يحرر مؤلفه لجأ الى كمية هائلة من الوثائق اخذها من الصحافة ومن الكتب على حد سواء (١٢٩) .

---

١٢٦ ــ انظر **ف. انجلز** ، **المرجع المذكور (حالة الطبقة العاملة في انكلترة)** ، **م.أ.م.** ، جـ٢ ، ص ٢٣٢ : «ان حالة الطبقة العاملة في انكلترة هي الاساس الواقعي الذي منه تنبع كل الحركات الاجتماعية الراهنة ، لان هذه الحالة تشكل في آن الحد الاخير والتجلي الاكثر سطوعا للبؤس السائد حاليا . الشيوعية الفرنسية والالمانية هي نتاجها المباشر ، الفويرية والاشتراكية والانكليزية وشيوعية البرجوازية المستنيرة الالمانية نتاجها غير المباشر . ان معرفة شروط حياة البروليتاريا ضرورة مطلقة، في آن من اجل اعطاء اساس متين للنظريات الاشتراكية ، من اجل تسويفها ، وأيضا من اجل وضع حد للشطحات الخيالية التي ترتبت عليها . فقط في بريطانيا العظمى وبخاصة في انكلترة تمثل شروط حياة البروليتاريا في شكلها الكلاسيكي والناجز ، كذلك فقط في انكلترة توجد مجتمعة جملة الوثائق التي حصلت عليها تحقيقات رسمية والتي هي ضرورية لوصف هذا الموضوع وصفا كاملا».

١٢٧ ــ **المرجع نفسه** ، ص ٢٣٣ : «ان عرض شروط حياة البروليتاريا في الامبراطورية البريطانية ، كما تحضر في شكلها الكلاسيكي ان صح القول ، خصوصا في العصر الراهن ، يرتدي اهمية خاصة بالنسبة لالمانيا . فالاشتراكية والشيوعية الالمانيتان ، اكثر من اي اشتراكية او شيوعية اخرى ، انطلقتا من اعتبارات نظرية . نحن المنظّرين الالمان كنا نعرف اشياء قليلة من العالم الواقعي كي تستطيع الحالة الاجتماعية ان تقودنا الى ارادة اصلاح وضع الاشياء القائم السيء . بين الانصار الاكيدين لمثل هذه الاصلاحات لا يكاد يوجد واحد الا وأتى الى الشيوعية عن طريق النقد الذي أجراه فويرباخ ضد الفلسفة النظرانية الهيغلية» .

١٢٨ ــ انجلز الى ماركس (بارمن ، ١٩ــ١١ــ١٨٤٤) ، **م.ا.م.** ، جـ٢٧ ، ص ١٠١ : «أنا غاطس حتى العنق في قراءة جرائد وكتب ، أسحب منها الوثائق لمؤلّفي عن حالة البروليتاريا الانكليزية . أتوقع الانتهاء منه في منتصف او نهاية شهر يناير ، اذ أكملت منذ اسبوع او اثنين الشيء الاصعب في هذا العمل ، ألا وهو ترتيب وتنظيم التوثيق» .

١٢٩ ــ عن المؤلفات والمجلات والنشرات الرسمية التي أوردها انجلز ، انظر **انجلز : حالة الطبقة الكادحة في انكلترة** ، باريس ، مرجع مذكور ، ص ص ٤٠١ ــ ٤٠٣ .

انجلز نشر كتابه في ظروف ملائمة تماما ، في اللحظة التي كان فيها الراي العام ، تحت تأثير انتفاضة حياكي سيليزيا وبوهيميا ، يهتم اكثر فأكثر بحالة الطبقة العاملة وبمسألة الفقر .

ان مسألة تفاقم بؤس البروليتاريا مع الخطر الذي يحمله للمجتمع كانت قد طرحت نفسها سابقا في انكلترة وفرنسا ، حيث ليس الاشتراكيون فقط بل ايضا

بين هذه المؤلفات يجب ان نذكر :

آليسون (سر آرشيبالد) : **مبادىء السكان** ، مجلدان ، إدمبورغ ١٨٤٠ .

آليسون (وليم بلتني) : **ملاحظات على تدبير الفقراء في سكوتلانده وآثاره على الصحة في المدن الكبيرة** ، اومبورغ ، ١٨٤٠ .

بينس (ادوارد الابن) : **تاريخ الصناعة القطنية في بريطانيا** ، لندن ١٨٣٥ .

كارلايل (توماس) : **الشارتية** (لندن ١٨٣٩) . **الماضي والحاضر** ، لندن ١٨٣٥ .

كروكر (ج.و.) : **صورة اولى من وضع ايرلندة ، الماضي والحاضر** ، لندن ١٨٣٥ .

فوشه (ليون) : **دراسات عن انكلترة** ، مجلدان ، باريس ١٨٤٥ .

غاسكل (بيتر) : **السكان الصناعيون في انكلترة** ، لندن ١٨٣٣ .

كي (ج.ب) : **الشروط المعنوية والمادية للطبقات العاملة المستخدمة في الصناعة القطنية في مانشستر** ، الطبعة الثانية ، ١٨٣٢ .

ليش (جيمس) : **وقائع عنيدة من المعامل بقلم عامل في مانشستر** ، لندن ١٨٤٤ .

ماك كولوش : **تقرير احصائي عن الامبراطورية البريطانية** ، لندن ١٨٣٧ .

مالتوس (ت.ر.) : **محاولة في مبادىء السكان** ، لندن ١٨٠٣ .

أوستلر (ريتشارد) : **اوراق من شارع الاسطول** [وهو شارع السجن ، اذن = اوراق من السجن] ، ٤ أجزاء ، لندن ، ١٨٤١ — ١٨٤٤ .

باركيسون (ر.) : **عن الوضع الحاضر للشغيلة الفقراء في مانشستر** ، لندن ومانشستر ، الطبعة الثالثة ، ١٨٤١ .

بورتر (ج.) : **تقدم الامة** ، ٣ مجلدات ، لندن ١٨٣٦ — ١٨٤٣ .

سنيور (ناساو وليم) : **رسائل عن قانون المعامل** ، لندن ١٨٣٧ .

سميث (آدام) : **تحقيق عن طبيعة وأسباب ثروة الامم** ، ٤ مجلدات ، ١٨٢٨ .

سايمونس (ج.ك.) : **الحرف وأصحابها في الوطن والخارج** ، اومبورغ ولندن ١٨٣٩ .

أور (اندرو) : **صناعة القطن في بريطانيا** ، مجلدان ، لندن ١٨٣٥ . **فلسفة المصانع** ، الطبعة الثانية ، لندن ١٨٣٧ .

فوغهات (روبرت) : عهد المدن الكبرى ، لندن ١٨٤٢ .

ويد (جون) : **تاريخ الطبقات المتوسطة والعاملة** ، لندن ، الطبعة الثالثة ، ١٨٣٥ .

ويكفيلد (ادوارد جيبون) : **سوينغ بلا قناع ، او اسباب اعمال الاحراق الطوعي في الريف** ، لندن ١٨٣١ .

كتّاب برجوازيون كانوا قد سعوا الى ايجاد وسائل سلمية قادرة على حل هـذه المسألة تجنبا لثورة اجتماعية .

هكذا ففي بداية الثلاثينات ، كان طبيب من مانشستر ، ب. غاسكل P. Gaskell ، قد عرض في كتاب بعنوان **عمال الفبارك في انكلترة ، وضعهم الاخلاقي والاجتماعي والفيزيائي ، التغيرات التي جلبها استخدام الآلات البخارية ، مع تحقيق عن عمل الاولاد** (لندن ۱۸۳۳) ، شروط حياة الطبقة العاملة في انكلترة ولفت الانتباه الى إلحاحية مداواة عواقب البؤس . اذ كان ليبرالي الاتجاه ، لم يكن يوحي بإصلاحات جذرية ، الا ان كتابه كان له مأثرة انه يصف حالة الطبقة العاملة الانكليزية بكيفية موضوعية ، بحيث استطاع انجلز ان يستوحيه جزئيا (١٣٠) .

في فرنسا ، ل. فيلرمه L. Villermé ، في تقرير موجّه في ١٨٤٠ الى أكاديمية العلوم المعنوية والسياسية ، بعنوان **لوحة الوضع المادي والمعنوي للعمال المستخدمين في مانيفاكتورات القطن والصوف والحرير** ، كان ايضا قد أنشأ عرضا بالغ الموضوعية عن حالة الطبقة العاملة الفرنسية في صناعة النسيج .

بينما كان فيلرمه يكتفي بوصف شروط حياة الطبقة العاملة ، على نحو كان بالحقيقة يظهر ضرورة ايجاد علاج للقضية ، كان بوريه Buret ، واضعا نفسه مُصلحا ، ينقد ، في كتابه عن **بؤس الطبقات الكادحة في انكلترة وفرنسا** ، باريس (١٨٤٠) ، الراسمالية بوصفها سبب الافقار ، دون ان ينادي مع ذلك عمل البروليتاريا الثوري ، واضعا بالعكس أمله في حكمة الحكام لحل المعضلة الاجتماعية .

بعده أنشأ دوكبيتيو Ducpétiaux ، في مؤلّفه **عن الوضع الفيزيائي والمعنوي للعمال الشباب وعن وسائل تحسينه** (١٨٤٣) ، لوحة مفصلة عن حالة العمال الفتيان في البلدان الراسمالية ، بينما وصف ليون فوشه Léon Faucher في «دراساته عن انكلترة» المنشورة في **مجلة العالمَين** (١٨٤٣ – ١٨٤٤) وفي كتابه **انكلترة ، مؤسساتها الاجتماعية والتجارية** (باريس ، ١٨٤٥) ، بوضوح ودقة بؤس البروليتاريا الانكليزية ، ولكن دون ان يحلل أسبابه الاقتصادية والاجتماعية(١٣١).

في المانيا ، كان لورنتس شتاين Lorenz Stein **قد أكد** ، في كتابه عن **الاشتراكية والشيوعية في فرنسا الراهنة** (لايبتسيغ، ١٨٤٢) ، على الفرق بين

---

١٣٠ – انظر **م.ا.م.** ، ج٢ ، ص ص ٢٩٧ ، ٣٣٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ – ٥٠٢ . انظر **ف. انجلز: حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، باريس ، ص ص ١٠٧ ، ١٤٨ ، ١٧٤ ، ١٧٩ – ٣٣٦ .

١٣١ – كان انجلز يعترف باستحقاق هذه الدراسات . انظر **م.ا.م.** ، ج٢ ، ص ٤١٧ . **ف. انجلز : حالة الطبقة الكادحة في انكلترة** ، باريس ، ص ٢٥١ : «ليون فوشه (كاتب سلسلة مقالات في **مجلة العالمَين** ، يبين فيها انه على الاقل درس المسألة ، وهي على اي حال أفضل من كل ما كتبه الانكليز والالمان حتى الان عن هذا الموضوع) ...» .

الاشتراكية ، التي تعبر عن مطامح الطبقات الوسطى المضطهَدة ، والشيوعية ، التي تترجم عن مطامح البروليتاريا الثورية ، وكان قد بيَّن ايضا ان تشكل هذه الاخيرة هو نتاج تطور المنظومة الراسمالية والح على ضرورة اصلاحات عاجلة لتجنب ثورة اجتماعية .

بعد هذا الكتاب الذي كان له دوي كبير ، حصل في ألمانيا ، عقب ثـــــورة الحياكين ، إزهار حقيقي من مؤلفات تعالج المسألة الاجتماعية ووسائل حلها (١٣٢).

راسما لوحة مُمثلَنة عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية لانكلترة في كتابه عن **حالة انكلترة ، سياستها ، تطور قوتها** (مجلدين ، لايبتسيغ ، ١٨٤٦) ، كان هوفكن Hoffken ، الليبرالي الاتجاه ، يمجد انكلترة بوصفها البلد الاكثر تقدما والاكثر حرية ويعزو نجاحاتها الى مؤسساتها الليبرالية ، لازما الصمت عن بؤس الطبقة العاملـــة .

ي. فندي J. Venedey في كتابيه عن **انكلترة** (٣ مجلدات ، لايبتسيغ ، ١٨٤٥) وعن «الحياة الاجتماعية الانكليزية» المنشور في **اوروبا الجديدة . أخبار العالم المثقف** (كارلسروه ، ١٨٤٥ ، جـ١) كان ينتقد العلاقات الاجتماعية من وجهة نظر عاطفية ، يلوم الاغنياء على أنانيتهم المتولّدة من التنافس ، التي تستتبـــــع استغلال الطبقة العاملة ، ويلوم الفقراء على انسياقهم مع الحقد ، مناديــــا بحب القريب كحل حقيقي للمسألة الاجتماعية .

تقريبا في نفس الوقت مع انجلز ، كان جورج فيرث Georg Weerth ، الممثل التجاري الذي كان يعيش في برادفورد قرب مانشستر والذي كان يعاشر انجلز كثيرا (١٣٣) ، ينشىء في مقال طويل عن «البروليتاريين في انكلترة» تحليلا لشروط حياة الطبقة العاملة الانكليزية ، من وجهة النظر الشيوعية (١٣٤) . كان وصفه يتميز في نقطتين عن وصف انجلز ، فهو أقل اسهابا عن اسباب بؤس البروليتاريــــا الانكليزية وعن عواقبه الثورية وليس له طابعه المنهجي ـ النظامي والكامل . فقد

---

١٣٢ ـ انظر **هـ. بودمر : عن حالة الطبقات الكادحة** ، غريما ، ١٨٤٥ .
هـ. بتيسبيه : المال والروح ، برلين ، ١٨٤٥ .
آ. شنير : عن حالة الطبقات الكادحة في برسلاو ، برلين ، ١٨٤٥ .
ب. فيرنر : العون للفقراء ، أصله ، ووسائل مساعدتهم ، دارمشتادت ـ لايبتسيغ ، ١٨٤٥ .
او. ف. فنكشترن : الصناعـــة الالمانية والاتحــــاد في سبيل رفع وضع الطبقـــة العاملة ، برلين ، ١٨٤٥ .

عن الادب الاجتماعي الالماني في ذلك العصر ، انظر **ف. مونكه** : الصدى الادبي في المانيا لمؤلف انجلز ، **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، برلين ، ١٩٦٥ .

١٣٣ ـ عن ج. فيرث انظر الفصل الاول من هذا المجلد .

١٣٤ ـ انظر **الحوليات الراينية لاصلاح المجتمع** ، ١٨٤٥ ، ص ص ٣٠٩-٣٢٦ .

كان ج. فيرث يعمل بالاحرى بأسلوب اللمسات ، على طريقة مِشكال ، بواسطة لوحات مأخوذة على الطبيعة الحية . كان يبين ايرلنديا يفضل التسول على الشغل، اقتناعا منه بأنه من غير الممكن ان يفلت من البؤس ، يصف حانة تتحول في المساء الى ملجأ ليلي يلتجىء اليه من لا بيت لهم (١٣٥) ، وأيضا بيوت الشغل حيث تسود شروط حياة فظيعة لدرجة ان العاطلين عن العمل يفضلون التسوّل او السرقة على ان يدعوا أنفسهم يُحبسون فيها (١٣٦) . استفحال البؤس يعلل تزايد الجرائم وحوادث الانتحار وأيضا الكفاحية التي تدلل عليها الطبقة العاملة الانكليزية (١٣٧). في نهاية مقاله ، كان فيرث يعلن عن قرب صدور كتاب انجلز ، معتبرا اياه أقدر الكتّاب الالمان المعاصرين على اعطاء تحليل صحيح عن حالة البروليتاريا الانكليزية (١٣٨) .

ان الكتاب عن **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، الذي يهديه انجلز للبروليتاريا الانكليزية (١٣٩) ، كان ثمرة دراسة دقيقة ومتعمّقة لشروط حياة العمال في انكلترة (١٤٠) . كان يواصل المقال الكبير عن «حالة انكلترة» الذي كان قد نُشر في

---

١٣٥ ــ انظر **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٣٠٩ ــ ٣١٣ .

١٣٦ ــ **المرجع نفسه** . ص‌ص ٣١٣ ــ ٣١٥ .

١٣٧ ــ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٣١٧ وبعدها .

١٣٨ ــ **المرجع نفسه** ، ص ٣٢٦ : «بهذا أنهي وصفي غير الكامل لحالة البروليتاريا الانكليزية ، ويفرحني انه في هذه اللحظة نفسها يقوم واحد من أفضل الفلاسفة الالمان برسم صورة اجمالية لحياة الشغيلة الانكليز ، وسيكون هذا المؤلف ذا اهمية رئيسية . هذا الكاتب يستطيع بالفعل اكثر مما استطيع بكثير ان يسلط الضوء على الوقائع الخاصة ، وكان له اكثر مني ، بحكم اقامته الطويلة في مانشستر ، مهد البروليتاريا ، فرصة ملاحظة العمال ...» .

في كتاب بقي في حالة مخطوط ، عنوانه صور من **حياة الانكليز الاجتماعية والسياسية** ، كان فيرث سيرسم لوحة أكمل عن الحالة في انكلترة . انظر **ج. فيرث : المؤلفات الكاملة** ، مرجع مذكور آنفا ، جـ٣ ، ص‌ص ٨ ــ ٤٧٥ .

١٣٩ ــ انظر **ف. انجلز : حالة الطبقة الكادحة في انكلترة** ، باريس ، ص‌ص ٢٧ وبعدها .

١٤٠ ــ **المرجع نفسه** ، ص ٢٧ : «لقد عشت بينكم مدة كافية مكنتني من الاطلاع على شروط حياتكم . أكببت على معرفتها جيدا . درست بامعان مختلف الوثائق الرسمية اولا التي أمكنني الحصول عليها . لم أكتف بذلك . فما كان مهما بالنسبة لي لم يكن فقط معرفة موضوعي معرفة مجردة ، كنت أريد ان أراكم في منازلكم ، ان الاحظ حياتكم اليومية ، أن اتحدث معكم عن شروط وجودكم ، عن آلامكم ، ان اكون شاهد نضالاتكم ضد السلطة السياسية والاجتماعية لمضطهديكم . لهذه الغاية ، تخليت عن حياتي الاجتماعية ، عن الولائم ، عن البورتو والشمبانيا ، وكرّست كل أوقات فراغي لمعاشرة **العمال** العاديين ، وأنا بذلك سعيد وفخور في آن» .

المرجع نفسه ، ص‌ص ٣٢ وبعدها ، المقدمة : «خلال ٢١ شهرا كان لي فرصة ان أتعلم معرفة

الى الامام قبل وقت قليل (١٤١) .

بخلاف هذا المقال ، حيث أكب على تبيان كيف ان الثورة الصناعيــة حددت التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لانكلترة الحديثة ، كان انجلز يريد الان ان يعرض كيف ان نمو البروليتاريا الانكليزية وتفاقم شروط حياتها وبالتالي صراع الطبقات بين البروليتاريا والبرجوازية الذي يفضي حتما الى ثــورة اجتماعية هما النتيجة الضرورية اللازمة عن هذه الثورة الصناعية .

يبرز في كتابه ، بطريقة أوضح بكثير ، العلاقات سبب ــ نتيجة القائمة بين انبساط الثورة الصناعية البادئة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والتي حددت تغيرا عميقا في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية وبين شروط حياة الطبقة العاملة الانكليزية .

هذه الثورة تتميز جوهريا بإحلال الانتاج المعتمد على الآلات [الماكينات] مــع استخدام البخار كقوة محرّكة محل الانتاج اليدوي إحلالا مسرّعا . هذا التبديل يقتضيه التزايد السريع للحاجات التي لا يستطيع الانتاج الحرفي والمانيفاكتوري ان يلبيها الا بشكل متناقص . هذه الثورة دشنها اختراع وادخال الآلات في الصناعة النسيجية ، بخاصة في الصناعة القطنية ، واستخدام الآلة البخارية التي اخترعها في سنة ١٧٦٩ جيمس واط James Watt . الاختراع الاول الذي أثار انقلابا حقيقيا في صناعة النسيج كان اختراع آلة الغزل، **جنّي** Jenny هارغريفس Hargreaves في ١٧٦٤ ✶ . بدلا من مِردَن واحد كما في المغزل اليدوي ، لها ستة عشر الى ثمانية عشر يشغّلها عامل واحد ، الامر الذي يتيح انتاجا من خيط القطن ازداد الى ما لا نهاية . الاختراعات التالية، آلة حلج آركريات Arkwright في ١٧٦٩ ، ميول Mule كرامبتون Crampton في ١٧٨٥ ، نول الحياكــة الميكانيكي لـ كارترايت Cartwright في ١٨٠٤ ، حوّلت تحويلا عميقا وكامــلا صناعة النسيج وأدت تدريجيا الى تصفية الغازلين والناسجين اليدويين (١٤٢) .

ان استخدام الآلات الذي سبَّب انطلاقا عجيبا لصناعة النسيج (١٤٣) ، مــا

البروليتاريا الانكليزية ، وأن ألاحظ عن كثب جهودها وأتراحها وأفراحها بمعاشرتي لها شخصيا ، وأن أكمل ملاحظاتي باستخدام وثائق أصلية موثوقة لاغنى عنها . ما رأيته وسمعته وقرأته منبت في هذا الكتــاب » .

١٤١ ــ عن هذا المقال ، انظر المجلد الثالث من هذا المؤلف [الفصل الثالث ، الفقرة الاولى] .

[✶ دعاها المخترع **جنّي** باسم ابنته] .

١٤٢ ــ انظر **ف. انجلز : حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، باريس ، ص‌ص ٤٠ـ٤١ .

١٤٣ ــ **المرجع نفسه** . ص‌ص ٤٢ وبعدها : «استيراد القطن يمضي من خمسة ملايين ليبرة فــي ١٧٧٥ الى ستمئة مليون ليبرة في ١٨٤٤ . المركز الرئيسي للصناعة القطنية ، الذي كان يشغل بصورة مباشرة او غير مباشرة ثلاثة ملايين من البشر ، كان كونتية لانكاشاير التي تضاعف عدد سكانهــا عشرة أضعاف خلال ثمانين عاما والتي فيها نمت بسرعة فائقة مدن كبيرة مثل مانشستر وليفربول.»

لبث ان امتد الى كل فروع الصناعة . ان بناء السفن البخارية والسكك الحديدية وتوسع الماكينية [استخدام الآلات] سهّلا تطور الصناعة التعدينية السريع ، الذي سرّعه استخدام الكوك بدلا من فحم الحطب من اجل الصهر ، وتطور صناعة الاستخراج (١٤٤) .

ان تأثير الثورة الصناعية ظهر ايضا في الزراعة باستخدام الآلات المعمّم . هذا الاستخدام ومعه استعمال الاسمدة الذي ينمي وتركز الاراضي زادت مردود الارض مما سبّب انخفاض سعر المحاصيل الزراعية (١٤٥) .

ان النمو السريع للانتاج الصناعي أثار ، بتخفيض الاسعار ، توسعا سريعا للسوق الداخلية والخارجية وسهّل بذلك الاستيلاء على السوق العالمية .

ان انطلاق الصناعة والتجارة المتسارع أدى ايضا الى تغير عميق في وسائل المواصلات والنقل . بما ان العربة ، رغم توسع شبكة الطرق ، لم تعد قادرة على تلبية الحاجات ، فقد شرعوا اعتبارا من سنة ١٨٣٠ ينشئون سكك الحديد ليربطوا فيما بينها المدن الكبرى ، والفبارك مع الموانىء ومناجم الفحم والحديد . في الوقت نفسه ، حُفرت أقنية جديدة وجُعلت الانهار صالحة للملاحة وأُعدت الموانىء و ، نظرا لعدم كفاية السفن الشراعية ، عجّل بناء السفن البخارية التي يرتفع عددها منذ عام ١٨٣٦ الى خمسمئة (١٤٦) .

ويخلص انجلز الى ما يلي : «هذا هو باختصار تاريخ الصناعة الانكليزية في السنوات الستين الاخيرة ، تاريخ ليس له مثيل في حوليات البشرية . قبل ستين او ثمانين عاما ، كانت انكلترة بلدا كسائر البلدان ، مع مدن صغيرة ، وصناعة ما تزال قليلة النمو ، وسكان ريف منثورين ولكن هامين نسبيا . وهي الان بلد لا مثيل له ، مع عاصمة تعد مليونين ونصف مليون نسمة ، ومدن صناعية عملاقة ، وصناعة تغذي العالم كافة ، يصنع تقريبا كل شيء بواسطات آلات بالغة التعقيد ، يملك شعبا شغيلا وذكيا وكثيفا ثلثاه مستخدمون في الصناعة ، يتألف من طبقات مختلفة تماما عن طبقات الامس ، ويكوّن أمة غير أمة الامس تماما لها عادات أخرى وحاجات

---

١٤٤ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٤٦ــ٤٨ . مناجم الفحم في نورذمبرلاند وفي درهام ، التي ارتفع عددها من ١٤ في ١٧٥٣ الى ١٣٠ في ١٨٤٣ ، كانت تقدم في ذلك التاريخ خمسة ملايين طن من الفحم للتصدير . استخراج فلز الحديد ارتفع من سنة ١٧٤٠ الى سنة ١٨٣٤ من ١٧٫٠٠٠ الى ٧٠٠٫٠٠٠ طن ، انتاج الحديد الذي كانت مراكزه الرئيسية برمنغهام وشيفيلد ومنطقة الستافوردشاير زاد في هذه الفترة بنفس النسب ، هكذا مثلا انتقل تصدير الحديد الخام من ١٨٠٥ الى ١٨٣٤ من ٤٫٦٠٠ طن الى ١٠٧٫٠٠٠ طن . عدد العمال المستخدمين في مناجم الفحم والحديد والنحاس والرصاص كان يرتفع في مطلع الاربعينات الى ما يقرب من ٢٠٠٫٠٠٠ .

١٤٥ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٤٨ ـ ٤٩ .

١٤٦ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٤٩ ـ ٥٠ .

أخرى . ان الثورة الصناعية لها بالنسبة لانكلترة نفس الاهمية التي للثورة السياسية بالنسبة لفرنسا وللثورة الفلسفية بالنسبة لالمانيا والمسافة الموجودة بين انكلترة ١٧٦٠ وانكلترة ١٨٤٤ هي على الاقل بحجم المسافة التي تفصل فرنسا العهد القديم [فرنسا قبل ثورة ١٧٨٩] عن فرنسا ثورة تموز [١٨٣٠] » (١٤٧) .

الثورة الصناعية كانت تُحدِث ، في الوقت نفسه مع إحداثها تحولا اقتصاديا عميقا ، انقلابا يتجلى في انحدار الطبقات القديمة وصعود طبقات جديدة وتغيرات عميقة في العلاقات الاجتماعية .

فقد كان تركز الاراضي يولد مع اثراء كبار الملاكين العقاريين . خراب الفلاحين الصغار . تطور الصناعة بتوسع الماكينية كان يسبب من جهة اخـــرى ، مع تعزز البرجوازية الكبيرة بتركز الرساميل واحتكار الانتاج ، انحدار الطبقات الوسطى ، الحرفيين والصناعيين الصغار والتجار الصغار ، تحت وطأة مزاحمة الصناعـــة الكبيرة والتجارة الكبيرة ، والبرلترَة المتعاظمة للطبقة العاملة . وهذا كان لـــــه كنتيجة الانقسام الجديد للسكان الانكليز بين طبقتين متنافيتين ، هما الرأسماليون والبروليتاريون ، وتفاقم الصراع بينهما .

بينما كانت تتشكل برجوازية كبيرة متعاظمة الثروة والقوة تسعى الى اخذ مكان النبلاء كطبقة قائدة ، كانت تتشكل ، من جراء افقار الطبقات الوسطـــــى المتزايد وتوسع استخدام الآلات ، بروليتاريا متزايدة العدد ، كانت ستلعب عما قريب دورا مقررا في الحركة السياسية والاجتماعية لانكلترة . مـــن هنا الاهمية الرئيسية التي يعلقها انجلز على تشكّل ونمو البروليتاريا الانكليزية ، على اسباب ونتائج بؤسها ، وعلى عواقبه بالنسبة لعملها الثوري (١٤٨) .

ان دراسته للبروليتاريا الانكليزية تمتد في آن على البروليتاريا المدينية وعلى

---

١٤٧ ــ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥٠ ، ٥١ .

١٤٨ ــ **المرجع نفسه** ، ص ٥١ : «الصناعة الجديدة لم تأخذ اهمية حقيقية الا اعتبارا من اللحظة التي فيها حوّلت الادوات الى ماكينات والمعامل الى مصانع ، وبَرلترَت الطبقات الوسطى ، وجعلت التجار القدامى رجال صناعة . من جراء تصفية الطبقات الوسطى انقسم السكان الى عمال من جهة ورأسماليين من الجهة الاخرى . وقد حصلت سيرورة مماثلة خارج القطاع الصناعي بمعنـــى الكلمة الضيق ، اي في الانتاج الحرفي بل وفي التجارة» .

المرجع نفسه ، ص ٣٦ : «ان تاريخ الطبقة العاملة في انكلترة يبدأ في النصف الثاني مـــــن القرن الماضي مع اختراع الآلة البخارية والالات المستعملة في الصناعة القطنية . هذه الاختراعات أطلقت ، كما هو معلوم ، ثورة صناعية حوّلت المجتمع رأسا على عقب وبدأنا الان فقط ندرك كـــــل مداها التاريخي . انكلترة هي الارض الكلاسيكية لهذه الثورة التي تتناسب قوتها مع كونها تحققت بشكل صامت . انها المكان المختار الذي نمت فيه البروليتاريا التي هي نتيجتها الجوهرية . فقط في انكلترة يمكن دراسة البروليتاريا في أصولها وفروعها» .

البروليتاريا الزراعية اللتين كانتا كليهما قد تشكّلتا مع سير تطور الثورة الصناعية. حتى ذلك الحين كان سكان الارياف يتألفون من ملاكين عقاريين كبار وغالبية من صغار فلاحين ومزارعين يعيشون حياة منقوصة قلقة على اراضيهم ومن خدم مزارع ، ومن غازلين وناسجين يدويين كانوا يعيشون ، عدا عن عملهم ، من زراعة قطعة صغيرة من الارض (١٤٩) .

بنتيجة الطلب المتزايد على المنتوجات الزراعية وارتفاع أسعارها الناجمين عن ازدياد السكان وعن الحصار القاري ، اخذ كبار الملاكين العقاريين والمزارعون الكبار يحتكرون الارض ، رافعين مردودها باستخدام اكثر كثافة للآلات الزراعية وللاسمدة (١٥٠) .

حين، عند انتهاء الحروب ضد نابوليون، التي كانت قد أمنت بالحصار القاري ازدهار الزراعة الانكليزية ، نشبت ازمة زراعية ، أصيب صغار الملاكين والمزارعين تدريجيا بالافلاس . اضطروا الى التخلي عن اراضيهم التي احتكرها كبار الملاكين والمزارعين ، والى العمل كخدم مَزارع او كمياومين او الى الهجرة الى المدن بحثا عن عمل في المانيفاكتورات والفبارك (١٥١) .

خدم المزارع أصابهم مصير مماثل . طالما بقيت العادات البطريكية في الريف عاشوا حياة محمولة . كانوا يعيشون في بيت «المعلم» حيث كانوا تقريبا واثقين من البقاء حتى وفاتهم . ولكن حين انفجرت الازمة الزراعية ، قام كبار الملاكين وكبار المزارعين ، اذ اضطروا الى بيع الحبوب بثمن أدنى رغم رسوم الحماية ، قاموا بتخفيض أجور خدم المزارع وصرفوا من لم يكونوا بحاجة مطلقة اليه . هؤلاء المسرحون اضطروا الى العمل كمياومين ، الامر الذي لم يكن حتى ذلك الحين سوى الاستثناء ، ورأوا شروط معيشتهم تستفحل من جراء استخدامهم غير المستقر وغير المنتظم ، الامر الذي دفعهم ايضا الى الذهاب الى المدن لايجاد عمل بأجر افضل (١٥٢) .

ان افقار الغزالين والحياكين اليدويين العائشين في الريف حصل بشكل مواز لافقار صغار الفلاحين . كما طُرد المستثمِرون الصغار من أراضيهم بنتيجة مزاحمة كبار الملاكين العقاريين ، كذلك الغزالون والحياكون اليدويون الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الحين في الريف في مأمن من الفاقة والازمات سقطوا ضحية مزاحمة الفبارك واضطروا الى التخلي عن حرفهم والذهاب الى المدن ليُستخدموا

---

١٤٩ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٣٩ وبعدها .

١٥٠ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٤٨ ـ ٤٩ .

١٥١ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٤٠ ، ٣١٩ـ٣٢٠ .

١٥٢ ـ **المرجع نفسه** . ص‌ص ٣٢٠ ، ٣٢٣ .

كعمال صناعيين (١٥٣) .

تلك كانت الحالة التي تعممت في الارياف في نهاية العشرينات . منذ ذلـــك الحين ، الارياف والمدن صارت بؤرا للفقر . عائلات كثيرة لم يكن لديها سوى ما بين ستة وثمانية شيلنغ في الاسبوع لكي تعيش وكثيرون كانوا بلا موارد من جراء البطالــة .

في الريف كما في المدينة ، المزاحمة بين العمال الزراعيين وبين عمال الفبارك لم تفتأ تتفاقم ، مما أدى الى تقليص الاجور الى الحد الادنى الضروري للعيش والى توسّع البطالة . في الريف ، كان العاطل عن العمل ما يزال يجد بعض العون الذي يمنعه من الموت جوعا، ولكنه لم يكن يستطيع بالمقابل ان يعوّل على امكانية امتصاص البطالة ، كما في الاقضية الصناعية ، بتزايد الانتاج . في المدن ، بالمقابل ، كان العاطل عن العمل يجد نفسه تماما متروكا لحاله ولم يكن يستطيع ان ينتظر ايـــة مساعــدة .

ان برلترَة الطبقة العاملة انبسطت باديء بدء في صناعة النسيـــج . الطلب المتزايد على المنتوجات النسيجية الناجم عن ازدياد السكان السريع ، الهجرة الدائمة الى المدن لفلاحين وغزالين وحياكين أصابهم الخراب كانوا يقدمون مع الحرفيين المبرلتَرين اليد العاملة الضرورية (١٥٤) ، وكذلك استخدام الآلات واستخدام البخار كقوة محرّكة ، كل هذه العوامل خدمت انطلاق هذه الصناعة التي تطورت في المدن وفي الارياف معا .

لئن كانت المدن توفر مزايا كبيرة لاصحاب الفبارك ـ وسائل نقل سهلة، سهولة اكبر في الحصول على المواد الاولية وفي تصريف السلع ـ ، فان القـــرى كانت تسمح لهم بالافلات من النُظم النقابية ـ الحرفية التي كانت تحد وتعيق عمليـــة صنع المصنوعات وتوفر لهم عدا ذلك مزية أجور واطئة . لذا فان الفبارك أقيمت في المدن وايضا في قرى تحولت بسرعة الى بلدات ولم تفتا تكبر بتوافد اليـــــد العاملة وهيئات الصنائع التي اقتضاها التزايد المتنامي للحاجات من كل نوع . «ان المنشأة الصناعية الكبيرة تفرض عمالا عديدين يعملون بصورة مشتركة في مبنى ويسكنون ايضا بصورة مشتركة . وبالنسبة لمصنع متوسط ، انهم من هنا يؤلفون قرية . لهم حاجات ولتلبيتها يلزم أناس آخرون ، حرفيون : خياطون ، حذّاؤون، خبازون ، معماريون ، نجارون ، يتوافدون بلا انقطاع . سكان القرية ، لاسيمـــا الجيل الفتي ، يعتادون على العمل في الفبركة ويتآلفون معه . حين لا تستطيـــع الفبركة الاولى تشغيلهم جميعا ، تنخفض الاجور ، فيأتي عندئذٍ صناعيون جـــدد يقيمون هنا ، لدرجة ان القرية تتحول الى بلدة والمدينة الصغيرة الى مدينة كبيرة.

---

١٥٣ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٣٦ ـ ٣٩ .

١٥٤ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥١ ـ ٥٢ .

كلما كانت المدينة اكبر، كانت أكبر المزايا التي توفرها للاقامة: سكك حديدية، قنوات، طرق معبّدة ، صفوة متنوعة من شغيلة ذوي خبرة ، وجود متعهدين وبُنات آلات. وهؤلاء ، بالمزاحمة التي يمارسونها فيما بينهم ، يسمحون بخلق منشآت جديدة بحساب أفضل مما في منطقة بعيدة ، حيث يجب اولا نقل أخشاب البناء والآلات وجلب عمال البناء وعمال الصناعة . وفيها سوق ، بورصة ، يتوافد اليها المشترون . وفيها يكون صاحب المصلحة على علاقة مباشرة مع الاسواق التي تسلم المواد الاولية او تشتري المنتوجات المصنوعة . من هنا تكاثر المدن الكبرى المدهش. الريف يوفر من جهة أخرى مزية أجور أدنى بصورة عامة . ثمة هكذا تزاحم مستمر بين الريف والمدينة . اذا كان ميزان اليوم لصالح المدينة ، فان انخفاض الاجور الذي سيحصل غدا في الريف سيجعل من الاربح اقامة منشآت جديدة فيه » (١٥٥) .

من جراء التزايد السريع للانتاج بتوسُّع استخدام الآلات في صناعة النسيج اولا ثم في صناعة التعدين والاستخراج ، تشكلت بروليتاريا متعاظمة العدد ، كان نصيبها في البداية صالحا نسبيا ، بفضل ازدياد الطلب على اليد العاملة . بيد ان وضع البروليتاريا الصناعية لم يلبث ان استفحل بنتيجة تعمُّم استخدام الآلات التي كانت تحل محل الشغل اليدوي ، وسرعان ما صار أسوأ من وضع العامل الزراعي الذي كان واثقا تقريبا من العثور دوما على مأوى وعلى أكله . فمكننَة الانتاج ، بتنقيصها اليد العاملة ، زادت المزاحمة بين العمال وأنزلتهم الى البؤس والبطالة . هكذا ان ادخال آلة الغزل جِنّي التي كانت تعطي من الخيوط ستة أضعاف ما كان يعطيه المغزل اليدوي سبَّب صرف ثلثي الغزّالين . وإدخال الماكينية في الحياكة وطبع القطنيات كان لهما نفس العواقب (١٥٦) .

ان الآثار المؤذية لادخال الماكينية بالنسبة للعمال زادها خطورةً واقع ان هذا الادخال سمح باستخدام نساء وأطفال يكافأ عملهم على نحو أسوأ بكثير من عمل الرجال ، الامر الذي شدد اكثر انخفاض الاجور العام . هكذا كانت الحال بشكل خاص في صناعة النسيج ، حيث لا يتطلب الانتاج بذلا من القوى كبيرا . فالشغل في المغازل ينحصر في وصل الخيوط المقطوعة ، والنساء والاولاد أقدر على هذا العمل بفضل خفة أصابعهم (١٥٧) . ان مزاحمة النساء والاولاد تظهر ايضا في

---

١٥٥ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥٦ ـ ٥٧ .

١٥٦ ـ عن آثار ادخال الماكينات على حالة الغزالين والحياكين ، انظر **المرجع نفسه** ص‌ص ١٨٢ـ ١٨٤ . عن آثار ادخال الطبع على المنسوجات القطنية ، انظر ص‌ص ٢٤٦ـ٢٤٧ : «ان رجلا واحدا يعاونه طفل يحقق بواسطة آلة الطبع العمل الذي كان يحتاج في السابق الى مئتين من العمال اليدويين » .

١٥٧ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .

صناعة التعدين والاستخراج . هكذا ثمة نساء وأطفال ، بدءا من الثامنة من العمر، مستخدمون في نقل الفحم والفلز في دهاليز ضيقة وواطئة (١٥٨) .

الهجرة الكبيرة للايرلنديين ، الذين يموتون ايجابيا من الجوع في بلدهم بنتيجة تجزؤ الارض الى الحد الاقصى والاتاوات الباهظة المفروضة على المزارعين الصغار، تسهم في تشديد خطورة بؤس البروليتاريا الانكليزية . الايرلنديون ، وهم قليلو القدرة على عمل قياسي ومعقد وعاجزون عن التنظيم ، مضطرون الى التكيف مع أحط الاعمال ويستغلون اكثر ايضا من العمال الانكليز . لما كانت حاجاتهم قليلة ولما كانوا معتادين على كل الحرمانات ، فانهم يعيشون في أكواخ قذرة ، يقتاتون البطاطا ، ويلبسون ثيابا رثة . اذ يكتفون بأحط الاجور ، فانهم يزنون على مستوى الاجور الوسطي ، في ما عدا الاعمال التي ، بما انها تتطلب من المهارة والذكاء اكثر مما تتطلب من القوة ، تبقى في غير متناولهم (١٥٩) .

التنافس الضاري فيما بين العمال ، صراعهم الذي لا رحمة فيه من اجل الحصول على شغل ، يؤلفان أفضل سلاح في أيدي الرأسماليين ، السلاح الذي يتيح لهم استغلال العمال حتى الدم (١٦٠) .

أجل ان انخفاض نفقات الانتاج ، الناجم عن مكننة الصناعة ، وبذلك عينه انخفاض ثمن السلع قد أدى ، بازدياد الطلب ، الى استخدام عدد من العمال أكبر، والى أزدياد للاجور نسبي ، ولكن تلك سيرورة جد بطيئة . فبناء فبارك جديدة ، ضرورية لسد الطلبات ، يتطلب سنوات . في الواقع البطالة مستوطنة ، بحيث ان عدد العمال الباحثين عن عمل يفوق دائما طلب اليد العاملة (١٦١) .

أيا كان الظرف ــ المصادَف ، تبقى حالة العمال بائسة وهشّة ، لاسيما اثناء الازمات التي تنجم بصورة حتمية عن نمط الانتاج الرأسمالي . بنتيجة الفوضى التي تحكم الانتاج ، يُصنع ، حين يكون الظرف ملائما ، كُتل هائلة من السلع التي يلقى بها في السوق . ومع اشباع السوق، يصير التصريف أصعب ، من هنا ازمة مع سقوط الاسعار وتوقف الانتاج والبطالة .

في بداية الثورة الصناعية ، كانت الازمات منحصرة في بعض الفروع الصناعية وبعض الاسواق ، ولكنها لم تلبث ان تعممت واتخذت طابعا دوريا ، معاوِدة الكرة في حوالي كل خمس سنوات .

الازمات تسبب ، بوقف الطلبيات ، افلاس الصناعيين الصغار ، بينما يكتفي الكبار بتسيير فباركهم سيرا بطيئا ... وهي من جهة اخرى ، تؤدي بالنسبة

---

١٥٨ ــ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

١٥٩ ــ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٣٣٠ ــ ٣٣٤ .

١٦٠ ــ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١١٨ ، ١١٩ .

١٦١ ــ **المرجع نفسه** . ص‌ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٨٤ .

للعمال الى تقليص ساعات العمل واستفحال تزاحمهم وتعمم البطالة والبؤس وصولا الى المجاعة .

بعد مضي بعض الوقت ، تتحسن الحالة من جراء ازدياد الطلب . شيئا فشيئا تنصرّف الستوكات وفي الوقت نفسه تصعد الاسعار . مع تحسن ظرف المصادفة، تظهر المضاربة التي تجعل الاسعار تصعد على خط مستقيم . من هنا استئناف محموم للانتاج ، حتى اللحظة التي فيها يصبح المضاربون ، الذين لا يعيشون الا على اساس القرض ، مرغمين على البيع لكي يواجهوا التزاماتهم . هذا يسبب فوضى في السوق ، يزعزع الثقة * ، ويولد بسوء البيع تراكم الستوكات ، من هنا تعليق الدفع والافلاسات وظهور أزمة جديدة تجري حسب السيرورة المألوفة (١٦٢) .

بحكم البطالة ، الصناعة الانكليزية لها تحت تصرفها ، فيما عدا فترات الظرف الملائم بشكل خاص ، جيش احتياطي من الشغيلة يتناسب حجمه مع حالة السوق. هذا الجيش من العاطلين عن العمل يسمح بالتثقيل على الاجور وبالحصول ، في فترة الظرف الجيد ، على اليد العاملة الضرورية لتلبية الحاجات . هذا الجيش الاحتياطي ، الذي يشمل ايضا الشحاذين والاشخاص الذين يعيشون على أعمال ظرفية ككناسي الشوارع والباعة على عجل ، يضم حسب التقارير الرسمية حوالي مليون ونصف مليون شخص . انه يؤلف ، ان صح القول ، سكانا زائدين عن العدد ، هم دائما فريسة البؤس في كثير او قليل (١٦٣) .

العامل هو ، شرعا وفعلا ، عبد رب العمل الذي يتصرف بشغله وبالتالي بحياته . الفرق بين الرق القديم والشكل الرقّي الجديد الذي تؤلفه البروليتاريا هو ان العامل يظهر حرا ، بمعنى انه لا يباع كما كان العبد بل هو يبيع نفسه ، ظاهرا بملء ارادته . اذا كان ذلك يمنحه حرية ما ، لم يكن يتمتع بها العبد القديم ، فانه من جهة اخرى يقدم له سيئة ان ليس احد ملزما بضمان وجوده . فاذا لم يكن للراسمالي مصلحة في شغله ، فانه محكوم عليه بالجوع . بذلك يجد الرأسمالي نفسه في موقف أفضل مما كان السيد القديم ، اذ ليس عليه ان يكترث لمصير العامل ، فهو يستطيع ان يصرفه حين يشاء دون ان يصاب بأذى (١٦٤) .

ان وضعية البروليتاري ليست أفضل مما كانت وضعية القن . فالقن ، المربوط بالارض ، كان وجوده مضمونا ، تلك ليست حال البروليتاري الذي يمكن في اية لحظة ان يقاسي البطالة والجوع . لئن كان على القن ان يتنازل للسيد عن

[* Crédit : قرض ، إقراض ، دين ، و ، ثقة .]

١٦٢ – **المرجع نفسه** ، ص ص ١٢٥ – ١٢٨ .

١٦٣ – **المرجع نفسه** . ص ص ١٢٨ – ١٣١ .

١٦٤ – **المرجع نفسه** ، ص ص ١٢٢ – ١٢٣ .

حق التصرف بليلة الزفاف ، فان العاملة عليها ان تتنازل بالواقع لرب العمل عن حق التصرف بكل لياليها (١٦٥) .

ان عبودية البروليتاري تظهر من واقع انه لا يستطيع ان يعيش يوما واحدا بدون رضى الرأسمالي ، الامر الذي يضعه أمام خيار القبول بالشروط التي يفرضها مستخدمه او الموت من الجوع (١٦٦) . في الفبركة بالذات يظهر الاضطهاد الذي يثقل كاهل العامل في تمام الضوء . فيها لا يتمتع بأي حق ، رب العمل يملك جميع الحقوق . عليه ليس فقط ان يشتغل في الفبركة بل ايضا ان يأكل فيها وفي أحيان كثيرة ان ينام فيها وليس بتصرفه لهذه الغاية سوى حد أدنى من الوقت . انه خاضع منذ طفولته لهيمنة رب العمل المطلقة ، ليس له حق ان يمنح نفسه عطلة او ان يضرب ، وأدنى تأخر يعاقَب بغرامة ثقيلة (١٦٧) .

يزيد حالته خطورة واقع ان أجره كثيرا ما يدفع له في شكل سندات شراء ، مما يرغمه على ابتياع ما يحتاجه من عند رب العمل بسعر عال ، واضطراره الى السكن في منازل بناها رب العمل ومنها يُطرد فور صرفه من العمل يجعل انه يفقد في الوقت نفسه مع شغله سقفه (١٦٨) .

كمنتج سلع ، البروليتاري خاضع للشروط التي تضبط انتاج وتبادل السلع. يصير هو نفسه سلعة وعليه ان يبيع شغله كسلعة ، يتوقف سعرها على العرض والطلب . اذا ازداد الانتاج ومعه طلب الشغل ، يحصل ارتفاع في الاجور . وبالعكس اذا انخفض ، هناك انخفاض في الاجور وتفاقم لبؤس العامل (١٦٩) .

ان مقدار الاجر يتوقف ايضا على درجة التزاحم بين العمال وهو كذلك يختلف تبعا لقدرات وحاجات العمال ـ فالعامل المتخصص الذي يملك استعدادات أكبر وله حاجات أكبر من استعدادات وحاجات الفاعل ينال أجرا أفضل (١٧٠) . وهو يرتفع او ينخفض بقدر ما يصعد او يهبط الطلب على الشغل . ان مبلغ الاجر يتثبت عمليا حسب السعر الادنى لسلعة مصنوعة بالآلة ، الامر الذي يفسر كون

---

١٦٥ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

١٦٦ ـ **المرجع نفسه** ، ص ١١٩ .

١٦٧ ـ **المرجع نفسه** . ص‌ص ٢٢٩ ـ ٢٣٢ .

١٦٨ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٢٣٣ ـ ٢٣٦ .

١٦٩ ـ **المرجع نفسه** ، ص ١٢٢ : «العامل شرعا وفعلا عبد الطبقة المالكة ، البرجوازية . انه عبدها لدرجة انه يباع كما تباع سلعة وأن سعره يصعد ويهبط مثل سعر السلع . اذا ازداد الطلب على الشغيلة صعد سعرهم ، واذا بالعكس انخفض هبط سعرهم . اذا انخفض الطلب لدرجة لا يجد معها عدد من الشغيلة مجالا لان يبيعوا انفسهم نظرا لكونهم فائضين عن الحاجة فانهم يتركون على حالهم وبما انهم هكذا بلا موارد فهم يموتون جوعا .»

١٧٠ ـ **المرجع نفسه** ، ص ١٢٢ .

العامل الذي يشتغل على آلة قديمة يتقاضى أجرا أقل من أجر العامل الذي يشتغل على آلة من طرز جديد (١٧١) .

فقط حين تفرض تلبية الطلب استخدام جميع العمال يتوقف تزاحمهم ويزداد أجرهم (١٧٢) .

ليس هذا على اي حال سوى الاستثناء ، اذ ان السائد في مضمار الاجر هو الاتجاه الى تقليصه حتى الحد الادنى اللازم للعيش (١٧٣) . ان هبوط الاجور يرافقه تمديد دائم ليوم شغل العامل ، وهذا التمديد ، مع الحرمانات التي يقاسيها العامل، يسبب انهاكه ونفاده . فهذا اليوم هو بين ١٢ و١٤ ساعة للطفل ويذهب حتى ١٨ ساعة لعمال وعاملات النسيج وللعاملات المشتغلات في منازلهن (١٧٤) .

هذه الشروط اللاإنسانية للشغل والحياة تسود في الارياف كما في المدن . فالمياومون الزراعيون عليهم ان يكتفوا بأجر اسبوعي يتراوح بين ٦ و٨ شيلنغ لكي يعيشوا مع عائلتهم وهم في بعض الاحيان يقاسون البطالة مدة اسابيع (١٧٥) . بين عمال الصناعة ، ذوو الاجر الافضل هم عمال التعدين والمناجم ، فهم بسبب عملهم الشاق الاقل مقاساة من مزاحمة النساء والاطفال . غير ان حالة عمال التعدين تسوء باستمرار بنتيجة المكننة المتدرجة . هكذا في الستافوردشاير لا ينال العامل سوى ستة بنسات على صنع ٢٠٠ر١ مسمار . بما ان هذا الصنع يحتاج لكل مسمار ١٢ ضربة مطرقة وان هذه الاخيرة تزن ثلاث ليبرات ، لذا على العامل ان يرفع وزنا اجماليا قدره ٠٠٠ر١٢ ليبرة كي يكسب هذا الاجر الزهيد (١٧٦) .

عمال النسيج ، الذين عليهم ان يكافحوا اكثر من غيرهم ضد مزاحمة النساء والاولاد ، يتقاضون أجورا أدنى . فيما عدا عدد صغير من الغزالين والحياكين المختصين على نحو رفيع والذين ينالون أجرا قدره ثلاثون شيلينغ في الاسبوع ، معظم عمال النسيج لا يتقاضون سوى نصف هذا الاجر وأحيانا ثلثه . أسوأ من

---

١٧١ ـ **المرجع نفسه** ، ص ١٨٧ .

١٧٢ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٢١ ـ ١٢٢ .

١٧٣ ـ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١١٩ ـ ١٢٠ : «ليس هناك الا حد **واحد وحيد** لتزاحم الشغيلة فيما بينهم . ان أحدا منهم لن يقبل ان يشتغل لقاء أجر أدنى من الاجر الذي يقتضيه وجوده ذاته . في أسوأ حالة ، كل شغيل سيفضل التضحية بالرفاه القليل الذي كان معتادا عليه كي يستطيع البقاء وحسب . سيفضل ان يسكن حظيرة خنازير على ان يكون بلا مأوى ، ان يرتدي أثمالا على ان لا يرتدي شيئا ، ان لا يأكل سوى البطاطا على ان يموت من الجوع .»

١٧٤ ـ عن الحالة العامة للعمال في مختلف فروع الصناعة ، انظر **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٨٠ـ٢٦٥ ، ٢٩٨ـ٣١٨ .

١٧٥ ـ عن حالة البروليتاريا الزراعية ، انظر **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٣١٩ ـ ٣٣٥ .

١٧٦ ـ **المرجع نفسه** ، ص ٢٥٥ .

ذلك ايضا حالة الغزالين والحياكين الذين يشتغلون على أنوال قديمة وهم اذن مضطرون للقتال ضد أنوال اكثر تقدما (١٧٧) . الاجور الاشد بؤسا تتقاضاها صانعات القبعات والخياطات اللواتي لا يكسبن ، على يوم من ١٨ ساعة ، سوى ما بين ٢ و٤ شيلينغ في الاسبوع . يتكدسن في سقيفات ، لا يدفئهن في الشتاء سوى حرارة جسدهن ، يبقين محنيات الظهر على شغلهن من الرابعة او الخامسة صباحا حتى منتصف الليل ، ويتركن فيه صحتهن وشبابهن . في هذه الاثناء تسير في الشوارع عربات الاغنياء ويخسر في القمار متأنق في ليلة ما يكسبنه في سنة (١٧٨) .

بعد طرح تكاليف السكن والتدفئة والانارة لا يبقى للبروليتاريين ذوي الاجور الأسوأ سوى ١٥ بنسا في اليوم للغذاء ولا شيء للكساء (١٧٩) .

يضاف الى ذلك ان معظم العمال لا يستخدمون بشكل دائم منتظم ، عليهم ان يتعطلوا عن العمل ، أحيانا مدة ثلاثة اشهر في السنة ، وهم في هذه الحال يقاسون افظع بؤس .

كي لا يموتوا بشكل مطلق من الجوع ، ليس للعاطلين عن العمل من حيلة سوى اللجوء مع أسرتهم الى بيوت الشغل حيث تسود شروط حياة فظيعة . الطعام ، المؤلف فقط من خبز ومن مغلي الشوفان ، أسوأ من الطعام الذي يوزع على المساجين . النظام السائد فيها مماثل لنظام السجون : كل خروج يخضع لاذن مسبق ، الازواج مفصولون كي يقل عدد الاولاد ، الاولاد ينامون كل اربعة او ستة في السرير الواحد ، الرجال والنساء كل ١٢ — ١٤ في الغرفة الواحدة . الذين يموتون يدفنون كالدواب ، وتعبأ الحفر بالاموات حتى لا يبقى مكان . في هذه الشروط نفهم ان العاطلين عن العمل ، حتى وهم جياع ، يترددون في أن يدعوا انفسهم يحبسون في مثل هذه المعتقلات (١٨٠) .

في المدن الصناعية الكبيرة ، حيث يتكدس العمال ، يتجلى في كل اتساعه وفي كل فظاعته بؤس البروليتاريا ، بطريقة سكنها ولباسها وغذائها .

لكل مدينة كبيرة حيّها العمالي الذي يشكل تضادا كاملا مع الاحياء الجميلة. ان الطابع البالي والقذر والعديم الرفاه للابنية التي تسكنها الطبقة العاملة يفوق كل تصور. يصعب للمرء ان يصدق ان بشرا يتكدسون من القبو حتى «التتخيتة» في غرف تكاد تكون محرومة من أثاث بل أحيانا من أسرّة . الشوارع ، غير المبلطة والتي ليس فيها مجارير ، مزدحمة بالاقذار . ان أفظع مشهد تقدمه بيوت وشوارع سكن

---

١٧٧ — **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٨٥ — ١٨٨ .

١٧٨ — **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٢٦٣ — ٢٦٦ .

١٧٩ — **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

١٨٠ — **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٣٥٠ — ٣٥٤ .

الايرلنديين (١٨١) : «هذه الشوارع (شوارع إدمبورغ) كثيرا ما تكون ضيقة لدرجة يمكن معها العبور من نافذة الى نافذة البيت المقابل . هذه الابنية تقدم عدا ذلك تكديسا من الطبقات بحيث ان النور لا يكاد يستطيع النفوذ الى الباحة او الى الزقاق الفاصل بينها . في هذا القسم من المدينة لا توجد مجارير في الشوارع ولا مراحيض في البيوت . الاقذار والفضلات وبراز خمسة آلاف شخص على الاقل ترمى كل ليلة في القنيات . ليس فقط تهين البصر والشم ، بل هي خطر بالغ على صحة السكان . ان مساكن الطبقة الفقيرة هي بوجه عام قذرة جدا ظاهرا لا تنظّف ابدا . انها مؤلفة في معظم الحالات من حجرة واحدة ... بشكل عام رطبة وباردة، وبصورة دائمة مؤثثة بشكل سيء لدرجة أن كومة من القش كثيرا ما تخدم كسرير لأسرة بكاملها» (١٨٢) . فقط بعد ظهور الكوليرا فكروا بتطهير الاحياء العمالية خوفا من العدوى (١٨٣) . على هذه المساكن المنتنة يدفع الفقراء ايجارات باهظة ، سعداء ايضا بأنهم وجدوا فيها مأوى (١٨٤) .

حالة المساكن تتفق معها صفة لباس وغذاء الطبقة العاملة . الالبسة القطنية التي ترتديها لا تحمي لا من المطر ولا من البرد ، وليست في أحيان كثيرة الا أثمالا (١٨٥) . الطعام من نفس النوعية ، فالطبقة العاملة مضطرة للاكتفاء بسقط المنتوجات الغذائية لانها وحدها في متناول قدرتها الشرائية (١٨٦) . «البطاطا التي يشتريها العمال غالبا رديئة ، الخضار ذابلة ، الجبنة والزبدة والقهوة من نوعية دونية ، الزبدة زنخة ، اللحم بائت وقاس ، كثيرا ما يكون آتيا من حيوانات مريضة او ميتة ، بل احيانا نصف عفن» (١٨٧) .

انجلز يختم تحليله للشروط المادية لحياة الطبقة العاملة على النحو الآتي : «المدن الكبيرة مسكونة بشكل رئيسي من قبل العمال . فهناك بشكل عام برجوازي واحد لكل ٢ ، ٣ ، أحيانا ٤ من العمال . هؤلاء العمال لا يملكون شيئا ، يعيشون من أجر لا يسمح لهم ، بصورة دائمة تقريبا ، الا بأن يعيشوا يوما بيوم . المجتمع الفردَوي الى أقصى حد لا يكترث بهم ، يترك لهم امر تلبية حاجاتهم وحاجات أسرتهم دون ان يؤمّن لهم وسائل ذلك . كل عامل ، حتى أفضل عامل، هو ، بحكم ذلك ، معرّض بشكل دائم للموت جوعا وهذا هو مصير العديد منهم . منازل العمال

---

١٨١ ــ عن شروط سكن البروليتاريا الانكليزية ، انظر **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٥٩ ــ ١٠٧ .

١٨٢ ــ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٧٣ ــ ٧٤ .

١٨٣ ــ **المرجع نفسه** . ص ١٠٥ .

١٨٤ ــ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٦٥ ، ٦٧ ــ ٦٨ .

١٨٥ ــ عن ألبسة العمال ، انظر **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٠٧ ــ ١٠٩ .

١٨٦ ــ عن طعام العمال ، انظر **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٠٩ ــ ١١٥ .

١٨٧ ــ انظر **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٠٩ ــ ١١٠ .

هي ، بوجه عام ، سيئة الترتيب ، سيئة البناء ، سيئة الصيانة ، رطبة ومنافية للصحة . فيها السكان محصورون في أصغر مكان ، في حجرة واحدة تنام فيها بوجه عام أسرة بكاملها على الاقل . الاثاث بائس واحيانا القطع الاكثر ضرورة مفقودة . ألبسة العمال بشكل عام من نوعية دونية وكثيرا ما تتألف من أثمال . الطعام في الغالب سيء ، تقريبا غير صالح للاستهلاك ، وفي كثير من الحالات غير كاف ، لدرجة ان العديد من الناس يموتون ايجابيا من الجوع . ان الطبقة العاملة تقدم مروَحة من أنماط معاشية مختلفة . في الحالة الافضل يعيش العامل وجودا يمكن وقتيا تحمله . فجهد كبير يؤتيه أجرا حسنا وبالتالي سكنا حسنا وغذاء حسنا ـ هذا بطبيعة الحال من وجهة النظر العمالية . في الحالة الاسوأ يعرف العامل بؤسا أقصى يمكن ان يذهب الى حرمانه من مأوى والى ارغامه على الموت جوعا ـ ومتوسط العمال أقرب الى الحالة الاسوأ منهم الى الحالة الاحسن. هذا السلّم لا ينطبق ، عدا ذلك ، على صنوف ثابتة ، تسمح لنا بأن نقول ان هذه الفئة من الطبقة العاملة تعيش جيدا وتلك تعيش سيئا وهكذا كانت الحال دوما . بل بالعكس ، لئن كان صحيحا ان بعض فروع الشغل تبقى ميسَّرة بالنسبة الى الفروع الاخرى ، فبالاجمال ان حالة العمال في كل قطاع قلقة لدرجة ان كل عامل يمكن ان ينتقل من يُسر نسبي الى البؤس الاقصى ، بل يمكن ان ينزل الى درك الجوع . وعلى اي حال لا يكاد يكون ثمة بروليتاري انكليزي الا ويستطيع ان يشهد على تقلب وضعيته (١٨٨) .

مع شروط الوجود هذه تتوافق الحالة الصحية السيئة ومعدل الوفيات المرتفع عند العمال ، وتراخي الاخلاق بنمو الكحولية والبغاء وانخفاض مستوى تعليمهم .

الشغل المضني المفروض على البروليتاري من الصباح حتى المساء ، الشروط الصحية السيئة السائدة في الفبارك ، نقص النوم والغذاء ، تلحق ضررا بالغا بصحة العمال التي هي بشكل عام منقوصة (١٨٩) . السل والتيفوس يفتكان بالعمال المهتلكين في وقت مبكر (١٩٠) .

ان فرط الشغل له عواقب اسوأ ايضا بالنسبة للنساء والاولاد وهم أضعف بنية. بالنسبة للنساء يؤدي بوجه عام الى تشوه العمود الفقري او الحوض .

من جهة اخرى ، المراة الحامل ، خشية فقدان عملها ، تستمر في الشغل تقريبا حتى الوضع وتستأنف شغلها بعد ايام قليلة ، وهذا ليس بلا عواقب على صحتها (١٩١) .

---

١٨٨ ـ **المرجع نفسه** ، ص ص ١١٦ ـ ١١٧ .

١٨٩ ـ عن الحالة الصحية للطبقة العاملة ، انظر **المرجع نفسه** ، ص ص ١٣٩ ـ ١٥٥ .

١٩٠ ـ **المرجع نفسه** ، ص ص ١٣٩ ـ ١٤٥ .

١٩١ ـ **المرجع نفسه** ، ص ص ٢١١ ـ ٢١٣ .

تنضاف الى ذلك الحوادث التي يسببها الشغل على الآلات : حوادث بتر أصابع، سحق أطراف ، الخ . هذه الحوادث متواترة بشكل خاص في المناجم نتيجـــة الانهيارات او انفجارات غاز الغريز . في حال وقوع حادث ، رب العمل يدفع أتعاب الطبيب واجر العامل اثناء مدة العلاج ، ثم ينفض يده من مصير العامل المصاب(١٩٢). مساعي أطباء جيّدين وأنهم في الغالب يلجؤون الى مشعوذين (١٩٣) .

الشغل في المصنع له عواقب وخيمة بشكل خاص بالنسبة للاولاد . بما ان الأم تعود الى الشغل بعد الوضع بثلاثة او اربعة ايام ، فان الرضيع متروك عمليـــا لنفسه . تأتي في لحظات حريتها تعطيه بسرعة الرضاعة ولكنها تعطيه ايضا مخدرات كي يلزم الهدوء . اذا استطاع ان ينمو في مثل هذه الشروط ، فانه يُترك على نفسه وكثيرا جدا ما يتعاطى الكحول في عمر مبكر . في المصنع ، حيث هو مضطر للذهاب منذ عمر التاسعة ، يعيش في الضجيج وفي جو غير سليم ، ويُخضع لشغل منهك . من هنا عدد مرتفع بشكل غير معقـــول من حالات الكساح بين الفتيان (١٩٤) .

ان الشروط التي يعيش فيها العمال تفسر كون معدل الوفيات مرتفعا بشكل خاص في الطبقة العاملة . بينما ليس هذا المعدل سوى ٢ر٥ بالمئة بالنسبة لمجموع السكان ، فانه يرتفع الى ٤ بالمئة في الاحياء العمالية . في حين ان معدل وفيات الاطفال دون الخامسة من العمر هو ٢٠ بالمئة في الطبقة الميسورة ، فانه ٥٧ بالمئة عند العمال . وبينما العمر المتوسط الذي تبلغه الطبقة الميسورة هو ثلاثة وخمسون عاما ، فانه يهبط الى عشرين عاما في الطبقة العاملة (١٩٥) .

مرتكزا على جملة الوقائع هذه ، انجلز يخلص الى اتهام البرجوازية بارتكـاب جريمة القتل الاجتماعي (١٩٦) .

ان الشروط البائسة لحياة العمال تعلل ميلهم الى الكحولية وأخلاقهم المنحلة. شرب الكحول بالنسبة لهم ضرورة ، فهم يغترفون منه في آن التشجيع الضروري وبعض متعة الحياة . اذ يعود مُنهكا من شغله ، العامل لا يرغب ابدا في الرجوع الى كوخه القذر ويفضل الذهاب الى الخمارة حيث ينفق القسم الاكبر من الاجر الذي تقاضاه ، وهذا يحمل أخطر العواقب على صحة وعلى أخلاق الطبقة العاملة معا . ان البرجوازية ، التي يطيب لها ان تلوم العمال على ميلهم الى الكحولية ، هي

---

١٩٢ ــ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٢١٤ ــ ٢١٧ .

١٩٣ ــ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٤٨ ــ ١٥٠ .

١٩٤ ــ **المرجع نفسه** ، ص‌ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ٢١٣ .

١٩٥ ــ **م.ن** ، ص‌ص ١٥٠ ــ ١٥٥ .

١٩٦ ــ **م.ن** ، ص ١٥٥ .

في الواقع المسؤول الرئيسي عن حالة الاشياء هذه ، اذ ان البؤس الذي تفرضه على العمال هو الذي يدفعهم الى الكحولية (١٩٧) .

ان اختلال الاخلاق يسير جنبا الى جنب مع نمو الكحولية عند العمال. فالدين والوعظ الاخلاقي لا يستطيعان صرفهم ، نظرا للشروط التي فيها يعيشون ، عن البحث عن لذتهم في الشراب وخلل الحياة الجنسية (١٩٨) .

ان ارتخاء العادات ليس مرده فقط الى نمط حياة العمال ، الى البؤس والكحولية ، بل ايضا الى نوع الشغل المفروض عليهم . فبدلا من ان يكون بالنسبة للعامل وسيلة لبسط وإنماء ملكاته ، ليس الشغل بالنسبة له سوى مصدر انبخاس فيزيائي وثقافي ، بحكم تقسيم الشغل المدفوع اكثر فأكثر الى أمام ، الذي يجبره على عمل واحد رتيب . «ان سببا آخر لفسق العمال هو كونهم ملعوني الشغل . لئن كانت الفاعلية الحرة بالنسبة للانسان هي اللذة الاسمى ، فان الشغل القسري بالمقابل هو بالنسبة له التعذيب الاكثر وحشية والاكثر اذلالا . ليس ثمة شيء أفظع من ان تكون مُجبَرا على ان تعمل كل يوم من الصباح حتى المساء عملا تنفر منه . كلما كان عامل ذا مشاعر انسانية ، كان له ان يكره شغله اكثر وذلك من جراء الارغام المفروض عليه ومن جراء لافائدة هذا الجهد بالنسبة له . لماذا يشتغل ؟ للذة الابداع ؟ مدفوعا بغريزة طبيعية ؟ بتاتا . انه يشتغل من اجل المال ، اي من اجل شيء لا صلة له بالشغل الحقيقي. انه يشتغل لانه مُجبَر على ذلك . بالاضافة الى ذلك ، الشغل يدوم مدة طويلة لدرجة وهو رتيب لدرجة انه منذ الاسابيع الاولى لا يمكن ان يكون بالنسبة للعامل سوى عذاب ، مهما قليلا كان ما احتفظ به العامل من عواطف انسانية . ان تقسيم الشغل زاد ايضا خطورة الشغل القسري. ففي معظم فروع الصناعة ، تنحصر فاعلية العامل في حركة محدودة ، محض آلية ، تتكرر دقيقة بدقيقة وتبقى دائما نفسها . اية مشاعر انسانية واية استعدادات انسانية يمكن ان يحتفظ بها في السنة الثلاثين من عمره من اشتغل منذ طفولته اثنتي عشرة ساعة في اليوم واكثر في صنع رؤوس إبَر او في برد عجلات مسنَّنة ؟» (١٩٩) .

ان اختلال الاخلاق يسهله على نطاق واسع استخدام النساء والاولاد الآخذ في التعمم اكثر فأكثر في الفبارك ، الذي يدمر الحياة العائلية . الفتاة التي تشتغل في فبركة لا يمكن ان تصبح لا ربة منزل جيدة ولا أما جيدة . مع استحالة اهتمامها بطفلها ، لا تستطيع الأم ان تتعلق به ، والاطفال المتروكون لنفسهم يعيشون خارج

---

١٩٧ – م.ن ، ص‌ص ١٤٧ – ١٤٨ ، ١٧٣ – ١٧٥ .

١٩٨ – م.ن ، ص‌ص ١٦٠ – ١٦١ .

١٩٩ – م.ن ، ص‌ص ١٦٥ – ١٦٦ .

الاسرة ، لا يربطهم بها شيء (٢٠٠) .

الاكواخ التي يُحكم على العمال بأن يعيشوا فيها تسهم هي أيضا في انحلال الحياة العائلية . فالمرأة شأنها شأن الرجل تفضل الذهاب الى الخمارة ، حيث يجدان جوا الذ ويصطحبان الاولاد ، الذين يستسلمون هم ايضا بالتدريج للشراب (٢٠١) .

ان تركز الشعب العمالي في المدن الصناعية يؤدي ايضا الى تراخي الاخلاق بالتماس الدائم للرجال والنساء في الشغل (٢٠٢) . من جهة اخرى ، ان كون رب العمل يتصرف بالعاملات ، اللواتي لا يتجرأن على الرفض خشية صرفهن من العمل، يشجع ، مع البؤس ، البغاء ، الذي توسع لدرجة ان مدينة لندن وحدها تعدّ اربعين الف مومس (٢٠٣) .

رغم نزع أخلاقهم وتخريب معنوياتهم ، العمال الانكليز يظهرون اكثر انسانية من البرجوازيين واكثر استعدادا للخدمة ازاء الذين هم في العوز (٢٠٤) .

يستجيب لنمو البؤس والكحولية والبغاء نمو الجريمة . في انكلترة وبلاد ويلس ارتكب في سنة ١٨٤٢ ٣١,٠٠٠ جنحة معظمها سرقات . لما كان احتمال الذهاب الى السجن ليس فيه ما يخيف البروليتاريا المحكومة بالبؤس ، فانها تفضل السرقة على الجوع والانتحار (٢٠٥) .

المستوى الثقافي للطبقة العاملة يستجيب لوضعها الفيزيائي والخلقي . كما ان البرجوازية لا تمنح الطبقة العاملة الانكليزية سوى الحد الادنى للاجر الضروري للعيش ، كذلك لا تمنحها سوى حد أدنى من التعليم ، اذ هي تخشى منه كل شيء بالنسبة لحماية مصالحها الطبقية ولا تكسب منه شيئا . فالدولة الانكليزية ، على ميزانية اجمالية قدرها ٥٥ مليون جنيه ، لا تكرس سوى ٤٠ الفا للتعليم العام . بالواقع ، التعليم وقف على ابناء البرجوازيين . اولاد العمال ليس لهم سوى عدد صغير من مدارس سيئة لاسيما من مدارس أنشأتها شيع دينية لاغراض تبشيرية. لما كان هؤلاء الاولاد مضطرين للذهاب الى الشغل منذ التاسعة من عمرهم ، فانهم بوجه عام لا يستطيعون ان يرتادوا سوى دروس المساء وهم عاجزون عن الاستفادة منها نظرا لان الشغل قد أستنفدهم (٢٠٦) .

---

٢٠٠ – م.ن ، ص ص ١٩١ – ١٩٦ .

٢٠١ – م.ن ، ص ص ١٧٦ – ١٧٧ .

٢٠٢ – م.ن ، ص ص ١٦٦ – ١٦٨ ، ١٩٦ – ١٩٧ .

٢٠٣ – م.ن ، ص ص ١٧٦ ، ١٩٧ – ١٩٨ .

٢٠٤ – م.ن ، ص ص ١٧١ – ١٧٢ .

٢٠٥ – م.ن ، ص ص ١٧٧ – ١٨٢ .

٢٠٦ – م.ن ، ص ص ١٥٥ – ١٦١ .

ليست الطبقة العاملة الانكليزية مدينة بثقافتها للتعليم المدرسي بقدر ما هي مدينة بها للتعليم الذي تستمده من الحياة اليومية ، الامر الذي يجعل ان العمال رغم كونهم لا يعرفون بوجه عام القراءة والكتابة يعون تماما مصالحهم الطبقية . هذه الثقافة تختلف حسب نوع شغلهم . فهي مرتفعة بشكل خاص عند الشغيلة الصناعيين ، وهي أقل ارتفاعا عند عمال المناجم ، وأقل ايضا عند العمال الزراعيين . بما انها تحوّل العمال عن الدين الذين يرون فيه خدعة فانهم أقل استعدادا من البرجوازيين لحمل احكام ـ مسبقة ـ باطلة (٢٠٧) .

مقابل الطبقة العاملة تنتصب البرجوازية الذي تشكل وإياها تضادّا كاملا . البرجوازية ، التي تستغل الطبقة العاملة بلا شفقة ، لا يرشدها سوى شهوة الكسب . ليس العامل بالنسبة لها سوى سلعة ، يجب ان يُستخلص منها اكبر ربح ممكن : «لم أرَ قط طبقة لا أخلاقية بهذا العمق، مُفسَدة ومنخورة بالأنانية الى هذه الدرجة من استحالة العلاج ، مغلقة عن التقدم بهذا القدر ، سوى البرجوازية الانكليزية ، أقصد البرجوازية بالمعنى الحقيقي الخاص ، وبصورة مفردة بارزة البرجوازية الليبرالية التي تريد الغاء قوانين الحبوب . بالنسبة لها لا يوجد شيء في العالم سوى ما يتصل بالمال ، هي لا تعيش الا لكي تجني مكاسب مالية ، لا تعرف لذة أخرى سوى الاثراء السريع وعذابا آخر سوى خسارة مال . هذه الشهوة الكسبية ، هذا الجشع يفسد عندها كل شعور انساني . بالتأكيد ، هؤلاء البرجوازيون الانكليز أزواج جيدون وآباء طيبون . ولهم ايضا ضروب من الفضائل وهم لا يقلّون وقارا عن البرجوازيين الآخرين . بل في الاعمال ، التعامل معهم أفضل والذ من التعامل مع الالمان ، اذ انهم لا يساومون بنفس التفاهة التي يساوم بها هؤلاء . ولكن هذا قليل الاهمية ، اذ ان ما يقرر ويحسم كل شيء عندهم هو المصلحة الشخصية وشهوة الكسب .... أما أن يموت عماله من الجوع او لا فأمر يترك البرجوازي الانكليزي في لا مبالاة تامة ، الامر الجوهري هو ان يكسب مالا . محك كل شيء هو الكسب ، كل ما لا يدرّ مالا يُحكم عليه بأنه غباء و لاواقع وطوباوية . لذا فان الاقتصاد السياسي ، اي العلم الذي يعالج وسائل كسب المال، هو العلم المفضل لدى هذه النفوس المرابية . العلاقة بين الصناعي والعامل ليست علاقة انسانية ، بل علاقة ذات طابع محض اقتصادي . الصناعي هو **الرأسمال** ، العامل هو **الشغل** . اذا لم يُرد العامل ان يدع نفسه يُحبس في هذا التجريد ، اذا أكد انه ليس **الشغل** بل هو انسان ـ انسان أجل يملك بين أمور أخرى ملكة الشغل ـ ، اذا خطر في باله ان يعتقد أن عليه ان لا يدع نفسه يُشترى ويُباع **كشغل** ، كسلعة في السوق ، فالبرجوازي يصاب بانشداه وذهول . انه لا يستطيع ان يفهم انه يمكن ان يكون له مع العمال علاقات أخرى غير علاقات الشراء والبيع ...» (٢٠٨) .

---

٢٠٧ ـ م.ن ، ص ١٦٠ .

٢٠٨ ـ م.ن ، ص‌ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ .

هذا لا يمنع البرجوازية من ان تعلن عاليا عواطفها الانسانية ازاء الشعب ، عواطف تبرهن عليها بتحويلها من الارباح التي تسحبها من الطبقة العاملة شيئا ما لبناء مؤسسات خيرية ليس لها من هدف سوى تهدئة غضب العمال .

هذا اللؤم نفسه يطبع موقفها في كل المسائل . هكذا بصدد الغاء رسوم الدخول على الحبوب ، تؤكد انها لا تفكر الا بمصالح العمال ، في حين انها بالواقع ترمي ، بتخفيض سعر الخبز الذي سينجم عن الالغاء ، الى تقليص أجر العمال اكثر ايضا، مما سيتيح لها النضال بشكل أفضل ضد المزاحمة الاجنبية (٢٠٩) .

كل حقد البرجوازية تجاه الطبقة العاملة ينفجر في تمجيدها لنظرية مالتوس عن السكان وفي القانون عن المعونة للفقراء الذي أوحت به هذه النظرية . حسب مالتوس ، الارض مزدحمة بالمقارنة مع عدد السكان الذي تستطيع إطعامه . بما ان السكان يتألفون من صنفين من الناس ، من جهة الاغنياء ، وهم اشخاص مثقفون وذوو أخلاق رفيعة ، ومن جهة اخرى الفقراء ، وهم بلا ثقافة ولا أخلاق ، لـــذا يجب اقتلاع الفائض السكاني الذي يكونه هؤلاء . من هنا ، حسب مالتوس ، الطابع الوخيم لكل اجراءات مساعدة الفقراء ، التي تؤدي الى زيادة عددهم . هـــذه النظرية تبنتها بحماس البرجوازية ، التي تجد فيها تسويغ سلوكها ازاء البروليتاريا التي تجعلها البرجوازية بشكل منهجي ـ نظامي تموت من الجوع (٢١٠) .

هذه النظرية وجدت تطبيقها في القانون الجديد عن الفقراء ، القانون الذي حل محل قانون سنة ١٦٠١ القديم (الذي كان يضع اعالة الفقراء على عاتـــق الكومونات [البلديات]) . وبما ان النفقات الناجمة عن هذا القانون كانت تزداد ثقلا اكثر فاكثر ، من جراء ازدياد البطالة السريع ، لذا فقد حل محله قانون آخر يعتبر الفقر جرما ويفرض على العاطلين عن العمل الاقامة في بيوت الشغل التي هـــي معتقلات حقيقية (٢١١) .

ان البرجوازية لا تكتفي باضطهاد البروليتاريا بتدابير اقتصادية واجتماعية . انها تستعمل ايضا لهذه الغاية كل جهاز الدولة ، ترسانـــة القوانين ، القضاء ، الجيش والشرطة ، الذين ليس لهم من خدمة سوى حمايـــة مصالحها الطبقية . فعلى الفقراء ان يتحملوا كل عبء القوانين ، التي تظهر قسوة خاصة في قمـــع التشرد والمساس بالملكية . وهذا القمع تزيده خطورة الكيفية التـــي بها تمارَس العدالة . أمام محكمة من المحاكم ، يُعامَل غني من الاغنياء معاملة متساهلة دوما، بينما الفقير يُعاقَب بأقصى الشدة (٢١٢) .

---

٢٠٩ ـ م.ن ، ص ٣٤٠ .

٢١٠ ـ م.ن ، ص‌ص ٣٤٥ ـ ٣٤٨ .

٢١١ ـ م.ن ، ص‌ص ٣٤٨ ـ ٣٥٤ .

٢١٢ ـ م.ن ، ص‌ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ .

نظراً للشروط التي فيها يعيش ، ليس للبروليتاري من خيار ، كي لا يدع نفسه لتسلط اليأس ، سوى تعاطي الكحول والافراطات الجنسية والاستسلام لها او الثورة على مضطهِديه (٢١٣) .

رغم خراب الاخلاق والمعنويات الذي هي فريسته في كثير او قليل ، ان الطبقة العاملة الانكليزية ، بحكم البؤس الذي يثقلها ، هي ، بمجملها ، طبقة ثورية، تجد في نفسها الطاقة الضرورية لمقاومة مضطهِديها .

البرجوازية ، بوصولها الى الحكم ، تصير طبقة محافظة ، وتكف بذلك عينه عن لعب الدور التقدمي الذي كان لها بنضالها ضد الحكم الملكي المطلق والاقطاعية.

البروليتاريا الانكليزية ، بتأكيد نفسها اكثر فأكثر كطبقة ثورية ، باتت تضطلع بالدور الذي كان آيلا للبرجوازية ، دور قيادة سير التاريخ (٢١٤) .

ومما يزيد أهليتها للعب هذا الدور الثوري انه مفروض عليها من قِبل تفاقم بؤسها وانها تزداد على الدوام عددا وبأسا .

ان نضال الطبقة العاملة هذا موجه في الارياف ضد كبار الملاكين العقاريين الذين يستغلون العمال الزراعيين وعمال المناجم ، وفي المدن ضد البرجوازية الصناعية التي تضطهد عمال الفبارك . وقد تنامى بالقدر الذي به اخذت البروليتاريا على نحو أفضل وعي مصالحها الطبقية وانتظمت بشكل أقوى (٢١٥) .

في البداية ، ارتدى نضال الطبقة العاملة شكل ثورات متفرقة ، في أثنائها كانت الآلات ، التي كان العمال يجعلونها مسؤولة عن بؤسهم ، تُحطّم ، وأرباب العمل يُضربون (٢١٦) . ان عنصرا ذا فاعلية خاصة في هذه النضالات هو العمال

---

٢١٣ – **م.ن** ، ص ١٦١ : «ليس ، والحالة هذه ، ليس عجيبا ان الشغيلة المعاملين كحيوانات ينحدرون الى مرتبة الحيوانية ، او ، يشعرون ، حفاظا على وعيهم انهم بشر ، بحقد ضارٍ وبشعور ثورة عميق ازاء البرجوازية في السلطة . ليسوا بشرا الا بقدر ما هم يحقدون على الطبقة المهيمنة، ويصيرون حيوانات بتكيّفهم مع نيرهم واكتفائهم بمحاولة جعله قابلا للتحمل دون سعي الى تحطيمه».

م.ن ، ص ١٦٦ : «ليس للشغيل من خيار آخر سوى الرضوخ لنصيبه والصير **عاملا جيدا** وخدمة «مصالح البرجوازية **بشكل أمين** ، او ، المقاومة» ، النضال ما يستطيع الى ذلك سبيلا ، كي يُبقي كرامته كانسان ، وهو لا يستطيع ذلك الا بالنضال ضد البرجوازية .

٢١٤ – **م.ن** ، ص ١٧١ .

٢١٥ – **م.ن** ، ص ١٦٩ : «يبدأ الشغيلة يشعرون انهم يؤلفون في مجملهم طبقة ، يأخذون وعي انهم ، وهم ضعفاء منعزلون ، يمثلون في جملتهم ، قوة . هذا يشدد انفصالهم عن البرجوازية ، يُسرّع تشكل تصورات وأفكار خاصة بالشغيلة ، وتستجيب لوضعيتهم الاجتماعية . انهم يأخذون وعي انهم مضطهَدون ويكتسبون هكذا اهمية اجتماعية وسياسية» .

٢١٦ – **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٢٦٨ – ٢٦٩ .

الايرلنديون، فمزاجهم الحار يأتي منشطا روح العمال الانكليز الكفاحية(٢١٧). رغم أعمال العنف التي ترافق هذه النضالات ، فان العمال الانكليز يتبينون ، بوجه الاجمال ، اكثر انسانية بكثير مما يظهر البرجوازيون ازاءهم (٢١٨) .

وإذ أدرك العمال الانكليز ان هذه الثورات لا يمكن ان تقود الى اي نتيجة ملموسة ، فقد سعوا ، مع سير توضح وعيهم لمصالحهم الطبقية ولاسباب بؤسهم الحقيقية ، الى الانتظام على الصعيد النقابي والسياسي معا (٢١٩) .

اول من استطاعوا تنظيم انفسهم على الصعيد النقابي كانوا عمال النسيج . كانوا آنذاك يشكلون نواة الطبقة العاملة . تبعهم اولا عمال الصناعات الاخرى ، بقدر ما كانت تقلبها الثورة الصناعية ، وأخيرا العمال الزراعيون ، الذين بقيت عندهم الثورات المتفرقة أطول مدة (٢٢٠) . من هنا الدور المقرِّر الذي تلعبه المدن الصناعية الكبيرة في نمو وتطور النضالات العمالية (٢٢١) .

من هذا التنظيم المتدرج للطبقة العاملة نجم التعمّم السريع لنضالاتها ضد الطبقات المالكة (٢٢٢) . على الصعيد النقابي ، هذا التنظيم سهّله قانون ١٨٢٤ ، الذي منح العمال حق الاجتماع [association ، تشكيل جمعيات ، حق التجمع]. اجتمعوا في نقابات ، **اتحادات ـ الشغل** Trade - Unions . هذه الاتحادات ، التي كانت في البداية منقسمة حسب التخصص الانتاجي ، لم تلبث ان تجمعت في اتحاد عام ، اخذ يدافع بشكل نشيط عن مصالح الكادحين لاسيما بتنظيم اضرابات (٢٢٣) . رغم ان هذه الاضرابات كانت تقمع بوحشية ، فقد أنمت حماس الطبقة العاملة الكفاحي ومعه حقدها ضد البرجوازية (٢٢٤) .

ان تواتر الاضرابات والانتفاضات التي كثيرا ما تصحبها يبيِّن كم احتدم النضال الاجتماعي في انكلترة . هذه الاضرابات والتمردات تتطلب شجاعة وجلدا أكبر مما يتطلبه النضال السياسي . انها المعارك الطلائعية للطبقة العاملة . فهي تؤلف ، ان صح القول ، مدرسة حرب البروليتاريا التي تستعد بواسطتها للنضال

---

٢١٧ ـ م.ن ، ص ص ١٧٠ ـ ١٧١ ، ٢٦٦ .

٢١٨ ـ م.ن ، ص ٢٦٨ .

٢١٩ ـ م.ن ، ص ص ١٦٩ و٢٦٩ : «المدن الكبرى هي بؤرة الحركة العمالية . هنا بدأ العمال يفكرون في حالتهم ويناضلون . هنا تجلّى أولا التعارض بين البروليتاريا والبرجوازية . هنا وُلدت الجمعيات العمالية ، الشارتية والاشتراكية . »

٢٢٠ ـ م.ن ، ص ص ٥٥ ، ٣٢٥ ـ ٣٢٧ .

٢٢١ ـ م.ن ، ص ص ١٦٩ .

٢٢٢ ـ م.ن ، ص ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

٢٢٣ ـ م.ن ، ص ص ٢٦٩ ، ٢٧٢ .

٢٢٤ ـ م.ن ، ص ٢٧٥ .

الحاسم ضد البرجوازية (٢٢٥) .

النضال الذي تخوضه الطبقة العاملة على الصعيد النقابي ، والذي كان الاضراب الكبير لعمال النسيج في عام ١٨٤٢ مرحلة هامة من مراحله ، يصطدم بمقاومة ضارية من جانب البرجوازية التي تساندها كل قوى الدولة . من المعارك القاسية التي تخوضها الطبقة العاملة ضدها ، البرجوازية تخرج بوجه الاجمال ، منتصرة . فهذه المعارك تنتهي عموما الى اخفاقات بالنسبة للعمال . محرومين من الموارد ، انهم مضطرون الى الاستسلام تحت طائلة الموت من الجوع (٢٢٦) . رغم ذلك يبقى العمال متمسكين بنقاباتهم التي تقدم لهم السبيل الوحيد للافلات قليلا من استغلال أرباب العمل وللحصول على بعض النجاحات . هكذا ان شغل الاولاد قد قلّص كثيرا او قليلا ، الشغل الليلي حظر على الفتيان دون الواحدة والعشرين، يوم العمل أنزل الى ١٣ ساعة بالنسبة للفتيان دون الثامنة عشرة والى متوسط ١٣ ساعة للراشدين (٢٢٧) . رغم ان الصناعيين لا يمتنعون عن عرقلة وتخريب هذه التدابير قدر امكانهم ، فان هذه الاجراءات تؤلف مع ذلك تحسينا ملحوظا لشروط عمل وحياة العمال ، الذين يظلون مع ذلك في مجملهم بؤساء لدرجة ان حقدهم ضد مستغليهم لا يفتأ يتنامى (٢٢٨) .

ان فعل الطبقة العاملة يمارس ايضا على الصعيد السياسي بالشارتية ، التي حملت على نحو متزايد العزم الدفاع عن الطبقة العاملة . الشارتية سبقتها حركة ديمقراطية ولدت في أواخر القرن الثامن عشر : هذه الحركة كانت قد أتاحت للطبقة العاملة ، بفضل الدعم المعطى لتحريض الهويغ [حزب الاحرار] في سبيل الاصلاح الانتخابي ، أن ترسل في انتخابات ١٨٣٢ ممثلين الى البرلمان . في ١٨٣٨ ، اللجنة القيادية بلندن ، ويرأسها وليم لويت William Lowett ، كانت قد حررت ميثاق [شارت Charte] الشعب ، الذي يطلب الاقتراع العام وانتخابات سنوية وتسوية الدوائر الانتخابية (٢٢٩) . في البداية كانت الراديكالية العمالية والمبادىء الديمقراطية البرجوازية واحدا في الحركة الشارتية . بما ان الراديكالية العمالية كانت فيها تتأكد اكثر فأكثر بإيداع مئات العرائض المطالبة بتحسين شروط شغل العمال ، فقد حاولت البرجوازية بادىء بدء ان تحوّل العمال عن مطالبهم : أطلقت تحريضا لصالح الغاء رسوم الدخول على الحبوب ، مما كان بالواقع يستهدف السماح ، عن طريق تخفيض تكاليف المعيشة ، بتقليص

---

٢٢٥ – م.ن ، ص ص ٢٧٩ – ٢٨٠ .

٢٢٦ – م.ن ، ص ص ٢٧٢ – ٢٧٣ .

٢٢٧ – م.ن ، ص ص ٢٨٣ – ٢٨٤ .

٢٢٨ – م.ن ، ص ص ٢٨٦ – ٢٩٠ .

٢٢٩ – م.ن ، ص ص ٢٨٣ – ٢٨٤ .

الاجور (٢٣٠) . ولم يلبث العمال ان أدركوا ان الغاء هذه الرسوم لئن كان يخدم مصالح البرجوازية فانه لا يخدم او قليلا ما يخدم مصالحهم . ونفضوا يدهم من هذا التحرك مواصلين نضالاتهم المطلبية .

ان ازمة ١٨٤٢ ، التي أطلقت الاضراب الكبير لعمال النسيج ، اعطت انطلاقا كبيرا للحركة الشارتية . العريضة المطالبة بالميثاق جمعت ثلاثة ملايين ونصف المليون من التواقيع . أمام اتساع اضراب ١٨٤٢ ، كانت البرجوازية للحظة قد راعت الطبقة العاملة ، معوّلة على مساندتها لها في نشاطها لصالح الغاء رسوم استيراد الحبوب . ثم اتخذت موقفا ضدها واستنجدت بالحكومة لسحق الاضراب . هذا شدد حقد الطبقة العاملة ضدها وسبَّب انشقاقا في الحركة الشارتية . في مؤتمر ١٨٤٣ في برمنغهام ، البرجوازية ، مطلّقة كل عمل ثوري ، انسحبت من الحركة الشارتية ، التي ، اذ أضحت تحت هيمنة العناصر العمالية ، باتت تدافع بشكل أقوى عن مطالب البروليتاريا : يوم الثماني ساعات ، زيادة الاجور ، ضمان الاستخدام (٢٣١) . الا ان انطلاق الشارتية أوقفه فشل اضراب ١٨٤٢ والقمع الذي أعقب الفشل والذي كانت ايضا ضحيته .

بالغة النشاط والانسجام على الصعيد العمل ، الشارتية أقل من ذلك نشاطا وانسجاما على الصعيد النظري ، بعكس الاشتراكية التي تطورت بموازاتها . ان رائد الاشتراكية في انكلترة هو روبرت أوين R. Owen . عدوا للعمل الثوري ، أوين يفكر ان أفضل وسيلة لتحسين شروط حياة الطبقة العاملة هي تأسيس مستعمرات ذات طابع نصف ــ زراعي ، نصف ــ صناعي ، فيها يتمتع الجميع بنفس المزايا والحقوق (٢٣٢) .

ان أتباع الاشتراكية الانكليزية يتجندون من بين البرجوازيين التقدميين والعناصر الاكثر استنارة في الطبقة العاملة . انهم يعتقدون بإمكان تحقيق الاشتراكية بإنماء التعليم والتربية . لذا فقد خلقوا العديد من قاعات المطالعة ومن المدارس . قاعدة التعليم في المدارس مكونة من العلوم الطبيعية ، والاقتصاد السياسي ، ودراسة نظريات مفكرين مثل هلفيسيوس، هولباخ ، د. ف. شتراوس، برودون (٢٣٣) . بخلاف الاشتراكية الفرنسية ، الاشتراكية الانكليزية لها طابع ملحد ، يستجيب لموقف البروليتاريا الانكليزية المناهض للدين (٢٣٤) . لئن كانت

---

٢٣٠ ــ م.ن ، ص ص ٢٨٦ ــ ٢٩٠ .

٢٣١ ــ م.ن ، ص ص ٢٩٠ ــ ٢٩١ .

٢٣٢ ــ م.ن ، ص ٢٩٣ .

٢٣٣ ــ م.ن ، ص ص ٢٩٤ ــ ٢٩٥ .

٢٣٤ ــ م.ن ، ص ٢٩٤ .

الاشتراكية الانكليزية تتجاوز الاشتراكية الفرنسية بطابعها الملحد ، فإنها بالمقابل دونها من وجهة نظر العمل الثوري . نابذين هذا العمل في اعتقادهم بالدور المقرر الذي يعزونه الى العقل ، الاشتراكيون الانكليز يدينون نضال البروليتاريا المطلبي. وهم مع ذلك يدركون ان سببه هو الاستغلال النازل بها من جانب البرجوازية . انهم يلومون ايضا البروليتاريا على لاأخلاقيتها دون ان يروا ان هذه مردّها البؤس وأن البرجوازية هي بالواقع اكثر لا أخلاقية من البروليتاريا (٢٢٥) .

بما انها غير مرتبطة بالبروليتاريا ، الاشتراكية الانكليزية تبقى عمليا عاجزة . لن تكون قادرة على اداء دور فعلي الا اذا تحالفت مع الشارتية . فقط تحالف الاشتراكية والشارتية ، اي النظرية والعمل الثوريين ، سيمكّن البروليتاريا من النصر (٢٢٦) . وهذا الحلف واقع حتما ، اذ ان الوقائع تفرضه .

ان عمل البروليتاريا الثوري يسهله تطور الازمة الناجمة عن استفحال مزاحمة البلدان الصناعية الاخرى ، بشكل خاص اميركا . هذه الازمة ، التي ستبلغ ذروتها على الارجح حوالي ١٨٤٦ – ١٨٤٧ ستطلق ثورة ستظهر الثورة الفرنسية بالمقارنة معها لعبة أطفال (٢٢٧) . فغضب الشعب سينفلت بعنف عجيب . الطريقة الوحيدة لتخفيفه هي نشر الشيوعية بين العمال . فلئن كانت الشيوعية تعترف بشرعية انتفاض الطبقة العاملة ضد مضطهديها ، فهي ايضا تفكر ان البرجوازيين بصورة فردية لا يمكن ان يُجعلوا مسؤولين عن وضع الاشياء الموجود ولا يجوز الانتقام منهم افراديا . يجب أن نأمل ان الشيوعية ستكون ، حتى لحظة انفجار الثورة ، قد دخلت بشكل كاف في الطبقة العاملة ، كي تتمكن هذه الثورة من التحقق بدون اراقة دماء . ومهما يكن من امر ، فان النضال بين البروليتاريا والبرجوازية سيسيَّر حتى خاتمته ، وعلى ما هي الامور حاليا سيكفي شيء تافه لانطلاق حركة الثورة (٢٢٨) .

ان التحليل المتعمق لحالة انكلترة وشروط حياة الطبقة العاملة ، وأسباب بؤسها ، وتفاقم صراع الطبقات بين البرجوازية والبروليتاريا ، يفسر الاهتمام الكبير الذي أثاره هذا الكتاب منذ صدوره (٢٢٩) . كل النقاد كانوا مجمعين على الاعتراف بأنه يعتمد على معرفة للوقائع متعمقة ، الا انهم كانوا مختلفين في تقديرهم للاسباب

---

٢٢٥ – **م.ن** ، ص‌ص ٢٩٣ – ٢٩٤ .

٢٢٦ – **م.ن** ، ص ٢٩٤ .

٢٢٧ – **م.ن** ، ص ٣٥٨ .

٢٢٨ – **م.ن** ، ص‌ص ٣٥٩ – ٣٦٠ .

٢٢٩ – عن الاستقبال الذي لقيه هذا الكتاب ، انظر **ف. مونكه** : الصدى الادبي في المانيا لكتاب فريدريش انجلز ، **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، برلين ، ١٩٦٥ . **ك. أوبرمان** : أحكام على مؤلف فريدريش انجلز ، حالة الطبقة العاملة في انكلترة ، في الاعوام ١٨٤٥ – ١٨٤٦ ، **مجلة التاريخ** [بالالمانية] ، ١٩٥٩ ، جـ٧ ، العدد ٥ .

التي يعزو اليها انجلز بؤس البروليتاريا وللنتائج الثورية التي تخرج من تحليله .

النقاد الرجعيون كانوا بوجه الاجمال يقدّرون ان تحليل انجلز صحيح ، ولكنهم كانوا يعتبرون كتابه خطِرا بسبب اتجاهاته . كانوا يفكرون ، بالاضافة الى ذلك ، ان انتقادات انجلز لا تصلح الا لانكلترة ، وانه بقدر ما الفقر paupérisme موجود في ألمانيا فان البرجوازية وحدها يمكن ان تُجعل مسؤولة عنه . فالحكومات الالمانية ، وبخاصة الحكومة البروسية ، تكوّن بطابعها ذاته أفضل ضمان ضد افراطات التصنيع وبذلك عينه ضد الفقر (٢٤٠) .

البرجوازية الكبرى ، اذ كانت مباشرة على تماس مع الطبقة العاملة وكانت قلقة من الصدى الهائل لثورة الحياكين ، كانت تعترف بوضوح أكبر مما كانت الحكومات ، بالخطر الذي يمثله توطد البروليتاريا وتفاقم كفاحها الطبقي . لذا كانت الصحافة الليبرالية ، التي تدافع عن مصالحها ، تهاجم كتاب انجلز بلا تحفظات . هكذا كان استاذ الاقتصاد السياسي ، ب. هيلدبراند ، يصفه بأنه «انجيل شيوعي» يستطيع كل ثوري ان يرجع اليه ، ويأخذ على النظريات التي يعرضها انها خاطئة وخطرة على حد سواء (٢٤١) .

الديمقراطيون البرجوازيون ــ الصغار ، المقتنعون بأن المسألة الاجتماعية يمكن ان تسوّى بدون انقلابات اجتماعية عميقة بواسطة دمَقرَطة الدولة، كانوا يرفضون الاستنتاجات الشيوعية في كتاب انجلز ، مع اعترافهم بقيمته . وكانوا في الوقت نفسه يؤكدون على الطابع العاجل لاتخاذ تدابير ضد الفقر (٢٤٢) .

أنصار الاشتراكية «**الحقة**» كانوا يستقبلون هذا المؤلف بحماس وينشرون منه في مجلاتهم مقتطفات واسعة ، الامر الذي كان يسهم اسهاما كبيرا في اذاعته. ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يلطفون التحليل الذي قام به انجلز عن أسباب بؤس البروليتاريا والمدى الثوري للكتاب ، طامسين تأكيد ان المسألة الاجتماعية لا يمكن ان تُحلّ الا بثورة شيوعية . كانوا يعارضون هذه الاطروحة بقولهم ان اهتداء جميع البشر الى الانسية وحده قادر على حل مجموع المعضلات الاجتماعية (٢٤٣). من جهة أخرى ، بقدر ما كانوا يصيرون أقرب منالا لافكار ماركس وانجلز ، كانوا

---

٢٤٠ ــ انظر بشكل خاص **ف.ا.هـ. (هوبر)** : الادبيات الاخيرة ، في يانوس **Yanus** ١٨٤٥ ، جـ٢ ، العدد ١٨ ، ص‌ص ٣٨٧ ــ ٣٨٩ .

٢٤١ ــ انظر **ب. هيلدبراند : الاقتصاد السياسي في الحاضر والمستقبل** ، فرانكفورت ــ على ــ الماين ، المؤسسة الادبية ، ١٨٤٨ ، ص ١٦٢ .

٢٤٢ ــ انظر **كارل بيدرمان** : الاتجاهات الاشتراكية في المانيا ، في **حاضرنا ومستقبلنا** ، لايبتسيغ ، ١٨٤٦ ، جـ١ و٢ و٤ .

٢٤٣ ــ انظر بشكل خاص **اوتو لوننغ** : حالة الطبقات الكادحة في انكلترة تأليف فريدريش انجلز ، في **كتاب المواطن الالماني** ، ١٨٤٦ ، ص‌ص ٢٢٢ ــ ٢٤٥ .

يصلون الى تبني استنتاجات الكتاب في كثير او قليل (٢٤٤) .

بإطلاعها القراء على هذا الكتاب ، جميع الانتقادات جعلته الكتاب عن الاشتراكية : هذا المؤلف هو الذي قرىء على النطاق الاوسع قبل **البيان الشيوعي**، وكان له الاسهام الاكبر في نشر الافكار الشيوعية في ألمانيا . ماركس كان يثمنه تثمينا عاليا ويفكر انه ، في الادب الاشتراكي المزامن ، الكتاب الوحيد الذي يتفق مع أفكاره بشكل تام تقريبا والذي ينميها في نقاط جوهرية . وسوف يكتب في وقت لاحق الى انجلز : «عدا ذلك ، فيما يخص الاطروحات الرئيسية في كتابك ، فقد ثُبّتت حتى أدق تفاصيلها من قِبل التطور التاريخي بعد سنة ١٨٤٤ . فقد جابهتُ كتابك مع ملحوظاتي عن تلك الفترة» (٢٤٥) . كان يعتبر انه التحليل الوحيد الصحيح لحالة البروليتاريا الانكليزية آنذاك ، وفي **رأس المال** كان ايضا يرجع الى كتاب انجلز ، بخاصة في الفصلين الثامن والثالث عشر من المجلد الاول .

لينين كان يرى فيه احدى روائع الادب البروليتاري وكان يعلق عليه أهمية قصوى : انجلز في هذا الكتاب كان اول من اشتق نضال البروليتاريا الطبقي الثوري من عين طابع المجتمع البرجوازي وأبرز الدور الحاسم لهذا النضال في انبساط التاريخ الحديث . «قبل انجلز ، مؤلفون كثيرون وصفوا حالة البروليتاريا وأبرزوا ضرورة تحسين هذه الحالة . ولكنه كان **أول** من بيَّن ان البروليتاريا ليست فقط طبقة بائسة وان الوضع الاقتصادي المزري المفروض عليها يدفعها بلا توفق الى الثورة ويرغمها على الكفاح لكي تتحرر نهائيا . في هذا الكفاح ، تكفي البروليتاريا نفسها بنفسها . عمل الطبقة العاملة السياسي يعطيها بالضرورة وعي انه ليس من سبيل خلاص آخر بالنسبة لها سوى الاشتراكية . من جهة أخرى ، الاشتراكية لا يمكن ان تصير قوة اذا لم تكنهي الهدف **السياسي** لكفاح **الطبقة** العاملة . تلك هي الافكار الاساسية لكتاب انجلز عن **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** . هذه الافكار ، التي صارت الان الملك المشترك لمجموع البروليتاريا التي تفكر والتي تناضل ، كانت آنذاك جديدة تماما . كانت معروضة في كتاب كُتب بأسلوب أخاذ ، يقدم لوحة بالغة الوضوح والتأثير عن بؤس البروليتاريا الانكليزية ويؤلف صك اتهام لا رحمة فيه ضد الرأسمالية والبرجوازية . الاثر الحاصل كان

---

٢٤٤ ـ انظر **هـ. سميغ** : انكلترة ، حالتها الراهنة ومستقبلها ، حسب **انجلز وكارلايل** ، في **جريدة مواطن الدولة الدستورية** . غريما ، ١٨٤٥ ، العددان ١٢٨ و١٣٠ .

د. (رمبل) : الحالة الصناعية ، في **الاذاعة العلنية لكونتية رافنسبرغ** ، بيلفلد ، ١٨٤٥ ، الاعداد رقم ٢٧ــ٣٢ ، ورقم ٣٥ .

يوسف فايدماير : حالة الطبقة العاملة في انكلترة ، في **هذا الكتاب ملك للشعب** ، بيلفلد ، ١٨٤٥ ، ص ص ٦٩ ـ ٩٤ .

٢٤٥ ـ انظر رسالة ماركس الى انجلز ، ٩ــ٤ــ١٨٦٣ ، **م.ا.م.** ، ج٣٠ ، ص ١٦٥ .

هائلا . في كل مكان شرعوا يرجعون الى هذا الكتاب كما الى أفضل وصف لحالة البروليتاريا آنذاك . وبالواقع ، لا قبل ١٨٤٥ ولا بعدها ، ظهر وصف لبؤس الطبقة العاملة بهذا التأثير وهذا الحق» (٢٤٦) .

اليوم ايضا نقرأ هذا الكتاب باهتمام واعجاب على حد سواء ، بوصفه احدى روائع الادبيات الاشتراكية . انجلز نفسه كان يعتبره ، حين أعاد اصداره بعد حوالي خمسين سنة ، رغم تحفظات تتصل على نحو رئيسي بتأثير إنسية فويرباخ التي كانت ما تزال تستشعر فيه ، مساهمة جد هامة في بسط الاشتراكية العلمية : «ليس ثمة حاجة ، او تقريبا ، للتشديد على ان هذا الكتاب ، سواء من وجهة النظر الفلسفية او من وجهة النظر الاقتصادية والاجتماعية ، لا يستجيب بأي شكل على نحو تام لتصوراتي الراهنة . في ١٨٤٤ ، الاشتراكية الحديثة الدولية ، التي اتخذت بفضل ماركس خصوصا وبفضل ماركس وحده تقريبا طابعا علميا ، لم تكن موجودة بعد . كتابي ما هو الا احدى المراحل الجنينية في هذا الانبساط . كما ان الجنين الانساني ، في المرحلة الاولى من تطوره ، يستمر في نسخ خياشيم أجدادنا ، الاسماك ، كذلك هذا الكتاب يكشف في كل مكان آثار واحد من أصول الاشتراكية الحديثة ، وهو الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . هكذا اني الح كثيرا ، خصوصا في النهاية ، على فكرة ان الشيوعية ليست هي فقط مذهب الطبقة العاملة ، بل هي نظرية هدفها الاخير تحرير مجموع المجتمع ، بما فيه الرأسماليون ، من الشروط الاجتماعية الراهنة ، التي تزن على الجميع . هذا صحيح من وجهة نظر عامة ومجردة ، ولكن عمليا هذا ضار بقدر ما هو عديم الفائدة . طالما الطبقات المالكة لن تشعر بأية رغبة في التحرر وطالما بالعكس ستعارض بكل قواها تحرر الطبقة العاملة ، فان هذه الاخيرة سترى نفسها مضطرة لمباشرة وتحقيق وانجاز الثورة الاجتماعية بمفردها» (٢٤٧) .

ان اهمية هذا الكتاب بالنسبة للتطور الايديولوجي لانجلز قائمة اولا في واقع ان هذا الكتاب كان بالنسبة اليه نوعا من دواء مضاد ضد التأثير الذي قد تمارسه عليه حالة المانيا المتأخرة والاشتراكية **«الحقة»** . فبحكم كونه يواصل الاهتمام بحالة انكلترة كان يستطيع البقاء في المستوى الفكري الذي كان قد بلغه في هذا البلد . من جهة اخرى ـ وهنا الامر الجوهري ـ ان تحليل العلاقات الاقتصادية

---

٢٤٦ ـ انظر **ف.ا. لينين : ماركس ـ انجلز ـ الماركسية** ، برلين ، ١٩٤٦ ، ص‌ص ٤١ وبعدها . [= مقالة لينين بعنوان «فريدريك انجلز» ، خريف١٨٩٥ ، بمناسبة وفاة زعيم البروليتاريا الاوروبية ، تأتي عادة بعد مقالة «كارل ماركس» في بداية المجموعات الصادرة بعنوان «ماركس ـ انجلز ـ الماركسية» عن موسكو ، بالفرنسية او الانكليزية او العربية] .

٢٤٧ ـ انظر **ف. انجلز** ، مقدمة الطبعة الالمانية لـ **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، الصادرة في عام ١٨٩٢ . انظر طبعة باريس ، دار النشر الاجتماعية ، ١٩٦١ ، ص‌ص ٣٩٠ـ٣٩١ .

والاجتماعية والسياسية والايديولوجية في انكلترة ، التحليل الذي كان ينشئه من وجهة نظر الثورة الصناعية ، كان يقوده ان يبسط وينمي ، بصورة مستقلة تماما عن ماركس وبكيفية مختلفة ، المبادىء الاساسية للمادية التاريخية .

الامر المقرر بالنسبة له في تحريره هذا الكتاب كان تحزّبه المتعمد لصالح البروليتاريا . وهذا كان يسوقه الى ان يرى في البروليتاريا ، بخلاف ما يراه الاشتراكيون ــ الاصلاحيون والفيلانتروب [محبُو البشر] ، ليس فقط طبقة بائسة بل ايضا وخصوصا طبقة ثورية ، لا تستطيع ان تحرر نفسها الا بإلغاء المنظومة الراسمالية الغاء جذريا . بتبيانه ان بؤس البروليتاريا هو النتيجة المحتومة لانبساط وتطور النظام الرأسمالي ولا يمكن ان يلغى الا بثورة بروليتارية ، كان انجلز يبدد في آن أوهام الفيلانتروب الذين كانوا يفكرون ان بامكان تدابير خيرية مداواة بؤس الطبقة العاملة ومنع قيام ثورة اجتماعية وأوهام الاشتراكيين **الحقين** الذين كانوا يؤمنون بامكان هدي البرجوازية المستنيرة الى الاشتراكية وبحل المسألة الاجتماعية عن هذا الطريق .

ان وضعيته ازاء البروليتاريا تعلل الفرق العميق بين مؤلفه والمؤلفات المزامنة التي تعالج نفس الموضوع . هذه الاعمال تكتفي على العموم بوصف الشروط البائسة لحياة البروليتاريا . انجلز بالعكس يبرز ، في الوقت نفسه مع آثار الاستغلال الرأسمالي على حالة الطبقة العاملة ، تفاقم الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا وحتمية ثورة شيوعية ستنجم عنه . بذلك يسهم في تنوير الطبقة العاملة عن اسباب بؤسها وفي حث حميتها الثورية .

هذا يسمح له بأن يتجاوز على نقطتين هامتين مقاله «حالة انكلترة» ، الذي اتخذه نقطة انطلاق في هذا المؤلف . فهو يبيّن ، على نحو اكثر تعمقا وتفصيلا ووضوحا ودقة بكثير ، كيف ان العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والايديولوجية لانكلترة المعاصرة محددة من قِبل الثورة الصناعية ، ويبرز أوضح النتائج الثورية لتفاقم صراع الطبقات بين البرجوازية والبروليتاريا .

هذا الكتاب يشكل مساهمة بالغة الاهمية في انضاج المادية التاريخية والاشتراكية العلمية . فلأول مرة كانت الملامح الجوهرية لطور تاريخي تُشتق نسقَيًا من انبساطه الاقتصادي ، بعمق في النظر وبمهارة وسيطرة مدهشتين عند شاب في الرابعة والعشرين . فإنجلز يعرض كيف ان الثورة الصناعية أنجبت ، في الوقت نفسه مع تحول اقتصادي عميق ، انقلابا اجتماعيا وحددت بذلك عينه الملامح الجوهرية لانكلترة الحديثة . ان انبساط الماكينية المسرّع قد أدى ، بتفاقم المزاحمة ، الى خراب الطبقات الوسطى ، بخاصة اصحاب الحِرف ، وتركز الرأسمال بين أيدي البرجوازية الكبيرة التي صارت الطبقة القائدة ، وتشكل بروليتاريا متزايدة العدد هي ، بما انها مجبرة على بيع نفسها كسلعة ، خاضعة للقوانين التي تضبط شراء وبيع السلع . محرومة من كل حق ومحكوما عليها بالتدهور المادي والفكري والخلقي ، البروليتاريا ليس لها من سبيل يحررها من شروط وجودها اللاإنسانية سوى ان تثور ضد المجتمع البرجوازي . من هنا احتدام

صراع الطبقات بين البرجوازية والطبقة العاملة .

كي تدافع عن نفسها ضد ثورة هذه الطبقة، البرجوازية تملك ليس فقط قدرتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بل ايضا سلطات الدولة ، الاقتصاد السياسي، الاخلاق والدين ، التي تخدمها في تسويغ وتوطيد هيمنتها الطبقية .

على الرغم من ذلك ، لا تستطيع البرجوازية ان تمنع استفحال النضال الذي تخوضه البروليتاريا ضدها . هذا النضال اتخذ باديء بدء شكل تمردات فردية وانتفاضات متفرقة . الا ان هذه التمردات ، بقدر ما وعت البروليتاريا مصالحها الطبقية وأسباب بؤسها الحقيقية ، أخلت المكان على نحو متزايد لنضالات نقابية وسياسية تسيِّرها اتحادات ــ الشغل والشارتية .

بما ان أمكانية التحرر الوحيدة هي ثورة اجتماعية ، فان البروليتاريا تدع نفسها اكثر فأكثر تنقاد ، في كفاحها ، من قِبل فكرة التعارض الجذري الذي يفصلها عن البرجوازية ، وتتحول بحكم ذلك اكثر فأكثر عن الطوباوية والاصلاحية. يحثها في نضالها الثوري تطور الانتاج الرأسمالي ذاته ، الذي ينمي بلا توقف عدد العمال المستخدمين في الصناعة ، وكذلك الازمات . هذه الازمات التي تعمم البؤس تهلك الطبقات المتوسطة التي ترفد وتعزز صفوف البروليتاريا .

لم يعد انجلز يعتقد ، كما كان يعتقد ابان وصوله الى انكلترة ، بأن الثورة الشيوعية وشيكة في هذا البلد ، ولكن تفاقم صراع الطبقات بين البرجوازية والبروليتاريا يثبته في الايمان بحتمية هذه الثورة .

في الوقت نفسه مع نموها كطبقة ثورية ، البروليتاريا تتميز اكثر فأكثر عن البرجوازية ليس فقط بسلوكها ، بل ايضا بايديولوجيتها التي تتشكل بمعارضة الايديولوجيا البرجوازية . وهي ، بحكم هذا النمو والتطور ، تميل الى الحلول محل البرجوازية كطبقة تقدمية ، تحدد مجرى التاريخ .

كان مؤلف انجلز لا يزال يحوي بعض الملامح المثالية التي تتصل بالانسية الفويرباخية (٢٤٨) . الا ان هذه الخطوط لم تكن ، في الاجمال ، تصيب مفهمة التاريخ المادية ، التي كان قيد انضاجها والتي كانت تقوده الى ان ينبذ ، مع المثالية،

---

٢٤٨ ــ عن الانسية ، انظر **المرجع نفسه** ، ص ٢٩ : «... لقد وجدت انكم (ايها العمال الانكليز) اكثر بكثير من إنكليز ، اي اعضاء امة منعزلة ، لاحظتُ انكم **بشر** ، اعضاء في العائلة الدولية الكبرى التي تؤلفها **البشرية** ، وأنكم اعترفتم بأن مصالحكم تتطابق في الهوية مع مصالح كل الجنس البشري. بصفتكم اعضاء في العائلة «الواحدة التي لا تتجزأ» التي تؤلفها **الانسانية** ، بصفتكم **كائنات انسانية** بمعنى الكلمة الاوسع ... أحييّ تقدمكم» .

عن الانانية كمبدأ للمجتمع البرجوازي ، انظر **المرجع نفسه** ، ص ٦٠ : «في زحمة المدن الكبرى تتظاهر عزلة الفرد والانانية الضيقة ، اللتان تؤلفان اساس المجتمع الراهن ، في تجليهما الاشد وقاحة وصراحة » .

مادية فويرباخ نصف ـ الميتافيزية وإنسانويّته .

بتحليله لوضع انكلترة ، كان يقدم ، بصورة مستقلة تماما عن ماركس وعلى صعيد آخر غير صعيده ، اسهاما بالغ الاهمية في انضاج المادية التاريخية ، وكان يجيء هنا ايضا ، كما فعل سابقا بمقالاته في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** وبمقاله عن «الحالة في انكلترة» ، موضحا ومكملا على صعيد التفسير العياني والتطبيق العملي تصورات ماركس العامة .

فقد كان يخرج من عمل انجلز انه في دراسة التاريخ لا يجوز العمل بكيفية دوغمائية وأن التحليل المتعمق للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية هو وحده يمكّن من الوصول الى معرفة صحيحة للتاريخ . هذه العلاقات يحددها جوهريا تطور القوى الانتاجية الذي يولّد ، مع تقسيم جديد للشغل وأشكال جديدة للملكية ، تحولا للعلاقات الاجتماعية والسياسية ومعه تحولا للايديولوجيا .

كالعلاقات الاجتماعية ، الايديولوجيا ، التي هي انعكاسها ، لها طابع طبقي . ليس هناك أفكار مطلقة تحلق ان صح القول فوق التاريخ والصراعات الطبقية . فالفلسفة والدين والاخلاق والحقوق هي في خدمة الطبقات المهيمنة ولا يمكن ان تفهم الا في علاقاتها معها . اذن بطلان التصور المثالي للتاريخ ، المعاد الى تطور أفكار ، وبوجه عام بطلان كل نظرية تقع خارج الحياة الاجتماعية .

هذه المبادىء العامة للمادية التاريخية ، التي كانت تخدم كأساس في تحليله لحالة انكلترة ، لم تكن معروضة كما عرضها ماركس في **الاطروحات عن فويرباخ** بكيفية منهجية نسَقية ، الامر الذي يعلل بواقع ان انجلز لم يكن بعد وصل ، من الوجهة النظرية ، الى المستوى الذي بلغه ماركس . ولئن كان انجلز لا يستطيع بعد ان يعطي نتائج عمله نفس طابع العمومية الذي يعطيه ماركس ، فانه كان بالمقابل يحلل بوضوح ودقة اكبر مما كان يفعل ماركس الصلات بين العلاقات الاقتصادية والمعضلات الاجتماعية . ماركس كان قد وصل الى هذا التصور العام المادي للعالم، الذي مفاده ان التاريخ مكوّن جوهريا من نمو وتطور الفاعلية الانتاجية للبشر الذين يحولون انفسهم مع تحويلهم الطبيعة لتكييفها مع تلبية حاجاتهم ، ولكنه لم يكن يرى بنفس وضوح انجلز كيف ان تطور قوى الانتاج يحدد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والايديولوجية .

ماركس وانجلز ، اللذان كانا قد تعاونا بشكل مثمر في **العائلة المقدسة** ، على أساس التصورات المادية التي كانا قد توصلا اليها كلٌ بمفرده ، كانا يستطيعان ذلك على نحو أفضل الان وقد باتت تصوراتهما يكمل بعضها بعضا في مستوى اعلى: ماركس مقيما في **الاطروحات عن فويرباخ** المبادىء الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، انجلز معطيا في مؤلفه مثالا أول ورائعا عن تطبيق مبادىء المادية التاريخية على تحليل عصر من التاريخ .

ان نتاج هذا التعاون الجديد سيكون بعد لقائهما في بروكسل : **«الايديولوجيا الالمانية»** ، حيث ، مضافرَين تصوراتهما ، سينجزان ، على قاعدة تحليل حقب التاريخ الكبرى ، اقامة المبادىء الاساسية للمادية التاريخية .

الفصل الثالث

كارل ماركس و فر . انجلز في بروكسل (١)

حياة ماركس في بروكسل

ماركس ، مطرودا من باريس ، ذهب مع هاينريش برجرس الى بروكسل ، حيث وصل في ٥ شباط ـ فبراير ١٨٤٥ . ولحقت به زوجته بعد قليل مع طفلتهما (٢) .

بعد وصوله بيومين ، في ٧ شباط ، وجه معروضا الى ملك البلجيكيين

---

١ ـ عن اقامة ماركس في بروكسل ، انظر **لوك سومرهوزن : إنسية كارل ماركس الفاعلة** ، باريس ، ١٩٤٦ . و **كارل ماركس** ، **سيرة حياته** ، مرجع مذكور آنفا [موسكو ، ١٩٣٤] ، ص‌ص ٨٣٧ وبعدها .

٢ ـ في مخطوط بعنوان **لمحة موجزة عن حياة مضطربة** ، كتبت ينّي ماركس بصدد رحيلهما من باريس : «في أوائل ١٨٤٥ حضر مفوض الشرطة فجأة الى بيتنا وأبلغنا مرسوم طرد اتخذه غيزو بناء على طلب الحكومة البروسية وينص على ان على ماركس ان يغادر باريس خلال ٢٤ ساعة . وقد ترك لي مدة أطول استفدت منها لبيع أثاثي وقسم من ملابسي بسعر تافه لانه كان عليّ الحصول على ثمن السفر . أسرة هيرفيغ استضافتني يومين . مريضة وفي برد قارس التحقت بماركس في بروكسل في أوائل شباط .» **ينّي ماركس : موهر** Mohr (لقب ماركس [= مغربي او حتى عبد زنجي]) و **الجنرال** (لقب انجلز) ، برلين ، ١٩٦٥ ، الطبعة الثانية ، ص‌ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

ليوبولد الاول ، يلتمس فيه اذنا بالاقامة لم ينله الا بصعوبة (٣) . فقد كان مشبوها للحكومة البلجيكية بسبب نشاطه الثوري ، وكان وزير العدل قد أعطى ، منذ ان بلّغ نبأ وصوله ، الامر لمصالح الامن بمراقبته عن قرب بوصفه ديموقراطيا وشيوعيا خطرا (٤) .

شبهات الحكومة البلجيكية ازاءه ثبتها تقرير مخبر في الشرطة مؤرخ بتاريخ ١٤ شباط ، يشير الى ان ماركس ينوي ان يصدر في بلجيكا مع كارل هاينتسن جريدة ألمانية وأن ينشرها سرا في ألمانيا ، الامر الذي لا بد ان يثير صعوبات مع هذا البلد (٥) . بناء على هذا ، رجا رئيس مصلحة الامن العام في ١٩ شباط رئيس بلدية * بروكسل أن يستعلم لمعرفة ما اذا كان ماركس ينوي مواصلة اصدار جريدة **الى الامام** في بلجيكا (٦) .

وزادت مخاوف السلطات البلجيكية رسالة من رئيس شرطة أخن [إيكس ــ لا ــ شابيل] بتاريخ ٣ آذار تسأل ما اذا كان هرفغ وروجه وماركس وبورنشتاين يقيمون في بروكسل وما اذا كانوا ينوون المجيء الى بروسيا (٧) .

ردا على طلب رئيس مصلحة الامن ، أخبره رئيس بلدية بروكسل في ١٥ آذار أن ماركس لا ينوي سوى الاهتمام بالاقتصاد السياسي وأنه دعم أقواله بعقد موقّع من الناشر لِسكه في دارمشتادت يتصل باصدار كتاب عنوانه **الاقتصاد السياسي** (٨) . ومع ذلك لم يمنح ماركس اذن الاقامة الا بعد ان تعهد في ٢٢ آذار خطيا بأن لا ينشر شيئا عن المسائل السياسية (٩) .

---

٣ ــ مولاي ، ان الموقّع أدناه ، شارل ماركس ، دكتور في الفلسفة ، عمره ٢٦ سنة ، من مدينة تريف ، مملكة بروسيا ، اذ ينوي الاقامة مع زوجته وولده في ولايات جلالتكم ، يسمح لنفسه بأن يرجوكم بأن تتفضلوا بمنحه اذن اقامة منزله في بلجيكا . وله الشرف بأن يكون ، مع أعمق الاحترام ، لجلالتكم ، خادمها البالغ التواضع والطاعة . **امضاء : د. شارل ماركس** . انظر لوك **سومرهوزن** ، مرجع مذكور ، ص ٧٥ .

٤ ــ آرشيف الامن العام البلجيكي ، اضبارة بورنشتدت ، الوثيقة ٨ . انظر **ل. سومرهوزن** ، مرجع مذكور ، ص ٧٥ .

٥ ــ آرشيف الامن العام البلجيكي ، اضبارة كارل ماركس ، الوثيقة ٢ . **سومرهوزن** ، ص‌ص ٧٥ ــ ٧٦ .

[* bourgmestre : سيد المدينة ، رئيس البلدية (الكومونة) ، المختار ، المنتخب] .

٦ ــ آرشيف الامن العام البلجيكي ، اضبارة كارل ماركس ، الوثيقة ٧ . **سومرهوزن** ، ص٧٦ .

٧ ــ آرشيف الامن العام البلجيكي ، اضبارة كارل ماركس ، الوثيقة٨ . **سومرهوزن**، ص٧٦ .

٨ ــ انظر **سومرهوزن** ، ص ٧٧ .

٩ ــ «للحصول على ترخيص الاقامة في بلجيكا ، أوافق على الالتزام بشرفي بأن لا أنشر في بلجيكا اي مؤلَّف عن سياسة اليوم» . دكتور شارل ماركس . آرشيف الامن العام البلجيكي ، اضبارة كارل ماركس ، الوثيقة رقم ١٠ . انظر **ل. سومرهوزن** ، ص‌ص ٦١ ، ٧٧ .

ولما كانت الاقامة في فرنسا والمانيا محظورة عليه ، فقد سعد ماركس بامكانية البقاء مع عائلته في بروكسل ، حيث مكث حتى ثورة ١٨٤٨ .

همه الاول كان تلبية حاجات عائلته . نجح في ذلك بادىء بدء بفضل المعونة المالية التي تلقاها من انجلز ويونغ والسلفة النقدية التي رضي بتقديمها الناشر لسكه على كتاب **نقد السياسة والاقتصاد السياسي** الذي كان يزمع اصداره (١٠). بالجهد الذي بذله انجلز لتنظيم لوائح معونات مالية ، ظهر ، للمرة الاولى ، الصديق الوفي والمخلص الذي سيبقاه طوال حياته تجاه ماركس ، لاسيما في الفترة التي كان فيها هذا الاخير ، مع أسرته ، فريسة بؤس رهيب ، والتي فيها مساعدة انجلز الدائمة سمحت هي وحدها لماركس بأن يسير بعمله الى نهاية جيدة (١١) .

بالنسبة لتطور فكره وأيضا بالنسبة للعمل الثوري الذي كان يتابعه بقدر ما يسمح بذلك تعهده بالبقاء خارج السياسة ، كانت بروكسل تؤلف بالنسبة لماركس وسطا لا يقل ملاءمة عن باريس . فقد كانت بلجيكا من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية تقريبا في نفس مستوى تطور فرنسا . مكننة صناعة النسيج وأيضا صناعة التعدين كانت تحصل فيها بنفس وتيرة حصولها في فرنسا ، الامر الذي كان ينتج عنها ايضا ، في الوقت نفسه مع انحطاط الطبقات الوسطى ولاسيما اصحاب الحرف ، توطد البرجوازية الكبيرة وتنامي البروليتاريا واشتداد الصراع الطبقي بين البرجوازية والطبقة العاملة (١٢) .

من جهة اخرى ، بروكسل ، التي كانت تؤلف نقطة وصل بين فرنسا وانكلترة ورينانيا ، كانت تقدم امكانيات كبيرة للدعاوة والعمل بموقعها على مسافة متساوية تقريبا من باريس ولندن وكولن ، وفي المثلث الذي تكوّنه هذه المدن الثلاث انحصر بادىء بدء النشاط الثوري لماركس وانجلز .

---

١٠ ــ أول اكتتاب فتحه انجلز كانت حصيلته ٥٠ ثالر ، أوصلها انجلز الى ماركس في مطلع آذار ١٨٤٥ . انظر رسالة انجلز الى ماركس (بارمن ، ٢٢ ــ ٢٦ شباط ، ٧ آذار ١٨٤٥) ، انظر م.ا.م. [M.E.W] ، ج٢٧ ، ص١٩ . بعد ايام قليلة، ارسل اليه انجلز ١٢٢ فرنكا. رسالة انجلز الى ماركس (بارمن ، ١٧ آذار ١٨٤٥) ، انظر م.ا.م. ، ج ٢٧ ، ص ٢٤ . من يونغ تلقى ماركس في نيسان ٧٢٠ فرنكا، رسالة يونغ الى ماركس (٧ نيسان ١٨٤٥) ، النسخة الاصلية في معهد موسكو، I ، ٥ ، رقم ٦٥ . من لسكه نال سلفة ١٫٥٠٠ فرنك .

مجموع هذه المبالغ ــ حوالي ٢٫٥٠٠ فرنك ــ كان كبيرا بالنسبة للعصر ، كان يمثل ثلاث مرات المرتب السنوي لمعلم مدرسة .

١١ ــ انظر رسالة انجلز الى ماركس في بروكسل (بارمن ، ٢٢ــ٢٦ شباط ، ٧ آذار ١٨٤٥) ، انظر م.ا.م. ، ج٢٧ ، ص ١٩ : «على الاقل لن يكون لهؤلاء الكلاب لذة اغراقك بسفالتهم في متاعب مالية . »

١٢ ــ عن حالة بلجيكا آنذاك ، انظر الفصل الاول من هذا المجلد .

بحكم موقعها وأيضا بحكم الليبرالية النسبية للحكومة البلجيكية ، كانت بروكسل قد اصبحت مركزا كبيرا لتجمع القوى الثورية المؤلفة رئيسيا من اللاجئين البولونيين والطليان الذين كانوا يشكلون ، ان صح القول ، خميرة النشاط الثوري الدولي (١٣) .

بعد قمع انتفاضة ١٨٣٠ ، كان ألوف البولونيين الوطنيين قد التجؤوا الى الخارج ، بصورة رئيسية في فرنسا وبلجيكا ، حيث كانوا يتابعون النضال من اجل تحرير بلدهم . ان دورا نشيطا بشكل خاص كان يلعبه في بلجيكا يوأكيم للويل **Yoachim Lelewel** (١٧٨٦ ــ ١٨٦١) الذي كان يدرّس الجغرافيا في جامعة بروكسل . المعارضة القومية الايطالية كانت مجتمعة حول مازيني **Mazzini** الذي كان قد اعطى الحركة الديمقراطية الثورية طابعا دوليا أمميا بتأسيسه رابطة **اوروبا الفتاة** . هذه الرابطة ، التي كان لها فروع في فرنسا وألمانيا وسويسرة وبلجيكا ، كانت تتخذ هدفا لها الغاء كل اضطهاد ، قومي ، سياسي ، اجتماعي . كما في جميع رابطات المعارضة آنذاك ، حيث العناصر الديمقراطية البرجوازية والعناصر البروليتارية متحدة متطابقة في البداية ، كان يحصل في هذه الرابطة ، مع سير تشدد صراع البروليتاريا الطبقي على الصعيد الدولي ، انفصال يضع الاعضاء البرجوازيين في مقابل العناصر البروليتارية .

في بروكسل ، سعى ماركس الى عقد صلات متزايدة الوثوق مع قادة الحركة الثورية الالمانية في انكلترة وفرنسا وريننانيا . مركز هذه الحركة في انكلترة كان الفرع اللندني لـ **رابطة العادلين** الذي كان يسعى ، بقيادة كارل شابر ، يوسف مول ، هاينريش باور ، وفلهلم فايتلنغ اللاجىء آنذاك في لندن ، الى كسب الحِرفيين الالمان للشيوعية ، تحت غطاء حلقة تربية شعبية ، اسمها **الجمعية العامة ــ العلنية للعمال الالمان من اجل نشر العلم** (١٤) . ماركس كان آنذاك على صلات مع الفرع

---

١٣ ــ انظر آرشيف ــ الدولة النمسوية ، فينا ، وثائق مكتب استعلامات ماينتس ، تقرير عميل الى مترنيخ ، ١٨ـ١٠ـ١٨٤٢ : «بروكسل هي المركز الرئيسي للتحركات الثورية ، اذ هم يتمتعون فيها بحرية كاملة» .

ان اهمية الدور الثوري لهؤلاء اللاجئين تبرز بشكل خاص من تقارير عملاء مترنيخ (انظر آرشيف ــ الدولة النمسوية ، وثائق مكتب استعلامات ماينتس) ، وموضوعها الوحيد تقريبا هو الاعمال الثورية للاجئين البولونيين والطليان الآتين من أقاليم بولونية وايطالية تحتلها آنذاك النمسا ، بينما لا يكاد يكون فيها ذكر للتحريض الثوري في فرنسا وألمانيا وبلجيكا . ب

[مترنيخ او مترنيش **Metternich** كان أشهر أقطاب الحلف المقدس ١٨١٥ ــ ١٨٤٨] .

١٤ ــ انظر **ا.ب. كاندل : ماركس وانجلز ، منظمي رابطة الشيوعيين** ، موسكو ١٩٥٣ . ــ **ا. شرايلر** : رابطة العادلين . نشاطها في لندن (١٨٤٠ ــ ١٨٤٧) ، **آرشيف من اجل التاريخ الاجتماعي** ، هانوفر ، ١٩٦٢ ، جـ٢ ، صص ٥ـ٢٩ . ــ **ا. مولر ــ لهننغ** : الائتلاف الدولي

اللندني **لرابطة العادلين** عن طريق فايتلنغ (١٥) .

كان يبقي ، من جهة اخرى ، صلاته مع **رابطة الشيوعيين** في باريس بواسطة برنيس وإفربك الذي كان رئيسها . لا يبدو انه كان لا يزال له آنذاك علاقات مع باكونين ، الذي كان ماركس قد عاشره في باريس .

كان ايضا على صلة دائمة مع رينانيا بواسطة انجلز وهس ، اللذين كانا يقودان الدعاوة الشيوعية في هذا الاقليم . ولئن كان يشعر نفسه قريبا اكثر فأكثر من انجلز ، الذي كان ، بتحليله لحالة انكلترة ، لا ينفك يغني تصوراته ، فالامر لم يكن كذلك مع هس ، الذي لم يكن، منذ مقاله عن «جوهر المال» ، يخطو اي خطوة على الصعيد الايديولوجي . فرغم جهده لتمثل تصورات ماركس وانجلز اللذين كان معهما على صلة وثيقة جدا (١٦) ، كان ينكشف عن كونه عاجزا عن ان يبيّن ، كما كانا يفعلان ، بتحليل متعمق للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، الروابط التي توحد تطور الرأسمالية والنضال البروليتاري . لذا كان يكتفي بأن يردد في مقالاته ان المعضلة الجوهرية هي تحرير البشر من الانانية المتولدة من منظومة الملكية الخاصة ومن التزاحم كي يمكنهم ان يصيروا بشرا «**حقيين**» وأن يزاولوا حياة تتفق وطبيعتهم الحقيقية .

كذلك كان ماركس باقيا على علاقات في كولن مع جورج يونغ (١٧) ، الذي كان

(١٨٥٥ — ١٨٥٩) . مساهمة في التاريخ التمهيدي للاممية الاولى، **المجلة الدولية التاريخ الاجتماعي** [بالانكليزية] ، ١٩٥٦ ، ص‌ص ١٨٥ وبعدها . — **ا.ف. فهلننغ** : كارل شابر وبدايات الحركة العمالية حتى ثورة ١٨٤٨ . روستوك ، ١٩٢٢ (رسالة مناقشة) . — **كارل غرونبرغ** : برونو هيلدبراندت عن الحلقة الشيوعيــة للتربية الشعبية في لندن ، **ارشيف من اجل تاريخ الاشتراكية وحركة العمال** [بالالمانية] ، ١٩٢٥ ، جـ١١ ، ص‌ص ٤٤٥ — ٤٥٩ .

١٥ — رسائل فايتلنــغ الى ماركس والــى آخريــن في **ا. بارنيكول** : **فايتلنغ السجين و«عدالته»** ، كيل ، ١٩٢٩ ، ص‌ص ٢٧١—٢٧٤ .

فايتلنغ الى ماركس وانجلز وهس (لندن ٢٢ (و ٢٧) ايلول ١٨٤٥) — مؤرخة في الاصل سهوا : ١٨٤٤ — . انظر **ف. مونكه : مصادر جديدة عن هس** ، برلين ١٩٦٤ ، ص‌ص ١٠٨ وبعدها .

١٦ — رسالة هس الــى ماركس (كولن ، ١٧—١—١٨٤٥) ، انظر **هس : مراسلات** ، ١٩٥٩ ، ص‌ص ١٠٥ — ١٠٨ .

١٧ — رسالة **ج. يونغ الى ماركس** (كولن ، حوالي ١٨ آذار ١٨٤٥) : «يجب ان تصبح الان لكل المانيا ما أنت لاصدقائك . بأسلوبك اللامع ، بوضوح عروضك وإحكامها وموافقتها ، عليك ان تفرض نفسك هنا وستفرض نفسك وستصير عما قريب نجما ساطعا» . الاصل في معهد موسكو . I ٥ ، رقم ٦٣ .

يقدر ماركس اعلى تقدير ، مع الطبيب رولان دانيلس (١٨) ، الذي كان ماركس قد كسبه للشيوعية في باريس ، وأيضا على الارجح مع كارل دِستر الذي كان يتجه بعزم وتصميم نحو الشيوعية . بالمقابل كان يبتعد اكثر فأكثر عن كارل غرون ، الذي كانت فرازيولوجيته العاطفية تظهـــر لماركس وخيمة الاثر بالنسبـــة للنضال البروليتاري .

مع سويسرة ، التي كانت قد اصبحت ، بفضل فايتلنغ ، مركـــزا كبيرا للتحريض الشيوعي ، لم يعقد ماركس صلات او تقريبا . بعد طرد فايتلنغ ، كان الشيوعيون الالمان في سويسرة قد اضطجعوا نهائيـــا في الطوباوية تحت تأثير ا. بيكر ، وبعد ذهاب هذا الاخير كان تنظيمهم قد انحلّ عمليا .

في بروكسل ، ماركس ارتبط في البداية مع بعض البلجيكيين ، لاسيما مع فيليب جيغو Philippe Gigot ، احد أنشط قادة المنظمة الديمقراطية ، ولكن خصوصا مع اللاجئين السياسيين الالمان ، الذين ، وقد استفادوا مثل ماركس من كون بلجيكا تترك حرية اكبر مما تتيحه بلدان أخرى ، كانوا يشكلون ، كما فـــي باريس ، مع الحِرفيين الالمان ، جالية كبيرة مفتوحة للافكار المتقدمة (١٩) .

عاشر بادىء بدء كارل ماينتس ، هاينريش برجرس ، وفرديناند فرايليغرات.

المحامي كارل ماينتس **Maynz** (١٨١٢ — ١٨٨٢) كان قد انشغل كثـــيرا منذ وصول ماركس الى بروكسل بمساعدته على نيل رخصة اقامة في بلجيكا . وعلى الارجح بواسطته دخل ماركس في علاقة مع الاعضاء القياديين فـــي **الجمعية الديمقراطية البلجيكية** ، لاسيما مع المحامي لوسيان جوتران وفيليب جيغو (٢٠). كان يعرف هاينريش برجرس Buergers منذ **الصحيفة الراينية** وكان قد عاشره في باريس حيث جاء برجرس مع كارل غرون في نوفمبر ١٨٤٤ . وتحت تأثيره كان برجرس قد صار شيوعيا (٢١) .

---

١٨ — رولان دانيلس Daniels (١٨١٩ — ١٨٥٥) كان طبيبا في كولن . كان بالنسبـــة لماركس وانجلز حليفا أمينا في ريتانيا ، صار فيما بعد عضوا في رابطة الشيوعيين ، وفي ١٨٥٠ عضوا في اللجنة المركزية الشيوعية في كولن . عن ر. دانيلس ، انظـــر **ج. باغاتوريا : ماركس وانجلز والثوريون البروليتاريون الاوائل** (بالروسية) ، موسكو ، ١٩٦١ ، ص‌ص ١٩٦ — ٢٤٤ .

١٩ — انظر **جوليان كويبرس** : حلقة اصدقـــاء كارل ماركس البلجيكيين (١٨٤٥ — ١٨٤٨) ، ملحوظات مأخوذة من الارشيف البلجيكي ، **المجلة الدولية للتاريخ الاجتماعي** [بالانكليزية] ، ١٩٦٢ ، ص‌ص ٤٤٦ — ٤٥٨ . انظر **ينّي ماركس : لمحة مقتضبة عن حياة مضطربة** ، مرجـــع مذكور سابقا ، ص‌ص ٢٠٦ وبعدها .

٢٠ — عن **الائتلاف الديمقراطي البلجيكي** ، انظر الفصل الاول من هذا المجلد .

كان يعرف هاينريش برجرس **Buergers** منذ **الصحيفة الراينية** وكان قد عاشره في باريس حيث جاء برجرس مع كارل غرون في نوفمبر ١٨٤٤ . وتحت

٢١ — هاينريش برجرس (١٨٢٠ — ١٨٧٨) . بعد دراسة الفيلولوجيا في جامعة بون (١٨٣٨ —

تقريبا عقب وصوله الى بروكسل مباشرة ، ذهب يرى الشاعر فرديناند فرايليغرات Freiligrath (٢٢) . بعد ان صار حوالي ١٨٤٠ ، بقصائده **أغنيات غريبة** ، الشاعر الاكثر شهرة في المانيا مع هرفغ ، كان فرايليغرات قد وقف ، بعكس هذا الاخير ، على جانب النضالات السياسية ، التي كان يدينها . واذ نال معاشا قدره ثلاثمئة ثالر من الملك فريدريك غليوم الرابع ، فقد فضح من قبل **الصحيفة الراينية** كعدو للحرية . ثم ، قبل قليل ، انتقل الى المعارضة بعد منع **خيالاته الوطنية** التي نشرها في ١٨٤٤ تحت عنوان **فعل ايمان** ، معلنا في المقدمة انه يتخلى عن معاشه . هربا من الملاحقات ، كان قد التجأ الى بروكسل ، حيث ارتبط مع ماركس ، وكان يجد فيه رجلا جديرا بالاهتمام ، لطيفا ، وبسيطا . تحت تأثيره انتقل من الديمقراطوية الى الشيوعية (٢٣) .

في بروكسل ، ماركس عاشر ايضا سيباستيان زايلر Sebastian Seiler الذي كان قادما من سويسرة ، حيث كان قد شارك بنشاط في التحريض الشيوعي . زايلر كان يقود في بروكسل **مكتب مراسلة** يقدم للجرائد الالمانية أنباء من فرنسا والمانيا وبلجيكا ، يعطيها قدر الامكان صبغة اشتراكية (٢٤) .

١٨٤١) ، برجرس كان قد ساهم في ١٨٤٢ في **الصحيفة الراينية** . طرد من باريس في ١٨٤٤ بسبب نشاطه السياسي ، جاء مع ماركس الى بروكسل ، حيث سيشارك في التحريض الشيوعي. دخل فيما بعد رابطة الشيوعيين ، صار عضوا في لجنة تحرير **الصحيفة الراينية الجديدة** ، وكان احد المتهمين الرئيسيين في المحاكمة الشيوعية في كولن .

٢٢ – انظر **هـ. برجرس** : ذكريات عن فرديناند فريليغرات ، **صحيفة فوس** ، برلين ، ملحق الاحد ، ٣–١٢–١٨٧٦ : «بعد ان أمضينا ليلة في بروكسل ، كان احد اول الاشياء التي قالها ماركس لي في الصباح : يجب ان نذهب اليوم الى فرايليغرات ، انه هنا ، وعليّ ان أصلح الاجحاف الذي الحق به في **الصحيفة الراينية** عندما لم يكن «وراء متاريس الحزب». **شهادة ايمانه** محت كل شيء .» . انظر **ك. ماركس ، سيرة حياته** ، مرجع مذكور ، ص ٢٧ . انظر **فرانتس مهرنغ:** فريليغرات وماركس في تراسلهما ، ملحق العدد ١٢ من مجلة **نويه تسايت** [الازمنة الجديدة] ، ١٢–٤–١٩١٢ ، ص ٧ .

٢٣ – فرايليغرات لن يمكث طويلا بعد ذلك الحين في بروكسل . فقد غادرها في ١٠ اذار١٨٤٥ الى سويسرة (انظر **ك. ماركس ، سيرة حياته** ، ص ٢٨) . لم يبق الا وقتا قليلا في هذا البلد حيث عاشر روجه وهاينتسن ، بين آخرين . في ١٨٤٦ ، رحل الى لندن كممثل تجاري . اثناء ثورة ١٨٤٨ ، شارك في تحرير **الصحيفة الراينية الجديدة** . وظل مرتبطا مع ماركس ، مساعدا اياه مرارا في وقت الضيق .

٢٤ – سباستيان زايلر (حوالي ١٨١٠ – ١٨٩٠) . كان في البداية خبيرا حسابيا في التأمينات في مدينة لينيتس ، سافر الى سويسرة حيث أصبح شيوعيا . بعد فشل الحركة الشيوعية في سويسرة ، جاء الى بروكسل حيث استمر يشترك بنشاط في التحريض الشيوعي . في ١٨٤٦

ماركس التقى ايضا في بروكسل بـ كارل هاينتسن Heinzen وهرمان كريغه Kriege ، اللذين لن يتبينا ، بعكس برجرس وفريليغراث وزايلر ، من رفاق النضال الجيدين . بعد مساهمته في **الصحيفة العامة بلايبتسيغ** وفي **الصحيفة الراينية** ، كان هاينتسن قد جلد في ١٨٤٤ النظـــام البروسي في كتاب عـــن **البيروقراطية البروسية** ، صودر منذ صدوره . بعد التجائه الى بروكسل فـــي نوفمبر ١٨٤٤ ، كان قد أصدر فيها كراسا هجائيا بعنوان **رسالة مختومة** [بخاتم ملكي = رسالة عسف] هاجم فيه من جديد الادارة البروسية . متوجها صـــوب الاشتراكية ، على الارجح تحت تاثير ماركس ، ساهم في مجلات اشتراكية . ولكن بقدر ما كانت هجماته ضد النظام البروسي قوية ومناسبة كان نقده الاجتماعي ، الذي كان يتحول الى محض صناعة جمل ، عديم الصلابة (٢٥) . وإثر ذهابه في ١٨٤٥ الى سويسرة ، قلب لباسه ، موجها هجماته من الان فصاعدا لا ضـــد الرجعية بل ضد الاشتراكية وبشكل أخص ضد الشيوعية (٢٦) .

في أواخر شباط ، تعرّف ماركس على هرمان كريغ الذي كان قد التجأ الى بروكسل . كريغه ، الذي كان انجلز قد أوصى ماركس به (٢٧) ، كـــان اشتراكيا

ساند ماركس في مجادلته ضد الاشتراكيين **الحقيين** ، شارك في ثورة ١٨٤٨ ، هاجر الى لندن ، حيث انحاز لماركس في كفاحه ضد كتلة فيليش ـ شابر ، ثم ذهب اخيرا الى الولايات المتحدة .

٢٥ ـ انظر **ك. هاينتسن** : كلمة عن المقاومة المسموحة ، في **كتاب المواطن الالماني** ، ١٨٤٥ ، ص‌ص ١ـ٢١ .

ص ٤ : «ما زالوا لا يريدون ان يفهموا او ان يعتبروا ، في المقام العالي ، ان مصالح الشعب يجب ان تكون ايضا هي مصالح الحكومة وان الحكومة مممولة للشعب لا الشعب للحكومة . هـــذا التجاهل الوخيم لحق وشرع الطبيعة هو مردّ كل ويلات التاريخ .»

ص ٦ : «مع ذلك نحن مقتنعون بحزم ان الثورات ، لاسيما الثورات المنظمة او المسهّلة عمدا . . ضارة للحرية بقدر ما هي ضارة لاعدائها» .

ص ٩ : «كيف تجعل الثورة نافلة ؟ هناك في رأينا وسيلة نادرا جدا ما استخدمت في المانيا، ألا وهي **ان نضع سيف الروح في خدمة القوة الاخلاقية** .»

٢٦ ـ انظر **ك. هاينتسن** : ضد الشيوعيين ، في كتاب **المعارضة** الذي أصدره في مانهايـــم عام ١٨٤٦ (ص‌ص ٤٢ وبعدها) .

عن كارل هاينتسن ، انظر **كارل هاينتسن : أشياء عشتها** ، بوسطن ، ١٨٥٦ . ـ **هـ. هوبر** : **كارل هاينتسن ، تطوره السياسي ونشاطه في الادب والصحافة** ، برن ـ لايبتسيغ ، ١٩٣٢ . ـ **س.ف. ويتفه : ضد التيار ، حياة كارل هاينتسن** ، شيكاغو ، ١٩٤٥ .

٢٧ ـ انجلز الـــى ماركس (٢٢ـ٢٦/٢ ، ٧ـ٣ـ١٨٤٥) . **م.ا.م.** ، جـ٢٧ ، ص ١٩ : «حين ستستلم هذه الرسالة ، كريغه سيكون عندك . هذا الشجاع محرض ممتاز . سيروي لـــك اشياء كثيرة عن فويرباخ .»

فويرباخيا ، من طراز كارل غرون . في المقالات التي كان ينشرها في مجـــلات الاشتراكية **الحقة** ، كان يتلذذ مثل ك. غرون في صناعة جمل عاطفية (٢٨) . من بروكسل ، كريغ ذهب في الخريف الى نيويورك ، حيث بجريدته **خطيب الشعب** أساء للطبقة العاملة اكثر مما أفادها .

في بروكسل ، ماركس دخل ايضا في صلات مع لوي هيلبرغ ، المساهم في الجريدة العمالية **المشغل الديمقراطي** ، وريشار ريدل ، و س..ج فوغلر ، صاحب مكتبة ، وكارل فيلر ، عامل طباعة ، والطبيب فريدريش بريتر . ثم انضم الى هؤلاء شقيق ينني ، ادغار فون فستفالن ، وجورج فيرث ، وفلهلم فولف ، بحيث تشكلت حول ماركس وانجلز الذي جاء اليه حلقة متعاظمة من رفاق الكفاح .

في بروكسل ، كان ماركس يعيش مع زوجته وطفلتهما حياة سعيدة وهادئة، يعطينا عنها الشاعر ستيفان بورن Stephan Born ، الذي جاء يزورهم آنذاك ، في **ذكرياته** ، اللوحة الآتية : «من برن ذهبتُ الى بروكسل التي كانت نوعا ما المركز الروحي للائتلاف الشيوعي . هنا كان يعيش ماركس . كنت توّاقا لمعرفته. وجدته في منزل صغير جد متواضع ، بل اقول فقير الاثاث . استقبلني بودّ ، استجوبني حول نجاح دعايتي ، وهنأني على على كرّاستـــــي ضد هاينتسن ، وشاركته في هذا المديح زوجته التي رحبت بي . كما فعلت طوال حياتها ، كانت تأخذ على قلبها كل هذا الذي كان يؤلف موضوع اهتمامـــات وانشغالات زوجها . اهتمت ايضا بي ، فقد كانت تعتبرني مريدا لزوجها ، يمكن الاعتماد عليه . ماركس، كما قيل لي فيما بعد ، كان قد تعرّف عليها في حفلة راقصة ، حين كان طالبا في بون . كانت الآنسة فون فستفالن تنتمي الى عائلة نبيلة بروسية ، عرفت بعـض تقلبات الحظ . كان ماركس يحبها حبا جامحا وكانت تبادله حبه ... هذا الحب تغلب على كل محن الكفاح المتصل الذي كانت حياتهما . نادرا ما رأيت زواجا بهذه السعادة ، فيه الافراح والاتراح ، (وكفة الاتراح اكثر ثقلا بكثير) كانت مشاطـرة بالتساوي ، وفيه الآلام كانت تغلب في يقين حب كامل ومتبادل . ونادرا ايضا ما

---

٢٨ ــ انظر **هـ. كريغه** : كلمة عن زمننا ، في **باخرة فستفاليا** ، ١٨٤٥ ، ص‌ص ٢٢٥ ــ ٢٢٨ .
ص ٢٢٨ : «هل يجب ان يدوم الى الابد. هذا العصر الكئيب ، عصر الانقسام بين البشر ؟ الاغنياء والفقراء هل سيتعارضون دائما والبشر ألن يتعاطفوا ابدا ؟ أرضنا الجميلة هل ستكون دائما وادي دموع لن يخرج احد منه الا بهروب في سماء وهمية ؟ الفقير هل سيكون عليه دائما ان يبني البيوت التي يسكنها الغني ، ان يغزل الصوف للالبسة التي يرتديها الغني ، ان يزرع التربة التي لا يفيد منها الا الغني ؟ أيجب ان يملك الغني دائما الارض بأسرها ، ان يذوق كل الافراح وكل المتع، بينما لا يكون للفقير سوى سمائه وعرقه وصلواته ؟ لا ، حقا لا . هذا لا يمكن ان يدوم الى الابد . قريبا سنرى الاغنياء والفقراء يتأنسنون ، وفي الجماعة الانسانية الحرة لن يحكم الا حب واحد ولن تهيمن الا مصلحة وحيدة من اجل سعادة الجميع وكل واحدً .»

عرفت امرأة بهذا التناسق في الهيئة والقلب والروح ، امرأة مثل السيدة ماركس، وتجذب بهذا القدر التعاطف من اللقاء الاول . كانت شقراء ، بينما اولادها كانوا قاتمي الشعر والعينين مثل ابيهم . والدة هذا الاخير ، التي كانت تعيش في تريف، كانت ترسل اليهم بعض الاعانات المالية، ولكن قلم الكاتب هو الذي كان عليه ان يحمل العبء الاكبر في الاعالة . ولقد كان ماركس قد تعرّف على بعض رجال السياسة من ذوي الروح الديمقراطي في بروكسل ، ولكن لم تقم بينهم ، وكان معظمهم من الاجانب ، وبينه صلات جد وثيقة ، الامر الذي لم يكن كما يبدو موضع أسف عند ماركس أو زوجته . فالسيدة ماركس كانت غارقة في أفكار زوجها وهموم بيتها ولم يكن عندها شيء مشترك مع ربة البيت الالمانية التي يحد أفقها تسريد الجوارب والنشاط الطبخي» (٢٩) .

أعمال ماركس في بروكسل
« أطروحات عن فويرباخ »

في بداية مكوثه في بروكسل ، بحكم التعهد الذي اتخذه أمام الحكومة البلجيكية ، لم ينشغل بنشاطه الثوري بقدر ما انشغل بدراسات نظرية ، كانت كلها تسير متلاقية على انضاج تصور جديد للعالم مؤسس على المادية الجدلية والتاريخية .

هذه الدراسات كانت بصورة رئيسية تصيب الاقتصاد السياسي ، الذي كان قد بدأ يهتم به في باريس ، بمناسبة نقده المنظومة الرأسمالية في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** . كان مدفوعا نحو هذه الدراسات باقتناعه انه فقط بالتحليل المتعمق لهذه المنظومة يمكن الوصول الى فكرة صحيحة عن وضع البروليتاريا وعن دورها الثوري في تحويل المجتمع . كان ايضا مساقا الى الانكباب على هذه الدراسات وكذلك على دراسات تتصل بالسياسة من قِبل العقد الذي كان وقعه مع الناشر لسكه من دارمشتادت في اول شباط ١٨٤٥ ، عشية رحيله الى بروكسل ، بخصوص مؤلف في مجلدين ، بعنوان **نقد السياسة والاقتصاد السياسي** ، كان مقررا صدوره خلال صيف ١٨٤٥ (٣٠) .

---

٢٩ ـ انظر **ستيفان بورن : ذكريات احد رجال ١٨٤٨** ، لايبتسيغ ١٨٩٨ ، ص‌ص ٦٧ وبعدها.

٣٠ ـ يتبين من دفاتر خلاصات القراءات التي قام بها ماركس من شباط الى حزيران ١٨٤٥ ، اي حتى لحظة ذهابه الى انكلترة بصحبة انجلز ، انه قرأ المؤلفات التالية التي تعالج الاقتصاد السياسي والمسائل الاجتماعية والسياسية : انظر **ميغا** (MEGA = ماركس ـ انجلز ـ الاعمال الكاملة) ، I ، جـ٦ ، ص‌ص ٥٩٧ وبعدها . ـ وليم سنيور **ناسو** : المبادىء الاساسية في

ولا شك انه بصدد هذا الكتاب رسم مخططا بإحدى عشرة نقطة عن نقد المنظومة التمثيلية . ان ما يميز الدولة البرجوازية الحديثة هو انها تكوّنت بمعارضـــــة

الاقتصاد السياسي ، مأخوذة من دروس صدرت ولم تصدر على يد الكونت جان أبريفابينه ، باريس ١٨٣٦ . — هنري ستوريش : دروس الاقتصاد السياسي او عرض المبادىء التي تحدد ازدهار الامم، مع ملاحظات شارحة وناقدة بقلـــم **ج.ب. سه J.B. Say** ، باريس ١٨٢٣ ، جـ١ـ٣ . — كونت جوزيف **بكيو** : تاريخ الاقتصاد السياسي في ايطاليا او موجز نقدي للاقتصاديين الطليان ، مـــع مدخل، ترجمه عن الايطالية السيد ليونار غالوا، باريس ١٨٣٠ . — **ماك كولوتش J.R. Mac Culloch** خطاب عن أصل الاقتصاد السياسي وتقدمه وموضوعاته الخاصة وأهميته ، ترجمه عن الانكليزيـــة ج. بريفوست ، جنيف — باريس ١٨٢٥ . — شارل **غانيل** : عن منظومات الاقتصـــاد السياسي ، محاذيرها ، فوائدها ، والمذهب الاصلح لتقدم ثروة الامم ، باريس ١٨٤٢ ، مجلدان . — أدولـــف جيروم **بلانكي** : تاريخ الاقتصاد السياسي ، دروس الاقتصاد السياسي ، بروكسل ١٨٤٣ . — اميل **جيراردين** : الآلات . — شارل بابج : بحث في اقتصاد الالات والمانيفاكتورات ، ترجمة بيو ، لندن ١٨٣٣ . — اندرو **اور** : فلسفة المانيفاكتورات او الاقتصاد الصناعي لفبركة القطن والصوف والكتان والحرير مع وصف مختلف الآلات المستعملة في المعامل الانكليزية ، ترجمة مع اضافة فصل جديد عن الصناعة ، بروكسل ١٨٣٦ ، مجلدان . — جاكوب **بيرير** : دروس عن الصناعة والمالية ، ألقيت فـــي قاعة الآثينه ، يتبع مشروع بنك . باريس ١٨٣٢ . — بلغرينو **روسي** : دروس الاقتصاد السياسي ، بروكسل ١٨٤٢ . — جان شارل ليوناد **سيسموند دو سيسموندي** : دراسات عن الاقتصاد السياسي، بروكسل ١٨٣٧ ، مجلدان . — رامون دو **لا ساغرا** : عن الصناعة القطنية والعمال في كاتالونيا ، في **جريدة الاقتصاديين** ، باريس ١٨٤٢ ، جـ٢ . — آ. **مورو دو جونيس** : لمحات احصائية عن الحياة المدنية والاقتصاد الاهلي للرومان في بداية القرن الرابع م. ، فـــي **جريدة الاقتصاديين** ، باريس ١٨٤٢ ، جـ٣ . — لوي فرانسوا برنار **تريون** : محاولات عن تجاوزات المضاربة ، ووسائل تداركها ، ومبادىء الصدق التجاري ، بروكسل ١٨٤٤ . — فرانسوا لوي اوغست **فرييه** : عن الحكومة منظورا اليها في علاقاتها مع التجارة ، باريس ١٨٠٥ . — الكسندر دو **لابورد** : عن روح الائتلاف في كـــل مصالح الجماعة او محاولة في تكملة الرفاه والثراء في فرنسا بتكملة المؤسسات ، باريس ١٨١٨ . — تيودور **فيكس** : عن الروح التقدمية والروح المحافظة في الاقتصاد السياسي ، فـــي **جريدة الاقتصاديين** ، باريس ١٨٤٢ ، جـ٢ . — **ف. فيلغارديل** : تاريخ الافكار الاجتماعية قبل الثـــورة الفرنسية ، او الاشتراكيون الحديثون سبقهم وتجاوزهم المفكرون والفلاسفة السابقون مع نصوص شاهدة ، باريس ١٨٤٦ . — آلبان دو **فيلنوف — بارجمون** : الاقتصاد السياسي المسيحـــي ، او بحوث عن طبيعة وأسباب الفقر في فرنسا وأوروبا وعن وسائل علاجه وتداركه . بروكسل ١٨٣٧ . — س.ج. دو **شامبوران** : عن الفقر ، ما كان في العصر القديم Antiquite **وما هو في ايامنا**، باريس ١٨٤٢ . — اوجين **بوريه Buret** : عن بؤس الطبقات الكادحة في انكلترة وفي فرنسا، دروس في الاقتصاد السياسي ، بروكسل ١٨٤٣ . — **لوي سه Louis Say** (من مدينة نانت): الاسباب الرئيسية لثراء وبؤس الشعوب والافراد ، باريس ١٨١٨ .

[بمقابلة] المجتمع البرجوازي . مؤسسات الدولة ، المعزولة عن المجتمع ، اتخذت طابعا مطلقا . نتج عن ذلك انشطار للحياة العامة الى حياة اجتماعية وحياة سياسية تتركز في الدولة . نظرا للدور المتعاظم الذي تلعبه البرجوازية في الشؤون العامة، النظام الذي يميز الدولة في الازمنة الراهنة هو النظام التمثيلي . الحقوق الاساسية ، التي هي في قاعدة هذا النظام ، هي الحرية والمساواة . هذه الحقوق، التي لها في الظاهر طابع مطلق ، ما هي واقعيا ، في النظام التمثيلي ، سوى حرية الاثراء المعطاة للجميع والمساواة المعطاة لكل واحد في ممارسة هذا الحق .

السمات الاخرى المميزة للنظام التمثيلي هي التمثيل الشعبي عن طريق الانتخابات والانفصال بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية والسلطة القضائية. بالحقيقة هذا الانفصال نظري محض ووهمي ، فهذه السلطات الثلاث تمارسها الدولة التي تضعها في خدمة البرجوازية . هذا النظام التمثيلي ، البرجوازي ، ماركس يعارضه بالنظام الديمقراطي الذي لن يقام الا بثورة شيوعية (٣١) .

انجلز ، الذي كان يحمّل المؤلف الذي يعتزمه ماركس عن **الاقتصاد السياسي والسياسة** قيمة كبيرة جدا نظرية ودعائية في آن ، كان يلح عليه في رسائله لانجازه في أقرب وقت (٣٢) . ولكن بما انه كان في طبيعة ماركس ان لا ينشر شيئا ليس راضيا عنه تماما ، فقد أرجيء انجاز هذا المؤلف على الدوام بحيث ظل في حالة مخطوط .

على اساس هذه الدراسات ، التي كانت جميعها تسهم في توسيع وتعميق تصوره الجديد المادي عن العالم ، كتب ماركس **أطروحاته عن فويرباخ** التي تؤلف اسهاما جوهريا في انضاج هذا التصور . حُررت نحو آذار / مارس ١٨٤٥ ، اي تقريبا في الوقت الذي كان فيه انجلز ينجز كتابه عن **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** . ولم تُنشر الا في ١٨٨٨ من قِبل انجلز ، الذي كان قد اكتشفها لتوّه في دفتر ملاحظات لماركس ، تحت عنوان **ماركس في موضوع فويرباخ** ، كملحق لطبعة جديدة من كتابه عن **فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** (٣٣) .

---

٣١ ـ انظر **ميغا** I ، جـ٦ ، ص ٥٣٧ : **المجتمع البرجوازي والثورة الشيوعية** .

٣٢ ـ انظر انجلز الى ماركس في باريس (بارمن ، ٢٠ـ١ـ١٨٤٥) ، **م.أ.م.** ، جـ٢٧ ، ص١٦ : «اعمل بحيث تنجز كتابك عن الاقتصاد السياسي حتى وان لم تكن راضيا تماما عنه . هذا امر ثانوي ، الاذهان ناضجة ، وعلينا ان نضرب الحديد وهو حام ... لذا أكمله **قبل** نيسان ... واسهر على ان يُطبع قريبا» .

٣٣ ـ النص نشر في **ميغا** I ، جـ٥ ، ص‌ص ٥٣٣ ـ ٥٣٥ . النص الاصلي وكذلك النص كما عدله انجلز صدرا في **م.أ.م.** ، جـ٣ ، ص‌ص ٥ـ٧ . النص مترجما الى الفرنسية منشور في كارل **ماركس** وفريدريك **انجلز : الايديولوجيا الالمانية** ، باريس ، المطبوعات الاجتماعية ، ١٩٦٨ ، ص‌ص ٣١ـ٣٤ . [نص الاطروحات نشر بالعربية في مؤلفات ومختارات عديدة لماركس وانجلز] .

كان انجلز يثمنها كثيرا بوصفها اول تعبير عن المبادىء الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية . على حد قوله ، «انها محض ملحوظات يُنظر فيها ثانية ، أُلقيت على عجل على الورق ، ولا يُراد لها بتاتا ان تُنشر . بيد ان لها مع ذلك قيمة لا تثمن باعتبارها اول وثيقة تعرض الخط العبقري للتصور الجديد عن العالم (٣٤) . »

الاطروحات عن فويرباخ ، التي لا تتصل الا بعدد من مسائل نابعة من التحليل النقدي الذي يجريه ماركس لفلسفة فويرباخ ، لا تؤلف ، في شكلها الأفوريستي [حِكَم مقتضبة] ، عرضا كامل التلاحم وتاما للمادية الجدلية والتاريخية . انها تعبير بسط وتعميق النتائج الجوهرية التي كان ماركس قد وصل اليها في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** وفي **العائلة المقدسة** ، حيث كان بدأ ينضج مبادىء تصوره المادي الجديد للعالم ، وهي تشكل نوعا ما خط الوصل بين هذين المؤلفين و**الايديولوجيا الالمانية** .

بعد نقد فلسفة هيغل المثالية في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** وفلسفة ب. باور في **العائلة المقدسة** ، كان ماركس يتعرض في هذه **الاطروحات** للطابع نصف ــ الميتافيزي لمادية فويرباخ . كما كان في **المخطوطات** وفي **العائلة المقدسة** بدأ يقيم السمات الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، ان صح القول كلحن ــ معارض للفلسفة النظرانية ، كان يوضح في هذه **الاطروحات** المبادىء العامة لهذه المادية بمعارضة مادية فويرباخ .

السبب العميق لهذا الرفض لفلسفة فويرباخ ، لماديته شبه الميتافيزية ولإنسانويته ، هو ان فويرباخ لا يستطيع ، بوصفه مفكرا برجوازيا ، متمسكا بإبقاء الملكية الخاصة ، ان يصل الى نظرية ثورية متلائمة مع كفاح البروليتاريا الطبقي . رغم ان نظريته تمثل أعلى درجة يستطيع بلوغها الفكر البرجوازي ، فويرباخ يتوقف ، بحكم موقعه الطبقي ، عند مادية تسوقه بالضرورة ، بما انها غير جدلية و لاتاريخية ، الى أعطاء المشكلات الاجتماعية حلا طوباويا ومثاليا (٣٥) . فويرباخ نفسه يعترف بحدود وعيوب فلسفته ، مدركا انها لا تعطي حلا واقعيا للمعضلة الاجتماعية ، ولكنه عاجز عن تخطي هذه الحدود والعيوب (٣٦) .

---

٣٤ ــ انظر ف. انجلز : **فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية** ، م.ا.م. ، جـ٢١ ، ص ٢٦٤ .

٣٥ ــ عن السمات العامة لفلسفة فويرباخ ، انظر المجلد الثالث من هذا المؤلف ، [الفصل الثاني، الفقرة : نقد فويرباخ وهيغل] .

٣٦ ــ في مقدمة الطبعة العامة لمؤلفاته (**الاعمال الكاملة** ، لايبتسيغ ، ١٨٤٦ ، جـ١ ، ص ١٥ من المقدمة) ، يقول فويرباخ : «الموضوع الذي تعالج لا يخص سوى الرأس والقلب . والحال ان الداء الحقيقي الذي تعانيه البشرية ليس مكانه في رأس وقلب بل في معدة البشر .... بعضهم عندهم كل ما تشتهيه معدتهم ، بينما الآخرون ليس عندهم شيء يأكلونه . من هنا تأتي كل شرور البشرية،

مع سير توجه ماركس نحو النظريات الديمقراطية الثورية اولا ، ثم نحــو الشيوعية ، كان لا بد له ان ينفصل اكثر فأكثر عن فلسفة فويرباخ التي لا يمكن ان تخدم كأساس لعمل ثوري .

منذ ١٨٤٣ ، في الوقت الذي كان فيه يضطلع بنقد **فلسفة الحــق** لهيغل ، مرتكزا على نظرية الانخلاع الفويرباخية ، كان يأخذ على فويرباخ ، في رسالة الى روجه بتاريخ ١٣–٣–١٨٤٣ ، كونه لا يعتبر سوى الطبيعة ويهمل السياسة ، اي مجموع المعضلات السياسية والاجتماعية (٣٧) .

هذا التباعد عن فويرباخ كان له ان يتخذ شكل تعارض متزايد الجذرية فــي **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** وفي **العائلة المقدسة** ، حيث يبدأ انضاج مبادىء المادية الجدلية والتاريخيـــة . بينما في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** لم يكن ماركس نفسه يدرك كل اتساع وكل مدى هذا التعارض – ففي رسالة الى فويرباخ في آب ١٨٤٤ مجَّده كمؤسس العلم الاجتماعي الحق (٣٨) – ، كان يرفض بشكل اكثر وعيا وتعمدا في **العائلة المقدسة** ، حيث يشرع يحلل مــن وجهة نظر المادية التاريخية بعض المعضلات الفلسفية والسياسيـــة والاجتماعية ، إنسية فويرباخ ، غير تارك نفسه او تقريبا بعد الان يُقاد في تحليلاته وتصوراتــه بمفهوم الانخلاع ، مقيما بالتدريج محل هذا المفهوم مفهوم **البراكسيس** .

التعارض الجذري الذي كان يفصل تصوراته عن تصورات فويرباخ كان له ان يتجلى مليا في **أطروحات** « **عن فويرباخ** . بعد الانتقادات المنفردة لفويرباخ ، التي كانت تشتد بقدر ما كان ماركس يعتنق الشيوعية والتي في مسيرتها كان الفرق الذي يفصله عن فويرباخ يتحول تدريجيا الى تعارض متزايد الحدّة ، كان ماركس يكب في هذه **الاطروحات** على انشاء نقد أساسي للمبادىء العامة لفلسفة فويرباخ.

لم يكن نقده ، عدا ذلك ، يتخذ الطابع اللاذع الذي كان يرتديه ازاء ب. باور، الذي كان ماركس يعتبره مناصرا للرجعية ، بينما كان فويرباخ يبقى في نظره مفكرا تقدميــا .

يشتق كل نقده لفويرباخ من واقع ان هذا الاخير لم يدرك الاهمية الرئيسيــة **للبراكسيس** في تطور الحياة الاجتماعية والتاريخ .

لانه نفض يده من البراكسيس ولم يفهم اهمية دورها لم يستطع فويرباخ بلوغ تصور صحيح للطبيعة والفــــرد والمجتمع وبالتالـــي للمعضلات الاجتماعيـــة

حتى الشرور التي تعذب الرأس والقلب . لذا فان كل ما لا يتصل بالمعرفة والغاء هذا الشر الاساسي ليس سوى حشو وركام والى هذا الحشو والركام تنتسب جميع المؤلفات بلا استثناء .»

٣٧ – انظر **م.ا.م.** ، ج٢٧ ، ص ٤١٧ .

٣٨ – انظر **فويرباخ : المراسلات** ، منشورة من قِبل **ف. شوفنهاور** ، لايبتسيغ ، ١٩٦٣ ، ريكلام ، المجلد ١٠٥ ، صص ١٨٣ وبعدها .

والايديولوجية . من هنا عيوب ونقائص ماديته .

بعكس المثاليين ، فويرباخ يعتبر الواقع الحسي ، الكائن العياني ، متمايزين عن الروح ، ويذهب في اعتباراته من الطبيعة المحسوسة ومن الانسان العياني اللذين يؤسس عليهما تصوره المادي للعالم . ولكن ، بما انه لا يتصور مفهوميا الواقع الحسي الا في شكل موضوع وليس في شكل ذات ، كفاعلية انتاجية ، مادية ، للانسان (٣٩) ، فانه مساق الى تصور خاطىء للطبيعة وللعلاقات بينها وبين الانسان .

متجاهلا دور البراكسيس ، فويرباخ لا يستطيع ، بالفعل ، ان يتصور الطبيعة الا في شكلها البدائي كموضوع تأمل لا كموضوع فعل . بالواقع ، ان الطبيعة هي ، بالنسبة للانسان ، كما كان ماركس قد بيَّن في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، جوهريا موضوع فاعليته المنتجة التي تمكنه من تحويلها لتكييفها مع حاجاته . وهكذا فهي أقل فأقل بالنسبة له ما تبقى بالنسبة للحيوان، الطبيعة البدائية ، كما كانت تحضر له أصلا ، عالم مستقل يوفر له عناصر بقائه . بالعكس تصير بالنسبة له ، بقدر متزايد على الدوام ، نتاج فاعليته ، ميدانا يحوله على نحو اكثر فأكثر عمقا بشغله . وهو يعدل نفسه مع سير تحويله الطبيعة ، وهذا التحويل المزدوج والمتوافق للطبيعة والانسان هو ما يكوّن التاريخ الانساني .

ان انكار دور البراكسيس وتقليص العلاقات بين الانسان والطبيعة الى موقف تأملي يقودان ايضا فويرباخ الى ان يرى في الفاعلية النظرية للانسان نمط الفاعلية الموافق لطبيعته الحقة ، والى ان يعتبر ، بالمقارنة معها ، فاعليته العملية ، المنتجة، سلوكا من نوعية واطئة (٤٠) .

بالتعارض مع هذه المادية ، تشدد المثالية على الاهمية الاولية للفاعلية الانسانية،

---

٣٩ ــ انظر **ك. ماركس و ف. انجلز : الايديولوجيا الالمانية** ، مرجع مذكور ، ص ٣١ . **الاطروحات عن فويرباخ** ، الاطروحة الاولى : «ان العيب الرئيسي في المادية السابقة ــ بما فيها مادية فويرباخ ــ هي انها لا تتصور الموضوع ، الواقع ، العالم المحسوس ، الا تحت شكل **الموضوع** بكيفية تأملية وليس بشكل ذاتي . **كفاعلية عيانية للانسان ، كبراكسيس** ...

فويرباخ يريد موضوعات عيانية ، متميزة فعلا عن موضوعات الفكر ، ولكنه لا يعتبر الفاعلية الانسانية ذاتها كفاعلية **موضوعية** .»

٤٠ ــ انظر **المرجع نفسه** ، ص ٣١ ، الاطروحة الاولى : «لذا ، **في جوهر المسيحية** ، يؤيد فويرباخ ان الفاعلية النظرية وحدها تستجيب لطبيعة الانسان الحقة ، ولا يعتبر الفاعلية العملية الا في شكلها الخسيس الذي ترتديه عند اليهود ويقلصها الى هذا الشكل .»

عن تصوّر الفاعلية العملية عند فويرباخ ، انظر **جوهر المسيحية** ، لايبتسيغ ١٨٤١ ، ص٢٦٤ : «التأمل الذي له كموضوع العمل [الممارسة ، النشاط العملي ، la Pratique] هو شكل من التأمل واطىء ومبتذل ملوّث بالانانية .» . [تأمل = Contenplation] .

ولكن بما انها تُروجِنها بتقليصها الى فاعلية الروح ، فانها تنتهي هي ايضا الى تصور ميتافيزي للعالم (٤١) .

لما كان ماركس قد نقد لتوّه بكيفية مفصلة ومتعمقة المثالية في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** وفي **العائلة المقدسة** ، فانه يقتصر ، في الاطروحات الاخرى ، على نقد مادية فويرباخ .

من التنكر لدور البراكسيس ينبع عند فويرباخ ، مع تصوره المغلوط للعلاقات بين الانسان والطبيعة ، تصوره المغلوط للفرد والمجتمع وعلاقاتهما .

معلقا أهمية أولية غالبة على علاقات الانسان مع الطبيعة ، العلاقات التي يعيدها الى الموقف التأملي الذي يتخذه ازاءها ، فويرباخ مُساق الى اعتبار الفرد لا في علاقاته الاجتماعية التي يؤلف مجموعها كينونته الحقيقية ، بل في علاقاته الطبيعية مع البشر الآخرين . من هنا تصوره لا الاجتماعي بل الانتروبولوجي للفرد ، الذي يصير عنده كائنا غير متميز اجتماعيا ، مفهوما في عموميته وبذلك عينه تجريدا .

كذلك الامر بالنسبة للمجتمع ، الذي يعتبره ايضا لا من وجهة النظر الاقتصادية والاجتماعية ، بل من وجهة النظر الانتروبولوجية [الإنسانولوجية] ، بوصفه مجمل العلاقات الطبيعية التي تربط البشر فيما بينهم ، والذي يقلصه الى جماعة طبيعية ، الى اشتراك طبيعي ، الى النوع الانساني (٤٢) .

بحكم هذا التصور غير التاريخي وغير الجدلي للطبيعة والفرد والمجتمع ، لعلاقات الفرد مع الطبيعة ومع البشر الآخرين ، فويرباخ ينتهي ، رغم نضاله ضد المثالية وتأكيده أوّلية الانسان العياني والطبيعة المحسوسة ، الى مادية ميكانيكية تحتفظ بطابع ميتافيزي ، الامر الذي يجعله عاجزا عن بلوغ تصور صحيح للمسائل الاجتماعية والايديولوجية وعن اعطائها حلا صحيحا .

---

٤١ ــ **المرجع نفسه** ، ص ٣١ ، الاطروحة الاولى : «لذا فان الوجه **الفاعل** (في سلوك الانسان) قد أبرزته ، في معارضة المادية ، المثالية ، ولكن فقط بكيفية مجردة ، لانها لا تستطيع بالطبع الا ان تجهل الفاعلية الواقعية ، العيانية ، معتبرة بوصفها كذلك .»

٤٢ ــ **المرجع نفسه** ، ص ٣٣ ، الاطروحة ٦ :

«ان جوهر الانسان ليس تجريدا يلازم الفرد المعزول . انه في الواقع مجموع العلاقات الاجتماعية .

بما ان فويرباخ لا يقوم بنقد هذا الكائن الواقعي ، فانه مضطر :

١ ــ ان يطرح تجريديا [ان يُغفِل] سير التاريخ ... وأن يضع مسلمة وجود فرد انساني مجرد ، معزول .

٢ ــ ان يعتبر بالتالي الكينونة الانسانية [الكائن الانساني] فقط تحت شكل **النوع الانساني** ، اي في شكل عمومية مجردة مشتركة لجميع البشر ، تخدم كرابطة طبيعية بين الافراد .»

المعضلة الاجتماعية الوحيدة التي يعالجها فعلا هي المعضلة الدينية ، التي يعتبرها اساسية ، اذ على حلها يتوقف ، حسب تقديره ، تحرر البشرية . بما انه لا يرى الاسباب الاجتماعية للدين ، فهو يعالج المشكلة الدينية ، كما يعالج مشكلة الفرد والمجتمع ، من وجهة النظر الانتروبولوجية .

فهو يعتبر ان السبب الجوهري للدين هو التعارض الذي يقوم بين الفرد والنوع ، التعارض الذي يمنع الفرد من ان يعيش حياة نوعية ـ عامة générique تتفق وجوهره الانساني والذي يسوقه الى ان ينقل الى الله وان يضع فيه ، اي في كائن خارق فوق ـ الطبيعة ووهمي ، الصفات الخاصة بالنوع الانساني الخاص ، كي يعيش فيه وفي مملكته ، السماء ، حياة تستجيب لطبيعته الحقة . من خلع صفات الانسان النوعية ـ العامة في الله ينتج انشطار العالم الى عالم واقعي ، ارضي ، يتخذ طابعا لاإنسانيا ، من جراء ان الانسان فيه محروم من الصفات الخاصة بالنوع الانساني ، وعالم سماوي ، فيه يجد الانسان من جديد ، ولكن بطريقة وهمية ، صفاته النوعية ـ العامة (٤٣) .

التصور نصف ـ الميتافيزي الذي يحمله فويرباخ عن المعضلة الدينية يستجيب له الحل الذي يعطيه عنها . فهو يعيد هذا الحل الى مشكلة وعي . من اجل الغاء الدين ومعه نزع انسانية الناس الناجم عن انخلاع صفات النوع الانساني في الله، يكفي ، على حد تفكيره ، اعطاء البشر وعي الطابع الوهمي للدين والله ، وهذه قضية تربية وتعليم .

رافضا هذا التصور للمعضلة الدينية ولحلها ، ماركس يشدد على ان الدين له اسبابه الواقعية في طبيعة العلاقات الاجتماعية ولا يمكن ان يُلغى الا بتحويل جذري لهذه العلاقات (٤٤) .

النفس الدينية ، مع الصوفية والاوهام الخاصة بها ، ينجبها الانشطار والتمزق اللذان يسببهما التعارض الذي يقوم ، في شروط تاريخية محددة ، بين

---

٤٣ ـ **م.ن** ، ص ٣٢ ، الاطروحة ٤ : «فويرباخ يذهب من واقع ان الدين يجعل الانسان غريبا عن نفسه ويشطر العالم الى عالم ديني وعالم زمني [دُنيوي] . عمله قوامه الغاء العالم الديني بارجاعه الى قاعدته الزمنية . لا يرى ان العمل الرئيسي ، بعد ان تحقق هذا العمل ، ما زال ينتظر تحقيقه (هذه الجملة اضافها انجلز) . فواقع ان القاعدة الزمنية للدين تنفصل عن نفسها وتتثبت في الغيوم مكوّنة فيها مملكة مستقلة ، لا يمكن ان يعلل الا بالتناقض الداخلي الذي يمزق هذه القاعدة الزمنيــة . »

٤٤ ـ **م.ن** ، ص ٣٣ ، الاطروحة ٦ : «فويرباخ يعيد الجوهر الديني الى الجوهر **الانساني** . ولكن الجوهر الانساني ليس تجريدا ملازما للفرد المنفرد . انه بالواقع جملة العلاقات الاجتماعية.» .

م.ن ، ص ٣٣ ، الاطروحة ٧ : «لذا فويرباخ لا يرى ان الروح الدينية هي نفسها **نتاج اجتماعي** وان الفرد المجرد الذي يحلله ينتمي في الواقع الى شكل اجتماعي محدد .»

الفرد والمجتمع . بحكم ذلك ، من اجل الغاء الدين ، لا يكفي فضح طابعه الوهمي ، يجب تدمير العلاقات الاجتماعية التي تنجبه ، وهذا لا يمكن ان يكون الا نتاج العمل الثوري (٤٥) .

من جهة اخرى ، على ما يلاحظ ماركس ، ان الغاء الدين بطريق التربية الذي ينادي به فويرباخ يفترض تقسيم المجتمع الى صنفين من الافراد ، من جهة ارستقراطية من المربين الذين هم انفسهم يجب ان يُربَّوا ، ومن الجهة الاخرى جمهور الافراد المطلوب تربيتهم ، وهذا بصورة غير مباشرة تبرير انقسام المجتمع الى طبقات متناحرة (٤٦) .

كما ان فويرباخ لا يستطيع ان يعطي ، بحكم تنكره لدور البراكسيس ، سوى حل وهمي للمعضلة الدينية ، كذلك لا يستطيع حل المسائل النظرية ، لاسيما مسألة العلاقات بين الفكر والكينونة ، وينكشف بالتالي عن كونه عاجزا عن دحض المثالية دحضا كاملا .

أجل يقاتل المثالية التي يأخذ عليها كونها تقلص العالم الى العنصر الروحي ويعارض الفكر المجرد بالفكر المؤسس على ادراك الواقع المحسوس ، الادراك الذي وحده ، على حد تفكيره ، يقيم الدليل على حقيقة العالم الخارجي ، الدليل على ان كل تمثيل لهذا العالم يوافقه واقع موضوعي . ولكن ، بما انه يجهل البراكسيس وبما انه هكذا ينساق الى جعل العالم الخارجي ، الواقع المحسوس ، موضوع حدس ، تأمل ، فانه عاجز عن تفسير الطبيعة الحقيقية للعلاقات التي تقوم بين الفكر والكينونة (٤٧) .

---

٤٥ ــ **م.ن** ، ص ٣٣ ، الاطروحة ٨ : «كل حياة اجتماعية لها طابع عملي جوهريا . كل الاسرار التي تحرف النظرية نحو الصوفية تجد حلها العقلي في الفاعلية العملية الانسانية وفي فهم هذه الفاعلية . »

م.ن ، ص ٣٢ ، الاطروحة ٤ : «يلزم اذن ، بعد فهم القاعدة الارضية للدين في تناقضها، الغاؤها فعليا بحذف هذا التناقض .»

٤٦ ــ **م.ن** ، ص ٣٢ ، الاطروحة ٣ : «ان المذهب المادي الذي يرى ان البشر هم نتاج الظروف والتربية ينسى ان البشر هم الذين يحوّلون الظروف وان المربي هو نفسه يحتاج الى ان يُربّى . هذا المذهب لا بد ان يميل بالضرورة الى تقسيم المجتمع الى قسمين ، احدهما يؤلف الطبقة المهيمنة .

ان التطابق بين تحويل الظروف والفاعلية الانسانية او تحويل الانسان بالذات لا يمكن تصوره وفهمه حقا الا في شكل فاعلية عملية ثورية .»

٤٧ ــ **م.ن** ، ص ٣٣ ، الاطروحة ٥ : «فويرباخ ، الذي لا يرضيه الفكر المجرد ، يدعو **الحدس الحسّي** . ولكنه لا يعتبر العالم الحسي بوصفه فاعلية **عملية** ، عيانية ، للانسان .»

]كلمة Anschauung الالمانية الواردة مرارا في هذه الاطروحات مصدرها : رأى ، رؤية ،

بخلاف ما يفكر فويرباخ ، ليس حدس الواقع المحسوس هو الذي يعطي يقين وجوده الموضوعي . ان هذا اليقين لا يمكن ان يعطيه سوى الفكر المرتبط بالفاعلية العملية . ان مسألة العلاقات بين الفكر والكائن ، اي مسألة علم ما اذا كانت المعرفة يستجيب لها واقع موضوعي لا يمكن ، بالفعل ، ان تحسم الا من وجهة نظر البراكسيس ، اذ ان الانسان لا يعرف العالم بالحدس والتأمل بقدر ما يعرفه بوصفه موضوع فاعليته .

فالوعي ، الفكر ، يعكسان الوجود الواقعي للانسان ، فاعليته الاقتصادية والاجتماعية . وينجم عن ذلك ان الايديولوجيا ، اي جملة الفكر الانساني ، ما هي الا الشكل النظري للبراكسيس التي تؤلف أساسها (٤٨) . هكذا ليس الفكر موجودا حقيقة الا في علاقاته مع فاعلية الانسان العملية ، ومسألة معرفة ما اذا كان يمكن ان يوجد نمط فكر مستقل عن هذه الفاعلية هي محض مضاربة نظرانية (٤٩) .

ان مادية فويرباخ شبه الميتافيزية ، الناجمة عن تجاهله للبراكسيس ، تستجيب بالواقع للتصور البرجوازي عن العالم . بحكم تطليق كل عمل ثوري ، هذا التصور لا يمكن ان يتخطى وجهة نظر المادية المؤسسة على الحدس . اذ لا تتصور العالم الحسي في شكل الفاعلية العملية ، هذه المادية تبقى بالضرورة

وترجمتها الفرنسية intuition (حدس) و contemplation (تأمل) و ... . ماكسيميليان روبل Rubel (**صفحات من كارل ماركس** ، مكتبة Rayot الصغيرة ، باريس ١٩٧٠ ، جزءان) في ترجمته لهذه الاطروحات عن فويرباخ (جـ١ ، ص ١٠٧ ــ ١٠٩) ترجم Anschauung في الاطروحة الاولى Perception (ادراك) ، في الخامسة observation sensible (ملاحظة حسية) ، في contemplation تأمل(كصفة في عبارة «المادية التأملية»)ثم conception تصوّر (تصور مفهومي ، مَفهمة) . وفي كل مرة أورد المصطلح الالماني الواحد Anschauung بين قوسين] .

٤٨ ــ انظر **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، ميغا ، I ، جـ٣ ، ص ١١٦ : «ان الفاعلية والروح ومحتواهما لها أسلوب انبساطها وتطورها ذاته طابع اجتماعي ، فهي فاعلية اجتماعية وروح اجتماعي ... في مجمله ، ان وعيي ليس الا الوجه **النظري** لهذا الذي الجماعة الواقعية ، المجتمع ، هي شكله **الحي** ... الامر الذي يجعل ان فاعلية وعيي بوصفها كذلك هي ايضا وجودي النظري بوصفي كائنا اجتماعيا ...» . انظر **المرجع نفسه** ، ص ١١٥ : «الدين ، العائلة ، الدولة ، الحقوق ، الاخلاق ، ما هي الا أنماط خاصة للانتاج وهي خاضعة لقوانينه العامة .»

٤٩ ــ انظر **الايديولوجيا الالمانية** ، المرجع المذكور سابقا ، ص‌ص ٣١ــ٣٢ ، الاطروحة ٢ : «ان مسألة معرفة ما اذا كان يجب ان نعزو الى الفكر الانساني حقيقة موضوعية ليست مسألة نظرية بل هي مسألة من صلاحية الفاعلية العملية . بفاعليته العملية يجب على الانسان ان يبرهن على حقيقة اي على واقعية وقوة فكره في هذا العالم وفي زمنه. ان النقاش عن واقعية و لاواقعية الفكر الذي ينعزل عن البراكسيس ، مسألة محض **سكولاستيكية** .»

متمسكة بالتصور المجرد للفرد المعزول ولا تستطيع ان تتخطى ، كتصور للحياة الاجتماعية ، تصور الافراد المنعزلين في المجتمع البرجوازي (٥٠) .

هذه المادية التي تستجيب للتصور البرجوازي للعالم ، يعارضها ماركس بمادية جديدة هي ، اذ تترجم عن مطامح البروليتاريا الثورية ، تستلهم تصور مجتمع جديد مؤنسَن بالاشتراكية (٥١) . في حين ان المادية الميكانيكية ، ومعها ايضا كل المنظومات الفلسفية التي تعاقبت وصولا اليها ، قد اكتفت بأن تعطي عن العالم تأويلات مختلفة ، فان هذه المادية الجديدة ترمي – وهذا هو الامر المهم – ، مثل البروليتاريا الثورية التي تلهم هذه المادية ، الى تحويل العالم (٥٢) .

في هذه **الاطروحات** ، التي كانت ترتكز على مفهوم الدور الثوري للبراكسيس في انبساط الحياة الاجتماعية والتاريخ ، كان ماركس يتحرر نهائيا من فلسفة فويرباخ ، التي كان تأثيرها لا يزال عميقا في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** وايضا وان بدرجة أقل في **العائلة المقدسة** . بينما في **المخطوطات** بقيت الفكرة القائدة هي مفهوم الانخلاع الذي ظل يلعب دورا غير تافه في **العائلة المقدسة**، صُفّي هذا المفهوم تماما في **الاطروحات** على يد مفهوم **البراكسيس** .

هذا المفهوم هو الذي يرشد ماركس في الانتقادات التي يوجهها الى فويرباخ وفي انضاج بعض المبادىء الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، التي يقيمها ، في هذه **الاطروحات** ، ان صح القول لحنا مضادا لتصورات فويرباخ . فهو يعزو الى تجاهل الدور الثوري للبراكسيس نقائص وعيوب مذهب فويرباخ : تصوره الخاطىء للطبيعة ، فكرته المجردة عن الفرد المعزول ، غير المتمايز اجتماعيا ، فكرته عن المجتمع المفهوم ايضا بكيفية مجردة في شكل النوع الانساني ، تصوره المغلوط عن المعضلات الاجتماعية ، لاسيما المعضلة الدينية ، والحل الوهمي الذي يعطيه لها ، وأيضا عجزه عن فهم العلاقات الحقيقية التي تقوم بين الفكر والكينونة . بالارتكاز على فكرة البراكسيس كان ماركس يصل ، في معارضة فويرباخ ، الى تصور جديد للعلاقات بين الانسان والطبيعة ، للفرد المعتبَر في علاقاته مع المجتمع، للمعضلات الاجتماعية المعالجة في ارتباطها مع التطور الاقتصادي والاجتماعي ،

---

٥٠ – **م.ن** ، ص ٣٣ ، الاطروحة ٩ : «كل ما تستطيع ان تصل اليه المادية المؤسسة على الحدس، التي لا تتصور العالم الحسّي في شكل الفاعلية العملية ، هو تصور الفرد المعزول والمجتمع البرجوازي . »

٥١ – **م.ن** ، ص ٣٤ ، الاطروحة ١٠ : «ان وجهة النظر التي تتخذها المادية القديمة هي وجهة نظر المجتمع **البرجوازي** . أما المادية الجديدة فتقف في وجهة نظر المجتمع **الانساني** ، الانسانية الاجتماعية . »

٥٢ – **م.ن** ، ص ٣٤ ، الاطروحة ١١ : «الفلاسفة اكتفوا بتأويل العالم تأويلات مختلفة ، الامر الذي يهم هو تحويله» .

وللعلاقات بين الفكر والكينونة ، عليه أسس نظرية جديدة للمعرفة .

من هذه المفاهيم المختلفة كانت تتبلور خطوط تصور جديد مادي للعالم ، ذي طابع جدلي وتاريخي ، معارض تماما للمادية الميكانيكية ، تصور كان يحرر ماركس تماما من العقيدة والطوباوية وكان سيخدم كقاعدة نظرية لعمل البروليتاريا الثوري .

التعاون بين ماركس وانجلز
قبل لقائهما في بروكسل

التعاون بين ماركس وانجلز ، الذي كان قد بدأ **بالعائلة المقدسة** ، كان قد تواصل بعد انفصالهما بتراسل نشيط كان يحفز فكرهما وعملهما .

في البداية كان الموضوع الرئيسي لهذا التراسل الصحافة الاشتراكية التي كانت تتطور آنذاك بسرعة في يناير ١٨٤٥ ، انجلز أخبر ماركس نيته ان يصدر مع هس مجلة ، هي **مرآة المجتمع** . دعاه في الوقت نفسه الى المساهمة في مجلة أخرى ، **الحوليات الراينية** ، كان يريد ان يساهم هو نفسه فيها بنشاط ، والى ايجاد معاونين لها . وقد كرر ، بعد شهر ، هذا الطلب بمزيد من الإلحاح (٥٢) . انضم اليه هس برسالة موجهة الى ماركس في يناير ١٨٤٥ ، أبرز فيها الطابع الاشتراكي الواضح الذي ستتصف به **الحوليات الراينية** ، وشدد ايضا على المعدل المرتفع للتعويضات المقرر دفعها على المقالات التي ستصدر في المجلة ، الامر

---

٥٢ – انظر انجلز الى ماركس في باريس (بارمن ، ٢٠–١–١٨٤٥) ، **م.أ.م** ، ج٢٧ ، ص ١٥ : «بتمان ينوي ايضا اصدار مجلة في شهر آب عند لِسكه ، مجلة فصلية ، **الحوليات الراينية** ، لن يطالها اشراف الرقابة بفضل حجمها ولن تتحدث الا عن الشيوعية . ستريد ولا شك المساهمة فيها. من المفيد عدا ذلك ان يصدر قسم من اعمالنا في شكل مقالات مجلات وبمجملها في شكل كتب . الكتب المحظّرة من قبل الرقابة تُتداول بصورة أصعب من المجلات وهذا يعطينا حظا مزدوجا للتأثير على الجمهور .»

انظر انجلز الى ماركس في بروكسل (بارمن ، ٢٢–٢/٢٦ ، ٧–٣–١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ٢١ : «هس ينضم اليّ ليرجوك بالحاح ان ترسل شيئا ما الى بتمان من اجل مجلته الفصلية . يجب ان نظهر جميعا في العدد الاول ، كي نعطي المجلة طابعا وحزما . بدوننا ، عدا ذلك ، لن يكون بامكانها ان تصدر . »

الذي لم يكن بلا أهمية لماركس الذي كان مدينا لقلمه بمعظم وارداته (٥٤) .

ماركس لم يساهم في هذه المجلة ، على الارجح لانه كان مأخوذا بتحرير مؤلفه عن نقد السياسة والاقتصاد السياسي ، ولكنه حاول الحصول على تعاون هاينه (٥٥) .

من جهة أخرى فكّر انجلز ، في نفس الوقت مع ماركس ، في شباط ١٨٤٥ ، بنشر ترجمات لمؤلفات أهم الكتاب الاشتراكيين والشيوعيين الانكليز والفرنسيين، مُرفقة بشروح (٥٦) .

كانت نيتهما ان يعطيا صورة صحيحة عن هذه المذاهب ، التي كانت قد شوّهت في العرض الذي أنشأه لورنتس شتاين Lorenz Stein عنهما ، وأن يسهما بذلك في تنوير العمال والبرجوازيين التقدميين على حد سواء عن طبيعة وأهمية المسألة الاجتماعية (٥٧) . كانا يفكران بأن ينشرا أولا مؤلفات لفوريه ،

---

٥٤ ــ انظر هس الى ماركس (كولن ، ١٧ــ١ــ١٨٤٥) ، في م. هس : **المراسلات** ، مرجع مذكور آنفا ، ص‌ص ١٠٥ وبعدها : «عليّ ان أبلغك بشرى اصدار مجلة فصلية [تصدر كل ثلاثة شهور] ، سيصدر عددها الاول فور حيازتنا على مادة عشرين ورقة (وهو الحد الادنى الضروري لكي تفلت الكتب والمجلات من رقابة الرقابة ــ ا. كورنو) . بتمان ... وقّع مع لسكه عقدا جيدا تماما يبيّن مدى انتشار الادب الاشتراكي الان بين القراء في ألمانيا . غني عن القول ان المجلة ستكون ذات طابع اشتراكي واضح .... من اجل بتمان وأيضا من اجل الدفاع عن قضيتنا ، يجب المساعدة على صدور المجلة . وعدته بأن أرجوك ان تساهم وأن تعمل على نيل مساهمة **هرفغ** و(اذا ارتأيت ذلك) **هاينة**... حسب العقد الذي وقعه بتمان مع لسكه ، المقالات ستكافأ على الاقل بثلاث ليرات ذهب على الورقة وعلى الارجح ، بناء على الحاح بتمان ، أربع ليرات وأكثر .»

٥٥ ــ انظر ماركس الى هـ. هاينه (باريس ، ١٢ــ١ــ١٨٤٥) ، **م.ا.م.** ، جـ٢٧ ، ص ٤٣٤ : «بائع الكتب لسكه يخرج من عندي . سيصدر في دارمشتادت مجلة فصلية لن تكون خاضعة للرقابة. سأساهم فيها مع انجلز، هس، هرفغ، يونغ، الخ. رجاني ان أطلب مساهمتك ــ شعرا او نثرا . لن ترفض ، على ما أتوقع . فأنا أفكر انه يجب ان نقبض على جميع فرص الفعل في المانيا ذاتها .» انظر ايضا ماركس الى هاينه (بروكسل ، ٢٤ــ٣ــ١٨٤٥) ، **المرجع نفسه** ، ص ٤٣٥ .

٥٦ ــ انجلز الى ماركس (٢٢ــ٢٦/٢ ، ٧ــ٣ــ١٨٤٥) ، **م.ا.م.** ، جـ٢٧ ، ص‌ص ٢٢ وبعدها : «بالمناسبة ، ننوي هنا ترجمة فوريه وانشاء **مكتبة أفضل كتّاب الخارج** . الافضل ان نبدأ بفوريه . عندنا مترجمون . أوصر بهذا المشروع الفرنسيين الذين تفكر انهم أهل لترجمة هذه المؤلفات . ولكن يجب العمل بسرعة ، فالامر مستعجل وقد بدأنا مفاوضات مع ناشر .»

٥٧ ــ انظر رسالة انجلز في ٢٥ اوكتوبر ١٨٨٨ الى **ببل** Bebel في **فريدريش انجلز : رسائل الى ببل** ، برلين ١٩٥٨ ، ص ١٥٧ .

عن هذا المشروع ، مشروع تأسيس مكتبة ، انظر **ف. مونكه** : ملاحظات عن طبعتين مجهولتين حتى الان لمؤلف من مؤلفات فريدريش اجلز ، **في اسهامات عن تاريخ حركة العمال الالمانية** ، ١٩٦٤ ، العدد ٤ ، ص‌ص ٦٧٠ ــ ٦٧٤ .

أوين ، موريلي ، والسان ـ سيمونيين . انجلز اقترح على ماركس تدشين هذه المكتبة بمؤلف لفوريه ، الذي كان يبدو له أقدر كاتب على كسب قراء للشيوعية . كان يفضل الاكتفاء بمؤلفين من طراز فوريه ، ما زالت مؤلفاتهم تحمل فائدة راهنة (٥٨) .

كان يفكر بتسليم ترجمة فوريه الى اصدقاء في بون ، نظرا لكونه مشغولا جدا بمشروع كتاب عن تاريخ انكلترة الاجتماعي ، يكون تكملة لـ **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، وهو مشروع لم يستطع تحقيقه . هس تكفَّل بترجمة كتاب تيودور دزامي عن **شرع الجماعة والمؤامرة في سبيل المساواة ، المدعوة مؤامرة بابـف** Babeuf تأليف ف.م. بووناروتي . إميل فيلر ، وهو من جماعة الاشتراكية **الحقة** ، ترجم **شرع الطبيعة** تأليف موريلي (٥٩) .

المشروع فشل لعدم وجود ناشر . لا بيديكر الذي كان يصدر **مرآة المجتمع** ، ولا لِسكه الذي توجه اليه ماركس وانجلز أرادا المجازفة التي يشكلها اصدار مثل هذه المؤلفات (٦٠) . لم تصدر بهذه المناسبة سوى ترجمة وضعها انجلز لنص مأخوذ من فوريه عن التجارة .

كذلك كان ماركس وانجلز يهتمان كثيرا بالمسألة التي كانت آنذاك موضع نقاش متكرر ، الا وهو مسألة معرفة أيهما أصلح لتطور المانيا ، التبادل الحر او نظام الحماية . بينما كان أنصار الحماية يبرزون أن من شأنها ، بإبعاد المزاحمة الانكليزية ، تسهيل ازدهار الصناعة الالمانية ، كان خصومهم يشددون على ان تطورا زائد السرعة لهذه الصناعة من شأنه ان يقود الى خراب الحِرف والمانيفاكتورات .

بعكس الاشتراكيين **الحقين** ، الذين كانوا يقدّرون ان الدولة يجب ان تلجم

---

٥٨ ـ انظر انجلز الى ماركس في بروكسل (بارمن ، ١٧ـ٣ـ٤٥) ، **م.ا.م.** ، جـ٢٧ ، ص ٢٤ وبعدها : «عودة الى موضوع المكتبة ، لست أدري ما اذا كان اصدار المؤلفين حسب ترتيب تعاقبهم التاريخي هو الحل الافضل ، لاسيما وأن هذا الترتيب سينقطع بشكل دائم نظرا لانه سيكون علينا ان نقيم تناوبا بين فرنسيين وانكليز . من جهة أخرى ، أعتقد ان المصلحة **النظرية** يجب ان توضع بعد الجدوى العملية وانه يجب ان نبدأ بمؤلفات لها الفائدة الاكبر بالنسبة للالمان وتكون هي الاقرب الينا ، اي بأفضل مؤلفات فوريه ، أوين ، السان ـ سيمونيين الخ . يمكن ان نضم اليها موريلي. يمكن ان نذكر باقتضاب التطور التاريخي في مدخل عام ... يمكن ان نحرره بصورة مشتركة ... لو اردنا اعطاء مصنَّف جامع لمصادر تاريخ الاشتراكية ... لما انتهى ذلك ولاضحى فضلا عن ذلك امرا مملا . لذا أفكر بأنه يجب ان لا ننشر سوى مؤلفات لها ، جزئيا على الاقل ، فائدة راهنة .» [نذكّر بأن intérêt = مصلحة ، فائدة ، و اهتمام] .

٥٩ ـ انظر **ف. مونكه** ، مرجع مذكور ، ص ٦٧١ .

٦٠ ـ انظر انجلز الى ماركس في بروكسل (بارمن ، ١٧ـ٣ـ١٨٤٥) ، **م.ا.م.** ، جـ٢٧ ، ص٢٤ .

تطور الانتاج الصناعي من اجل وضع الحرفيين والعمال في مأمن من الخراب والبؤس اللذين يولدهما هذا التطور ، كان ماركس وانجلز يفكران أن هذا التطور امر لا مفر منه ، وكذلك انحدار وبرلترة الطبقات الوسطى . ولكن ، بعكس الاقتصاديين البرجوازيين الذين كانوا ، في اعتباراتهم عن منفعة التبادل الحر ونظام الحماية بالنسبة لتطور الصناعة الالمانية ، لا يرون الا المصالح الطبقية للبرجوازية ، كان ماركس وانجلز يريدان معالجة هذه المسألة من وجهة نظر المصالح الطبقية للبروليتاريا وحسب . سواء ظفر التبادل الحر او نظام الحماية ، البرجوازية وحدها ، على حد تفكيرهما ، ستجني ربحا على ظهر البروليتاريا . فعواقب الحماية ستكون ازدياد الاسعار وبالتالي تفاقم بؤس العمال ، وعواقب التبادل الحر ستكون اشتداد المزاحمة والازمات وتقليص الاجور ، بحيث أن الخاسر في هذه الحالة وتلك سيكون البروليتاريا .

من وجهة النظر هذه كانا ينويان انشاء نقد لـ ليست List الذي كان يقترح منظومة حماية (٦١) . بينما انجلز كان يريد تبيان العواقب العملية المترتبة على هذه المنظومة ، كان ماركس يفكر خصوصا بنقد مبادئها (٦٢) .

لا هذا ولا ذاك استطاعا آنذاك تحقيق مشروعهما . الامر الجوهري في ما كان لدى انجلز بصدد منظومة ليست ، عرضه في أحد خطاباته في إلبرفلد (٦٣) . كذلك لم يكتب ماركس المقال الذي كان يريد تحريره عن ليست . ومع ذلك واصل الاثنان الاهتمام بهذه المسألة واقترحا في ١٨٤٥ على الناشر كامبه دراسة عن هذا الموضوع (٦٤) .

---

٦١ ـ انظر انجلز الى ماركس في باريس (بارمن ، ١٩-١١-١٨٤٤) ، م.أ.م. ، ج ٢٧ ، ص ١١ ، «في اثناء ذلك ، سأكتب على الارجح بعض الكراسات ، بخاصة ضد ليست ، ما ان يكون لدي الوقت» .

٦٢ ـ انظر انجلز الى ماركس في بروكسل (بارمن ، ١٧-٣-١٨٤٥) ، م.ن ، ص ٢٦ : «من العجيب ان نرى كيف ان أفكاري ، عدا مشروع المكتبة ، التقت مع أفكارك على صعيد آخر ايضا . فقد كنت مثلك أقترح على نفسي كتابة نقد لـ ليست ينشره بتمان . لحسن الحظ علمت منه في وقت مبكر بشكل كاف ان لديك نفس النية. بما انني أريد خصوصا تحليل العواقب العملية لمنظومته، فانني سأبسط على نحو أوسع بقليل ، في احد الخطابات التي سألقيها قريبا في إلبرفلد ما كنت أريد عرضه بهذا الصدد . اني أفكر ، عدا ذلك ، استنادا الى رسالة برجرس الى هس واستنادا الى شخصيتك ، انك بالاحرى ستنبسط على مبادىء نظريته اكثر من نتائجها .»

٦٣ ـ انظر خطاب انجلز في إلبرفلد ، م.أ.م. ، ج ٢ ، ص ص ٥٤٩ وبعدها .

٦٤ ـ انظر رسالة انجلز الى كامبه في هامبورغ (بروكسل ، ١٤-١٠-١٨٤٥) ، م.أ.م. ، ج ٢٧ ، ص ٤٣٩ .

لقاء ماركس وانجلز في بروكسل
الرحلة الى انكلترة

التعاون بين ماركس وانجلز سهّله وصول انجلز الى بروكسل في نيسان / ابريل ١٨٤٥ . كان سبب ذهاب انجلز من بارمن الخوف من الملاحقات التي كانت تتهدده بعد خطابات إلبرفلد ، وأكثر من ذلك رغبته في التعاون مع ماركس تعاونا أوثق . هذه الرغبة كان يشاطرها ماركس الذي غيَّر مسكنه وراح يقيم في شارع الحلف ، في ضاحية سان ـ جوس ـ تن ـ نود ، في بيت مجاور للبيت الذي يسكنه انجلز .

كما إبان لقائهما الاول في باريس ، أجريا تجابها بين التصورات الجديدة التي كانا قد وصلا اليها . ماركس عرض لانجلز السمات العامة للمادية الجدلية والتاريخية التي كان قد خطّها في **أطروحاته عن فويرباخ** والتي كان على الارجح قد أكملها وهو يحرر **نقده للسياسة والاقتصاد السياسي** . في كراسه عن **إسهام في تاريخ رابطة الشيوعيين** ، وصف انجلز الانطباع العميق الذي أحدثه فيه هذا العرض : «في مانشستر ، كنت ان صح القول قد اصطدمت بواقع ان العلاقات الاقتصادية ، التي لم تكن حتى ذلك الحين قد لعبت اي دور او لعبت فقط دورا ثانويا تماما في وصف التاريخ ، تكوّن ، على الاقل في العالم الحديث، عنصرا تاريخيا مقرّرا ، بحكم كونها في قاعدة الانقسام الراهن للمجتمع الى طبقات متناحرة ، أن الصراعات الطبقية تؤلف بدورها ، في البلدان التي فيها هذه الصراعات انبسطت مليًّا ، ولاسيما في انكلترة بسبب انطلاق الصناعة الكبيرة ، قاعدة تشكل الاحزاب وصراعاتها وبذلك عينه قاعدة كل التاريخ . ماركس لم يكن فقط وصل الى هذا التصور عينه ، بل كان قد عمَّمه في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** (١٨٤٤) ، مبيِّنا ان ليس الدولة هي التي تقرر وتحدد وتضبط العلاقات الاجتماعية بل بالعكس المجتمع هو الذي يحدد طابع الدولة ، وانه ينبغي بنتيجة ذلك ان نفسر السياسة وتاريخها بالعلاقات الاجتماعية وتطورها لا العكس . حين جئت أرى ماركس في باريس في صيف ١٨٤٤ ، سجلنا اننا على وفاق تام في كل المسائل النظرية والى ذلك التاريخ يعود عملنا المشترك . حين التقينا مجددا في ربيع ١٨٤٥ في بروكسل ، كان ماركس قد بلور من هذه الاسس النظرية السمات العامة لتصوره المادي للتاريخ وشرعنا ننضج بالتفصيل مختلف وجوه هذا التصور الجديد للعالم» (٦٥) .

---

٦٥ ـ انظر م.ا.م. ، جـ٢١ ، ص ص ٢١١ وبعدها .
[لا بأس من التذكير بأن :
١ ـ determination = تقرير ، تحديد ، تعيين .

لئن لم يكن انجلز بعد في وضع يمكّنه من ان ينضج بصورة منهجية نسقية، مثل ماركس ، المبادىء الاساسية للمادية التاريخية ومن ان يصوغها بنفس الطريقة الواضحة الدقيقة ، فانه لم يكن فقط المستفيد من أفكار ماركس ، اذ كان أقدر من ماركس ، بحكم الخبرة الاكثر مباشرية وعمقا التي كانت له عن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، على تبيان كيف ولماذا تحوّل قوى الانتاج يحدد في آن معا التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . ففي مقاله عن «حالة انكلترة» ، ولكن اكثر ايضا في كتابه عن **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، كان يعطي ، فعلا ، بتبيانه كيف كانت الثورة الصناعية قد حددت التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لانكلترة الحديثة ، مثالا نيِّرا عن الكيفية التي يجب بها تفسير طور من التاريخ من وجهة نظر المادية التاريخية ، مقدما بذلك اسهاما هاما في انضاج هذا التصور .

عدا ذلك كان هو نفسه يعي مليا اهمية مساهمته في هذا الانضاج . فقد كتب في زمن لاحق في مقدمة الطبعة الانكليزية **للبيان الشيوعي** الصادرة في لندن عام ١٨٨٨ : «كنا ، عدة سنوات قبل ١٨٤٥ ، قد اقتربنا تدريجيا من هذا التصور (المادية التاريخية ـ إ.ك.) المدعو ، في رأيي ، الى ان يكون في ميدان التاريخ نفس التقدم الذي كانته نظرية داروين بالنسبة لعلوم الطبيعة . يستطيع المرء ان يقدّر على النحو الافضل مدى اقترابي شخصيا ، بصورة مستقلة عن ماركس ، من هذا التصور ، بواسطة كتابي عن **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** . حين ، في ربيع ١٨٤٥ ، التقيت مجددا بماركس في بروكسل ، كان قد أنضج هذا التصور تماما وعرضه لي تقريبا بنفس وضوح الحدود ـ المفردات الذي به عرضته قبل قليل » (٦٦) .

ولقد كان ماركس يعترف مليًّا بأهمية مساهمة انجلز . فقد كتب في مقدمة مؤلَّفه **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** : «فريدريش انجلز ، الذي كنت معه ، منذ صدور مخططه العبقري عن «اسهام في نقد المقولات الاقتصادية» (في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية**) ، على علاقات تراسل دائمة ، كان قد وصل ، بطريق آخر غير الذي كنت أسلكه ، الى نفس النتيجة (انظر كتابه **حالة الطبقة العاملة في**

---

٢ ـ rappart و rélation = علاقة . كلمة واحدة في الالمانية Verhaeltnis تعني ايضا (حسب القاموس ، وفي القاموس اليومي) : نسبة (انتساب ، تناسب) ، صلة ، موقع (حالة) ، ظرف الخ . rapport هي ايضا القسمة . relatif صفة لـ rapport التي ليس لها صفة . ولهما أصل لاتيني واحد . ولهما صلة بـ lieu (رابط ، رابطة) . مفهوم أولي وأساسي في كل الفلسفة من أرسطو الى لايبنتس وكنط ، وبالاحرى في الجدل (هيغل والماركسية) ، نوعا ما أول وأوسع وأهم المفاهيم في منهج هيغل ـ ماركس ـ لينين .]

٦٦ ـ م.ا.م. : جـ٢١ ، ص ص ٣٥٧ وبعدها .

انكلترة) ... » (٦٧) .

بحكم توافقهما التام في الرؤيات ، استطاع ماركس وانجلز ، وهما يربطان على نحو متزايد الوثوق فكرهما وعملهما بنضال البروليتاريا الطبقي ، ان يكبا مباشرة على العمل من اجل اكمال انضاج تصورهما للمادية التاريخية والشروع في قيادة كفاح البروليتاريا ، بالاعتماد على هذا التصور . هذا ما كان يذكّر به انجلز في مؤلّفه **اسهام في تاريخ رابطة الشيوعيين** . «هذا الاكتشاف الذي كان يقلب رأسا على عقب علم التاريخ ، الاكتشاف الذي كان ، كما ترون ، جوهريا صنع ماركس والذي لا أستطيع ان أنسب لنفسي فيه سوى قسط متواضع ، كان ذا أهمية مرموقة ومباشرة بالنسبة للحركة العمالية آنذاك . الشيوعية عند الفرنسيين والالمان ، الشارتية عند الانكليز ، لم تعد تظهر شيئا عرَضيا كان يمكن ان لا يكون. هذه الحركات باتت تظهر حركات للطبقة الحديثة المضطهَدة ، للبروليتاريا ، أشكالا لصراع الطبقات ، لكن مختلفة عن كل الصراعات الطبقية القديمة بواقع ان الطبقة المضطهَدة حاليا ، البروليتاريا ، لا تستطيع ان تحقق تحررها بدون ان تحذف في الوقت نفسه انقسام المجتمع الى طبقات وصراع الطبقات . لم تعد الشيوعية تعني منذئذ تصور ــ تخيُّل مجتمع مثالي كامل ، بالعكس باتت تقتضي المعرفة الصحيحة الدقيقة لطبيعة وشروط وبالتالي ايضا لاهداف الكفاح الذي تخوضه البروليتاريا . لم يكن لدينا بتاتا نية تثبيت النتائج العلمية المكتسبة ، في مجلدات ضخمة ، لصالح العالم العالِم دون سواه . بالعكس . كنا كلينا غالمين في الحركة السياسية ، كان لنا في العالم المثقف ، لاسيما في المانيا الغربية ، عددا من المريدين ، وكنا على تماسٍ كافٍ مع البروليتاريا المنظمة . كان من واجبنا ان نعطي أساسا علميا لتصوراتنا ، وكذلك في الوقت نفسه كان من الهام بالنسبة لنا ان نكسب لافكارنا البروليتاريا الاوروبية وأولا البروليتاريا الالمانية» (٦٨) .

بهذا الهدف المزدوج قاما في منتصف تموز برحلة الى انكلترة حيث مكثا حتى حوالي ٢٤ آب . الى الرغبة في مواصلة دراساتهما في الاقتصاد السياسي ، التي كان من شأنها ان تسند بشكل أمتن تصورهما للمادية التاريخية ، وفي الاتصال مع قادة الجماعة اللندنية في **رابطة العادلين** وقادة الشارتيين ، كانت تنضاف ، عند ماركس ، الرغبة في معرفة البلد الاكثر تصنيعا في اوروبا والذي يحوز الطبقة العاملة الاكثر بأسا والافضل تنظيما على الصعيدين النقابي والسياسي .

ذهبا بادىء بدء الى مانشستر ، حيث انجلز ، الذي كان هنا نوعا ما في بيته ، كان يرغب في لقاء صديقته ميري برنز Mary Burns . وهنا مكثا أطول

---

٦٧ ــ **م.أ.م.** ، جـ١٣ ، ص ١٠ . [هذا النص يلي مباشرة موجز المادية التاريخية الشهير في المقدمة الشهيرة (١٨٥٩) المنشورة في شتى طبعات المختارات من ماركس وانجلز ، او من ماركس الخ].

٦٨ ــ **م.أ.م.** ، جـ٢١ ، ص ٢١٢ .

فترة ، فهذه المدينة كانت توفر لهما افضل الامكانيات لمعرفة تطور انكلترة الصناعي وشروط حياة البروليتاريا الانكليزية . أكبا فيها على دراسات في الاقتصاد السياسي كثيفة متواترة وأيضا على دراسة مسائل سياسية واجتماعية (٦٩) . قرا ماركس مؤلفات تتصل بالمبادىء العامة للاقتصاد السياسي ، بالتجارة ، بالمال ، الخ (٧٠) .

---

٦٩ ـ انظر ا.آ. باخ : وثائق جديدة عن اقامة ماركس وانجلز في لندن في آب ١٨٤٥ ، عن **تاريخ الافكار السياسية والاجتماعية** ، موسكو ، ١٩٥٥ .

٧٠ ـ انظر دفاتر ملاحظات ماركس ، **ميغا** ، I ، جـ٦ ، ص ٥٩٨ وبعدها . نجد في هذه الدفاتر مقتطفات من : [كل العناوين التالية بالانكليزية] :

توماس **كوبر** : قراءات عن عناصر الاقتصاد السياسي ، لندن ١٨٣١ .

توماس **توك** : تاريخ الاسعار وحالة التداول من ١٧٩٣ الى ١٨٣٧ ، لندن ١٨٣٨ ، مجلدان .

جيمس وليم **جيلبارت** : تاريخ ومبادىء الصيرفة ، لندن ١٨٣٩ .

وليم **بتي** W. Petty : محاولة تتصل بتكاثر البشرية ، مع بحث آخر في الحساب السياسي يتصل بنمو مدينة لندن ، الخ ، لندن ١٦٩٨ ، الطبعة الثالثة .

إد. **ميسلون** : التجارة الحرة او وسائل جعل التجارة تزهر ، لندن ١٦٢٢ .

ش. **دافنانت** D'Avenant : خطب عن الدخول العامة في ظل تجارة انكلترة ، الخ ، لندن ١٦٩٨ ، مجلدان .

جيمس **أندرسن** : تنقيب هادىء في الظروف التي قادت الى ندرة القمح في بريطانيا ، لندن ١٨٠١ .

ج. **براوننغ** : وضع بريطانيا العظمى الاهلي والمالي ، لندن ١٨٣٤ .

وليم **كوبت** Cobbett : الورق ضد الذهب او تاريخ وسر بنك اوف إنجلاند [بنك انكلترة]، الخ ، لندن ١٨٢٨ .

انسيكلوبيديا متروبوليتانا او قاموس المعرفة الكوني ، الخ ، الجزء ٤ ، ١ ، مقال «الاقتصاد السياسي ، سنيور Senior » ، ١٨٣٦ .

مايكل توماس **سادلر** : قانون السكان ، لندن ١٨٣٠ ، مجلدان .

ش. **دافنانت** : محاولة عن السلم في الداخل والحرب في الخارج ، لندن ١٧٠٤ ، مجلدان .

ش. **دافنانت** : محاولة حول الطرق المحتملة لجعل شعب ما رابحا في ميزان التجارة ، لندن ١٦٩٩ .

(**كارل** I) : مُلك جلالته على البحار البريطانية مؤكدا ومسوَّغا مع تقرير صادق عن وقاحات الهولنديين التي لا تحتمل ، الخ ، لندن ١٦٦٥ .

ش. **دافنانت** : محاولة عن طرق ووسائل تموين الحرب ، لندن ١٦٩٥ .

وليم **تومبسون** : تحقيق في مبادىء توزيع الثروة الاكثر قدرة على القيادة نحو السعادة البشرية ، لندن ١٨٢٤ .

انجلز قرأ جزئيا مؤلفات تعالج مسائل مماثلة وجزئيا مؤلفات تتصل بمسائل سبق أن عالجها في كتابه عن **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** (٧١) . أهتم ايضا بمسائل ايديولوجية مثل العلاقات بين مذهب التقوى piétisme والبرجوازية ، والتربية متصورة وسيلة حل المسألة الاجتماعية (٧٢) .

---

٧١ ـ دفاتر ملاحظات انجلز ، **ميغا** ، I ، ج٤ ، ص‌ص ٥٠١ـ٥١٥ . **نجد فيها خلاصات** مأخوذة من [كل العناوين بالانكليزية] :

ج.ر. **بورتر** : تقدم الامة ، في علاقاتها الاجتماعية والاقتصادية المتنوعة ، من بداية القرن التاسع عشر حتى الزمن الحاضر ، لندن ١٨٤٣ ، ٣ مجلدات .

وليم **غودوين** Goduuin : تاريخ كومنويلث [ثروة مشتركة] انكلترة . منذ بدايته حتى عودة شارل الثاني على العرش ، لندن ١٨٢٤ ، ج١ .

توماس **توك** : تاريخ الاسعار وحالة التداول منذ ١٧٩٣ حتى ١٨٣٧ ، تسبقه لمحة مقتضبة عن وضع تجارة الحبوب في القرنين الاخيرين ، لندن ١٨٣٨ ، مجلدان .

عن تركيبات التجارات ، لندن ١٨٣٤ .

سر فريدريك مورتن **إيدن** : وضع الفقراء او تاريخ الطبقات الكادحة في انكلترة منذ الفتح [النورماندي ق ١١] حتى الحقبة الحاضرة ، مع تقارير أبرشيات حول ادارة بيوت الشغل وبيوت الصناعة ، وضع الجمعيات الصديقة وغيرها من المؤسسات العامة ، لندن ١٧٩٧ ، ٣ مجلدات .

(ج. **آيكين**) : وصف للمنطقة حتى مسافة ٣٠ـ٤٠ ميلا حول مانشستر ، المواد من تدبير والعمل من تأليف ج. آيكين ، لندن ١٧٩٥ .

جيمس **بتنروث** : قِدَم المدينة ، وتاريخ كامل لتجارة مانشستر مع وصف مانشستر وسالفورد، وقد أضيف الى ذلك تقرير عن التحسينات الاخيرة في المدينة ، الخ ، مانشستر ١٨٢٢ .

جيمس وليم **جيلبارت** : تاريخ ومبادىء الصيرفة ، لندن ١٨٣٤ .

أنظر ملاحظات قراءات عن المضاربة والازمات ص‌ص ٥٠٥ ، ٥١٥ . عن الاجر والربح ، ص ٥٠٧ . عن استثمار العمال ، ص ٥٠٣ . عن الحركات العمالية والاضرابات ، ص‌ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧ .

٧٢ ـ عن مذهب التقوى والبرجوازية ، انظر **المرجع نفسه** ص ٥٠٨ . وعن الدور الاجتماعي للتربية ص ٥٠٤ . عن مسألة التربية كان انجلز ينفصل تماما عن الاشتراكيين **«الحقيقيين»** الذين كانوا، مثل جميع الطوباويين ، يعزون للتربية دورا مقررا في تسوية المسألة الاجتماعية . «ان بورتر Porter يقدم لنا الان «عضوضة» طويلة عن مزايا تربية جيدة ، ستعطي الطبقة العاملة وسائل ارتقائها الى مرتبة البرجوازية ، وستعلّمها في الوقت نفسه ان الادوار الزمنية السيئة هي أدواء محتومة تتولد من أسباب ضرورية ولا يمكن السيطرة عليها وليس من منظومة اقتصادية قائمة لصالح الطبقات الغنية والمهيمنة . التربية متصرف الطبقة العاملة عن أعمال الشغب الجماعي ، ستؤمنها ضد الافتتان بالديماغوجيين ، وستبين لها ان ليس لديها شيء تعمله أفضل من ان ترضخ لمذهب «دع الامور تسير» العام وأن تموت بصمت من الجوع ، فيما اذا أتتها البطالة» .

الهدف الآخر لسفرهما كان الدخول في علاقات أوثق مع قادة الحركة العمالية الانكليزية . لهذا الغرض ، ذهبا الى لندن حيث اتصلا مع قادة **رابطة العادلين** ، هـ. باور ، ك. شابر ، و ي. مول Y. Moll ، الذين كان انجلز يعرفهم من قبل .

كانت **رابطة العادلين** قد اتخذت منذ ١٨٤٠ طابعا دوليا متزايد الوضوح . فالجماعات المختلفة كانت على تراسل نشيط ، والرفاق [compagnons رفاق الحِرف] الذين كانوا يذهبون من بلد الى آخر كانوا يُبقون ايضا ارتباطا وثيقا فيما بينها (٧٣) .

ماركس وانجلز وصلا الى لندن في وقت كانت فيه تصورات الجماعة اللندنية في **رابطة العادلين** تتحول بعمق ، تحت تأثير البروليتاريا الانكليزية (٧٤) . فقد كان اعضاؤها يتخلون تدريجيا عن تصوراتهم الحِرفية والطوباوية للشيوعية ، دون ان يصلوا مع ذلك بعد الى فكرة واضحة عن الكيفية التي بها تستطيع الطبقة العاملة أن تتحرر .

في بداية الاربعينات ، كان باور وشابر ومول يشاطرون أفكار كابه Cabet ويفكرون ان الشيوعية يمكن ان تتحقق سلميا . في بيان نُشر في ٢١ ايلول ١٨٤٤ بمناسبة ثورة حائكي سيليزيا ، كانوا يفصحون عن تعاطفهم مع الحياكين ، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يعلنون ان مثل هذه الثورات لا تستطيع ان تسوّي المسألة الاجتماعية التي لا يمكن ان تُحلّ الا بتنظيم الشغل وتعميم التربية والتعليم (٧٥) .

غير انهم في الوقت نفسه كانوا يبتعدون عن طوباوية كابه . هكذا فقد كان شابر Schapper يؤكد ، ضد اعضاء «الجمعية الديمقراطية الفرنسية» بلندن ، التي كانت تساند مخططات كابه عن تأسيس مستعمرات شيوعية ، ان هذه المشاريع مكتوب لها الفشل .

هذا الابتعاد عن كابه اشتد بقدر ما ، تحت تأثير البروليتاريا الثورية الانكليزية

---

٧٣ – انظر **ف. انجلز : اسهام في تاريخ رابطة الشيوعيين** ، **م.ا.م.** ، جـ٢١ ، ص ٢٠٩ – ٢١١ . [هذا المؤلف الكلاسيكي كتبه انجلز في ١٨٨٥ ، وهو منشور – مثلا – في **المؤلفات المختارة لـ ماركس وانجلز** ، طبع موسكو ، بالفرنسية] .

٧٤ – فرع **رابطة العادلين** اللندني كان «نذاك يدخل في علاقات متزايدة الوثوق مع الشارتيين. هكذا في سنة ١٨٤٤ ، كان كارل شابر والبولوني أوبورسكي قد أسسا جمعية ديمقراطية ، **الاصدقاء الديمقراطيون لجميع الامم** ، حرر بيانها الاول القائد الشارتي وليم لووت William Lowtt كان هدف هذه الجمعية اقامة علاقات أخوية بين المغتربين من جميع الامم ومساعدة الموجودين في عوز .

٧٥ – انظر **التلغراف من اجل المانيا** ، العدد رقم ١٦٥ ، اوكتوبر ١٨٤٤ ، ص ٦٥٩ وبعدها: «العمال الالمان في لندن يجمعون التبرعات لحياكي سيليزيا» .

والجناح اليساري من الحركة الشارتية ، اقتنع اعضاء رابطة العادلين ان الطبقة العاملة لا يمكن ان تتحرر الا بثورة .

هذا الاعتناق للتصور الثوري أحدث مناقشات حادة داخل الجماعة (٧٦) . وجهة النظر الثورية أيدها بشكل خاص ف. فايتلنغ الذي كان قد سافر الى لندن بعد طرده من سويسرة ومن ألمانيا . في اثناء وليمة نظمت على شرفه بتاريخ ٢٢ ايلول ١٨٤٤ ، كان قد احتُفل به بطلا للشيوعية . بيد ان فايتلنغ ، الذي كان يتعامل في لندن مع وسط آخر غير وسطه في سويسرة ، لم يلق هنا التأييد الذي لقيته أفكاره هناك . بخلاف سويسرة ، التي لم يكن فيها ان صح القول بروليتاريا صناعية والتي فيها كانت شيوعية الحِرفيين الالمان تحتفظ بطابع طوباوي ، كان الحرفيون الشيوعيون الالمان في لندن ، القريبون جدا من البروليتاريا الانكلزية ، يتبنون أصعب انقيادا لتصوراته الطوباوية . لم يجد صدى عندهم الا بتصـــوره لضرورة ثورة شيوعية ، التصور الذي كان يضعه في معارضة شابر وباور ومول. تحت تأثيره وتأثير القادة الشارتيين الثوريين ، من أمثال ج. هارني J. Harney تآلفت جماعة **رابطة العادلين** اللندنية تدريجيا مع فكرة أن الوسيلة الوحيـــدة لتحرير البروليتاريا هي ثورة شيوعية ، الامر الذي كان من شأنه ان يسهل كثيرا العلاقات التي أقامها ماركس وانجلز آنذاك مع هذه الجماعة .

في لندن ، دخل ماركس وانجلز ايضا في صلة مع قادة الحركة الشارتية ، لاسيما مع جوليان هارني ، الامر الذي أتاح لهما معرفة اسباب ونتائج الانشقاق الذي كان قد حصل في هذه الحركة اثر الاضراب الانتفاضي لعام ١٨٤٢ . الاتجاه الديمقراطي لـ وليم لووِت ، قام يعارضه اتجاه راديكالي يمثله بصورة رئيسيـــة جوليـــان هارني ، الذي كان ، في الجريـــدة الشارتيـــة ، **نجمة الشمال** The Northern Star ، التي كان يصدرها ، يؤكد على المكشوف تأييده لاستخدام العنف وسيلة للتحرر . كما في **رابطة العادلين** ، حيث كانت التصورات الكابتية قد صُفِّيَت لصالح الافكار الثورية ، انتصرت الاتجاهات الجذرية علـــى الاتجاهات المعتدلة داخل الحركة الشارتية .

كما في **رابطة العادلين** ، هذا التحول الراديكالي للافكار في الحركة الشارتية ما كان بامكانه الا ان يسهل نمو نفوذ ماركس وانجلز . اشتركا ، نحو ٢١ آب ، في لقاء بين شارتيين وأعضاء في **رابطة العادلين** وقادة في الحركة الديمقراطية ، فيه أقِرّت توصية أيدها انجلز ، تدعو الى عقد اجتماع دولي للديمقراطيين في لندن ،

---

٧٦ ـ انظر م. **نتلاو** : المناقشات بصدد الشيوعية في «رابطة العادلين» بلندن ، حسب محاضر الجلسات ، في **أرشيف من اجل تاريخ الاشتراكية وحركة العمال** ، لايبتسيـــغ ، ١٩٢٢ ، جـ١٠ ، ص‌ص ٣٦٣ ـ ٣٩١ .

يكون موضوعه وهدفه تأسيس **ائتلاف في سبيل التقدم الديمقراطي الدولي** (٧٧).

أعمال ماركس وإنجلز
بين عودتهما من انكلترة و«الايديولوجيا الالمانية»

حياة ماركس في الربع الثاني من سنة ١٨٤٥ وُسِمت بشكل خاص بحدثين: ولادة ابنة ثانية دُعيت لورا Laura (٧٨) ، وتخليه في ديسمبر عن الجنسية البروسية الذي أجراه افلاتا من الملاحقات الدائمة الصادرة عن الحكومة البروسية. بما انه لم يطلب اي جنسية أخرى فقد ظل رجلا لا وطن له (٧٩) .

بعد عودته الى بروكسل ، ماركس فكّر باديء ذي بدء بانجاز كتابه عن **نقد السياسة والاقتصاد السياسي** ، الذي كان قد تعهد بتسليم مخطوطه الى الناشر لسكه في مدة أقصاها نوفمبر ١٨٤٦ . على الرغم من طلبات لسكه الملحة ، ماركس لم ينجز تحرير هذا الكتاب ، على الارجح لان موضوعه كان ينكشف عن كونه واسعا لدرجة لا تتيح معالجته بعمق في المدة المقررة ، وخصوصا لأن ماركس كان مأخوذا آنذاك بتحرير **الايديولوجيا الالمانية** (٨٠) .

---

٧٧ ـ انظر **نجمة الشمال** ، العدد رقم ٤٠٦ ، ٢٣ آب ١٨٤٥ ، ص ٨ .

في هذا الاجتماع ، الذي حصل في ٢٢ ايلول ١٨٤٥ ، بعد عودة ماركس وانجلز الى بروكسل، تقرر انشاء منظمة باسم **الديمقراطيين المتآخين** ، تأسست في اذار ١٨٤٦ . هـــذه المنظمة كانت تعارض باتجاهها الراديكالي الجمعية المدعوة **الاصدقاء الديمقراطيين لجميع الامم** التي كانت بقيادة و. لووت والتي كانت تنادي بتحرير جميع البشر عن طريق التربية .

٧٨ ـ انظر ينّي **ماركس : لمحة مقتضبة عن حياة مضطربة** ، مرجع مذكور آنفا ، ص ٢٩٢ .

٧٩ ـ انظر **شهادة تسريح لرجل الادب الدكتور كارل ماركس من ترير صادرة عن حكومة ترير** ، ١ـ١٢ـ١٨٤٥ ، الاصل في المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي ، آمستردام .

رسائل ماركس الى مختار مدينة ترير [Treves, Trier] ١٧ـ١٠ـ١٨٤٥ ، ٦ـ١٢ـ١٨٤٥ . (أرشيف مدينة ترير) ، **م.ا.م.** ، جـ٢٧ ، ص‌ص ٦٠٢ وبعدها .

٨٠ ـ انظر مشروع جواب من ماركس على رسالة من لسكه بتاريخ ٣١ـ٣ـ١٨٤٦ (بروكسل ، ١ـ٨ـ١٨٤٦) ، **م.ا.م.** ، جـ٢٧ ، ص ٤٤٨ : «كنت علقت تحرير المؤلــف عن **الاقتصاد** بسبب نشر المؤلف الذي كان تقرر مع الرأسماليين الالمان . فقد بدا لي من الهام جدا أن **أنشر اولا** مؤلفمجادلة ضد الفلسفة الالمانية وضد **الاشتراكية الالمانية** كما انبسطت الى الان ، كي أعارضهما بتصوراتــي **الخاصة** . هذا ضروري لاعداد الجمهور لمعرفة وجهة نظري عن الاقتصاد ، التي هي على طرفي نقيض مع وجهة النظر التي سادت حتى الان في العلم الالماني . وهو على كل حال نفس الكتاب الذي قلت لك عنه في رسائلي انه يجب ان يُنجز قبل نشر **الاقتصاد**» .

نظرا لتأخر ماركس في تسليم المخطوط ، هدده لسكه في أيار ١٨٤٦ بإلغاء العقد وألغاه فعلا في شباط ١٨٤٧ (٨١) . الا ان العمل الذي كرّسه ماركس لهذا الكتاب لم يذهب سدى ، لانه لا شك استخدم أهم نتاج بحوثه في **الايديولوجيا الالمانية** .

في نوفمبر وديسمبر ١٨٤٥ ، حرر مقالا عن «الانتحار» صدر عام ١٨٤٦ في **مرآة المجتمع** (٨٢) . نظرا للافقار المتنامي ، كان عدد الانتحارات في تقدم مضطرد، وكان هذا الامر موضوع كتب ومقالات عديدة (٨٣) .

ان مقال ماركس يتألف جوهريا من مقتطفات أخذها من **مذكرات بوشه** (٨٤). بوشه Peuchet ، الذي كان لفترة طويلة مسؤول الأرشيف في مفوضية شرطة باريس ، كان له فرصة ان يعرف عن كثب آثار البؤس الذي كان يدفع العمال الى الجريمة والى الانتحار . بالحقيقة ، كان بوشه قد عُني خصوصا بحالات الانتحار الناجمة عن خلافات عائلية ، عن حب فاشل ، وعن طموحات خائبة .

ولكن ، بما انه كان لا يعتبر الانتحار من وجهة نظر عاطفية وخلقية بقدر ما كان يعتبره من وجهة نظر اجتماعية ، فقد كان يفكر انه عائد جوهريا الى لاإنسانية العلاقات الاجتماعية وان علاجه الوحيد هو اصلاح عميق للمجتمع ، قادر وحده على

---

٨١ – انظر رسالتَي لسكه الى ماركس ، بتاريخ ٣١–٣–١٨٤٦ و٢–٢–١٨٤٧ . الاصول في المعهد الدولي للتاريخ الاجتماعي ، آمستردام ، DM ٣٠٠٧ و٣٠١٠ .

فيما بعد كتب لسكه الى ماركس يستعجله في تسديد سلفة الـ ١٥٠٠ فرنك التي كان قد دفعها له على الكتاب . لسكه الى ماركس (٢٨–٩–١٨٤٧ ، ٣٠–١٠–١٨٧١ ، ١٦–١١–١٨٧١) . الاصول نفس المكان Dm ٣٠١١ ، ٣٠١٢ ، ٣٠١٣ .

٨٢ – انظر **ك. ماركس** : بوشه Peuchet : عن الانتحار ، في **مرآة المجتمع** ، ١٨٤٦ ، العدد رقم ٧ ، ص ص ١٤–٢٦ . **ميغا** ، I ، جـ٣ ، ص ص ٣٩١–٤٠٧ .

٨٣ – انظر الانتحار في باريس وفي فرنسا ، **مرآة المجتمع** ، ١٨٤٦ ، ص ص ١٠٦–١٠٨ . – انتحار في وادي الفوبر ، **كتاب المواطن الالماني** ، ١٨٤٥ ، ص ص ٢٧٢ – ٢٨٦ . – **ف. انجلز** : حالة الطبقة العاملة في انكلترة ، **م.ا.م.** ، جـ٢ ، ص ص ٣٤٤ وبعدها .

٨٤ – **ج. بوشه** ، أرشيفي في الشرطة : **مذكرات ماخوذة من ارشيف شرطة باريس لتخدم في تاريخ الاخلاق والبوليس ، منذ لويس الرابع عشر حتى ايامنا** ، باريس ١٨٣٨ ، ٦ مجلدات .

[كلمة Police ، مصدرها اليوناني يعني حكومة مدينة ، وهي تعني نظم امن ونظام . الفعل معناه تلطيف العادات وتهذيب الاخلاق ، والصفة Policé = متمدن ، مهذب ، « مثقف » .]

تصفية أسبابه الرئيسية (٨٥) .

في مدخله ، ماركس أثنى على التحليل الدقيق والنافذ الذي أجراه بوشه للعلاقات الاجتماعية ووضعه في مقابل صناعة الجمل التي كان يتلذذ فيها محبو البشر البرجوازيون حين كانوا يتناولون هذه المسائل (٨٦) .

في مقاله عن مقطع لفوريه ، كان قد حررها على الارجح قبل سفره الى انكلترة ونُشرت في **كتاب المواطن الالماني لعام ١٨٤٦** ، انجلز وسَّع نقد ماركس للطوباوية بصدد الفيلانتروبية البرجوازية الى الاشتراكيين **«الحقيقين»** ، مرتكزا في ذلك على عمق وصواب تحليلات فوريه (٨٧) .

---

٨٥ ـ انظر **ميغا** ، ١ I جـ٣ ، ص ٣٩٢ : «ان عدد الانتحارات السنوي ، الذي هو ان صح القول طبيعي معياري ودوري عندنا ، يجب ان يُعتبر قرينة عن التنظيم الفاسد لمجتمعنا . ففي فترات توقف الصناعة والبطالة وغلاء المواد الغذائية ، في فصول الشتاء القاسية ، هذه القرينة تظهر بشكل أشد ، الانتحارات تتكاثر وتتخذ طابعا وبائيا . البغاء والسرقة يزدادان بنفس النسب» .

انظر **المرجع نفسه** ، ص‌ص ٤٠٣ ، ٣٩٥ ـ ٤٠٦ : «ان تصنيف مختلف اسباب الانتحار معناه تصنيف عيوب مجتمعنا ذاتها .... كنت قد اضطلعت بعمل كبير عن هذا الموضوع (الانتحار) ووصلت الى النتيجة الآتية وهي انه خارج **اصلاح شامل للمجتمع الراهن** تكون جميع الوسائل الاخرى لمنعه لهوا عابثا ... . ينبغي بالفعل ان نقيم العلاقات الحقيقية التي يجب ان توجد بين المصالح والعواطف، العلاقات الحقيقية التي يجب ان توجد بين الافـــراد ، **لان الانتحار ما هو الا احدى قرائن الصراع الاجتماعي التي لا تُعَدّ** ... . من السهل ان نقيم على الرَّق دستورا يؤمِّن لكل مواطن حقه في التربية ، في الشغل ، وخصوصا حقه في حد معاشي أدنى . ولكن أن نضجع على الورق هذه الاحلام الجميلة لا يحل كل شيء ، المهمة الحقيقية تبقى ، ألا وهي تحقيق هذه الافكار الحرة بواسطة مؤسسات فعلية وعقلية ، بواسطة مؤسسات اجتماعية .»

٨٦ ـ انظر **المرجع نفسه** ، ص ٣٩١ : «ان النقد **الفرنسي للمجتمع** الحاضر له ، جزئيا على الاقل ، مزية كونه بيَّن تناقضات ولاإنسانية الحياة الحديثة ، لا بتحليل شروط حياة طبقات خاصة ، بل بتحليل جميع أوساط وجميع أشكال المجتمع الراهن ، بلوحات تتجاوز ، في الحرارة الانسانية ، في غزارة الرؤيات ، في ارهاف التحليل ، في جراة وأصالة التصور ، كل ما يمكن ان نجده عند أمة اخرى . فلنرجع مثلا الى تحليلات أوين وفوريه النقدية المتصلة بالعلاقات الاجتماعية وسنكوّن فكرة عن تفوق الفرنسيين . عدا عن ذلك ، لا نجد هذا التحليل النقدي للوقائع الاجتماعية فقط عند الكتاب الاشتراكيين الفرنسيين ، بل ايضا عند كتاب ينتمون الى كل دوائر الادب ، لاسيما عند الروائيين وكتّاب المذكرات . سأعطي ، بمساعدة بعض مقتطفات عن **الانتحار** استعرتها من **مذكرات مأخوذة من أرشيف الشرطة الخ** ، تأليف جاك بوشه ، مثالا عن هذا النقد الفرنسي ، من اجل تبيان كل عدم تصورات محبي الانسان البرجوازيين الذين يتخيلون ان المسألة الاجتماعية تتقلّص الى اعطاء البروليتاريين بعض الخبز والتربية ، وكأن الشغيل وحده يتعذب من وضع الاشياء الموجود وأن كل شيء على ما يرام في افضل العوالم» .

في هذا المقطع الذي كان قد نشر في مجلة **لا فالانج**، كان فوريه قد وصف بدقة مختلف أشكال الافلاس منظورا اليه في علاقاته مع التجارة (٨٨) . ان التجارة، – كان يكتب فوريه –، لاسيما في الشكل الذي ترتديه في الازمنة الحديثة، ليست شيئا آخر سوى سرقة تقترف على حساب المستهلكين، من قبل وسطاء يبيعون خيرات هم لا ينتجونها ولا يستهلكونها (٨٩) . وهي تجد تعبيرها الكامل في هذا الشكل الجلي للسرقة الذي هو الافلاس الجنائي Bonqueroute

انجلز يسبق ترجمة هذا المقطع بمقدمة وخاتمة، فيهما ينشىء موازاة بين التحليل الصحيح والتفصيلي الذي يجريه الاشتراكيون الفرنسيون للعلاقات الاجتماعية وصناعة الجمل التي يتلذذ فيها الاشتراكيون الالمان . سابقا، في مقدمة كتابه عن حالة الطبقة العاملة في انكلترة، اخذ على الاشتراكيين الالمان كونهم يمضغون بلا ملل موضوعات الانسانوية الفويرباخية (٩٠) .

يستأنف هنا ويعمق هذا النقد، مبينا كل الهوة التي تفصل ثرثرتهم عن التحليل المضبوط والصحيح الذي يجريه الاشتراكيون الفرنسيون للنظام الراسمالي . بخلاف الاشتراكيين الفرنسيين، يبقى المنظرون الاشتراكيون والشيوعيون الالمان أسرى مجردات ويكبون، بصدد المسألة الاجتماعية، على تأملات نظرية باطلة، ويفاخرون بها، اذ يعتبرون انهم يرتفعون بواسطتها ويحلقون فوق الاشتراكيين الفرنسيين . «الالمان يدلعون الان ويفسدون الحركة الشيوعية ايضا . بما أنهم هنا، كحالتهم دائما، الاخيرون والأقل انتاجا، فانهم يعتقدون ان بوسعهم اخفاء عجزهم وكسلهم وراء الازدراء الذي يظهرونه ازاء سابقيهم ووراء الضجة التي يحدثونها حول صفتهم كفلاسفة . ما ان تظهر الشيوعية في ألمانيا حتى تحتكرها قبيلة من الاذهان النظرانية الذين يفكرون أنهم صنعوا معجزة بنقلهم أطروحات، باتت سوقيات في فرنسا وانكلترة، الى لغة المنطق الهيغلي، وبمناداتهم بهذه الحقيقة الجديدة على أنها شيء عجيب، على انها **النظرية الالمانية** الحقة، الامر الذي يتيح لهم ان يفحموا بازدرائهم **البراغماتية المبتذلة والطابع المضحك** للمنظومات الاجتماعية التي تخيلها اصحاب الذهن المحدود الذين هم الفرنسيون والانكليز . هذه النظرية الالمانية، التي خرجت جاهزة من أدمغة كان

---

٨٧ – انظر **ف. انجلز** : مقطع من فوريه عن التجارة، **في كتاب المواطن الالماني**، ١٨٤٦، ص‌ص ١–٥٦ . **ميغا**، I، جـ٤، ص‌ص٤٠٩ – ٤٥٣، مقدمة وخاتمة، م.١.م.٠، جـ٢ ص‌ص ٦٠٤ – ٦١٠ .

٨٨ – **لا فالانج** [الفلانكس، الكتيبة]، **مجلة العلم الاجتماعي**، السنة ١٤، السلسلة الاولى، يناير – فبراير ١٨٤٥، ص‌ص ١–١٢ .

٨٩ – **ميغا**، I، جـ٤، ص‌ص ٤١١–٤٢٤ .

٩٠ – **م.١.م.**، جـ٢، ص ٢٣٣ .

لها كبير امتياز القدرة على القاء نظرة في **فلسفة التاريخ** لـ هيغل والاطلاع على يد استاذ ما تافه من برلين على أسرار مخطط المقولات الازلية ، وكان لها بالاضافة **بعض** أفكار من فويرباخ ومن كتابات شيوعية ومن كتاب السيد شتاين Stein عن **الاشتراكية الفرنسية** ، هذه النظرية الالمانية من النوعية الاكثر تفاهة قد رتّبت بلا عناء ، على طريقتها ، الاشتراكية والشيوعية الفرنسية حسب وصفة السيد شتاين ، محضتها مكانا تابعا و**تجاوزتها بنقلها** على **الصعيد الانبساطي الاعلى** الذي هو صعيدها الخاص . وبطبيعة الحال لم يخطر في بالها أن تدرس ، ولو قليلا جدا، الاشياء ذاتها التي تدّعي تجاوزها : فالمختارات النحيلة من فوريه وسان سيمون وأوين والشيوعيين الفرنسيين التي تجدها عند السيد شتاين تكفيها ونيّف لاحراز نصر لامع على المنظّرين التافهين» (٩١) .

«هذا يفسر الفرق العميق الموجود بين الاشتراكيين الفرنسيين والاشتراكيين الالمان . بينما هؤلاء يكتفون بأن يستعيروا من المنظّرين الانكليز والفرنسيين ومن ل. شتاين الشيء القليل الذي يعلمونه حول العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، نجد عند الانكليز والفرنسيين ، بخاصة عند فوريه ، حشدا من رؤيات جديدة (٩٢) . من اجل نقد هذه النظرية الالمانية المدّعية بشكل مضحك الى هذه الدرجة ... من الضروري ان نبيّن للالمان كل ما هم مدينون به للاجنبي ، منذ بدؤوا يهتمون بالمسألة الاجتماعية . وراء الجمل الطنانة التي بها يعلن الادب الالماني المبادىء الاساسية للنظرية الالمانية **الطاهرة والحقة** للشيوعية والاشتراكية ، ليس ثمة فكرة واحدة وُلدت في ألمانيا . ما قاله الفرنسيون قبل عشر وعشرين بل وأربعين سنة ، على نحو كامل وفي لغة واضحة جدا وجميلة جدا ، انتهى الالمان الى معرفته في شكل نتف منذ عام وترجموه في الرطانة الهيغلية . في أفضل الحالات أعادوا اكتشافه بعد الأوان ، عرضوه في شكل أسوأ وأكثر تجريدا ، وقدموه على انه اكتشاف جديد . ولا أستثني من ذلك أعمالي بالذات . ما هو

---

٩١ ــ انظر **ف. انجلز** ، مرجع مذكور ، المقدمة . **م.أ.م.** ، جـ٢ ، ص ٦٠٤ .

٩٢ ــ انظر ص ٦٠٥ : «يجب على الالمان اخيرا ان يكفوا عن التبجح بعمق فكرهم . مع بقية من وقائع ، هم قادرون على بناء مجموعة مدهشة وتبيان صلاتها مع التاريخ الكلي الكوني ... هذا ما يعلل فقر **الاشتراكية المطلقة** الالمانية الذي لا يصدّق . كي تنطلق في مضارباتها النظروية ، يكفيها قليل من **الانسانوية** ــ وهي الان الكلمة ــ الموضة ــ ، تحقيق هذه الانسانوية ... ، بعض أقوال عن الملكية مستعارة من برودون عن طريق يد ثالثة ، بعض المراثي على حالة البروليتاريا ، بعض كلمات عن تنظيم الشغل وعن الجمعيات التي تريد انهاض وضع الطبقة العاملة ، والمجموع مصحوب بجهل كامل للاقتصاد السياسي وللحالة الاجتماعية . الى ذلك يضاف الحياد النظري ، **راحة الفكر المطلقة** ، التي تنزع عن هذا المذهب كل حياة وكل قوة وكل عزيمة . وبهذا الشيء **الكئيب والممل** يريدون تثوير المانيا ، تحريك البروليتاريا ، ودفع الجماهير الى الفكر والفعل !» .

خاص بالالمان هو فقط طريقتهم المجردة غير المفهومة وغير الموفقة في التعبير عن هذه الافكار . بما انهم منظّرون حقون ، لذا حتى الان لم يستعيروا من الفرنسيين – انهم يجهلون تقريبا كل شيء عن الانكليز ، فيما عدا بعض المبادىء **العامة** – الا أسوأ ما عندهم ، ما هو اكثر نظروية ، تصورهم التخطيطي البسيط للمجتمع المقبل ، المنظومات الاجتماعية ، التي يثمنونها وحدهم . بالمقابل ، أهملوا تماما أفضل ما عند الفرنسيين ، نقدهم **للمجتمع الحاضر** ، الذي يؤلف القاعدة الواقعية والعنصر الاساسي لكل نقد اجتماعي ، عدا عن ان هؤلاء المنظّرين الحكماء قد احتقروا او تجاهلوا الالماني الوحيد ، فايتلنغ ، الذي اتى بمساهمة حقيقية في هذا الميدان » (٩٣) .

يمكن ان ندرك على النحو الافضل الفرق الذي يفصل المنظّرين الفرنسيين عن المنظّرين الالمان بالمثال الذي يعطيه فوريه .

ليس فوريه فيلسوفا . وهو ايضا لا يريد ان يكون فيلسوفا ولا يخفي نفوره من الفلسفة ، ولكنه بالمقابل سيد في فن تحليل الوقائع الاقتصادية والاجتماعية ، واستنتاج تصورات نظرية منها (٩٤) .

أجل ان منظومة فوريه وآراءه عن المستقبل ليست خالية من غرابات (٩٥) ، ولكنه في اقامة مذهبه يعتمد على تحليل عميق للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ،

---

٩٣ – **المرجع نفسه** ، ص ٦٠٥ .

٩٤ – **المرجع نفسه** ، ص ٦٠٧ وبعدها : «فليستلهم العلماء الالمان ... الذين يظهرون كل هذا الحماس في البحث عن **مبدأ** الاشتراكية مثال هذا الوكيل التجاري . فوريه لم يكن فيلسوفا ، كان يمقت الفلسفة ، وقد سخر منها بقسوة في كتاباته ، ولكنه في الوقت نفسه قال كمية من الاشياء ، يحسن فلاسفتنا الالمان للاشتراكية صنعا اذا استلهموها . ستعترضون عليّ ولا شك بأن فوريه كان ايضا ، في بعض جوانبه ، كاتبا مجردا ، وكان يبني مع متوالياته ، بطريقة أخرى غير طريقة هيغل ، الله والعالم ... »

«لو ان أساتذتنا الالمان ، الذين هم نصف شيوعيين او شيوعيين تماما ، اعطوا انفسهم فقط عناء قراءة مؤلفات فوريه الرئيسية ، ... اي منجم لا ينضب من المواد كانوا وجدوا من اجل بناءاتهم او من اجل اي استعمال آخر ! اي حشد من أفكار جديدة – ما زالت جديدة بالنسبة لالمانيا اليوم – كان توفّر لهم ! حتى اللحظة الحاضرة هؤلاء «الجدعان» لا يعرفون ان يأخذوا على المجتمع الراهن الا شيئا واحدا ، هو حالة البروليتاريا ، وحتى في هذه النقطة ليس عندهم شيء كثير يقولونه . أجل ان حالة البروليتاريا هي الشيء الجوهري ، ولكن هل استنفد معها نقد المجتمع الحاضر ؟ فوريه الذي لا يكاد ، فيما عدا كتاباته الاخيرة يلمس هذا الموضوع ، يبيّن لنا كيف يمكن ، خارج ذلك ، ادانة وضع الاشياء الموجود ، كيف يمكن ، بمحض نقد البرجوازية معتبَرة في ذاتها وليس في علاقاتها مع البروليتاريا ، اقامة الدليل على ضرورة اصلاح اجتماعي .»

٩٥ – م.ن ، ص ص ٦٠٥ وبعدها .

الامر الذي أتاح له أن يرفد معرفة ونقد المنظومة الرأسمالية بإسهام كبير : «فوريه هو حتى الان الوحيد الذي طبق هذا النوع من النقد . كشف بلا رحمة لؤم المجتمع المحترم ، التناقض الموجود بين نظريته وممارسته ، الضجر الذي يخرج من نمط حياته . يسخر من فلسفته ، من طموحه الى **كمال قابلية الكمال خالقة ذاتها** والى **الحقيقة الجليلة** ، من اخلاقه الخالصة المحضة الطاهرة ، من رتابة المؤسسات الاجتماعية ، ويضع مقابل ذلك نمط حياتها الواقعي الفعلي ، **التجارة العذبة** التي ينقدها نقدا ممتازا ، لذاتها الشبقة ، ... تنظيمها للخيانة الزوجية والاختلاط العام الناجم عنه . تلك جوانب للمجتمع البرجوازي لم يكترث لها احد في المانيا حتى الان . أجل تحدثوا في اناسبات عن الحب الحر ، عن وضعية وتحرر المراة ، ولكن ماذا نتج عن ذلك ؟ بضع جمل مبهمة ، بضع أدبيات مدعيات ، أقوال هيستيرية ، عرض الحياة العائلية الالمانية التعيسة ...» (٩٦) .

كخاتمة ، يدعو انجلز المنظّرين الالمان الى أن يتعلموا من فوريه ، ومن المذاهبة الفرنسيين والانكليز الآخرين ، كيفية معالجة المسائل الاقتصادية والاجتماعية ، بدلا من ان يتهكموا على غرابة بعض تصوراته (٩٧) .

ولقد واصل انجلز نقد المنظّرين الاشتراكيين والشيوعيين الالمان ، لاسيما نقد الاشتراكيين «**الحقين**» ، ليس فقط بصورة مشتركة مع ماركس في **الايديولوجيا الالمانية** ، بل ايضا في مقال عن «عيد الامم في لندن» صدر عام ١٨٤٦ في **الحوليات الالمانية من اجل اصلاح المجتمع** (٩٨) .

نرى كيف كان انجلز ينفصل مثل ماركس ، ولكن على صعيد آخر وبكيفية مختلفة ، في آن معا عن فويرباخ ، الذي سبق لانجلز ، في رسالة الى ماركس حول شترنر ، أن انتقد نزعته الانتروبولوجية التي كانت تقوده الى تصور مجرد

---

٩٦ – **م.ن** ، ص ص ٦٠٨ وبعدها .

م.ن ، ص ٦٠٧ : «فوريه لا يبني المستقبل الا بعد تحليله الماضي والحاضر بشكل صحيح ، في حين ان المنظّر الالماني يرتب التاريخ الماضي كما يشاء ، الامر الذي يتيح له ان يحدد المستقبل بكيفية عسفية وان يعيّن له طريقة تطوره الواجب . يكفي ان نقارن مثلا أدوار التطور الاجتماعي عند فوريه (همجية ، بطريكية ، بربرية ، مدنيّة) وخصائصها مع الطريقة التي بها الفكرة المطلقة لهيغل تنمو وتنبسط بجهد وصعوبة خلال متاهة التاريخ كي تنتهي ، رغم تقسيم هذا التاريخ الى **اربع** امبراطوريات كبرى ، الى تريخوتوميا [الى انقسام ثلاثي] ، بصرف النظر عن البناءات الـ بعد-هيغلية . فلئن كانت البناءات عند هيغل لا يزال لها معنى ، حتى وان كان خاطئا ، فانها لا يبقى لها اي معنى عند مفبركي التاريخ الـ بعد-هيغليين .»

٩٧ – **م.ن** ، ص ص ٦٠٩ وبعدها .

٩٨ – **م.ن** ، ص ص ٦١١ – ٦٢٤ .

وخاطىء للانسان وبالتالي ايضا للمسائل الاجتماعية (٩٩) ، وعـــن الاشتراكيين «الحقيين» الذين كان يلومهم على تصوراتهم النظرانية . ان نفوره المتنامي ازاء كل نظران كان يبعده اكثر فأكثر عنهم وذلك بقدر ما كان الدفاع عن الانسية الفويرباخية يتحول عندهم الى صناعة الجمل . فقد كان يشدد في مقاله الانتقادات الذي سبق له ان وجهها اليهم في **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، حيث كان قد علل الميل الى تصريف المسائل الاجتماعية عند الاشتراكيين والشيوعيين الالمان بكونهم جميعا او تقريبا وصلوا الى الاشتراكية عن طريق إنسية فويرباخ التي لا يستطيعون التحرر منها . من هنا يأتي كونهم لا ينطلقون ، في تصوراتهم ، من تحليل العلاقـــــات الاقتصادية والاجتماعية ، بل من اعتبارات محض نظرية (١٠٠) . في انتقاداته ، لم يكن انجلز يوفر هس ، اذ كان يرى بوضوح متزايد ان هس ، لانه لا يتوصل الى التحرر من إنسية فويرباخ ، مُساق بالضرورة الى معالجة المسائل الاجتماعية بكيفية مجردة ودوغمائية ، شأنه شأن سواه من الاشتراكيين «الحقيين» .

بعد عودته من انكلترة حرر انجلز لجريدة **نجمة الشمال** الشارتية ، على الارجح بناء على طلب مدير هذه الجريدة ، ج. هارني ، الذي كان قد التقى به مع ماركس في فترة وجودهما في لندن ، سلسلة رسائل عن تطور المانيا الحديثة ، بقصـــد تنوير العمال الانكليز عن حالة هذا البلد .

في رسالة اولى عن «المجزرة الاخيرة في لايبتسيغ» (١٠١) ، كان انجلز يجلد

---

٩٩ – انظر انجلز الى ماركس في باريس (بارمـــــن ، ١٩–١١–١٨٤٤) ، م.ا.م. ، جـ٢٧ ، ص ١١ : «شتيرنر مُحِق حين يرفض الانسان كما يتصوره فويرباخ ، على الاقل في جوهر المسيحية. انسان فويرباخ مستنتَج من الله . فويرباخ جاء الى الانسان بواسطة الله ، مما يجعل ان الانسان يحتفظ عنده بهالة التجريد اللاهوتية. ان الانسان يبقى شبحا طالما لا يتطابق في الهوية مع الانسان الواقعـي . »

حتى أوائل ١٨٤٥ ، كان انجلز مع ذلك لا يزال يامل في كسب فويرباخ للشيوعية ، انظر انجلز الى ماركس في بروكسل (بارمن ، ٢٢–٢/٢٦ ، ٧–٣–١٨٤٥) ، م.ا.م. ، جـ٢٧ ، ص ٢٠ : «انـــه (فويرباخ) ، من جهة اخرى ، يزعم انه شيوعي ، ويقول ان المعضلة الوحيدة المطروحة بالنسبة له هي الكيفية التي بها سيحقق الانسان جوهره . من الممكن ان يذهب في هذا الصيف على الراين، سنعمل آنذاك بحيث يأتي الى بروكسل وسننجح في جعله يعتنق الشيوعية .»

١٠٠ – انظر م.ا.م. ، جـ٢ ، ص ٢٣٣ : «الاشتراكية والشيوعية انطلقتا هنا ، اكثر من اي بلد آخر ، من مقدمات نظرية . نحن المنظّرين الالمان كنا على جهل كبير بالعالم الواقعي كي تستطيع الظروف الواقعية ان تحفزنا مباشرة الى اصلاح العالم السيء . بين الانصار المعلَنين لمثـــل هذه الاصلاحات ، ليس ثمة واحد ان صح القول وصل الى الشيوعية عن غير طريق النقد الذي اجراه فويرباخ للفلسفة النظرانية الهيغلية .»

١٠١ – انظر **نجمة الشمال** ، ١٣ ايلول ١٨٤٥ ، العدد ٤٠٩ . م.ا.م. ، جـ٢ ، ص ص ٥٥٨ – ٥٦١ . **الحركة العمالية الالمانية** .

الحكومة السكسونية ، بشكل خاص الامير جان دوساكس ، الذي كان قد أمر باطلاق النار في ١٢ آب ١٨٤٥ في لايبتسيغ على الشعب الذي كان يتظاهر لصالح الحركة الديمقراطية الكاثوليكية ـ الجديدة ولصالح زعيمها يوهانس رونجه . هذه المذبحة ، وهي اكبر مذبحة حصلت بعد تمرد حياكي سيليزيا ، كان لها انعكاس هائل في ألمانيا ، وكانت قد اعطت ، نظرا لان الدعاية الكاثوليكية ـ الجديدة كانت تجد صدى متعاظما في صفوف الشعب ، دفعا قويا للحركة الديمقراطية ، بتشديدها المعارضة ضد الحكومة (١٠٢) .

بمناسبة هذه المجزرة ، يدرس انجلز شروط ثورة شيوعية في ألمانيا . بعكس ما كتب بعد وصوله الى انكلترة في مقال نشر في جريدة أوين ، **العالم الاخلاقي الجديد** ، حيث كان يرى ان المبادرة لثورة شيوعية في المانيا ستأخذها البرجوازية الثقافية ، يفكر الان ، كما عرض لتوه في **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، ان البرجوازيين ذوي الاتجاه الديمقراطي او الشيوعي لن يلعبوا ، بسبب موقعهم الطبقي ، سوى دور ثانوي في الثورة الشيوعية . هذه الثورة لا بد ان تكون جوهريا من صنع الطبقة العاملة الالمانية ، التي تستعد لها بصورة نشيطة بعد تمرد الحياكين . بالفعل ، ان البروليتاريا الالمانية ، فريسة البؤس ، تشارك أقل فأقل في التحريض الذي تقوم به البرجوازية لصالح حرية الصحافة والدستور ، لانها تعي ان تحقيق هذه الاصلاحات لا يمكن ان يحذف بؤسها ، فهذا الحذف لا يمكن ان يأتي الا من تشديد كفاحها الثوري ضد الطبقات المسيطرة (١٠٣) .

---

١٠٢ ـ **م.ن** ، ص ٥٥٩ وبعدها : «السكسون يجب الان ان يدركوا انهم مخضعون لنفس السيطرة العسكرية التي يخضع لها الالمان الآخرون ، وأنه رغم أنف الدستور والقوانين الليبرالية والرقابة الليبرالية وخطابات الملك الليبرالية فان الشرع الوحيد الموجود فعليا في بلدهم الصغير هو الشرع الذي ينظم حالة الحرب . وهناك شيء آخر يسهم ايضا في ان تنمي هذه القضية روح العصيان في ساكسونيا . مسيطرة على ثرثرة الليبراليين الساكسون ، غالبية الشعب السكسوني تبدأ ترفع صوتها . الساكس بلد صناعي ، وبين عماله ، حائكي الكتان ، عمال الالبسة ، غازلي القطن ، عمال الدانتيل ، شغيلة مناجم الفحم والمناجم المعدنية ، يسود ، منذ أزمنة سحيقة ، بؤس لا يوصف . الحركة البروليتارية ، التي انتشرت في كل المانيا منذ انتفاضة حياكي سيليزيا في حزيران ١٨٤٤ ، تركت آثارا عميقة في ساكسونيا . قبل قليل انفجرت اضطرابات في أماكن مختلفة بين العمال المستخدمين في بناء سكك الحديد وبين الطابعين على المنسوجات القطنية ، ومن المعقول او المؤكد ان الشيوعية ، ولو اننا لا نستطيع ان نقدم أدلة ايجابية ، تحقق هنا ، كما في كل مكان ، خطوات تقدم بين العمال ، وحين سيدخل العمال السكسون حلبة الصراع لن يكتفوا بالثرثرة كما يفعل مستخدموهم ، البرجوازيون الليبراليون .»

١٠٣ ـ **م.ن** ، ص ٥٦٠ : «العمل الثوري سينطلق في المانيا من الحركة العمالية . صحيح انه يوجد في برجوازيتنا عدد من الجمهوريين بل ومن الشيوعيين ، ويوجد ايضا شبان سيقدمون ، فيما

والبروليتاريا انما تستعد لهذا الكفاح بإضرابات وتمردات تتوالى منذ تمـــــرد الحياكين .

في رسائله الاخرى ، كان انجلز ينشىء عرضا واسعا عن حالة المانيا قبل وبعد الثورة الفرنسية (١٠٤) .

نتيجة عجز الاباطرة الالمان ازاء اتباعهم الكبار الذين كانوا نجحوا في صيانة استقلالهم ، بخلاف انكلترة وفرنسا اللتين كانتا تكونتا في مملكتين قويتين ، كانت الامبراطورية الالمانية قد سقطت في انحطاط ، دون ان ينقص لذلك الاضطهاد الذي كان يثقل كاهل الرعايا المستغَلين من قبل الامبراطور ومن قبل الامراء سواء بسواء. البرجوازية الالمانية ، التي كانت متأخرة بحكم التأخر الاقتصادي والاجتماعـــي لالمانيا ، كانت عاجزة عن تحويل وضع الاشياء الموجود ، كما كانت البرجوازيـــة الانكليزية قد فعلت في القرن السابع عشر (١٠٥) .

اذا قامت الان انتفاضة عامة ، خدمات لهذه الحركة ، ولكن هؤلاء برجوازيون، مستفيدون ، صناعيون ممتهنون ، ومن يستطيع ان يضمن لنا انهم لن يُفسَدوا بوضعيتهم الاجتماعية التـــي تضطرهم ان يعيشوا من عمل الآخرين وأن يسمنوا كالعلق بوصفهم مستغلي الطبقة العاملة ؟ ان عدد الذيـــن يحتفظون بذهنية بروليتارية مع بقائهم برجوازيين بمهنتهم تافه بالنسبة الى مجمل البرجوازيين الذين يبقون متمسكين مصلحيا بالنظام البرجوازي الموجود والذين ليس لهم من همّ سوى ملء جيوبهم . لحسن الحظ لا نعوّل بتاتا على البرجوازية ... لقد نمت حركة البروليتاريا وتطورت بسرعة مدهشة لدرجة انه سيكون بوسعنا خلال عام او عامين المرور أمام صف مجيد من الديمقراطيين والشيوعيين الآتين من الطبقة العاملة . الحاكون السيليزيون أعطوا اشارة الانطلاق في ١٨٤٤ . والطابعون على القطنيات وعمال سكك الحديد في بوهيميا وساكسونيا وبالواقع عمال الصناعة في كل أجزاء المانيا تقريبا استجابوا باضرابات وتمردات جزئية ، أثارها جميعا تقريبا حظر الائتلاف والتنظيـم المفروض عليهم . هذه الحركة امتدت الان الى كل البلاد تقريبا وهي تتواصل في الهـــدوء ، في حين ان البرجوازية تمضي وقتها في التحريض لصالح الدستور وحرية الصحافة ونظام الحماية الجمركيـــة والكاثوليكية الالمانية واصلاح الكنيسة البروتستانتية . رغم ان حركات البرجوازية هذه ليست عديمة الفائدة تماما ، الا انها لا تمس الطبقة العاملة ، التي لها حركتها الخاصة ، حركة من اجل الدفاع عن خبزها اليومي .»

١٠٤ ــ انظر (فر. انجلز) : الحالة في المانيا ، الرسالـــة I ، ذي نورذرن ستار ، ٢٥ــ١٠ــ١٨٤٥ . الرسالة II ، م.ن . ٨ــ١١ــ١٨٤٥ . الرسالة III ، م.ن ، ٨ــ٤ــ١٨٤٦ . م.أ.م. ، جـ٢ ، ص ص ٥٦٤ ــ ٥٨٤ .

١٠٥ ــ انظر الرسالة I ، ٢٥ــ١٠ــ١٨٤٥ ، م.أ.م. ، ص ص ٥٦٤ ــ ٥٦٧ ، ص ص ٥٦٦ وبعدها: «تلك كانت حالة المانيا حوالي نهاية القرن الماضي . البلاد بأسرها لم تكن سوى عفن وانحطاط . لم يكن احد يشعر نفسه مرتاحا . الحِرف ، التجارة ، الصناعة ، الزراعة ، كانت سقطت الى لا شيء تقريبا . الفلاحون والحرفيون والصناعيون كانوا يعانون من الاضطهاد النازل بهم من جانب

ان عنصر التقدم الوحيد ، في الحالة البائسة التي كانت فيها المانيا في أواخر القرن الثامن عشر ، كان التطور الادبي والفلسفي الواسع ، الذي لم يكن في اي شيء دون تطور الامم الاكثر تقدما . ان أعمال الكتاب والفلاسفة الكبار (غوته ، شيلر ، كَنط ، فيخته ، هيغل) كانت تترجم عن روح تمرد ضد النظّام العفن . ولكن ، مع تقدمهم في السن ، كان هؤلاء المفكرون الكبار ، الذين كانوا باقين منعزلين ، يتخلون شيئا فشيئا عن أمل رؤية المانيا تتجدد ويدعون نفسهم للاستسلام (١٠٦) .

في هذه الحالة من تفكك المانيا انفجرت الثورة الفرنسية كدوي رعد . لقيت صدى كبيرا ، ليس في الشعب المضطهَد ، المعتاد على الخضوع سلبيا لمصيره ، بقدر ما في البرجوازية المستنيرة وقسم من النبلاء ، حيث استُقبلت بترحاب . ولكن هذا الحماس كان محصورا في نظريات الثورة الفرنسية ، ولم يكن يشمل الاجراءات العملية التي كانت مقادة الى اتخاذها . حين بعد سقوط الجيرونديين، أخذ الشعب السلطة وقام عهد الارهاب في فرنسا ، تحوّل حماس الالمان ، الذي لم يكن يرتكز على مصالح طبقية فعلية والذي كان بالتالي ذا طابع مثالي ، الى حقد ضد الثورة وضد الشعب الفرنسي (١٠٧) .

بيد ان ايام الامبراطورية الالمانية القديمة كانت معدودة . الجيوش الثورية الفرنسية ، التي تقدمت حتى الراين ، قلبت النظام القائم رأسا على عقب باسم مبادىء الحرية والمساواة (١٠٨) . نابوليون سدد للامبراطورية المذكورة طلقة الرحمة بتدميرة اياها وتعزيزه الدول الكبرى وإدخاله تشريعا مدنيا يستلهم مبدأ المساواة (١٠٩) .

نابوليون لم يكن عاهلا مستبدا بمعنى الكلمة المألوف . أجل كان يحكم بطريقة طغيانية ، كما كان المؤتمر الوطني la Convention قد فعل وكما يفعل الان الامراء

حكومة لا رحمة فيها ومن وضع الاعمال السيء ، النبلاء والامراء كانوا يشكون من انه رغم الاستغلال المتنامي لرعاياهم فان دخولهم لا تزداد بسرعة ازدياد مصاريفهم . كل شيء كان راسا على عقب وكان يسود البلاد انزعاج عام . التعليم كان عند نقطة ميتة ، لم يكن هناك اي وسيلة للتأثير على وعي الجماهير ، لم يكن هناك لا صحافة حرة ولا روح عام ولا حتى علاقة نشيطة مع بلدان اخرى . لم يكن كل شيء سوى إذلال وأنانية . ان روحا مسكينة ودنيّة وبائسة كانت نافذة في كل الشعب . كان كل شيء هرما باليا ، يتفتت ويهدد بالخراب . لم يكن هناك ادنى امل في تغيير ملائم بل ولم يكن للأمة قوة التخلص من بقايا مؤسسات آخذة في التعفن» .

١٠٦ — م.ن ، ص ٥٦٧ .

١٠٧ — م.ن ، ص‌ص ٥٦٧ وبعدها .

١٠٨ — م.ن ، ص ٥٦٨ .

١٠٩ — م.ن ، ص‌ص ٥٦٨ وبعدها .

الالمان ، ولكن فقط لان الظروف كانت تضطره الى ذلك (١١٠) . حين بعد زواجه من بنت الامبراطور طمح الى ان يصير اول ملوك اوروبا ، منحنيا هكذا امام مبدأ الشرعية ، صار ضحية أنصار الشرعية ، الذين لم يكونـــوا يرون فيه سوى مغتصب (١١١) .

كان سقوط نابوليون جوهريا من صنع انكلترة التي نظمت ودعمت كـــل الاحلاف الموجهة ضده وروسيا التي دمرت الجيش العظيم . ان ابادة هذا الجيش اعطت الامراء الالمان فرصة التحرر من نير متزايد الثقل . البرجوازية ، التي لـم تكن تغفر لنابوليون لا التجنيد الذي كان يأخذ منها ابناءها ولا الحصار القاري الذي كان يحرمها من السكر والقهوة ، انضمت اليهم . ناسيـــة أن هذا الحصار ، بتحريره ألمانيا من المزاحمة الانكليزية ، كان يخلق الشروط الضرورية لتطـــور الاقتصاد الالماني ، البرجوازية ومعها كل الشعب حيَّت الانكليز كأصدقاء ومحررين، في حين ان هؤلاء لم يكونوا يفكرون الا بالافادة من النصر لاستغلالهما (١١٢) .

في هذه الشروط انفجرت حرب التحرير لسنوات ١٨١٣ ــ ١٨١٥ ، الحرب التي تمجَّد بوصفها الدور الامجد في تاريخ المانيا ، في حين انها لم تخدم فـــي الواقع سوى تأمين نجاح الثورة ــ المضادة في ألمانيا . فهذه الحرب قامت على يد فلاحين كانوا ، بما أنهم عاجزون عن التحرر من العبودية التـــي تثقل عاتقهم ، يساندون بالواقع مصالح النبلاء ، على يد طلاب عصَّبتهم أفكار القومية والشرعية وإيمانهم الديني ، على يد تجار كانوا يعوّلون على النصر لتحقيق أعمال جيدة ، وأخيرا على يد أقلية من المثقفين الذين كانوا يحلمون بالوحدة والحرية لالمانيا (١١٣).

---

١١٠ ــ م.ن ، ص ٥٦٨ .

١١١ ــ م.ن ، ص‌ص ٥٦٩ وبعدها .

١١٢ ــ م.ن ، ص ٥٦٩ .

١١٣ ــ م.ن ، ص‌ص ٥٦٩ وبعدها : «**حرب التحرير المجيدة** لـ ١٨١٣ ــ ١٨١٤ و١٨١٥ ، **الحقبة الاكثر مجدا في التاريخ الالماني** ، كما نعتوها ، لم‌تكن بالواقع سوى فعل جنوني ، سيخجل منه في المستقبل كل الماني شريف وذكي . أجل حصل آنذاك كثير من الحماس » ولكن من كان هـــؤلاء المتحمسون ؟ كانوا اولا الفلاحين ، هذه الطبقة الاكثر غباء بين جميع الطبقات ، الذين ثاروا جموعا، مفضلين الموت على رفض اطاعة هؤلاء الذين‌كانوا يضطهدونهم كما كانوا قد اضطهدوا آباءهم وأجدادهم، والذين كانوا يرضون بأن يُداسوا بالاقدام وبأن يجلدوا . ثانيا الطلاب وبوجه عام الشبان ، الذين كانوا يرون في هذه الحرب حرب مبادىء بل حربا دينية ، اذ كانوا يعتقدون انهم مدعوون للقتال ليس فقط في سبيل مبدأ الشرعية الذي كانوا يخلطونه مع مبدأ القومية ، بل ايضا في سبيـــل الثالوث الاقدس ووجود الله . في كل القصائد وكل منشورات ونداءات تلك الحقبة ، الفرنسيون يُفضَحون بوصفهم حاملي الالحاد واللادين واللاأخلاق ، والالمان بالمقابل يمجَّدون بوصفهم ممثلي الدين والتقوى والوفاء . في المقام الثالث ، بعض الاذهان المستنيرة الذين يضمون الى هذه الافكار بعض

ان سقوط نابوليون فتح الطريق للثورة ــ المضادة في كل اوروبا بالاتحاد الذي قام بين جميع الدول الرجعية في الحلف المقدس ، الذي كان تحت قيادة القيصر ومترنيخ (١١٤) . في مؤتمر فينا ، الذي كان هدفه اعادة وضع الاشياء السابق للثورة ، قُطّعت الامم وفق مصالح الثورة ــ المضادة (١١٥) . الفائدة الرئيسية من سقوط نابوليون جنتها انكلترة وروسيا ، انكلترة لانها حصلت على مستعمرات جديدة وأمنت لنفسها مع السيطرة على البحار الهيمنة على السوق العالمية (١١٦)، روسيا لانها أضحت أعظم قوة في البر الاوروبي . فرنسا خرجت من هزيمتها بنجاح نسبي ، لم تصب باقتطاع اقاليم ونالت دستورا ليبراليا نسبيا ، في حين ان المانيا وايطاليا وبولونيا بقيت مجزأة (١١٧) . جعلوا من المانيا كونفيدراسيون [اتحادا] من الدول على رأسه مجلس Diète تلعب فيه النمسا مع مترنيخ وبروسيا مع فريدريك غليوم الثالث دورا مقرِّرا (١١٨) .

بحكم تجزّئها الذي كان يعيق تطورها الاقتصادي ، المانيا صارت أرضا منتخَبة لتصريف السلع الانكليزية في الوقت نفسه الذي كانت فيه ارضا منتخَبة

مفاهيم عن الحرية ، عن الدستور ، عن حرية الصحافة ، ولكنهم لم يكونوا يشكلون سوى أقلية صغيرة . في المكان الرابع ، كان يأتي ابناء الصناعيين والتجار والمضاربين الذين كانوا يناضلون من اجل حق ان يشتروا في الاسواق الانسب وأن يشربوا قهوة بلا شيكوريه Chicorie . بالطبع كانوا يحجبون أهدافهم وراء شعارات اليوم ، وراء الحرية ، **عظمة الشعب الالماني** ، **الاستقلال القومي** . هكذا كان الرجال الذين ، بمساعدة الروس والانكليز والاسبانيين ، هزموا نابليون .»

١١٤ ــ م.ن ، ص ٥٧٢ : «ان سقوط نابوليون اعتُبر من قِبل جميع الدول المنتصرة **هلاك** الثورة الفرنسية وظفر الشرعية . والعواقب كانت بطبيعة الحال اعادة اقامة هذا المبدأ داخل البلاد اولا تحت ستار شعارات من طراز : **الحلف المقدس** [العهد المقدس] ، **السلام الابدي** ، **الخير العام** : **الثقة بين الامير والرعية** ، الخ ، ثم بوحشية بواسطة الحراب والسجون ... فقد احتفل بسحق الثورة الفرنسية بمذبحة الجمهوريين في جنوبي فرنسا ، واقامة محرقات هيئة التفتيش ، واعادة الاستبدادية في ألمانيا وايطاليا ، وكذلك بحذف حرية التعبير ومجزرة **بترلو في** انكلترة .»

تُعرف بهذا الاسم المجزرة التي وقعت في ١٦ آب ١٨١٩ قرب مانشستر ، حيث كان قد تجمَّع ستون الف متظاهر ، معظمهم من العمال ، كانوا يطالبون بالاقتراع العام وشروط عمل أفضل وأجور أعلى .

انظر ايضا **م.ن** ، ص ٥٧٨ .

١١٥ ــ **م.ن** ، ص ٥٧٣ .

١١٦ ــ **م.ن** ، ص ٥٧١ .

١١٧ ــ **م.ن** ، ص ٥٧٣ .

١١٨ ــ **م.ن** ، ص ٥٨١ .

للتحركات الرجعية (١١٩) .

بخلاف دول وسط وجنوبي المانيا التي قد نالت دساتير ليبرالية ـ خادعة (١٢٠)، بروسيا بقيت بالواقع ملكية مطلقة . بعد فاصل ليبرالي قصير تسمه اصلاحات شتاين وهاردنبرغ ، صارت ، مثل النمسا ، مركزا مضادا للثورة . فريدريك ـ غليوم الثالث ، وهو رجل ناشف ومحدود ، أهل لان يكون مفتشا على أزرار البزات العسكرية ، أنكر العهد المهيب الذي كان قد قطعه لشعبه بأن يمنحه دستورا (١٢١) .

مع ذلك ، رغم اجراءات القمع ، لم تكن معارضة البرجوازية ضد النبلاء والملكية المطلقة تكف عن النمو . معتمدة على قوة المال ، كانت تناضل على نحو متزايد العزم ضد الامتيازات النبيلية والحكم المطلق ، مطالبة بشكل خاص بدستور ليبرالي وبحرية الصحافة (١٢٢) .

لما كانت الحركة الليبرالية تطلب هذه الاصلاحات باسم مبدأ المساواة ، فقد ظهرت ، بادىء ذي بدء ، حركة ديمقراطية بعمق . ولكن بما ان البرجوازية لم تكن بالواقع تدافع في نضالها السياسي الا عن مصالحها الطبقية ، لذا لم تكن الحركة الليبرالية بالحقيقة تتصف بشيء ديمقراطي . فحق التصويت الذي كانت تطالب به كان محدودا بالاقتراع الضريبي الذي يستبعد الشعب من السلطة . وحرية الصحافة كانت تجعل من الصحافة نظرا لتكاليفها امتيازا للبرجوازية . وكذلك الامر بالنسبة لهيئة المحلفين اذ لا يستطيع ان يصير محلفا سوى مواطن ميسور (١٢٣) .

---

١١٩ ـ م.ن ، ص ٥٧٤ .

١٢٠ ـ م.ن ، ص ٥٧٥ .

١٢١ ـ م.ن ، ص‌ص ٥٧٢ ـ ٥٧٣ ، ٥٧٥ ـ ٥٧٦ .

١٢٢ ـ م.ن ، ص ٥٧٩ : «بما ان البرجوازية ليست قوية الا بالمال ، لذا فهي لا تستطيع الوصول الى السلطة السياسية الا بأن تجعل المال المحك الوحيد لقدرة فرد من الافراد على المشاركة في انضاج التشريع . يجب عليها ان تلغي كل الامتيازات الاقطاعية ، كل احتكارات الازمنة الغابرة، لتحل محلها الامتياز الكبير الوحيد والاحتكار الكبير الوحيد ، امتياز واحتكار المال ... ان السيطرة السياسية للطبقة البرجوازية لها بحكم ذلك طابع ليبرالي جوهريا . البرجوازية تدمر كل الفوارق القديمة بين مختلف الاوضاع ـ الهيئات الطبقية ـ الدول [Etats] في بلد من البلدان ، كل الامتيازات وكل الحريات المرتكزة على العسف . انها مضطرة لان تجعل المبدأ الانتخابي اساس الحكومة، لان تعترف مبدئيا بالمساواة ، لان تحرر الصحافة من قيود الرقابة الملكية ، ولان تدخل نظام المحلفين كي تتحرر من الطبقة الخاصة التي يؤلفها القضاة والتي تشكل دولة داخل الدولة .»

[من الضروري الاشارة الى ان Etats تعني أوضاع ، هيئات ـ طبقات ، دول .]

١٢٣ ـ م.ن ، ص ٥٧٩ : «ان الليبراليين (الذين يظهرون للوهلة الاولى ديمقراطيين) لا يطالبون في الواقع بكل هذه الاصلاحات الا بقدر ما هي تمكن من احلال امتياز المال محل كل الامتيازات القديمة

كانت البرجوازية الالمانية تقلد ــ بهذه الطريقة في تسويغ مطالبها باسم الحرية والمساواة ــ البرجوازية الفرنسية ، التي كانت هي ايضا قد استنجدت قبل وبعد الثورة بهذه المبادىء دفاعا عن مصالحها . بما ان البرجوازية الالمانية لم تكن تملك لا القوة ولا العزيمة اللازمتين لانتصار هذه المصالح ، لذا احتفظت الليبرالية في المانيا حتى ثورة ١٨٣٠ بطابع نظري . لما كانت الطبقات الوسطى والفلاحون لا يهتمون اجمالا بالقضايا العامة ولما كانت البروليتاريا لا تزال في طريق التكوّن ، فقد اقتصرت المعارضة حتى ١٨٣٠ على مثقفين كانوا يعتبرون المبادىء ، التي باسمها كانت البرجوازية الفرنسية تخوض كفاحها ، حقائق مطلقة وأزلية (١٢٤) .

في البداية ، لعبت جمعيات الطلاب السرية ، المجتمعة في حركة **البورشنشافت** Burxhmchaft المتولدة من حرب التحرير ، دورا كبيرا في هذه المعارضة . ان ايديولوجيا **البورشنشافت** ، التي كانت تجمع طلابا ذوي اتجاه قومي ومسيحي وطلابا ليبراليين ، كانت بالغة الغموض . العنصر الاساسي في هذه الايديولوجيا كان مثلا أعلى جرمانياً ــ مسيحيا ، يستجيب لرؤية مُمثلَنة عن

الشخصية او الوراثية . هكذا فان حق المواطن في ان يُنتخب محفوظ ، بفضل مبدأ الاقتراع الضريبي ، للبرجوازية . والمساواة ، من جهتها ، ملغاة في الواقع بحكم اقتصارها على المساواة امام القانون ، وهذا يعني ان المساواة ، بما ان اللامساواة بين الاغنياء والفقراء مُبقاة ، لا تتأكد الا في اطار هذه اللامساواة الاساسية ، وانهم «يعمّدون» اللامساواة باسم «مساواة» . والامر كذلك بالنسبة لحرية الصحافة ، التي تصير امتيازاً للبرجوازية من جراء ان الطباعة مكلّفة وأنه ينبغي ايجاد مشترين معهم المال الضروري لدفع ثمن ما هو مطبوع . هيئة المحلفين هي ايضا امتياز للبرجوازية ، اذ ان البرجوازيين يسهرون على ان لا يستطيع الجلوس على مقاعد المحلفين الا **اشخاص محترمون.»**

١٢٤ ــ **م.ن** ، ص ص ٥٨٠ وبعدها : «بما ان الالمان يؤلفون أمة من النظريين الذين ليس لهم خبرة عملية او تقريبا ، فقد اعتبروا الشعارات الخادعة التي باسمها كافحت البرجوازية الانكليزية والفرنسية حقائق ازلية . الطبقات البرجوازية في المانيا كانت سعيدة باستطاعتها المضي بهدوء في اعمالها الصغيرة . حين كانت تتوصل الى نيل دستور ، كانت تتبجح بأنها انتزعت الحرية ، ولكنها بالواقع لم تكن تعنى كثيرا بالشؤون العامة . حيث لم يكن يوجد دستور ، كانت سعيدة بأن لا يكون عليها ان تنتخب نوابا وأن تقرأ خطبهم . الطبقة العاملة لم تكن تملك الرافع القوي الذي رفعها في فرنسا وانكلترة : المانيفاكتورات الكبيرة والمزاحمة وسيطرة البرجوازية . لذا كانت تبقى هادئة. الفلاحون كانوا يشعرون بأنهم مضطهَدون جدا في الاجزاء الالمانية التي كانت فيها المؤسسات الحديثة الفرنسية قد ألغيت بالرجوع الى النظام القديم الاقطاعي ، ولكن كان يلزمها محرض اقوى ليقودها الى ثورة صريحة . لذا ، فان الحزب الثوري لم يكن يتألف في المانيا من ١٨١٥ الى ١٨٣٠ سوى من **منظِّرين** . كان يتجند في الجامعات ولم يكن يشمل سوى طلاب .»

الامبراطورية الجرمانية القديمة (١٢٥) . رغم أفكارها المشوشة ، لعبت **البورشنشافت** دورا كبيرا في نشر أفكار ثورية في المانيا ، وقت كانت اوروبا مهيَّجة من قِبل الانتفاضات الشعبية في اسبانيا والبرتغال وايطاليا واليونان ، الانتفاضات التي ، باستثناء ثورة اليونانيين على الاتراك ، سُحقت من قبل الحلف المقدس (١٢٦) .

مخنوقة في ظل عهد الحلف المقدس ، المعارضة الثورية نالت دفعا كبيرا على يد ثورة ١٨٣٠ ، التي اتت ، في فرنسا اولا ثم في بلجيكا ، بالبرجوازية الى الحكم. بعد عامين وصلت اليه البرجوازية الانكليزيةايضا بإقرار **مشروع الاصلاح.** بالمقابل ، الانتفاضات التي انفجرت آنذاك في ايطاليا وبولونيا سُحقت من جديد. في المانيا ، ثورة ١٨٣٠ وُلدت حركة نصف ليبرالية ونصف ــ ديمقراطية ، هُزمت هي ايضا بسهولة كافية بسبب ضعف البرجوازية والطبقة العاملة . من جراء هذا الفشل ، احتفظت الليبرالية في المانيا بطابع نظري ، وشعارات **الدستور وحرية الصحافة** ، التي باسمها كانت البرجوازية الفرنسية قد خاضت كفاحها ، ظلت تُعتبر مبادىء أزلية ، الامر الذي فسح المجال عند الليبراليين لفيض من بلاغة فارغة (١٢٧) .

---

١٢٥ ــ م.ن ، ص ٥٨١ : «من اجتماع هاتين الشيعتين (الجرمانيين ــ المسيحيين والليبراليين اي «الاحرار») ، اللتين لا يمكن نعتهما بحزبين ، وُلد هذا التشكيل البندوق من الليبراليين ، الذين كانوا ، في جمعياتهم السرية ، يحلمون بأمبراطور مع تاج ورداء أرجواني وصولجان وكل البهرجة ، دون ان ننسى اللحية الطويلة الرمادية او الحمراء ، تحيط به هيئات ــ طبقات عامة، فيها يكون الاكليروس والنبلاء والبرجوازية والفلاحون منفصلين عن بعضهم بعضا حسب الاصول . كان هذا يشكل المزيج الاكثر مدعاة للضحك الذي يمكن تصوره ، مزيجا من الوحشية الاقطاعية والخداع البرجوازي الحديث . ولكنه كان بالضبط ما يناسب الطلاب المتعطشين الى الحماس والذين لا يبالون كثيرا بالهدف .»

١٢٦ ــ م.ن ، ص‌ص ٥٨١ ــ ٥٨٢ .

١٢٧ ــ م.ن ، ص‌ص ٥٨٢ وبعدها : «كانت البرجوازية الالمانية تريد ان تكون حرة سياسيا ، لا لكي تقود الشؤون العامة طبقا **لمصالحها** ، بل لانها كانت تخجل من حالتها العبدية ، بالنسبة الى الفرنسيين والانكليز . كانت حركتها تفتقر الى القاعدة المتينة التي كانت أمَّنت نجاح الليبرالية في فرنسا وانكلترة . مسألة الليبرالية هذه كانت بالنسبة لها موضع مصلحة نظرية اكثر منها عملية ، الامر الذي يفسر لامبالاتها النسبية ، بعكس البرجوازية الفرنسية لعام ١٨٣٠ التي هي لم تظهر بتاتا موقف اللامصلحة واللامبالاة . ففي اليوم التالي للثورة ، كان لافيت يقول : «الان نحن اصحاب البنوك سنحكم» ، وهذا ما يفعلونه حتى هذا اليوم . البرجوازية الانكليزية هي ايضا كانت تعلم جيدا ما هي فاعلة حين أدخلت نظام الاقتراع الضريبي . بما ان البرجوازية الالمانية تتألف من رجال اعمال صغار ، من متحمسين ، يعجبون بـ **حرية الصحافة** ، **وهيئة المحلفين** ، **والضمانات الدستورية للشعب** ، و **التمثيل الشعبي** ، التي يأخذونها كفايات في ذواتها لا كوسائل لتحقيق الغايات ، لذا فقد اخذت الظل على انه الفريسة ولم تحصل على شيء .»

ان تفاقم الرقابة والقمع وضع حدا لهذه الحركة . قادتها سُجنوا او اضطروا الى الهروب خارج البلاد ، بحيث اختفت تماما تقريبا من المسرح حتى سنة ١٨٤٠ . فقط في برلمان دوقية بادن الكبرى استطاعت المعارضة ان تُسمع صوتها بعد هذا التاريخ ، ولكن بدون نجاح كبير (١٢٨) . لا النمسا ، حيث كان الشعب يرضخ للاستبدادية بلا فعل ، ولا بروسيا ، حيث كانت البرجوازية مستمرة في عدم اهتمامها بالشؤون العامة ، كان بامكانهما توفير ارض صالحة لتطور الحركة الليبرالية . والحال ، لم يكن ممكنا ان تنطلق حركة ليبرالية كبيرة في المانيا سوى من بروسيا ، التي كانت تؤلف الان مركز التاريخ الالماني (١٢٩) .

في الوقت نفسه مع تطور الحركة الليبرالية ، كانت تتطور في فرنسا وانكلترة الحركة الديمقراطية للطبقة العاملة ، الحركة التي كانت تشكلت قبل ١٨٣٠ . نتيجة ضعف الطبقة العاملة وطابع البرجوازية الذي كان لا يزال تقدميا ، ظلت الحركة الديمقراطية العمالية في البداية تابعة للحركة الليبرالية البرجوازية ، اذ ان العمال ما كانوا بعد يدركون الفرق بين الليبرالية بوصفها التعبير السياسي عن المصالح الطبقية للبرجوازية وبين الديمقراطية . هذا يعلل كون الطبقة العاملة بقيت في البداية أداة في أيدي البرجوازية . هكذا أثناء ثورة ١٨٣٠ ناضل العمال الفرنسيون من اجل تحقيق ظفر مصالح البرجوازية ، وهذا ايضا ما فعله العمال الانكليز بمطالبتهم بإلغاء رسوم الدخول على الحبوب . ان هذا الخضوع ، خضوع مصالح العمال الطبقية لمصالح البرجوازية ، لم يكن ممكنا الا طالما بقيت البرجوازية طبقة تقدمية . بأخذها السلطة في انكلترة وفي فرنسا وبصيرها بذلك ذاته طبقة محافظة ، لم تعد البرجوازية تفكر الا بالدفاع عن مصالحها الخاصة ، الامر الذي أدى الى تعارض اكثر وضوحا وحدّة بين البرجوازية والبروليتاريا و ، معه ، بين الليبرالية والديمقراطية (١٣٠) . ولكن حتى في الاربعينات أظهرت الطبقة العاملة

---

١٢٨ – م.ن ، ص ٥٨٣ .

١٢٩ – م.ن ، ص‌ص ٥٧٨ – ٥٨٣ .

١٣٠ – م.ن ، ص‌ص ٥٧٩ وبعدها : «الشيء الاول الجدير بالتعليل هو انه ، في الحقبة الممتدة بين ١٨١٥ و١٨٣٠ ، كانت حركة الطبقة العاملة ذات الطابع الديمقراطي جوهريا ، في كل البلدان، تابعة في كثير او قليل لتحرك **البرجوازية** الليبرالي . الطبقة العاملة ، رغم كونها اكثر تقدما من البرجوازية ، لم تكن بعد تستطيع ان تدرك الفرق الكامل بين الليبرالية والديمقراطية ، بين تحرر الطبقة البرجوازية وتحرر الطبقة العاملة ، لم تكن تستطيع التفريق بين الحرية المعطاة **للمال** والحرية المعطاة **للانسان** ما لم يتحرر المال تماما على الصعيد السياسي وما لم تصبح البرجوازية طبقة محض مسيطرة . لذلك قدم ديمقراطيو بترلو عرائض ليس فقط لصالح الاقتراع العام ، بل ايضا لصالح الغاء قانون الحبوب . لذلك ايضا قاتل البروليتاريون في ١٨٣٠ في باريس من اجل المصالح السياسية

معارضتها لا بواسطة حركات منظمة ، بل بواسطة تمردات معزولة ما كان لها ان تقود الى اي شيء راسخ (١٣١) .

في مقال اخير كان فيه انجلز يدرس القوانين الانكليزية عن الحبوب ، حلل أسباب وضع وإلغاء رسوم الدخول على هذه الحبوب (١٣٢) . حتى منتصف القرن الثامن عشر ، انكلترة صدّرت حبوبا . انخفاض سعرها وازدياد سعر اللحم أديا الى تحويل الحقول الى مراعٍ بشكل سريع ، الامر الذي اضطر انكلترة الى استيراد حبوب . الحصار القاري ، الذي أوقف هذا الاستيراد ، أدى الى ازدياد سعر القمح والى اعادة تحويل المراعي الى اراضٍ زراعية . سلم ١٨١٤ سهّل من جديد استيراد الحبوب . وحماية لمصالح المزارعين وضع المحافظون ، وكانوا آنذاك في الحكم ، رسوم دخول على الحبوب ، بغية ابقاء سعر بيع القمح في انكلترة عند معدل مناسب (١٣٣) .

هذا أغضب ليس فقط العمال الذين كانوا يرون سعر الخبز يرتفع ، بل ايضا المزارعين الذين كانوا يجدون انفسهم غير محميين بصورة كافية من قبل هذه الرسوم ، والبرجوازية التي كان عليها من جراء ارتفاع سعر الخبز ان تدفع اجورا أعلى . مستفيدة من سخط الطبقة العاملة ، البرجوازية اسست في ١٨٣٨ رابطة ضد قوانين الحبوب وطلبت الغاء هذه القوانين . كانت تزعم ، وهي تفعل هذا ، انها لا تبتغي سوى رفاه الشعب . في الواقع ، لم تكن تفكر الا في الدفاع عن مصالحها ، فحذف رسوم الدخول على الحبوب من شأنه ان يمكنها ، بتخفيض أكلاف المعيشة ، من تقليص الاجور ومن أن تكون هكذا اقدر على مواجهة المزاحمة الاجنبية (١٣٤) .

حين في ١٨٤٢ أدى توقف الاعمال الى ازمة ألقت بالعمال في بؤس عميق ،

للبرجوازية وهددوا في ١٨٣١ في انكلترة بأن يقاتلوا من اجل هذه الحقوق ذاتها . في كل الاقطار، كوّنت البرجوازية من ١٨١٥ الى ١٨٣٠ اقوى فئة في الحزب الثوري وأعطته بالتالي زعماءه. الطبقة العاملة هي بالضرورة أداة بين ايدي البرجوازية طالما هذه البرجوازية تبقى ثورية او تقدمية ... ولكن بدءا من اليوم الذي تستولي فيه البرجوازية على السلطة السياسية ، بدءا من اليوم الذي فيه كل المصالح الاقطاعية والارستقراطية تباد من قبل سلطة المال والذي فيه تكف البرجوازية عن كونها تقدمية وثورية لتضحي محافظة ، تأخذ الطبقة العاملة قيادة الكفاح وترتدي حركتها طابعا قوميا . »

١٣١ — م.ن ، ص ٥٨٣ .

١٣٢ — فر. انجلز : تاريخ القوانين الانكليزية على الحبوب ، في التلغراف لالمانيا ، ديسمبر ١٨٤٥ ، العددين ١٩٣ و١٩٤ . م.ا.م. ، جـ٢ ، ص ص ٥٨٥ — ٥٩٠ .

١٣٣ — م.ن ، ص ص ٥٨٥ وبعدها .

١٣٤ — م.ن ، ص ٥٨٦ .

اتخذ التحرك من اجل الغاء رسوم دخول الحبوب طابعا ثوريا . انعقـدت لقاءات متزايدة الحجم ـ لقاء مانشستر ضم خمسمئة الف شخص . لاثارة انتفاضـــة تضطر الحكومة الى التسليم ، كان الصناعيون مصممين على اغلاق فباركهم ، ولكن العمال سبقوهم بإضراب عام للنسيج انفجر في اللانكاشاير . ولشد ما كانت دهشة البرجوازية حين رأت العمال ، بدلا من ان يطلبوا أولويا الغـــاء قوانين الحبوب ، يشترطون قبل كل شيء زيادة للاجور وإقرار الميثاق [الشارت] (١٣٥) .

أمام الخطر الماثل في انتفاضة العمال المسانَدين من قبل الشارتيين ، ساعدت البرجوازية الحكومة على سحقها ، الامر الذي كشف وجههـــا الحقيقي لكـــل البروليتاريين . واذ بات العمال مصممين على ان لا يناضلوا بعد الان الا فـــي سبيل مصالحهم الطبقية ، فقد نفضوا يدهم من الغاء قوانين الحبوب ، وحين في ١٨٤٣ نُظّم من جديد تحرك كبير لصالح هذا الالغاء من قبل البرجوازية ، استُقبل خطباؤها بالصفير والإهانات من جانب العمال ، لدرجة انها اضطرت الى نقل هذا التحريض من الاقضية الصناعية نحو الاقضية الريفية (١٣٦) .

كخاتمة ، كان انجلز يبرز ان الغاء قوانين الحبوب سيسفر عن نتائج عميقة ، اقتصادية واجتماعية وسياسية . فهو سيسلم الزراعة الانكليزيـــة للمزاحمة الاجنبية ، سيزعزع بالتالي قدرة كبار الملاكين العقاريين ويسعّر نضالهم ضـــد المزارعين Fermiers ، سيوطد قدرة البرجوازية مشـــددا في الوقت نفسه الصراع بينها وبين البروليتاريا ، وسيضع اخيرا في امر اليوم اصدار الميثاق (١٣٧).

بهذه المقالات ، التي كانت تعادل بعمق ودقة تحليل العلاقات الاقتصاديـــة والاجتماعية **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، كان انجلز يثبت قدرته الفائقة على محاكمة الحوادث التاريخية ، القدرة التي كانت ستجعل منه الان المعاون المثالي لماركس في **الايديولوجيا الالمانية** .

---

١٣٥ ـ **م.ن** ، ص‌ص ٥٨٧ وبعدها .

١٣٦ ـ **م.ن** ، ص ٥٨٩ .

١٣٧ ـ **م.ن** ، ص‌ص ٥٩٩ وبعدها .

الفصل الرابع

« الايدلوجيا الالمانية » [1]

تحرير الكتاب ونشره

الايديولوجيا الالمانية هي ، بعد **العائلة المقدسة** ، ثانــــي مؤلف حرره ماركس وانجلز بصورة مشتركة .

في هذا المؤلف يقيمان بشكل اكثر نسقية واكثر عمومية مما فعلاه حتى الان مبادىء المادية التاريخية والاشتراكية العلمية ، بوصفها الاسس النظرية لكفـــاح البروليتاريا الطبقي ، ويطبقانها تطبيقا عظيما في نقد الفلسفة النظرانية والاشتراكية الطوباوية .

نظرا للاتفاق الذي تحقق في مفاهيمهما بعد لقائهما في بروكسل واثناء رحلتهما في انكلترة ، من الصعب توضيح القسط الذي يعود الى ماركس والى انجلز في هذا العمل . كما في **العائلة المقدسة** ، التصورات النظرية الاساسية تأتي ولا شك

---

١ ـ انظر م.ا.م. ، جـ٣ . **كارل ماركس وفريدريك انجلز : الايديولوجيا الالمانية** ، تقدمـــة وملاحظات جيلبير باديا ، ترجمة هنري أنجه ، جيلبير باديا ، جان بودريار ، رينه كارتيل ، باريس ، المنشورات الاجتماعية ، ١٩٦٨ .

[= على الارجح ترجيحا كبيرا] * من ماركس ، في حين ان مساهمة انجلز هامة بشكل خاص ، نظرا لمعرفته الاكثر تعمقا بالنظام الرأسمالي ، في التحليل النقدي للتاريخ المعاصر الذي هو تحليل تطور هذا النظام .

ما حفزهما على تحرير هذا الكتاب كان أولا بأول ، في الوقت نفسه مع حاجتهما الى توضيح وتوسيع وتعميق تصورهما المادي للعالم ، رغبتهما في أن ينجزا ، بواسطة هذا التصور ، نقد الفلسفة النظرانية الالمانية ، الذي سبق ان كان هو موضوع **العائلة المقدسة** (٢) .

الباعث المباشر على هذا النقد كان نشر مقالات لبرونو باور ولشترنر في **مجلة فيغان الفصلية** ، مقالات أطلعا عليها بعد عودتهما من انكلترة (٣) .

بما انهما كانا في هذه المقالات متَّهمَين بالدوغمائية ، فقد قررا الرد عليها بنقد عام للفلسفة النظرانية ، من شأنه في ذهنهما ان يكون متابعة لنقد برونو وإدغار باور في **العائلة المقدسة** ولنقد شتيرنر في تراسلهما مع هس في أوائل ١٨٤٥ . كان هذا النقد يظهر لهما مهما لدرجة ان ماركس كتب الى ناشره لسكه ان اصدار هذا النقد امر لا غنى عنه لكي يستطيع الجمهور الالماني فهم وتبني تصوراتهما (٤) .

عمل ماركس وانجلز على هذا المؤلف من ايلول ١٨٤٥ الى آب ١٨٤٦ . كرّسا نفسهما تماما لتحريره ، تاركَين موقتا الاعمال التي كانا شرعا فيها ، ماركس **نقد السياسة والاقتصاد السياسي** وانجلز **تاريخه العام لانكلترة** (٥) .

[* sans doute (لا شك) صار معناها ، بحكم تطور اللغة ، «مع بعض الشك» . نوعا ما أليس الامر كذلك في اللغة العربية ؟. نفي الشك نفيا مطلقا هو Sans aucun doute : بلا اي شك . ولكن ، دفعا للالتباس ، ترجمنا Sans doute في معظم الحالات : «على الارجح»] .

٢ ــ انظر ك. ماركس : **اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، برلين ١٨٥٩ . م.ا.م. ، ج١٣ ، المقدمة ، ص ١٠ : «فريدريك انجلز ... كان قد وصل بطريق آخر غير الطريق الذي سلكته (انظر مؤلفه **حالة الطبقة العاملة في انكلترة**) الى نفس النتيجة التي وصلتُ اليها ! وحين جاء يقيم هو ايضا في بروكسل في ربيع ١٨٤٥ ، قررنا ان نعرض الفرق الاساسي الذي يفصل تصوراتنا عن تصورات الفلسفة الالمانية ، اي بالواقع ان نقطع مع ماضينا الفلسفي ذاته . هذا المشروع أُنجز في شكل نقد الفلسفة بعد ــ الهيغلية .» .

٣ ــ (ب. باور) : **مميزات لودفيغ فويرباخ** ، م.ن ، ص ص ٨٦ــ١٤٦ .

م. شت . (م. شترنر) : **نقاد شترنر** ، م.ن ، ص ص ١٤٧ــ١٩٤ . عن هذه المقالات انظر الفصل الثاني من هذا المجلد ، [الفقرة : ماكس شترنر] .

٤ ــ انظر ك. ماركس الى لسكه (بروكسل ، ١ــ٨ــ١٨٤٦) ، م.ا.م. ، ج٢٧ ، ص ص ٤٤٨ وبعدها .

انظر الفصل الثالث من هذا المجلد ، [مطلع الفقرة الاخيرة] .

٥ ــ انظر ك. ماركس ، **سيرة حياته** ، مرجع مذكور آنفا ، ص ٢٩ .

ما ان أنهى ماركس وانجلز معظم الكتاب ، نحو ايار ١٨٤٦ ، حتى شرعا يبحثان عن ناشر . فايدماير ، الذي كان قد عاد الى فستفاليا في نهاية نيسان ١٨٤٦ ، وصلهما باثنين من الديمقراطيين الميسورين ، كانا يتعاطفان مع الاشتراكيين «الحقيين» ، هما رودولف رمبل التاجر في بيلفِلد ويوليوس ماير صاحب مصهر حديد في بكِنرود (٦) .

بعد فشل المفاوضات معهما (٧) ، توجه ماركس وانجلز ، ولكن عبثا ، الى ناشرين مختلفين في برن وهيريساو وبريمن (٨) .

حتى حوالي منتصف ايار ١٨٤٧ ، واصل ماركس وانجلز جهودهما لنشر مؤلفهما . وجدا نفسيهما في النهاية مستعدين لشطر المخطوطة لاصدارها في عدة مجلدات ، تسهيلا للبيع . هنا ايضا كانت جهودهما بلا جدوى وبقي مؤلفهما في شكل مخطوط (٩) . وكتب ماركس بصدد هذه المحاولات كلها الى ب. ف. آنكوف يقول : «لكان بودّي ان ارسل اليك مع هذه الرسالة كتابي عن **الاقتصاد السياسي**، ولكن حتى الان لم أنجح لا في طبع هذا الكتاب ولا في طبع نقد الفلاسفة

---

٦ ــ انظر **ب. آندرياس و ف. مونكه** : عن تاريخ «الايديولوجيا الالمانية» ، **في أرشيف للتاريخ الاجتماعي** ، هانوفر ، ١٩٦٧ ، جـ٧ .

٧ ــ انظر **ف. مونكه** : مشاركة موزس هس في «الايديولوجيا الالمانية» . نشر «الايديولوجيا الالمانية» ، في **الحوليات** [بالايطالية] ، ميلانو ، ١٩٦٧ ، جـ٦ ، ص‌ص ٤٩١ــ٤٩٦ .

٨ ــ انظر رسائل انجلز الى ماركس (باريس ، ١٨ــ١٠ــ١٨٤٦) ، **م.ا.م.** ، جـ٢٧ ، ص ٥٨ . (باريس ، ديسمبر ١٨٤٦) ، **م.ن** ، ص ٧١ . (باريس ، ١٥ــ١ــ١٨٤٧) ، **م.ن** ، ص ٧٥ . (باريس ، ٩ــ٣ــ١٨٤٧) ، **م.ن** ، ص ٧٩ .

٩ ــ بخصوص نشر **الايديولوجيا الالمانية** ، انظر رسائل ي. فايدماير الى ك. ماركس (١٣ ، ١٤ ايار ، ١١ ، ٢٨ حزيران ١٨٤٦) (المعهد من اجل الماركسية ــ اللينينية ، موسكو ، اختزالا : **معهد موسكو**) .

رسائل م. هس الى ك. ماركس (فرنييه ، ٦ــ٥ــ٤٦ ، كولن ٢٨ــ٧ــ٤٦) ، **في م. هس : المراسلات** ، طبع غرافنهاغ ، ١٩٥٩ ، ص‌ص ١٥٢ ، ١٦٣ .

رسالة ف. فايتلنغ الى م. هس (بروكسل ، ٣١ــ٣ــ٤٦) ، **م.ن** ، ص‌ص ١٥٠ وبعدها .

رسالة ف. انجلز الى ببل Bebel (٢٥ــ١١ــ١٨٦٨) ، في **ف. انجلز : رسائل الى ببل** ، برلين ، ١٩٥٨ ، ص ١٥٧ .

ك. ماركس ، سيرة حياته ، مرجع مذكور ، ص‌ص ٣٣ــ٣٤ .

ا. بارنيكول : فايتلنغ السجين و«عدالته» ، كيل ، ١٩٢٩ ، ص‌ص ٢٦٩ــ٢٧١ .

انجلز الى ماركس (باريس ، ٩ اذار ١٨٤٧) ، **م.ا.م.** ، جـ٢٧ ، ص ٧٩ : «وفي الحاصل ، اذا كان اصدار مخطوطتنا يمنع اصدار كتابك ، ارم المخطوطة في زاوية ، لانه من الاهم بكثير ان يصدر كتابك .»

والاشتراكيين الالمان الذي حدثتك عنه في بروكسل . ليس عندك فكرة عن الصعوبات التي تصطدم بها مثل هذه المنشورات في المانيا، من جهة بسبب الشرطة ومن جهة أخرى بسبب الناشرين الذين لهم مصلحة في مساندة كل الاتجاهات التي اهاجمها . فيما يتصل بحزبنا الخاص ، ليس فقط هو فقير ، بل ان جماعة هامة من الحزب الشيوعي الالماني تلومني على نقدي لطوباويته وفرازيولوجيته» (١٠) .

بشأن مصير المخطوطة ، سوف يكتب ماركس : «تركنا المخطوطة لنقد الفئران القاضم وذلك بلا حسرات لاننا كنا بلغنا هدفنا الجوهري الا وهو توضيح وتنقية تصوراتنا » (١١) .

في حياة ماركس وانجلز لم يصدر الا قسم من نقد الاشتراكية **الحقة** ، نشره ماركس في شكل مقال في **باخرة فستفاليا** (١٢) .

بعد ان فحص المخطوطة مجددا في ١٨٨٣ ، انجلز اقترح على برنشتاين نشرها ، ولكن ذلك ما كان له ان يتحقق لاسباب تتعلق بالملاءمة (١٣) . اذ أعاد قراءتها في اثناء تحرير كتابه عن **لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية**

---

١٠ ـ انظر **م.ا.م.** ، ج٢٧ ، ص ٤٦٢ .

١١ ـ انظر **ك. ماركس : اسهام في نقد الاقتصاد السياسي** ، المقدمة ، **م.ا.م.** ، ج ١٣ ، ص ١٠ .

بما ان خط ماركس لم يكن يقرأ او تقريبا ، لذا فان القسم الاكبر من المخطوطة مكتوب بيد **انجلز** الذي كان له خط جميل ، وقسم من الفصل عن شتيرنر مكتوب بيد فايدماير .

المخطوطة جزئيا **في** وضع سيء ، تنقص اربع وعشرون صفحة : الليبرالية السياسية (اربع صفحات) ، فينومينولوجيا الاناني او مذهب التبرير (اربع صفحات) ، المجتمع «١٢ صفحة» ، المجتمع III (اربع صفحات) .

١٢ ـ انظر **كارل ماركس** : كارل غرون ، الحركة الاجتماعية في فرنسا وبلجيكا (دارمشتادت ، ١٨٤٧) او التاريخ على طريقة الاشتراكيين «الحقين» ، **في باخرة فستفاليا** ، ١٨٤٧ ، ص ص ٤٣٩ ـ ٤٦٣ ، ٥٠٥ـ٥٢٥ .

١٣ ـ انظر **ادوارد برنشتاين** : ماركس والاشتراكية «الحقة» ، **في نويه تسايت** [الازمنة الجديدة] ، ١٨٩٦ ، ج٢ ، ص ص ٢١٦ـ٢٢٠ : «خلال صيف ١٨٨٣ سألني انجلز **في** رسالة ما اذا **كنت** اري ان الوقت قد حان لنشر ... مخطوط بالغ التسفيه ألفه هو وماركس سنة ١٨٤٧ ، وفيه دبّرا **الاشتراكيين** «الحقين» بشكل رائع ، ولكنه لم يلبث ان سحب هذا العرض ، لان هذا النشر ما كان يمكن ان يحصل بدون ان يجرح فئة من الحزب ، ضدها يتوجه هذا النقد ، الامر الذي ما كان يجوز حصوله ، **في** ظل القانون ضد الاشتراكيين ، بدون ضرورة مطلقة ... . حين جئت **في** ربيع ١٨٨٤ أقضي عدة ايام عنده ، قرأ لي مساءً المخطوط **المعني** ... خلال ساعات تبقى بالنسبة لي ساعات **لا** تنسى .»

الالمانية ، وجد لها طابعا مجزأ ، لا يجعلها جد صالحة للطبع (١٤) .

بعد وفاة انجلز ، الحزب الاشتراكي ـ الديمقراطي الالماني ترك المخطوطة تنام في أرشيفه . صدرت قطع منها في منشورات مختلفة . فقط في سنة ١٩٣٢ صدرت طبعة نقدية كاملة في الجزء الخامس من **ميغا** .

من المؤسف ان **الايديولوجيا الالمانية** لم تنشر مباشرة ، لان ذلك كان من شأنه ان يسهل كثيرا ، كما كتب ماركس الى لسكه ، فهم تصوراتهما الجديدة .

الايديولوجيا الالمانية صممت باديء ذي بدء كنقد للفلسفة النظرانية بعد هيغل . هذا يفسر المعنى الخاص الذي ترتديه هنا كلمة ايديولوجيا [فكرولوجيا] ، التي ليست مأخوذة هنا بمعنى تصور للعالم خاص بطبقة وبعصر ، بل بمعنى تصويف الواقع بالنظران ✶ .

فكرا باديء بدء بأن يعطيا مناظرتهما طابعا هزليا ساخرا ، كما في **العائلة المقدسة** . كما كانا في هذا الكتاب قد جعلا موضع سخرية رئيسي جوقة **النقد النقدي**، ادغار وبرونو باور ، بإظهارهما في شكل تجسيد للروح القدس، كانا يريدان هنا تحويل برونو باور وشترنر الى أضحوكة تحت ملامح أبوين من آباء الكنيسة يعلنان نبوءاتهما في مجمع مسكوني . من هنا العنوان الاصلي للكتاب **مجمع لايبتسيغ الكنسي** ، الذي يعلل بكون مقالات برونو باور وشترنر ، التي هاجمت ماركس وانجلز ، نشرت في **المجلة الفصلية** لفيغاند التي كانت تصدر في لايبتسيغ .

هذا المؤتمر صاخب جدا ، ويدوّي بصيحات الحرب . ليس موضوعه مع ذلك أشياء أرضية ، مشكلات راهنة ، من نوع انشاء سكك الحديد ، الرسوم الجمركية، الدستور ، بل فقط أشياء مجردة : وعي ذات ، ماهية ، هي موضع نقاش حامي الوطيس . برونو باور وشترنر يؤديان وظيفة كبير هيئة التفتيش الذي يجلد الهراطقة . برونو باور ، في ملامح القديس برونو ، يعد بجهنم وبئس المصير الماهية ، ايا كان شكل مثولها ، التي تزعم قياس نفسها مع الروح الذي نال القداسة في شكل وعي الذات . أمامه شترنر ، تحت اسم القديس ماكس او جاك الطيّب ، يقود الى نهايته القتال ضد الهرطقة ، بتعرضه لجميع الاصنام ، بما فيها وعي الذات .

يمثل كمتهمَين فويرباخ الذي اقترف جريمة تأليه الماهية ، م. هس الذي تجرأ على نعت ب. باور ، وشترنر بآخر الفلاسفة ، وأيضا ماركس وانجلز بوصفهما مؤلفَي **العائلة المقدسة** . جميعهم يطردون من مملكة الروح . بعد ذلك يتصارع

---

١٤ ـ انظر **ف. انجلز** : لودفيغ فويرباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، م.ا.م. ، جـ٢١ ، ص ٢٠٤ .

[✶ قلبه وتشويهه بالفكر الفكري المضارب ، بالنظر المخادع ...] .

أبوا الكنيسة بالايدي ، الامر الذي يضع حدا لمجمع لايبتسيغ (١٥) .

كما في **العائلة المقدسة** ، حيث الاتجاه الهزلي الساخر كان قد أخلى المكان لنقد متعمق ليس فقط **للنقد النقدي** بل ايضا لمشكلات اجتماعية وسياسية وايديولوجية ، كان للنقد المتزايد الصرامة والمتابعة للفلسفة النظرانية ان يقود ماركس وانجلز الى التخلي عن الطابع الهازل الذي كانا ينويان اعطاءه لمؤلَّفهما .

فمع سير نقدهما للفلسفة النظرانية ، كانا مُقادَين الى ان يبسطا ، بالتعارض معها ، تصورهما المادي للتاريخ . هذا كان يؤدي الى تعديل عميق يشمل معا فكرة ومخطط الكتاب ، ويسوقهما الى اعطائه كعنوان **الايديولوجيا الالمانية** وهو عنوان يستجيب بشكل أفضل لمحتواه (١٦) .

بفضل انضاج المادية التاريخية المتزايد العمق ، ماركس وانجلز كانا الان قادرين على تصفية ليس فقط الفلسفة النظرانية بل ايضا كل دوغمائية وكل طوباوية . هذا يفسر كونهما بعد نقد الفلسفة النظرانية شرعا ينقدان الاشتراكية **الحقة** ، وهي الشكل الذي كانت ترتديه آنذاك الاشتراكية الطوباوية في المانيا .

من هنا انقسام **الايديولوجيا الالمانية** الى اربعة أجزاء رئيسية :

آ ــ التعارض بين التصور المثالي والتصور المادي للتاريخ . تعريف المادية التاريخية .

ب ــ تحليل الادوار الكبرى في التاريخ البشري من وجهة نظر المادية التاريخية .

ج ــ نقد الفلسفة النظرانية بعد ــ الهيغلية .

د ــ نقد الاشتراكية **الحقة** .

بما ان نقدهما للفلسفة النظرانية وللاشتراكية **الحقة** على حد سواء يرتكز على تصورهما المادي للتاريخ ، يبدو من المفيد ان نسير في تحليلنا للمؤلف لا بحسب الترتيب الزمني ، اي حسب موعد تحرير مختلف الاجزاء ، بل حسب الرابطة العقلية التي توحدها .

المادية التاريخية

في **الايديولوجيا الالمانية** ، ان عرض المبادىء الاساسية للمادية التاريخية لا

---

١٥ ــ انظر م.ا.م. ، ج٣ ، ص ص ٧٨ــ٨٢ .

١٦ ــ **الايديولوجيا الالمانية ، نقد الفلسفة الالمانية الاحدث في شخص ممثليها فويرباخ ، ب. باور ، وشترنر ، والاشتراكية الالمانية في شخص مختلف انبيائها** . هذا العنوان استعمل بادىء بدء من قبل ماركس في تصريح موجه ضد كارل غرون ، صدر في **الجريدة الالمانية ببروكسل** بتاريخ ٨ نيسان ١٨٤٧ . انظر م.ا.م. ، ج٤ ، ص ٣٨ .

يجري كما في **الاطروحات عن فويرباخ** ، بطريقة منهجية ـ نسقية ، بل بمساعدة تحليل نقدي لأدوار التاريخ الرئيسية .

هذا العرض ، الذي يؤلف القسم الجوهري من **الايديولوجيا الالمانية** ، هو موضوع فصل بعنوان «فويرباخ» ، وهو عنوان يفسّر بكون ماركس وانجلز يعتبرانه الان احد ممثلي الفلسفة المعاصرة النموذجيين ، ومن الواجب تفنيد ماديته نصف ـ الميتافيزية والتي لا تزال اذن نظرانية ، أسوة بمذهبي برونو باور وشترنر النظرانيين بصورة اكثر عمدا وعزما .

لعله كان اولا في نيتهما ان يبسطا ، كما فعل ماركس في **الاطروحات** ، مبادىء المادية التاريخية ، بمعارضة مبادىء مادية فويرباخ . ولكن الاسلوب المستعمل في **الاطروحات** كان ينكشف هنا عن كونه مستحيلا ، فقد كانا يريدان عرض هذه المبادىء لا بكيفية مجزأة ، على شكل قطع ، كما في **العائلة المقدسة** ، أو في شكل خطوط أولى esquisse ، كما في **الاطروحات** ، بل في وحدتها الاجمالية ، الامر الذي لا يمكن تحقيقه الا بتحليل للتطور التاريخي .

هذا أصبح هو الموضوع الاولي الغالب في هذا الفصل لدرجة انه على الرغم من عنوانه : **فويرباخ . التعارض بين التصور المادي والتصور المثالي للعالم** فانه يكاد لا يرد في هذا الفصل ذكر لفويرباخ (١٧) .

كما في **العائلة المقدسة** ، هذا الفصل ينفتح بدحض للتصور المثالي للتاريخ ، دحضا يستهدف هنا في آن المؤرخين البرجوازيين والفلاسفة النظرانيين . ان المؤرخين البرجوازيين قد اهملوا بصورة منهجية دائمة في اعتباراتهم انتاج البشر لحياتهم المادية . وهذا ساقهم الى اهمال العلاقات الاقتصادية والاجتماعية المتولدة من هذا الانتاج . بخلاف المؤرخين الالمان ، المؤرخون الانكليز والفرنسيون قاموا فعلا بتحليل المجتمع وأعطوا بذلك قاعدة أمتن لتصوراتهم ، ولكن ، بما انهم يشاطرون الاوهام الخاصة بالبرجوازية ويعتقدون ان التاريخ محدد جوهريا بأسباب دينية او سياسية ، فقد أعادوه الى تعاقب صراعات دينية وسياسية ، ليست سوى أشكال ثانوية ومشتقة من الصراعات الطبقية التي هي العنصر المحدِّد للتاريخ .

«كل تصور للتاريخ قد أهمل حتى الان قاعدته الواقعية او اعتبرها شيئا ثانويا ليس له اية رابطة مع تطور التاريخ . بحكم ذلك كُتب التاريخ دوما حسب معايير غريبة عنه . ان انتاج الحياة الواقعي يُعتبر من ميدان ما قبل التاريخ ، بينما التاريخ يُفصل عن الحياة المادية ويظهر هكذا شيئا ما يقيم خارج وفوق الارض . العلاقات بين البشر والطبيعة ، من جراء ذلك ، تُطرد من التاريخ ، الامر الذي يُنجب التعارض بين الطبيعة والتاريخ . هكذا انساقوا الى ان لا يروا في التاريخ

---

١٧ ـ نقدهما لفويرباخ سنحلله في الفصل الذي موضوعه نقد الاشتراكية **الحقة** .

سوى صراعات سياسية ودينية كبيرة ، ينظرون اليها بصورة رئيسية على انهـــا صراعات مبادىء ، والى أن يشاطروا كل طور تاريخي **اوهام هذا الطور** . مثلا ، **اذا** كان عصر ما يتصور انه محدد من قبل دوافع محض **سياسية** او **دينية** ، رغم ان **الدين والسياسة** ما هما الا أشكال خاصة ترتديها بواعثه الحقيقية ، فان المؤرخ سيقبل هذا التصور . **التصور** Conception ، **التمثيـل** représentation الذي يكوّنه رجال عصر محدد عن حياتهم الواقعية ، يغدو الباعث الوحيد الذي يضبط ويحدد فعليا فاعليتهم العملية . لئن كان الشكل البدائي الذي تحته يمثّل تقسيم الشغل عند الهنود والمصريين يولّد عند هذه الشعوب نظام طبقات ــ طوائف [طبقات مغلقة ...] يقرر شكل الدولة والدين عندهم ، فان المؤرخ يعتقد ان هذا النظام هو الذي قرر علاقاتهم الاجتماعية البدائية . بينما الفرنسيـــون والانكليز يشاطرون الوهم السياسي ، الذي على الاقل يبقى قريبا جدا من الواقع، الالمان يتحركون في مجال الروح الخالص ويجعلون الوهم الديني القوة المحركـة للتاريخ » (١٨) .

عند الفلاسفة الالمان الحديثين ، اتخذ التاريخ طابعا مثاليا تماما ، فهو يعود الى انبساط الروح ، ا ي الى تعاقب أفكار ، يحصل بصورة مستقلـــة عن البشر الذين يتصورونها وعن علاقاتهم الاقتصادية والاجتماعية (١٩) .

بعكس هذه التصورات المثالية كثيرا او قليلا للتاريخ ، ماركس وانجلز يضعان في المبدأ ان التاريخ الواقعي يبدأ حيث يتوقف النظر المضارب . لذا ينطلقان في تصورهما للتاريخ لا من مجردات ، من مفاهيم ، بل من الانسان العياني منظـورا اليه في فاعليته المنتجة ، اي في علاقاته الاقتصادية والاجتماعية (٢٠) .

---

١٨ ــ انظر **الايديولوجيا الالمانية** ، باريس ، المنشورات الاجتماعية ، ١٩٦٨ ، ص‌ص ٧٠ـ٧١ .

١٩ ــ م.ن ، ص ٧١ : «ان فلسفة التاريخ لهيغل هي آخر **وأظهر** تعبير لهذه الطريقة التي هي طريقة الالمان في كتابة التاريخ ، حيث ليست المسألة مصالح واقعية ، ولا حتى مصالح سياسية ، بل هي فقط أفكار محضة ...» . ص‌ص ٧٧ـ٧٨ : «بعد فصل الافكار المهيمنة لعصر ما عن الافراد الذين يحوزون السلطة وخصوصا عن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية المتولدة من درجة محددة لتطور قوى الانتاج والوصول هكذا الى هذه النتيجة التي هي ان ما يهيمن في التاريخ هو دوما الافكار ، من السهل جدا ان نستخلص من هذه الافكار المختلفة **الفكر في ذاته** ، **الفكرة** [المثال Idée] معتبرة العنصر المهيمن في التاريخ وأن نتصور [أن نصمم concevoir] هذه الافكار المختلفة كتحديدات للفكرة المطلقة ، كتعيينات للمثال المطلق ، للمفهوم ، الذي يتحقق ، الذي يصير واقعا ، في سير التاريخ . من الطبيعي عندئذ ان نشتق كل العلاقات الانسانية من مفهوم الانسان ، من الانســان المفهومي ، من الجوهر الانساني ، من الانسان ذاته . هذا ما فعلته الفلسفة النظرانية .» .

٢٠ ــ **م.ن** ، ص ٥١ : «بعكس الفلسفة الالمانية ... لا نذهب هنـــا مما البشر يقولون ، يتصورون [يتخيلون] ، يتمثلون ، ولا مما يقال ، يفكّر ، يتخيل ، يتمثّل بصدد الانسان ، كي نصل

ان اول شرط وافتراض ـ مسبق في التاريخ هو ، بالفعل ، وجود أفراد واقعيين ، أحياء في وسط طبيعي واجتماعي ، وينتجون حياتهم المادية بنشاطهم الاقتصادي والاجتماعي الذي يمكنهم من تلبية حاجاتهم وفي المقام الاول حاجاتهم الابتدائية : طعام ، لباس ، سكن (٢١) .

ان تلبية هذه الحاجات وخلق وسائل الانتاج اللازمة لهذا الغرض يسببان ولادة حاجات جديدة ، خلق أدوات انتاج جديدة ، وبذلك عينه تطور التاريخ الدائم .

ان تطور الانتاج يحدد من جهته اقامة علاقات اجتماعية بين البشر . العلاقات الاجتماعية الاولى ، النابعة في آن من الانتاج والانجاب ، هي التي تقوم في العائلة بين الرجل والمرأة ، بين الاهل والاولاد . هذه العلاقات الاجتماعية تتوسع وتزداد تعقيدا مع سير تنامي الحاجات وتطور وسائل الانتاج . ان انتاج الحياة

الى الانسان العياني . نذهب من الانسان العياني ، معتبرًا في فاعليته العملية ، كي نفسر ايضا ، ذهابا من نمط حياة البشر الحقيقي ، تطور تصوراتهم بوصفها انعكاسات لنمط حياتهم ... . هذه الطريقة في النظر الى التاريخ ... تنطلق من مقدمات واقعية وتتمسك بها على نحو حازم . هذه المقدمات هي البشر ، لا البشر كمنتَجات خيالية للروح ، بل البشر معتبرين في تطورهم العياني ، التجربي ، والذي يحصل في شروط محددة . ما ان نعرض هذه السيرورة حتى يكف التاريخ عن كونه جمع وقائع لا حياة فيها ، كما عند التجربويين الذين يظلون ايضا مجردين ، او العمل الخيالي لذوات خيالية كما عند المثاليين .

انما حيث ينقطع النظران المضارب ، انما مع الحياة الواقعية ، يبدأ العلم الواقعي ، الوضعي ـ الايجابي ، عرض فاعلية البشر العملية وتطورهم العياني .»

٢١ ـ **م.ن** ، ص ٤٥ : «المنطلقات التي منها نذهب ليست ذات طابع عسفي . ليست «عقائد» ، دوغما ، بل منطلقات واقعية لا يمكن اغفالها ، حذفها تجريديا ، الا بالتخيل . انها الافراد الواقعيون ، فاعليتهم ، شروط وجودهم المادية ، تلك التي ورثوها وهذه التي خلقوها بفاعليتهم الخاصة على حد سواء . هذه المقدمات يمكن اذن التحقق منها بالطريقة محض التجريبية ، محض الاختبارية .

ان الشرط الاول لكل تاريخ بشري هو وجود كائنات بشرية حية . الشيء الاول الواجب تسجيله هو اذن الصفة الجسدية لهؤلاء الافراد والعلاقات التي تحددها بين هؤلاء الافراد وباقي الطبيعة . بالطبع لا نستطيع هنا التوسع في صدد تكوين البشر الفيزيائي ، ولا في صدد الشروط الطبيعية التي وجدوها ، الشروط الجيولوجية والتضاريسية والمائية والمناخية وسواها . كل علم تاريخي يجب ان يذهب من هذه القواعد الطبعية ومن تعديلها بعمل البشر خلال التاريخ .»

ص ٥٧ : «... يجب علينا ان نبدأ بملاحظة ان الشرط الاول لكل وجود انساني ، وبالتالي لكل تاريخ ، هو ان البشر يجب ان يكونوا قادرين على الحياة كي يستطيعوا **صنع تاريخ** . ولكن من اجل الحياة يلزم قبل اي شيء الشرب ، الاكل ، السكن ، اللباس وبضعة اشياء أخرى ايضا . الواقع التاريخي الاول هو اذن انتاج الوسائل التي تسمح بتلبية هذه الحاجات ، اي انتاج الحياة المادية ذاتها . ذلك واقع تاريخي ، الشرط الاساسي لكل تاريخ ...» .

المادية ، وخلق وسائل الانتاج الضرورية لتلبية الحاجات ، والعلاقات الاجتماعية المحددة من قبل نمط الانتاج ، لا تؤلف درجات خاصة ، وجوها مختلفة للحياة الانسانية ، بل توجد مباشرة في ترابط وثيق (٢٢) .

بفاعليته الانتاجية ، الانسان يتميز عن الحيوان ، الذي ليس قادرا مثله على تحويل الطبيعة لتلبية حاجاته والذي عليه اذن ان يعيش مما تقدمه له بكيفية مباشرة . بعكس الحيوان ، الانسان يخلق بقدر متزايد على الدوام الشروط المادية لحياته بفاعليته المنتجة التي تمكنه من تلبية حاجاته بتحويل الطبيعة ومن ان ينتج هكذا ، بكيفية غير مباشرة ، حياته المادية (٢٣) .

ينجم عن هذا التحويل للطبيعة من قبل الانسان ان الوسط الطبيعي بالنسبة للانسان ليس ، كما بالنسبة للحيوان ، الطبيعة البدائية ، كما تحضر له مباشرة ، بل الطبيعة كما يحوّلها تدريجيا بشغله ، وأنه هكذا ، بخلاف الحيوان ، مقرر أقل فأقل من قبل وسطه الطبيعي ، وانه يفعل في الظروف بقدر ما هي تفعل فيه(٢٤) .

بهذا التصور لدور الفاعلية الانتاجية في تنظيم وتطور الحياة الانسانية ، كان ماركس وانجلز يُحِلاّن محل التصور المثالي الهيغلي لوحدة الذات والموضوع في الفكرة ، التصور المادي للوحدة بين الانسان ووسطه الطبيعي والاجتماعي الناجمة

---

٢٢ — م.ن ، ص ص ٥٧—٥٨ : «النقطة الثانية هي انـه ما ان تلبى الحاجة الاولى حتى تثير الفاعلية التي تسمح بتلبيتها والاداة اللازمة لهذا الغرض حاجات جديدة . هذا الانتاج ، انتاج حاجات جديدة ، هو اول واقع تاريخي ، هو الواقعة التاريخية الاولى .

الظرف الثالث الذي يتدخل فورا في التطور التاريخي هو ان البشر يجددون يوميا حياتهم ذاتها ، ينجبون بشرا آخرين ، يعيدون انتاج انفسهم ، هذا يخلق علاقات بين رجل وامرأة ، آباء وأبناء ، وهو في اصل العائلة . العائلة التي هي ، في البداية ، العلاقة الاجتماعية الوحيدة ، تصير فيما بعد علاقة تابعة مرؤوسة ، حين تولّد الحاجات التي نمت علاقات اجتماعية جديدة وحين يخلق نمو السكان حاجات جديدة ... . يجب من جهة اخرى ان لا ننظر الى هذه الوجوه الثلاثة للفاعلية الاجتماعية على انها ثلاث مراحل مختلفة لها بل على انها ثلاثة وجوه ... تواجدت منذ بداية التاريخ، منذ البشر الاوائل ...

ان انتاج الحياة ، سواء انتاج حياته هو بالشغل او انتاج حياة الغير بالانجاب ، يظهر لنا ، من الان ، مؤلفا من علاقة مزدوجة ، علاقة طبيعية من جهة وعلاقة اجتماعية من جهة اخرى ، علاقة اجتماعية بمعنى انه يجب ان نفهم بذلك تعاون عدد من الافراد ، ايا كانت الشروط والكيفية والهدف . »

٢٣ — م.ن ، ص ٤٥ : «يمكن تمييز البشر عن الحيوانات بالوعي بالدين ، او بما تشاء . هم يتميزون عن الحيوانات مذ يشرعون في انتاج وسائل وجودهم ، وهذا تقدم مشروط بقابلياتهم الفيزيائية . بانتاجهم وسائل وجودهم ، البشر ينتجون بصورة غير مباشرة حياتهم المادية ذاتها .»

٢٤ — م.ن ، ص ٧٠ : «... الظروف تصنع البشر بقدر ما البشر يصنعون الظروف .»

عن العلاقات التي تقوم بالانتاج بين الفرد والطبيعة والمجتمع ، عبر التاريخ .

بتحويله الطبيعة بشغله ، الانسان يحوّل نفسه ، وهذا التحويل المترافق للطبيعة والانسان هو المحتوى الجوهري للتاريخ .

بما ان حياة البشر يحددها ما ينتجون والكيفية التي بها ينتجون ، لذا يجب ان نذهب في دراسة التاريخ من تطور الانتاج . الانتاج يتوقف قبل كل شيء على ازدياد الحاجات الذي يحدده بدوره نمو عدد السكان وكمية وطبيعة المواد الاولية التي بتصرف البشر (٢٥) . ان اشباع الحاجات ، المحقق بخلق واستخدام وسائل انتاج مناسبة ، يولّد حاجات جديدة هي بدورها تحفز الانتاج .

بما ان البشر لا يستطيعون سد حاجاتهم منفردين ، مستقلا بعضهم عن بعضهم الآخر ، بل فقط باجتماعهم في الشغل ، لذا فان حياتهم وشغلهم لهما طابع اجتماعي ، يحدده نمط الانتاج. فالعلاقات الاجتماعية rapports, relations Sociales sociaux [صلات ، روابط ، انتسابات الخ] — تلك هي الحدود والكلمات التي بها ماركس وانجلز يعيّنان ما سوف يسميانه في فترة لاحقة علاقات الانتاج rapports de Production — انما تتوقف بشكل وثيق على قوى الانتاج وتنمو وتتطور بقدر ما تخلق قوى انتاج جديدة وأكثر تعقيدا من اجل تلبية حاجات جديدة . مع درجة ما من تطور قوى الانتاج يتوافق شكل ما للعلاقات الاجتماعية يلائم تطبيق هذه القوى ، الامر الذي يجعل أن العلاقات الاجتماعية تتغير مع قوى الانتاج (٢٦).

ان تطور قوى الانتاج يحدد في الوقت نفسه مع تحول العلاقات الاجتماعية تحوّل الوعي والفكر . فالوعي والفكر ليسا ، كما يفكر المثاليون والروحانيون ، عناصر أولية بل عناصر ثانوية في السيرورة التاريخية ، هما مع ذلك عنصر جوهري في التاريخ الانساني الذي يختلف بذلك جذريا عن تاريخ الحيوانات (٢٧) .

---

٢٥ — **م.ن** ، ص ص ٤٥ ، ٤٦ : «الطريقة التي بها ينتج البشر وجودهم تتوقف قبل كل شيء على طبيعة وسائل الوجود المقدمة لهم والتي عليهم ان يعيدوا انتاجها ... . هذا الانتاج لا يظهر الا مع نمو السكان الذين بدورهم يفترضون مسبقا علاقات فيما بين الافراد . شكل هذه العلاقات من جهته مشروط بالانتاج .»

٢٦ — **م.ن** ، ص ٥٨ : «يظهر هكذا ان أسلوب انتاج محددا او مرحلة صناعية معينة هما دوما مرتبطان بأسلوب تعاون محدد او بمرحلة اجتماعية معينة ، ان أسلوب التعاون هذا هو نفسه قوة انتاجية ، ان مجموع قوى الانتاج التي في تصرف البشر يحدد حالتهم الاجتماعية ، وانه بالتالي يجب دوما ان ندرس ونعالج **تاريخ البشر** بالارتباط مع تاريخ الصناعة والمبادلات .»

٢٧ — **م.ن** ، ص ٦٠ : «في البداية ، الوعي ذو طابع حيواني بقدر الحياة الاجتماعية نفسها. انه وعي جماعي — قطيعي بسيط والانسان لا يتميز آنذاك عن الخروف الا بكون الوعي عنده بديلا عاديا عن الغريزة او بكون الغريزة ذات طابع واع . هذا الوعي القطيعي او القبيلي يتطور ويتحسن فيما بعد تحت فعل نمو الانتاجية وتزايد الحاجات وازدياد السكان الذي يلعب دورا مقرّرا .»

عن الارتباط الوثيق الذي يقوم بين حياة البشر وتطور قوى الانتاج ينجم اننا لا نستطيع ان نفهم مختلف عصور التاريخ ما لم نعتبرها من وجهة نظر التطور الاقتصادي ، اي من وجهة نظر انتاج وتداول واستهلاك الثروات ، وهي الامور التي تحدد التطور الاجتماعي والسياسي والايديولوجي معا .

ان قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية المحددة من قبلها تنتقل من جيل الى جيل . كل جيل جديد ينال من الجيل السابق قوى انتاج وعلاقات اجتماعية يحولها لتكييفها مع تلبية حاجات جديدة وينقلها ، محولة على النحو المذكور ، الى الجيل التالي (٢٨) .

ان مسيرة التاريخ ناتجة عن التطور الجدلي لقوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية. بنتيجة تحول القوى الانتاجية الدائم ، الناجم عن تنامي الحاجات ، تصير العلاقات الاجتماعية المكيفة مع تطبيق شكل لهذه القوى محدد ، عقبة تعيق تطور قوى انتاج جديدة ، ويجب ان تخلي المكان لعلاقات اجتماعية جديدة تلائم هذه القوى (٢٩) . هذا التناقض ، الذي يقوم بين قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية والذي هو في أصل الصراعات الاجتماعية والسياسية ، هو العنصر المحرك للتاريخ (٣٠) .

ان الانتقال من درجة في تطور قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية الى درجة اخرى لا يتم بكيفية اوتوماتيكية . انه يحصل تحت فعل صراعات الطبقات ويتحقق على نحو أسهل وأسرع حين لا او بقدر ما لا يصطدم بمقاومة الطبقات المسيطرة التي يضر بها هذا التحويل . هذا يحصل في حال اقامة مستعمرات ـ مستوطنات وتشكل بلدان جديدة متمدنة ، مثلا الولايات المتحدة الاميركية (٣١) .

---

٢٨ ــ م.ن ، ص ٦٥ : «التاريخ ليس شيئا آخر سوى تعاقب الاجيال المختلفة ، التي كل منها يستثمر المواد والرساميل وقوى الانتاج التي تركتها له الاجيال السابقة . بحكم هذا الواقع ، ان كل جيل ، من جهة يواصل ، ولكن في ظروف تغيرت تماما ، نمط الفاعلية الذي ورثه ، ومن جهة ثانية ، بتغييره جذريا نمط الفاعلية ، يحوّل وضع الاشياء القديم .»

٢٩ ــ م.ن ، ص ٩٨ : «هذه الشروط المتنوعة التي تظهر بادىء ذي بدء كشروط للفاعلية الانسانية ، ثم كقيود عليها ، تؤلف ، في كل التطور التاريخي ، سلسلة متلاحمة من العلاقات الاجتماعية . الرابط الذي يجمعها يكمن في واقع ان العلاقات الاجتماعية ، التي صارت قيدا على الانتاج ، تخلي المكان لعلاقات اجتماعية جديدة تلائم قوى انتاج اكثر تطورا وبالتالي مستوى اعلى لفاعلية الافراد ، وهذه العلاقات الاجتماعية بدورها تصير قيدا وتخلي المكان لغيرها .»

٣٠ ــ م.ن ، ص ٩١ : «حسب تصورنا ، كل نزاعات التأريخ لها أصلها في التناقض الذي يقوم بين القوى المنتجة والعلاقات الاجتماعية .»

٣١ ــ م.ن ، ص ٩٩ : «بالمقابل ، في البلدان التي ، مثل اميركا الشمالية ، تتشكل في دور تاريخي متقدم ، هذا التطور يتم بسرعة فائقة ، الشرط الطبيعي المسبق الوحيد لهذا التطور هو الافراد الذين يأتون للاقامة في هذه البلدان يدفعهم اليها واقع ان العلاقات الاجتماعية الموجودة في

ان الانتقال الى درجة أعلى في تطور قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية يسهله من جهة أخرى ، في الازمنة الحديثة ، واقع أن تبادل السلع قد تعمم وحفزته مزاحمة بلدان اكثر تقدما من الناحية الاقتصادية . فهذه المزاحمة تجبر البلدان المتأخرة على تعجيل تحوّل قواها المنتجة كي تتمكن من البقاء (٣٢) .

هذا الانتقال يجب ان لا يُفهم بمعنى ان قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية التي فات أوانها تُحذف مباشرة وجذريا وتُستبدل بقوى انتاج جديدة وعلاقات اجتماعية جديدة . فكما في عصر محدد تستمر قوى انتاج قديمة الى جانب قوى انتاج جديدة ــ الطاحون المائي الى جانب الطاحون البخاري ــ ، كذلك نرى على الصعيد الاجتماعي انه ، الى جانب عناصر رجعية تستجيب مصالحها الطبقية ووعيها الطبقي لقوى انتاج جرى تخطيها ، تتواجد عناصر محافظة تستجيب مصالحها الطبقية للدرجة الراهنة في تطور قوى الانتاج ، وعناصر ثورية وعيها الطبقي متقدم على زمنها (٣٣) .

ان العنصر الجوهري في التطور الاجتماعي هو الصراعات الطبقية بين المالكين وغير المالكين ، الصراعات التي تتغير مع تحول قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية

بلدانهم الاصلية لا تستجيب لحاجاتهم . هذه البلدان تحوز اذن ، من البداية ، الافراد الاكثر تطورا في العالم القديم » وبذلك عينه علاقات اجتماعية متلائمة مع هؤلاء الافراد ولم تستطع بعد ان تقوم في البلدان الهرمة . تلك هي ايضا الحال بالنسبة لجميع المستعمرات ، بقدر ما هي ليست محض قواعد عسكرية او تجارية .»

٣٢ ــ م.ن ، ص ٩١ : «ليس من جهة اخرى ضروريا ان يبلغ هذا التناقض (بين قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية) حدّه الاقصى في بلد من البلدان كي يثير فيه نزاعات . التزاحم مع بلدان صناعتها اكثر تطورا ، التزاحم المتسبب عن توسع العلاقات الدولية ، يكفي لتوليد تناقض من هذا النوع ، حتى في البلدان التي صناعتها أقل تطورا (مثلا ظهور البروليتاريا في المانيا تحت تأثير المزاحمة الانكليزية) . »

٣٣ ــ م.ن ، ص ص ٩٨-٩٩ : « (هذا التطور) لا يتقدم الا ببطء . مراحله المختلفة والمصالح المختلفة التي تولد فيها ليست في اي وقت متخطاة بصورة تامة ، هذه المصالح انما هي فقط خاضعة للمصلحة المهيمنة الغالبة آنئذ وتعيش هكذا قرونا بعد تخطيها . ينجم عن ذلك انه داخل امة واحدة يتطور الافراد بصورة مختلفة تماما حتى بصرف النظر عن حالتهم المالية . ينجم عنه ايضا ان المصالح الطبقية المنتمية الى طور منصرم والتي استُبدلت علاقاتها الاجتماعية الموافقة بعلاقات اجتماعية جديدة ، تؤلف بعد قوة تقليدية تراثية في المؤسسات (الدولة ، الحقوق) التي تولف جملة مستقلة ظاهرا في وجه الافراد . هذا يفسر ايضا لماذا ، في بعض الحالات الخاصة ، التي تسمح ببلورة استنتاجات عامة ، لماذا الوعي الاجتماعي لبعض الافراد يمكن ان يظهر متقدما على وضع الاشياء الحاضر ، بحيث في صراعات عصر لاحق يمكن الرجوع اليهم كرواد ــ سابقين على الصعيد النظري . »

والتي تولد الثورات الاجتماعية . بما ان صراعات الطبقات كثيرا ما ارتدت شكل صراعات دينية او سياسية تحجب طابعها الاجتماعي ، فقد انساقوا الى اعتبار الدوافع الدينية او السياسية السبب الحقيقي للتغيرات في التاريخ ، وهذا على نحو زاده سهولة واقع ان رواد الصراعات الدينية او السياسية كانوا يوهمون انفسهم عن الاسباب الحقيقية لهذه الصراعات (٣٤) .

ان تحول العلاقات الاجتماعية كنتيجة لتطور قوى الانتاج يأتي من ان قوى الانتاج الجديدة ـ بقدر ما ليس الامر محض نمو كمي لهذه القوى ـ تولد تقسيمات جديدة للشغل وأشكالا جديدة للملكية ، تبدل العلاقات الاجتماعية (٣٥) .

في البداية ينجم انقسام الشغل عن فرق الاستعدادات الطبيعية للافراد وأيضا عن فرق الحاجات والظروف الطبيعية (٣٦) . ان تقسيم الشغل ، الذي تطور في الوقت نفسه مع تطور قوى الانتاج ، استتبع اولا الانفصال بين الريف والمدينة ، الزراعة والصناعة وتعارض مصالحهما . أدى ثانيا الى الانفصال بين الصناعة والتجارة ، الى تخصص نامٍ في انتاج وتداول السلع ، وكذلك الى الانقسام بين الشغل اليدوي والشغل الذهني ـ الثقافي (٣٧) .

---

٣٤ ـ م.ن ، ص ص ٩٠-٩١ : «هذا التناقض بين قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية ، الذي ، كما رأينا سابقا ، حصل حتى الان مرارا في التاريخ دون ان يضع مع ذلك قاعدته الاساسية في خطر ، قد تظاهر في كل مرة بثورة ، اتخذ فيها أشكالا خاصة مختلفة ، سواء كجمع منازعات تام، او كتعارضات بين الطبقات المختلفة ، او كتناقضات حاصلة في الوعي تحت شكل صراعات ايديولوجية وسياسية . اذا وضع المرء نفسه في وجهة نظر ضيقة محدودة ، يستطيع ان يفصل احد هذه الاشكال المساعدة عن الجملة التي هو جزء منها وان يعتبره العنصر المكوّن لهذه الثورة ، وهذا امر يزيده سهولة كون صانعي هذه الثورات قد صنعوا بأنفسهم لانفسهم عن فاعليتهم الخاصة اوهاما تختلف باختلاف درجة ثقافتهم ومرحلة التقدم التاريخي .»

٣٥ ـ م.ن ، ص ٤٦ : «بقدر ما هي لا تؤلف نمو كميا بسيطا لقوى الانتاج الموجودة ، كل قوة انتاج جديدة (مثلا استصلاح الاراضي) تستتبع تشكل تقسيم جديد للشغل ... ان مختلف مراحل انبساط تقسيم الشغل تؤلف بمقدار عددها أشكالا من الملكية مختلفة .»

٣٦ ـ م.ن ، ص ٦٠ : «هكذا يتطور (بنمو الانتاج) تقسيم الشغل الذي لم يكن في الاصل سوى انقسام الشغل في الفعل الجنسي والذي صار فيما بعد انقسام الشغل الحاصل تلقائيا ، على نحو طبيعي ، بموجب الاستعدادات الطبيعية (مثلا القوة البدنية) ، الحاجات ، الظروف ، الخ .»

٣٧ ـ م.ن ص ٤٦ : «ان تقسيم الشغل داخل أمة يؤدي اولا الى الانفصال بين الشغل الصناعي والتجاري من جهة والشغل الزراعي من جهة اخرى ، وبذلك عينه ، الى الانفصال بين **المدينة والريف** وتعارض مصالحهما . ان تطوره اللاحق يقود الى الانفصال بين الشغل التجاري والشغل الصناعي . في الوقت نفسه ، نرى تنمو ، من جراء انقسام الشغل داخل فروع النشاط المختلفة، انقسامات ثانية بين الافراد المتعاونين في اعمال محددة ...» . ص ٦٠ : «ان انقسام الشغل لا يحصل حقا الا اعتبارا من اللحظة التي فيها يحدث انفصال بين الشغل اليدوي والشغل الفكري ...»

مع مختلف درجات تقسيم الشغل تتوافق اشكال مختلفة وانماط مختلفة من الملكية . ان تقسيم الشغل والملكية بينهما قرابة وشيجة وترابط وثيق ، فتقسيم الشغل ينتسب الى الفاعلية الانسانية والملكية مرتبطة بنتائج هذ الفاعلية (٣٨) .

ان تطور قوى الانتاج وتقسيم الشغل وتحول نمط الملكية يحددان العلاقات الاجتماعية ، اي العلاقات التي تقوم بين البشر نسبة الى الانتاج والى ملكية ادوات الشغل والى توزيع ناتج هذا الاخير (٣٩) .

هذه العلاقات الاجتماعية ، مجتمعة مع تقسيم ـ الشغل المتنامي الذي يرغم الافراد على التخصص في فاعلية محصورة اكثر فأكثر ، تحدد شروط حياة البشر (٤٠) .

ان تطور قوى الانتاج في ظل نظام الملكية الخاصة يقود الى تركز هذه الاخيرة في أيدي أقلية ، الامر الذي يستتبع استغلال واضطهاد المالكين لغير المالكين وبالتالي انقسام المجتمع الى طبقتين متنافيتين وتفاقم الصراع بينهما .

ان انقسام المجتمع الى طبقات يحدد الحالة الاجتماعية وأيضا شروط حياة الافراد ، التي تختلف حسب الطبقة التي اليها ينتمون ، والتي تميز بعضهم عن بعض (٤١) .

ليس فقط الافراد المنتمون الى طبقات متعارضة يتقاتلون فيما بينهم ، بل الامر كذلك ، من جراء المزاحمة التي تقسمهم ، بالنسبة للافراد المنتمين لنفس الطبقة ، هذا بقدر ما ليسوا مقحمين في صراع مشترك ضد خصومهم الطبقيين (٤٢) .

ان تطور قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية يحدد ، في الوقت نفسه مع تحديده تشكل الطبقات وشروط حياة الافراد ، تشكل وتطور الدول والامم وطابعها الخاص .

---

٣٨ ـ م.ن ، ص ٤٧ : «ان مختلف مراحل تطور تقسيم الشغل تمثل بمقدار عددها أشكالا مختلفة من الملكية ...»

م.ن ، ص ٦١ : «بالمناسبة ، وان تقسيم الشغل والملكية [= الخاصية ، Propriété] هما عبارتان متماثلتان ، الاولى تعبر بالنسبة الى الفاعلية ما الثانية تعبره بالنسبة الى منتوج هذه الفاعلية . »

٣٩ ـ م.ن ، ص ٤٧ .

٤٠ ـ م.ن ، ص ٦٣ : «ما ان يبدأ توزيع الشغل حتى يكون لكل فرد دائرة نشاط حصرية لا يستطيع الافلات منها . فهو صياد بر ، صياد سمك ، راع ... ويجب ان يبقاه تحت طائلة فقدان وسائل وجوده .»

٤١ ـ م.ن ، ص ٩٣ .

٤٢ ـ م.ن ، ص ٩٣ .

ان تشكل الدول له كشرط مسبق نظام الملكية الخاصة وانقسام المجتمع الى طبقات متناحرة . مع الدولة الطبقة المسيطرة تخلق لنفسها أداة سياسية تضعها في خدمة مصالحها الطبقية . وينجم عن ذلك بالنسبة لكل طبقة صاعدة ضرورة الاستيلاء على الدولة كي تصير هذه الطبقة طبقة مسيطرة وكي تتصرف بسلطات الدولة : جيش ، شرطة ، قضاء ، قوانين .

المصالح الخاصة للطبقة المهيمنة ترتدي ، من جراء كونها مدافعا عنها من قبل الدولة ، شكل مصالح عامة ، موجودة بشكل مستقل عن العلاقات الاجتماعية . هكذا تتخذ الدولة هيئة زائفة ، هيئة ممثل مصالح عامة مشتركة لكل الافراد ، في حين انها ليست بالواقع سوى أداة سيطرة في خدمة الطبقات المالكة (٤٣) .

اذ تمثل مبدئيا المصالح العامة ازاء المجتمع ، تظهر الدولة للافراد سلطة مستقلة عن المجتمع تتطور بقواها الخاصة (٤٤) .

في الواقع وجود الدولة خاضع لوجود المجتمع . تولد في مرحلة محددة من تطور قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية حين تتحول المصالح الخاصة الى مصالح طبقية وتولد علاقات حقوقية (٤٥) . الدولة الحديثة تتكوّن في العصر الذي فيه تتخذ الملكية الخاصة شكل رأسمال ؛ عندئذ تنفرز تماما عن المجتمع ، وتظهر ذات

---

٤٣ ــ م.ن ، ص ص ٦١-٦٢ : «بالضبط هذا التناقض بين المصلحة الخاصة والمصلحة العامة انما يقود هذه الاخيرة الى ان تتخذ ، في **الدولة** ، شكلا مستقلا ، مفصولا عن المصالح الواقعية للافراد ، تحت هيئة اشتراك وهمي ، ولكن له مع ذلك دوما كقاعدة مصالح طبقية ... من هنا بالنسبة لكل طبقة تطمح الى السيطرة ضرورة الاستيلاء على السلطة السياسية اولا ، كي تنصّب مصالحها الخاصة كمصالح عامة ...»

٤٤ ــ م.ن . ص ٦٣ : «القدرة الاجتماعية ، اي القوة المنتجة المضاعفة أضعافا التي يولّدها تعاون الافراد الذي حدده تقسيم الشغل ، لا تظهر لهؤلاء الافراد على انها قوتهم ذاتهم المضافرة ، لان تعاونهم ليس اراديا بل طبيعي . بالعكس تظهر لهم قدرة غريبة ، سلطة تقع خارجهم ، يجهلون أصلها وهدفها ، لم يعودوا يستطيعون السيطرة عليها ، وهي بالعكس تجتاز في تطورها سلسلة من مراحل ومحطات ، بصورة مستقلة عن ارادة البشر وسلوكهم ، الذي هي تقوده .«

٤٥ ــ م.ن ، ص ٣٦٢ : «حياة الافراد المادية التي لا تتوقف بتاتا على **ارادتهم** وحدها ، اسلوب انتاجهم ، علاقاتهم الاجتماعية ، التي بعضها شرط بعضها الآخر بالتبادل ، هي قاعدة الدولة وتظل قاعدتها في جميع المراحل ، حيث ، بصورة مستقلة عن ارادة الافراد ، يبقى تقسيم الشغل والملكية الخاصة ضروريين . هذه الشروط الواقعية ليست البتة مخلوقة من قبل سلطة الدولة ، بالعكس هي التي تخلق سلطة الدولة . الافراد الذين يمارسون سلطة الدولة في هذه الشروط لا يستطيعون هكذا ، بغض النظر عن ان سلطتهم يجب ان تتكوّن **دولة** ، الا ان يعطوا ارادتهم المحددة من قبل هذه الشروط الواضحة المُحكمة تعبير ارادة دولتيّة ، تعبير قانون ، تعبيرا عاما محتواه معطى دوما من قبل شروط طبقتهم ، كما يتبين ذلك بوضوح بالغ من تحليل الحقوق الخاصة والحقوق الجزائية.»

وجود خاص ، مستقل عنه (٤٦) .

ليس ثمة **دول** Etats ما تزال نصف ـ مستقلة الا في البلدان التي فيها طبقات السكان المختلفة ممثلة سياسيا ، كما في فرنسا في ظل النظام القديم [قبل ١٧٨٩] ، بـ **دول** Etats مختلفة ✱ ، والتي فيها بالتالي الدولة ، كسلطة مركزية ، لا يمكن ان توضع في خدمة طبقة واحدة حصرا (٤٧) . في الامم الاكثر تقدما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، الدولة صارت للبرجوازية أداة هيمنة طيعة لاسيما وبقدر ما البرجوازية قابضة عليها بواسطة القروض التي تمنحها اياها وبواسطة أسهم ـ الدولة التي تستطيع ان ترفع وتخفض قيمتها كما تشاء (٤٨) .

بما ان الطبقة المهيمنة تدافع بواسطة الدولة عن مصالحها الطبقية في شكل مصالح عامة ، لذا ففي اطار الدولة تتخذ صراعات الطبقات شكل صراعات سياسية تخاض باسم مبادىء عامة : صراع بين الارستوقراطية [= حكم المتازين] والديموقراطية [= حكم الشعب] ، بين الملكية [المونارخية] امر واحد = والجمهورية

---

٤٦ ـ **م.ن** ، ص ١٠٥ : «نتيجة كون الملكية الخاصة قد تحررت من الاشتراك او الجماعة ، استطاعت الدولة ان تكتسب وجودا خاصا ، منفصلا ومستقلا عن المجتمع .»

[✱ مرة اخرى ، نذكّر بأن Etat تعني : ١ ـ وضع ، حالة . ٢ ـ اذن ايضا طبقة ، هيئة طبقية (بل طبقة مأخوذة بايحاء الكلمة العربية) ، ووضع فئة من الناس مكرس قانونيا . ٣ ـ ودولة ، او ولاية (مثلا في قولنا : الولايات المتحدة ، او مجلس الولايات في المانيا الاتحادية) و دولة .

مفهوم الدولة الغربي الحديث ليس مفهوما جغرافيا أفقيا مسطحا ، ليس شكلا بلا محتوى ، ليس رمزا حسيا ، علما وحدودا ... والمحتوى هو «المجتمع المدني» Civile وهو المحدِّد والمقرر والمشكّل . المجتمع المدني اي دائرة الانتاج والعائلة والطبقات ونظام الملكية ـ موضوعيا ، اي ما تحت الدولة ، ما يدعوه ماركس «شروط الوجود المادي» ولاسيما «العلاقات الاجتماعية» . مفهوم الدولة اذن «نقيض مطابق» لمفهوم المجتمع المدني ، المجتمع «البرجوازي» الخ .

ثمة هنا ارض اساسية مشتركة بين الماركسية ونقيضها الايديولوجيا البرجوازية (= الاوروبية ، الحديثة) . والماركسية «تبدأ» من اكتشاف واعلان ان المجتمع المدني هو الدائرة التي فيها العامل والمقرر والمحدد للتاريخ (انظر **مقدمة** ١٨٥٧) ...

هذا كله بالغ الاهمية من اجل فهم الماركسية التي من الحماقة ادعاء فهمها بدون فهم أرضها . «من جهة اخرى» ، ان هذا الامر الجوهري ، اذا ما عُزل ، «جرد» ، ثم (بسط) سحبا على التاريخ الواقعي وعلى السياسة ، فانه يقود فورا الى الاقتصادوية ، الدوغمائية ـ التجربوية ، على قاعدة ميتافيزية ومثالية . «ماركسيو» الوطن العربي وقعوا ، معا بالتلازم في الخطأين : لا ـ «اوروبية» (بدوية ، شطح ... = ومثالية) واقتصادَوية (= مثالية) .]

٤٧ ـ **م.ن** ، صص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

٤٨ ـ **م.ن** ، ص ١٠٥ .

[= الشيء العام ، قضية الجمهور] ، مما يحجب او يقنّع طابعها الطبقي (٤٩) .

* كما ان الدولة ليست ذات طابع مطلق ولا تتقرر بكيف ارادتها ، بل هي تعبير علاقات اجتماعية ، كذلك فان الحق والقانون ، اللذين بهما تتأكـد سلطتها ، هما ايضا يتحددان بالعلاقات الاجتماعية ويتطوران مع هذه العلاقات (٥٠) .

الحق [الحقوق] وُلد مع الملكية الخاصة من انحلال الملكية الجماعية البدائية. بنتيجة ولادة الحق ، فقدت العلاقات بين الافراد طابعهـــا الشخصي وأُخضعت لقواعد محددة في شكل قوانين تصدرها الدولة في مصلحة الطبقة القائدة (٥١) .

الحق الحديث وُلد من انحلال العلاقات الحقوقية الاقطاعية تحت فعل تطور النظام الراسمالي . هكذا فقد تشكلت الحقوق البحرية في آمالفي ، اول مدينة في العصور الوسطى كان لها تجارة بحرية واسعة (٥٢) .

في الوقت نفسه مع الحقوق وُلدت المحاكم التي أحلت محل نمط العدالـــة البدائي والبربري أشكالا اكثر تمدنا ، بواسطتها ينصر الافرادحقوقهم . المحاكم الحديثة يعود تاريخها الى العصر الذي فيه اتخذت العلاقات الاجتماعية والعلاقات بين الدول طابعا برجوازيا (٥٣) .

ان تشكل وتطور الامم محددان ، مثل تشكل وتطور الدول ، من قِبل تطور

---

٤٩ ـ م.ن ، ص ٦٢ : «ينجم عن ذلك ان جميع الصراعات في اطار الدولـــة ، الصراع بين الديمقراطية والارستقراطية والملكية ، الصراع من اجل حق التصويت ، ليست سوى الاشكـــال الوهمية التي تحتها تُخاض الكفاحات الحقيقية بين الطبقات المختلفة .» ✶

[✶ مرة أخرى : ماركس يعارض الفكر البرجوازي وليس سلاطين بني عثمان ، يعارض هيغـل وآدام سميث و... ، اي مصادر وأصول الماركسية] .

٥٠ ـ م.ن ، ص ١٠٦ : «بما ان الدولة هي الشكل الذي فيه أفراد طبقة مهيمنة يغلّبـــون مصالحهم المشتركة وفيه تتعبر اللامح الجوهرية لمجتمع معيَّن ، لذا فان كل المؤسسات المشتركة هي واقع وعمل وقضية الدولة ، وتنال بذلك عينه شكلا سياسيا . من هنا الوهـــم الذي يتصور ان القانون هو من صنع الارادة ، ارادة حرة ، مفروزة عن كل اساس عياني . هذا يصح ايضا علـــى الحقوق ، التي يعيدونها الى القانون ، الى الشرع .»

م.ن ، ص ٣٦٥ : «ان تعبير هذه الارادة المحددة من قبل المصالح المشتركة للافراد الذين يمارسون السلطة هو القانون .»

٥١ ـ م.ن ، ص ١٠٦ .

٥٢ ـ م.ن ، ص ١٠٦ . [مدينة آمالفي Amalfi ، ساحل جنوبي ايطاليا ، القرن الحادي عشر ... تمثل (ونوعا ما ترمز الى) بداية نهضة العصر الوسيط الاوروبي الغربي . بعدها البندقية وجنوه ، بلاد الفلاندر ، ما بين المنطقتين الخ ، «نهضة القرن الثالث عشر» ، ثم النهضة او الولادة الجديدة (ق ١٥ ، ق ١٦) وبداية «الازمنة الحديثة»] .

٥٣ ـ م.ن ، صص ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية . والعلاقات التي تقوم بينها تتوقف على درجة تطورها الاقتصادي والاجتماعي المختلفة (٥٤) .

كي تدافع عن انتاجها ضد مزاحمة بلدان اكثر تطورا ، الامم بدأت بمنع تصدير المعادن الثمينة واستيراد سلع اجنبية بواسطة رسوم مانعة (٥٥) .

اعتبارا من القرن السابع عشر ، خاضت الامم الاكثر تقدما صراعا لا رحمة فيه من اجل الاستيلاء على مستعمرات وعلى السوق العالمية . خلقت لهذا الغرض شركات كولونيالية منحت مونوبولا [احتكارا] من اجل استثمار المستعمرات (٥٦) .

نتيجة التوسع الكوني لنمط الانتاج الرأسمالي ، تقلصت تدريجيا الفروق في تطور الامم الاقتصادي والاجتماعي ، وخرجت الامم من عزلتها ، واتخذت علاقاتها طابعا كونيا (٥٧) .

من وجهة النظر المادية هذه يرسم ماركس وانجلز لوحة عظيمة عن التاريخ البشري ، تتيح لهما ان يحددا بكيفية اكثر صحة ودقة وعمقا المبادىء العامة للمادية التاريخية .

ان انبساط التاريخ الانساني ينقسم الى طورين كبيرين ، يتميز أحدهما عن الآخر بنمط فاعلية البشر وتقسيم الشغل وشكل الملكية والعلاقات الاجتماعية . في الطور الاول ، لا يزال نمط الانتاج وتقسيم الشغل والملكية والعلاقات الاجتماعية ذات طابع طبيعي ، في حين هي في الطور الثاني محددة اكثر فأكثر من قبل تطور الحضارة [المدنية Civilisation] . بخلاف **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، التي كان فيها ماركس قد قسم التاريخ ، على طريقة الطوباويين ، الى طور نزع الانسانية الناجم عن الشغل **المنخلع** وطور اعادة الأنسنة بحذف نمط الشغل هذا ، ماركس وانجلز يكبان هنا على تبيان كيف ان الحقبتين الكبيرتين في تاريخ البشرية تتمايزان أساسيا بالكيفية المختلفة التي بها ينتج البشر حياتهم المادية .

---

٥٤ ـ م.ن ، ص ٤٦ : «ان علاقات مختلف الامم فيما بينها تتوقف على درجة التطور التي بلغتها عند كل منها قوى الانتاج وتقسيم الشغل والعلاقات الاجتماعية. ليس فقط علاقات أمة مع الامم الامم الاخرى ، بل ايضا كل بنيتها الداخلية ، تتوقف على مستوى تطور انتاجها وعلى تجارتها الداخلية والخارجية .»

٥٥ ـ م.ن ، ص ٨٦ .

٥٦ ـ م.ن ، ص ٨٧ .

٥٧ ـ م.ن ، ص ٦٦ : «كلما ازداد اتساعا وعمقا تفاعل التطور الاقتصادي والاجتماعي على الصعيد الدولي في سير التاريخ ، كلما ازداد بنتيجة ذلك انتزاع الامم من عزلتها بتطور الانتاج والتجارة وازداد الغاء تقسيم ـ الشغل البدائي الاصلي بين الامم ، ازداد اتخاذ التاريخ طابعا عالميا . »

في الحقبة الاولى ، يعيش البشر مما يجدون مباشرة في الطبيعة ، من النباتات ومنتجاتها (قطف حبوب وثمار) ، من الصيد البري والمائي ، بحيث ان عناصر انتاج حياتهم المادية لها طابع طبيعي . فهي مكوّنة لا من ثمار فاعليتهم المنتجة التي تتيح لهم تحويل الطبيعة بل مما هذه الطبيعة تقدم لهم . هكذا تكون حياتهم محددة من قبل الطبيعة كما تحضر لهم والملكية مقتصرة على حيازة الارض في وضعها الطبيعي.
بما ان البشر ، من النظرة الاولى ، لا يمكن ان يوجدوا بصورة منعزلة ، اذ ان شغلهم : قطف ، صيد ، يشترط تعاونا فيما بينهم ، لذا فانهم يعيشون باديء بدء مجتمعين في العائلة ، ثم في القبيلة . العائلة تكوّن اول شكل للعلاقات الاجتماعية. انها تخدم ليس فقط في ادامة النوع الانساني ، بل ايضا في تلبية الحاجات الابتدائية لاعضائه . العلاقات الاجتماعية التي تقتصر في البداية على العلاقات التي تقوم ، من جراء تقسيم الشغل ، بين الرجل والمرأة ، بين الآباء والابناء ، تتطور بنتيجة ازدياد الحاجات والانتاج الذي يقود الى تكوّن قبائل مشكّلة باجتماع عدد من العائلات .

في القبيلة ، التي تسِم بداية الحياة في مجتمع ، العلاقات الاجتماعية تقتصر، كما في العائلة ، على الشغل المنفّذ بصورة مشتركة في القطف والصيد بنوعيه ؛ الذي ينضاف اليه الان تربية الحيوان وتبادل منتوجات الطبيعة او منتوجات صناعة ما تزال بدائية جدا (الفخّار) . ان وسائل الانتاج التي يستخدمها البشر آنذاك هي أدوات بدائية حجرية او خشبية . لا يوجد انقسام للشغل وبالاحرى انفصال بين الشغل اليدوي والشغل الفكري .

يعقب هذه الحقبة الاولى في تاريخ البشرية حقبة أخرى يحددها ازدياد الحاجات وقوى الانتاج ، فيها انتاج الحياة المادية يكون على نحو متزايد نتاج فاعلية البشر المنتجة .

من اجل سد الحاجات المتنامية على الدوام من جراء ازدياد السكان ، تستبدل الادوات البدائية تدريجيا بأدوات أفضل وأكثر تعقيدا . في الوقت نفسه مع تطور الانتاج نرى حصول تقسيم اكبر للشغل وولادة أشكال جديدة للملكية وعلاقات اجتماعية جديدة . حياة البشر ترتبط أقل فأقل ، كما كانت ترتبط في الحقبة البدائية ، على نحو وثيق ومباشر بالطبيعة ، وتتحدد اكثر فأكثر بتطور قوى انتاج جديدة وعلاقات اجتماعية جديدة .

مع ولادة النمط الرأسمالي لانتاج وتداول السلع ، العلاقات الاجتماعية ، فاقدة بالتدريج طابعها الفردي ، تتشيّأ اكثر فأكثر بحكم كونها معاداة الى تبادل سلع . العلاقات الاجتماعية المشيّئة على النحو المذكور لا تظهر بعد الان للافراد كعلاقات انسانية بل كقوى غريبة تهيمن عليهم (٥٨) .

---

٥٨ ــ م.ن ، ص ص ٦٥ ، ٦٦ .

بعد هذا العرض المقتضب للسمات المميزة لحقبتي التاريخ البشري الكبيرتين، يحلل ماركس وانجلز بالتفصيل الدرجات الرئيسية في الحقبة الثانية . يسيران في ذلك على نهج انجلز في **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، حيث كان قد بيَّن كيف ان العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والايديولوجية انما هي محددة من قبل تطور قوى الانتاج .

هذا الطور الثاني في التاريخ البشري يشمل اربع درجات . الاولى تتميز بالملكية الجماعية للقبيلة ، التي تستجيب لنمط حياة ما زال بدائيا . البشر يعيشون من القطف وتربية الحيوان والصيد بنوعيه ، الامر الذي يقتضي التصرف بمساحات واسعة من الاراضي والائتلاف الوثيق لاعضاء القبيلة في كل ميادين فاعليتهم . في أسلوب الانتاج هذا ، لا يذهب تقسيم الشغل او لا يكاد يذهب أبعد من التقسيم الموجود في العائلة ، انه فقط موسَّع الى كل القبيلة . هذا النمط من الانتاج وتقسيم الشغل يتوافق معه النظام البطريكي * . في هذه المنظومة نرى تطور الرق ، الذي يولد سابقا في العائلة ، حيث بنتيجة توزع الفاعلية المنتجة المتفاوت تصبح المرأة والاولاد واقعيا عبيدا للأب الذي يتصرف بشغلهم . ويتخذ الرق ، بوصفه قوة انتاج ، اتساعا متزايدا في القبيلة ، لاسيما من جراء الحروب بين القبائل ، الحروب التي تحوّل الاسرى الى عبيد (٥٩) .

الدرجة الثانية في هذا الطور تكونها المنظومة القديمة antique للملكية الجماعية للكومونة والدولة (٦٠) . هذه المنظومة تولد من اجتماع قبائل تشكل دولة ومن توسع العلاقات الاجتماعية نتيجة تبادل السلع الذي ازداد . في هذه المنظومة من الملكية الجماعية التي تشمل بوجه الاجمال مدينة وجوارها القريب ، يحدث انفصال بين الريف والمدينة ، بين الزراعة والصناعة التي لها طابع حِرفي ، وفي داخل المدن افتراق بين الصناعة والتجارة (٦١) .

ان توسع المدن ، التي تتخذ بنتيجة تطور الصناعة والتجارة أهمية متعاظمة، يفرض تشكل ادارة والدولة ، الامر الذي يستتبع انقسامات أخرى للشغل ؛ وبشكل خاص الانفصال بين الشغل اليدوي والشغل الفكري (٦٢) .

[* البطريكي Patriarcal ، «الأبيسي» (شيخ القبيلة أب ورئيس) ، أبوي واستبدادي] .

٥٩ – **م.ن** ، ص‌ص ٤٧ ، ٦١ .

٦٠ – **م.ن** ، ص ٤٧ .

٦١ – **م.ن** ، ص ٦٧ .

٦٢ – **م.ن** ، ص ٨٠ : «التقسيم الاكبر للشغل اليدوي والفكري مرتبط بالانفصال بين المدينة والريف . التعارض بين المدينة والريف يظهر مع الانتقال من البربرية الى الحضارة ، من التنظيم القبلي الى الدولة ، من التموقع المحلي الضيق للحياة الى توسعها في الامة ، ويستمر خلال كل التاريخ حتى ايامنا ... . ان وجود المدينة يفترض ضرورة الادارة ، الشرطة ، الضرائب ، الخ ،

في هذه المنظومة ، يرتكز الانتاج على تعمم الرق ، الذي بات الان منبسطا مليا بوصفه قوة انتاج . في الوقت نفسه ، نرى توضح العلاقات التي تقوم بين المالكين وغير ـ المالكين ، بين الاسياد الذين هم وحدهم اعضاء في الدولة والعبيد المحرومين من كل حق . نرى ايضا تحول نمط الملكية بالتدريج . فالى جانب الملكية الجماعية التي تبقى غالبة ، نرى ظهور الملكية الخاصة التي لا تنبسط في البداية الا كشكل تابع للملكية الجماعية . فالرجال الاحرار ، الاسياد ، لا يستطيعون استخـــدام واستثمار العبيد الا بصفتهم اعضاء في الدولة ، بحيث ان الملكية الخاصة تبقى في الاصل مربوطة بالملكية الجماعية التي تكوّن قاعدة سلطة الرجال الاحرار (٦٣) .

هذه المنظومة تتفكك ، بخاصة في ايطاليا ، بقدر ما الملكية الخاصة للارض تتطور وتتركز بتكوين أملاك واسعة . هذا يستتبع زوال الفلاحين الصغار وانخفـــاض عدد سكان الارياف ، حيث تتقلص الزراعة لحساب تربية الحيوان بتحويل الحقول الى مراع ، وهجرة الفلاحين المسحوقين نحو المدن ، حيث ، اذ لا يجدون شغلا لان الشغل ينجزه العبيد ، يصيرون طفيليين ، زبائن للاغنياء ، ويرفدون العامة أو الرعاع . هذا يخلق الشروط الملائمة لغزوات البرابرة ، الذين يستخدمون الحرب والنهب وسيلة لسد حاجاتهم (٦٤) .

الدرجة الثالثة لتطور قوى الانتاج وتقسيم الشغل ونمط الملكية هي المنظومة الاقطاعية التي ، بعد تدمير الامبراطورية الرومانية على يد البرابرة ، تعقب نظـــام الملكية القديم Antique . هذه المنظومة تتأسس بعد تدمير البرابرة لكتلة هائلة من قوى الانتاج ، التدمير الذي يؤدي الى انحطاط الزراعة والصناعة والتجارة . واذ لا يستطيع البرابرة بعد ذلك ارضاء حاجاتهم بالنهب ، فانهم يضطرون الـــى استخدام قوى الانتاج المتبقية في البلدان المفتوحة ، مع تكييف تطبيقها بما يلائم شروطا اقتصادية واجتماعية جديدة . ان كثافة السكان الضعيفة في الاقاليم التي يحتلونها ، وانحطاط الصناعة والتجارة والمدن ، والاهمية الاولية التي تتخذهـــا الزراعة بوصفها الشكل الرئيسي للانتاج ، والتنظيم العسكري للبرابرة ، تقـــرر طابع نمط الانتاج والعلاقات الاجتماعية الخاصة بالمنظومة الاقطاعية (٦٥) .

باختصار ضرورة التنظيم البلدي Commual وبالتالي ضرورة السياسة بوجه عام . هنا يظهر ايضا للمرة الاولى انقسام السكان الى طبقتين كبيرتين ، انقسام يرتكز مباشرة على تقسيم الشغل وعلى أدوات الانتاج . فالمدينة ذاتها هي واقع وفعل تمركز السكان وأدوات الشغل والرأسمال والملذات والحاجات ، بينما الريف هو تظاهر الواقع المعارض ، هو تجلي العزلة والتفريد .»

٦٣ ــ م.ن ، ص ٦٧ .

٦٤ ــ م.ن ، ص‌ص ٤٨ ، ١٠٠ .

٦٥ ــ م.ن ، ص‌ص ٤٨ ، ١٠١ . [الجرمان ــ فرانك ، الامان ، برغوند ، غوت غربيين ، غوت شرقيين الخ ــ استوطنوا في البلدان التي تدعى اليوم فرنسا ، اسبانيا ، ايطاليا ، الخ ، حوالي القرن الخامس م .]

بحكم الدور المقرر الذي تلعبه الزراعة في الانتاج ، هذه المنظومة لم تنطلق من المدن ، مثل نظام الملكية الجماعية القديم ، بل من الارياف . لها ، مثل المنظومة القديمة ، طابع تسلسل رئاسي . فهي ايضا ترتكز على استغلال جمهـــور العمال الزراعيين من قبل الملاكين العقاريين مع هذا الفرق الا وهو ان طابع الطبقة القائدة وعلاقاتها مع الطبقة المضطهَدة مختلِف ، بحكم تغير شروط الانتاج .

الطبقة المهيمنة الجديدة تتشكل على اساس التكوين العسكـــري للبرابرة . القادة العسكريون يصيرون ملاكين عقاريين كبارا يؤلفون النبالة العالية . بمساعدة تابعيها [Nassaux] ، هذه تضطهد جمهور العمال الزراعيين الذين ليسوا الان أرقاء بل أقنان . مع الاقنان تتشكل طبقة جديدة من المستغَلين ، مؤلفة في الاصل من أرقاء سابقين ومن فلاحين صغار أصابهم الدمار ، طبقة تدوم بواقع ان الاقنان لا يستطيعون ان يتحرروا ، فهم مربوطون بالارض (٦٦) .

الى جانب تكوّن النمط الاقطاعي للانتاج الزراعـــي ، مع تقسيم الشغـــل والعلاقات الاجتماعية الخاصة به ، ينمو في المدن انتاج حِرفـــي يشدد التعارض بين المدينة والريف . هذا الانتاج الحرفي يحصل على قاعدة تنظيم نقابي ـ حِرفي، فيـــه الذين يمارسون نفس الصنعـــة او نفس التجارة يتحدون دفاعا عـــن مصالحهم (٦٧) .

نقابات الحِرف لها نفس الطابع التسلسلي الذي للتنظيم الزراعي . علـــى رأسها يوجد أسياد الحرفة او المعلمون الحرفيون maitre ، مالكو المشاغل وأدوات الشغل ، الذين تحت تصرفهم رفاق compagnons وصنّاع apprentés ان حيازة مونوبول الانتاج تسمح للمعلمين بأن يضبطوا كما يشاؤون علاقاتهم مـــع الرفاق والصناع ، العلاقات التي ترتدي بحكم الصلات الشخصية التي توحدهم طابعا بطريكيا . رغم الاستغلال الذي يخضعون له ، يبقى الرفاق متعلقين بهـــذا النظام الذي يعطيهم امكانية ان يصيروا بدورهم أسيادا (٦٨) .

ينجم عن الطابع الاقتصادي والاجتماعي لهذا النظام الذي يستبعد واقعيـــا المزاحمة بعض الركود في تطور الزراعة والصناعة . الراسمال ما زال له جوهريا شكل رأسمال دائم ، مكوّن من ملكية الارض او المشغل مع الادوات والزبائن . نظرا لفقدان الراسمال التداولي Circulant ، الذي يحتاج آنذاك الى وقت طويل جدا في تراكمه ، ان تقدم قوى الانتاج وتقسيم الشغل بطيء جدا . ويعيقه فضلا عن ذلك واقع ان الرفيق عليه ان يكون قادرا على تنفيـــذ جميع الاعمال

---

٦٦ ـ م.ن ، ص ص ٤٨ـ٤٩ .

٦٧ ـ م.ن ، ص ٤٩ .

٦٨ ـ م.ن ، ص ص ٤٩ ، ٨٢ .

المتصلة بحرفته (٦٩) .

بخلاف الزراعة والصناعة الحرفية ، تتطور التجارة بوتيرة أسرع اذ تنفرز تدريجيا عن الانتاج ، الذي كانت في الاصل وثيقة الارتباط به والتبعية له ، ــ حيث كان سيد الحرفة منتجا وبائعا لسلعه في آن معا ــ ، التجارة تستقل ، مما يولّد طبقة جديدة ، هي طبقة التجار . اذ تتجاوز حدود مدينتها وجوارهـا المباشر الضيقة ، التجارة تتوسع بسرعة لا بأس بها نحو المدن المجاورة وتتخذ طابع تجارة بين ــ المدن . بما انها هكذا تملك امكانية تطور أسرع من تطور الزراعة والصناعة الحرفية ، فهي تصير العنصر الغالب في التطور الاقتصادي والاجتماعي . مسهلة التبادلات وخلق حاجات جديدة ، انها تنشط تطور الصناعة بنمو الطلب ، بانتشار الاختراعات وأساليب الصنع الجديدة على نحو أسرع ، بتحسن وتوسع وسائل النقل ، وبتخصص المدن التدريجي في فرع الانتاج الاكثر ريعا (٧٠) .

الطابع الخاص لتطور الزراعة والصناعة الحرفية والتجارة يحدد التنظيم الاجتماعي والسياسي والصراعات الطبقية الخاصة بالمنظومة الاقطاعية . هذه الصراعات تستجيب للتعارض الذي يولد بين مختلف الطبقات في الريف وفي المدن . في الريف ، النبالة مضطرة الى النضال ضد الاقنان وصغار الفلاحين ، وهي تصطدم في المدن بالمعارضة المتنامية من جانب البرجوازية . البرجوازية ، المؤلفة جوهريا من الاسياد ــ الحرفيين ومن التجار تناضل ، في القدر الذي فيه تقوى بتطور الصناعة والتجارة ، بعزيمة متنامية في سبيل التحرر من سيطرة الامراء والاساقفة والنبلاء . ان تجار المدن المحررة يتحدون في سبيل حماية أنفسهم ضد هجمات الفرسان الناهبين (٧١) . عبر هذه الصراعات التي توطد سلطان البرجوازية العسكري والسياسي ، تأخذ البرجوازية اكثر فأكثر وعي طابعها الطبقي . فشروطها الحياتية الخاصة تصبح ، بتعممها ، الشروط الحياتية الخاصة بكل الطبقة البرجوازية ، اي الشروط الطبقية التي تحدد نمط وجود وايديولوجيا كل واحد من اعضائها . ينجم عن ذلك ان البرجوازية تتكوّن اكثر فأكثر كطبقة خاصة (٧٢) .

---

٦٩ ــ م.ن ، ص‌ص ٤٩ ، ٨٢ ــ ٨٣ .

٧٠ ــ م.ن ، ص‌ص ٨٣ ــ ٨٤ .

٧١ ــ م.ن ، ص ٩٢ .

٧٢ ــ م.ن ، ص‌ص ٩٢ــ٩٣ : «فقط ببطء شديد تشكلت **الطبقة** البرجوازية انطلاقا من البرجوازية المحلية في المدن المختلفة . ان شروط وجود كل برجوازي بشكل خاص تحولت ، بفعل معارضة البرجوازية للعلاقات الاجتماعية الموجودة ولنمط الشغل المحدد من قبل هذه العلاقات ، الى شروط عامة مشتركة للجميع ومستقلة عن كل برجوازي مأخوذا في خصوصيته . كان البرجوازيون قد خلقوا هذه الشروط بانفرازهم عن الروابط الاقطاعية وحُدّدوا من قبل هذه الشروط بقدر ما كان

الى جانب خوضها الكفاح ضد الامراء والنبالة ، على البرجوازية ان تكافح ضد الرفاق الذين تستثمرهم وأيضا ضد مرتبة [Couche طبقة] متعاظمة من العوام ، مؤلفة في غالبيتها من أقنان يهربون من الارياف أملا بالعثور في المدن على شروط وجود أفضل . وبما انهم لا يستطيعون الحصول على عمل نظامي دائم لانهم لا ينتمون الى نقابة حرفية ، فانهم يدخلون في نزاع مع الاسياد والرفاق . بخلاف البروليتاريا الحديثة ، هؤلاء العوام لا يناضلون ضد النظام القائم بل ضد الامتيازات التي تمنعهم من ايجاد عمل . بما انهم غير منظمين ، فانهم لا يكوّنون ، رغم نفضاتهم، عنصرا ثوريا خطرا ، وهذا العنصر يكوّنه آنذاك بشكل خاص الاقنان وصغار الفلاحين ، الذين تتوالى انتفاضاتهم في العصر الوسيط (٧٣) .

التنظيم السياسي الاقطاعي المتميز بتفتت الاقليم الى امارات صغيرة يتحول، تحت تأثير اخضاع النبالة للامراء الاشد بأسا وأيضا تحت تأثير طموح البرجوازية الى رؤية انخلاق دول قوية ، أقدر على حمايتهم وعلى دفع عجلة التطور الاقتصادي. بحكم ذلك يُخضِع الاسياد الاقطاعيون تدريجيا للسلطة الملكية وتَجمع أقاليمهم لتشكل ممالك ذات بأس وقوة (٧٤) .

ان اكتشاف بلدان جديدة في افريقيا وآسيا وأميركا ، سرعان ما حوّلت الى مستعمرات ، يأتي بدرجة جديدة في التطور الاقتصادي والاجتماعي . فانشاء مستعمرات يعطي دفعا جبارا للتجارة ، لاسيما التجارة البحرية ، التي باتخاذها طابعا دوليا متعاظما تتطور آنذاك بوتيرة أسرع من تطور الصناعة وتلعب دورا ليس فقط اقتصاديا بل ايضا اجتماعيا غالبا . المستعمرات تصير قاعدة التطور الاقتصادي للامم الاوروبية الاطلسية . فبعد ان قدمت الذهب والفضة والتوابل ، تصير بقدر متنام مورّدة مواد أولية للصناعة ومصرّفة منتجات هذه الاخيرة (٧٥) .

ان استيراد الذهب والفضة بكميات كبيرة والارباح الهائلة المسحوبة من التجارة البحرية تتيح تراكما متزايد السرعة في الرأسمال التداولي ، الذي يميل الى تجاوز الرأسمال الدائم في الاهمية .

ان تراكم الرأسمال التداولي يسمح ببلوغ درجة جديدة في تطور قوى الانتاج بواسطة المضي من الانتاج الحِرفي الى الانتاج المانيفاكتوري ، الذي يأخذ انطلاقا

سلوكهم مثبتا بمعارضتهم للاقطاعية . مع الارتباط الذي يحصل بين مختلف المدن ، هذه الشروط المشتركة لكل الطبقة البرجوازية تحولت الى شروط لطبقة . نفس الشروط ، نفس التعارض ، نفس المصالح ، كان لها وعليها اجمالا أن تثير في كل مكان نفس العادات والاخلاق . لم تبدأ البرجوازية تتطور الا مع هذه الشروط ...»

٧٣ – م.ن ، ص ص ٨١–٨٢ ، ٩٥–٩٦ .

٧٤ – م.ن ، ص ٤٩ .

٧٥ – م.ن ، ص ص ٨٦ ، ٨٨ .

كبيرا من جراء توسع التجارة (٧٦) .

المانيفاكتورات تخلق في البداية خارج المدن ، في القرى ، حيث لا تطالها النظم النقابية . اليد العاملة مقدمة لها من الاقنان الذين يجدون فيها شروط عمل وحياة أفضل . بفعل ازدياد السكان وطلب المنسوجات المتزايد ، تنشأ المانيفاكتورات اولا بأول في صناعة النسيج ، بخاصة في ايطاليا وبلاد الفلاندر (٧٧) .

ان الانطلاق السريع للتجارة البحرية والصناعة المانيفاكتورية يستتبع استفحالا في التزاحم بين الامم الاكثر تقدما ، الذي يصير سبب الحروب الرئيسي . كي تحمي تجارتها البحرية وانتاجها الصناعي وتراكم الرأسمال التداولي ، تلجأ كل أمة الى انشاء شركات كولونيالية ذوات امتياز ، الى رسوم حمائية ، الى منع تصدير الذهب والفضة ، وكذلك المواد الاولية النسيجية : الصوف ، الكتان ، الحرير ، القنّب ، كي تُستخدم وتُصنّع في البلد نفسه (٧٨) .

ان تطور المانيفاكتورات الذي ينضاف الى انطلاق التجارة يسرّع تراكم الرأسمال التداولي ، الذي يسهّل خلق سوق للمال مع بنوك وعملة ورقية وقروض دولتيَّة (٧٩) .

ان التوسع الذي تتخذه التجارة والصناعة المانيفاكتورية يرافقه تحول اجتماعي وسياسي عميق . بحكم كون الزراعة والانتاج الحرفي يفقدان تدريجيا بعض اهميتهما نسبة الى التجارة والصناعة المانيفاكتورية ، ترى النبالة سلطتها الاقتصادية وأهميتها الاجتماعية والسياسية تنخفضان لصالح البرجوازية الكبيرة ، بينما الحِرافة [artisanat ، الحرفيون] تذبل شيئا فشيئا . البرجوازية الكبيرة ، التي تتشكل في البداية بصورة رئيسية في المدن البحرية ، تنفصل تدريجيا عن البرجوازية الصغيرة وتنازع بشراسة متزايدة النبالة ، اولا في انكلترة التي هي البلد الاكثر تقدما من الناحية الاقتصادية ، على دور الطبقة القائدة ــ الحاكمة(٨٠). ولكن تلك سيرورة طويلة . فما دام تراكم الرأسمال المتداول يحصل بوتيرة بطيئة نسبيا ، وما دامت امتيازات نقابات الحِرف تقيد تطور الصناعة والتجارة ، وما دام الانتاج الحرفي والتجارة الصغيرة هما الشيء الغالب بوجه الاجمال ، فان البرجوازية تحتفظ ، على نحو عام ، بأخلاق وذهنية البرجوازية الصغيرة ، الامر الذي يميزها عن الطور التالي حيث البرجوازية الكبيرة تعطي النغم (٨١) .

---

٧٦ ــ م.ن ، ص‌ص ٨٤ ، ٨٦ .

٧٧ ــ م.ن ، ص‌ص ٨٤ ، ٨٥ .

٧٨ ــ م.ن ، ص‌ص ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ .

٧٩ ــ م.ن ، ص ٨٦ .

٨٠ ــ م.ن ، ص ٨٦ .

٨١ ــ م.ن ، ص ٨٨ .

في سير هذا التحول الاقتصادي والاجتماعي ، العلاقــات والصراعات بين الطبقات يتغير طابعها . بينما النبالة تناضل دفاعا عن امتيازاتها في آن معـا ضد الاقنان والفلاحين الصفار والبرجوازية والملكية المتجهة نحو الحكم المطلق ، تسعى البرجوازية الى الاطاحة بالنظام الاقطاعي كي تحقق ظفر مطالبها . تدخل ايضا في صراع مكشوف ضد البروليتاريا التي تتشكل في الوقت نفسه مع تطور الصناعة المانيفاكتورية (٨٢) .

ان ظهور البروليتاريا يسبقه ، نحو نهاية العصر الوسيط ، توسع سريـــع للتشرد اثر تسريح الجيوش التي استخدمها الملوك ضد التابعين الكبار وتحويـــل قسم كبير من الاراضي الى مراع . عدد الذين لا عمل لهم يزداد حينئذ بشكـــل هائل ، يصيرون متشردين يؤلفون خطرا عاما ويبادون بلا شفقة . فـي انكلترة ، الملك هنري الثامن وحده حكم بالشنق على ۷۲٫۰۰۰ منهم . مع تطور المانيفاكتورات، يبدأ المتعطلون يجدون استخداما ولكن بشروط بالغة القسوة . ففي المانيفاكتورات، تحذف العلاقات البطريكية التي توجد في نقابات الحرف بين الاسياد والرفاق ؛ وتحول العلاقات بين أرباب العمل والعمال الى علاقات مال ، الامر الذي يفسح المجال لاستثمار العمال استثمارا لا قياس له (٨٣) .

أن تطور الصناعة والتجارة والتراكم المتسارع للرأسمال التداولـي يحددان تشكل درجة جديدة في تطور قوى الانتاج ، درجة يسمها الانتقال من المانيفاكتورة الى الفبركة . نظرا لان طلب المنتجات الصناعية المتزايد لم يعد ممكنا اشباعـــه بواسطة المانيفاكتورات ، هذه تخلي المكان تدريجيا لفبارك ، فيها يحل استخدام الماكينات محل استخدام اليد العاملة ويستعمل البخار على نحو متزايد كقوة محركة. هذا التبديل ـ حلول الفبركة محل المانيفاكتورة ـ يحصل اولا في انكلترة التـي عليها ان تلبي حاجات سوق عالمية . ثم يتحقق في سائر البلدان الرأسمالية تحت ضغط المزاحمة التي ترغمها على تحديث قواها الانتاجية (٨٤) .

بفضل تطور الفبارك ، الصناعة الكبرى تتجاوز الان في الاهمية التجارة التي كانت حتى نهاية القرن الثامن عشر قد لعبت دورا غالبا . ان انطلاق الصناعـــة الكبيرة يؤدي الى تحول وتقدم وسائل النقل والاتصال : بما ان السفن الشراعية والعربات لم تعد قادرة على سد حاجات التجارة والصناعة ، فانها تخلي المكـــان للسفن البخارية والسكك الحديدية . يعجل تراكم الرأسمال التداولي الذي يميل الى تخطي الرأسمال الدائم من حيث الاهمية والذي يتحرر من كل قيوده . يسهل اخيرا توسع المدن الكبرى ، حيث ، بعكس ما كان لا يزال موجودا في المــــدن

---

٨٢ ـ م.ن ، ص ٨٥ .

٨٣ ـ م.ن ، ص ٨٥ .

٨٤ ـ م.ن ، صص ٨٩ ـ ٩٠ .

الصغيرة ، تختفي آخر بقايا الزراعة وتربية الحيوان : حدائق ، بساتين ، مراع ، اسطبلات ، مما يقود الى حدّه الانفصال بين الريف والمدينة ويؤمّن السيادة لهذه الاخيرة (٨٥) .

ان تقدم الصناعة الكبيرة يجلب ، في الوقت نفسه مع جلبه تحولا في قوى الانتاج والعلاقات الاقتصادية ، تغيرا في العلاقات الاجتماعية وحياة الافراد أعمق من ذلك الذي سبّبه ادخال الانتاج المانيفاكتوري وتوسع التجارة البحرية .

الانفصال المتزايد العمق بين فاعلية الانسان المنتجة ومنتوج شغله ، الانفصال الناتج عن تطور نمط الانتاج الرأسمالي ، يعجل في استبدال العلاقات الفرديـة بتبادلات سلع ، تبادلات تتحقق بواسطة المال ، وبذلك عينه في تشيّؤ العلاقات الاجتماعية .

ان ازدهار الصناعة الكبيرة ، الذي يُخضع لها كل أمة متمدنة و ، داخل هذه، كل فرد في تلبية حاجاته ، يدمر الطابع الخاص لكل أمة ويسبب تحولا عميقا لبنيتها الاجتماعية وللعلاقات بين الطبقات (٨٦) .

بينما النبالة والفلاحة [طبقتا النبلاء والفلاحين] تفقدان ، بنتيجة تأخر الانتاج الزراعي عن ركب الانتاج الصناعي ، قسطا متزايدا من أهميتهما الاقتصاديـة والاجتماعية ، وبينما الصناعة الحرفية تصمد بصعوبة متزايدة أمام مزاحمـة الصناعة الكبيرة ، نرى تعاظم سلطة البرجوازية الكبيرة التي ، بحيازتها قوى الانتاج الجديدة والرأسمال التداولي ، تصير تدريجيا ، في كل البلدان ، الطبقة الحاكمة.

المجتمع البرجوازي ، الذي يستجيب ، على الصعيد الاجتماعي ، لتطور قوى الإنتاج في النظام الرأسمالي ، يتخذ اكثر فأكثر ، مثل هذا النظام ، طابعا دوليا . فالبرجوازية تَخضع كل الدول غير الرأسمالية لمتطلبات مصالحها الخاصة و ، في الدول الرأسمالية ، كل الطبقات الاخرى لهذه المصالح ، خالقة هكذا ، كالنبالـة سابقا ، على صعيد دولي ، علاقات اجتماعية وسياسية وايديولوجية توافـق مصالحها الطبقية ، قالبة العادات والاخلاق والمفاهيم الموجودة ، وصائرة بذلـك

---

٨٥ – م.ن ، ص ص ٨٩ – ٩٠ .

٨٦ – م.ن ، ص ص ٨٩ – ٩٠ : «انها هي (الصناعة الكبيرة) التي خلقت التاريخ العالمي ، بقدر ما أخضعت كل أمة متمدنة و ، لتلبية حاجاته ، كل فرد من هذه الامة ، للعالم أجمع ، ودمـرت الطابع الخاص لكل أمة ... . نزعت عن تقسيم الشغل آخر مظهر له كظاهرة طبيعية . بشكل عام ، دمرت بكل القدر الممكن صفة الشغل الطبيعية وأحلت محل العلاقات الطبيعية علاقات المال ... . حيثما دخلت ، دمرت الحرافة وبوجه أعم كل الدرجات السابقة في الصناعة ... . خلقت بشكل عـام في كل مكان نفس العلاقات بين طبقات المجتمـع ودمرت بالتالـي الطابـع الخاص للقوميات المختلفة .»

العنصر الاجتماعي المقرر للتاريخ الحديث (٨٧) .

رغم تخطيها لاطار الدولة والامة ، البرجوازية مضطرة الى الاعتماد في الداخل على دولة قوية لكي تدافع عن مصالحها الطبقية وفي الخارج على أمة ذات بأس لكي تستطيع النضال ضد المزاحمة الاجنبية (٨٨) .

تنفصل الان بشكل أوضح بكثير عن الطبقات الوسطى التي تفقد اكثر فأكثر أهميتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وتفتح نضالا لا رحمة فيه ضد

---

٨٧ ــ **م.ن** ، ص ٩٣ : «البرجوازية ذاتها لا تتطور الا شيئا فشيئا ، مع الشروط الخاصة بها. وهي تتوزع بدورها الى فئات مختلفة ، حسب تقسيم الشغل ، وتنتهي الى امتصاص كل الطبقات المالكة السابقة ... بقدر ما يحوّل كل ملك الى رأسمال تجاري او صناعي .»

م.ن ، ص ٨٩ : « (البرجوازية) ابادت الى أقصى ما يمكن الايديولوجيا والدين والاخلاق ، وحين لم تنجح في ذلك أعطتها طابعا كذابا .»

٨٨ ــ **م.ن** ، ص ١٠٤ : «المجتمع المدني يكوّنه مجموع علاقات الافراد المادية ، في اطار مرحلة محددة من تطور قوى الانتاج . انه يشمل مجموع الحياة التجارية والصناعية لهذه الدرجة من التطور وبذلك يتخطى الدولة والامة ، وان كان عليه ان يؤكد نفسه في الخارج كقومية، وان ينظم نفسه في الداخل كدولة» .

[المجتمع المدني = المجتمع البرجوازي : بالالمانية **burgerlich** .

فيما يلي **تتمة** هذا المقطع الهام الذي **يختم** الفقرة «آ ... (١) **التاريخ**» من الفصل « **I** . فويرباخ . التعارض بين التصوّرين المادي والمثالي» . ننقل هذه التتمة عن الطبعة **الانكليزية** لـ **الايديولوجيا** الالمانية ، موسكو ، ١٩٦٤ ، ص ٤٨ :

«ان كلمة «المجتمع المدني» **(buergerliche Civil Society)** ظهرت في القرن الثامن عشر، حين كانت علاقات الملكية قد تحررت وبرزت من المجتمع القديم والوسيط الكومونالي . المجتمع المدني بوصفه كذلك ينبسط فقط مع البرجوازية . مع ذلك ، ان التنظيم الاجتماعي النابع مباشرة من الانتاج والتجارة ، والذي هو في جميع العصور قاعدة الدولة وباقي البنية الفوقية المثالية ، قد دُعي دائما بنفس الاسم» .

ونقرأ في شرح ورد في أسفل الصفحة ان العبارة الالمانية الموضوعة بين قوسين «يمكن ان تعني اما «المجتمع البرجوازي» او «المجتمع المدني» . » هذه الملاحظة من الناشر السوفياتي بالغة الصواب. فعلا هذه العبارة لها معنيان ، ... مع علاقة بينهما ، مع هوية واحدة لهما ، بالمقارنة مع ، بالتعارض مع ما **سبق** المجتمع المدني ــ البرجوازي ، مع ما **ليس** المجتمع المدني ــ البرجوازي .... اترك تتمة ملاحظاتي على هذه القضية لمناسبة اخرى . فالقضية كبيرة جدا ... وآنيّة . اضبارتها تشمل روجه غارودي في **فكر هيغل** (المجتمع المدني = انفلات الشهوات الانانية) ولوي التوسر الذي يطالب برمي هذا المفهوم (ليس أقل !) ، تشمل مخطوطات ١٨٤٤ وفهمنا لها ، تشمل «اليسار الجديد» العربي ونفَسه الأزور ، وتشمل مفهوم **التاريخية** الماركسي الخ .... أكتفي هنا بترداد قول ماركس الوارد اعلاه : «المجتمع المدني بوصفه كذلك ينبسط فقط مع البرجوازية» .]

البروليتاريا التي تولد مع ولادتها ، ان صح القول في شكل طِباق . فالبرجوازية والبروليتاريا تنموان وتتطوران كناتجَين اجتماعيين متنافيين للنظام الرأسمالي، الاولى تسعى الى الدفاع عنه ، الثانية الى تدميره (٨٩) .

ان الصراع الطبقي بين البرجوازية والبروليتاريا ، الذي يعقب الصراع بين الاسياد والعبيد في العصر القديم ، بين النبلاء والاقنان في العصر الوسيط (٩٠)، يشتد بقدر ما تنمو البروليتاريا ويستفحل الاستغلال النازل بها وتأخذ وعي التعارض الجذري الذي يفصل مصالحها الطبقية عن مصالح البرجوازية (٩١) .

من تطور المنظومة الرأسمالية ذاته يولد تناحر متعاظم بين الملكية والانتاج ، بين الرأسمال والشغل ، من هنا الانقسام المتزايد الشدة للمجتمع الى طبقتين كبيرتين ، البرجوازية التي تملك قوى الانتاج والبروليتاريا المحرومة من كل الخيرات (٩٢) .

اذ لا يملك البروليتاري سوى شغله ، فانه مضطر كي يعيش الى بيع نفسه كسلعة ، الامر الذي يخفضه الى حالة سلعة ويُخضعه للقوانين التي تحكم انتاج

---

٨٩ - م.ن ، ص ٩٠ : «اخيرا ، بينما برجوازية كل أمة ما تزال تحتفظ بمصالح قومية خاصة، الصناعة الكبرى خلقت طبقة ، مصالحها واحدة في كل الامم وبالنسبة لها القومية مُلغاة ، طبقة تحررت واقعيا من العالم القديم وهي في الوقت نفسه تعارضه» .

م.ن ، ص ص ٦٧ - ٦٨ : «في تطور قوى الانتاج تأتي مرحلة فيها تنشأ قوى منتجة وعلاقات اجتماعية لا يمكن الا ان تكون ضارة في اطار العلاقات الموجودة ، لم تعد قوى انتاج بل قوى تدمير (الآلات والمال) ، فيها تنشأ بواسطة هذه القوى طبقة تتحمل كل أعباء المجتمع دون ان تتمتع بمزاياه، مطرودة من المجتمع ومدفوعة هكذا الى معارضة كل الطبقات الاخرى معارضة جذرية ، طبقة تؤلف غالبية اعضاء المجتمع ، طبقة تأخذ وعي ضرورة ثورة جذرية ، ثورة شيوعية .»

٩٠ - م.ن ، ص ٤٧٤ .

٩١ - م.ن ، ص ١٠٢ : «لدينا هكذا ، من جهة ، جملة تامة من القوى المنتجة ، التي تشيَّأت ان صح القول ، التي لم تعد بالنسبة للافراد انفسهم قواهم ذاتها ، بل قوى الملكية الخاصة ، والتي ليست بحكم ذلك قوى الافراد الا بقدر ما هؤلاء هم مالكون ...

من جهة أخرى ، نرى ينتصب ، في وجه هذه القوى المنتجة ، غالبية الافراد ، الذين عنهم انفرزت وابتعدت هذه القوى ، الذين سُلبوا هكذا محتوى حياتهم الواقعي ، وصاروا افرادا مجرّدين abrstreuts ، ولكن الذين هم ايضا وعندئذٍ فقط في وضع يؤهلهم للدخول في علاقات فيما بينهم بوصفهم كذلك» .

٩٢ - م.ن ، ص ص ١٠١-١٠٢ : «في الصناعة الكبيرة وبالتزاحم ، كل شروط - وجود وتحديدات وخصائص الافراد تقلصت الى هذين الشكلين البسيطين جدا : الملكية الخاصة والشغل... ان انقسام الشغل يتضمن مباشرة انقسام **شروط الشغل** والادوات والمواد وتقطع الرأسمال المركوم بين ملاكين مختلفين وبالتالي الانقسام بين الرأسمال والشغل ، وكذلك مختلف أشكال الملكية .»

وبيع السلع . انه هكذا تحت رحمة استقلال واضطهاد لا رحمة فيهما من جانب الراسماليين . ويزيد وضعه خطورة واقع ان الشغل ، بدلا من ان يكون بالنسبة له الفاعلية الحرة ، المنتجة ، التي بها يتأكد الانسان كإنسان ، هو شغل مفروض عليه ، شغل عبد ، ينقصه بقدر ما هو ينتج ، وواقع ان تقسيم الشغل المدفوع اكثر فأكثر الى الامام يخضعه لعمل مُنهك ومحطم للنفس ، وهو لا يستطيع الافلات منه (٩٣) .

الاضطهاد الذي يصيب البروليتاري يبدو منقوضا بكونه ، خلافا للرقيق او القن ، يستطيع ظاهرا ان يتصرف بشغله بحرية . فعليا ، انه خاضع بشكل وثيق لسلطة الراسمال ، بحيث ان شرطه لا يختلف كثيرا ، في الواقع ، عن شرط العبد ـ الرقيق او العبد ـ القن . العبودية التي تثقل بشكل خاص كاهل البروليتاريين تمتد ، بالمناسبة ، الى كل الافراد في النظام الرأسمالي ، من جراء تشيّؤ العلاقات الاجتماعية (٩٤) .

البؤس الذي تعانيه البروليتاريا يدفعها على نحو متزايد الى الثورة ، من هنا الاستفحال الدائم لصراع الطبقات بين البرجوازية والبروليتاريا . كي تدافع عن نفسها ضد البروليتاريا وبوجه أعم كي تدافع عن مصالحها ، تملك البرجوازية سلطة الدولة التي ، مع جيشها وعدالتها وشرطتها ، تتفانى في خدمتها بفضل القروض التي تنالها منها (٩٥) .

---

٩٣ ـ م.ن ، ص ١٠٢ : «الشغل ، الرابط الوحيد الذي يوحدهم (البروليتاريين) مع قوى الانتاج والذي هو وسيلة وجودهم الوحيدة ، فقد عندهم كل مظهر من مظاهر تأكيد الذات وهو لا يؤمِّن حياتهم الا بانقاصها .»

م.ن ، ص ٩٥ : «عند البروليتاريين ، بالعكس ، ان شروط حياتهم وشغلهم وبالتالي كل شروط الوجود في المجتمع الراهن صارت شيئا ما عرضيا ، لا طاله رقابتهم .... ان التناقض بين شخصية البروليتاري وشروط الحياة المفروضة عليه يظهر له بجلاء لانه مضحى به منذ نعومة أظفاره وليس له اي حظ في ان يصل ، في اطار طبقته ، الى شروط من شأنها ان تنقله الى طبقة أخرى» .

٩٤ ـ م.ن ، ص ٩٤ـ٩٥ : «يتصور الافراد انهم اكثر حرية في ظل هيمنة البرجوازية مما كانوا سابقا ، لان شروط وجودهم لا تظهر لهم مفروضة من قبل الضرورة . انهم ، في الواقع ، بطبيعة الحال ، أقل حرية بكثير مما كانوا سابقا ، لانهم مخضَعون بشكل أوثق لتشيؤ العلاقات الاجتماعية » .

٩٥ ـ م.ن ، ص ٣٩٧ : «ان تطور وتراكم الملكية البرجوازية ، بتعبير آخر تطور التجارة والصناعة لم ينقطع عن اثراء الافراد بينما الدولة كانت تستدين اكثر فأكثر ... من الجلي انه ما ان تكون البرجوازية قد كدست مالا حتى يكون على الدولة ان تأتي اليها مستجدية متسولة وهي في الاخير تُشترى من قِبلها حرفيا .»

بالهيمنة التي تمارسها على الدولة ، تستطيع البرجوازية ان تغلّب مصالحها الطبقية في شكل مصالح عامة تدافع عنها الدولة . من هنا بالنسبة لكل طبقة تطمح الى ان تصير طبقة مهيمنة ضرورة الاستيلاء على السلطة السياسية اي على الدولة (٩٦) .

عدا عن سلطانها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي ، تستفيد البرجوازية من الدعم الذي يقدمه لها الاقتصاد السياسي ، الذي يجهد لتبرير المنظومة الرأسمالية مقدما اياها على أنها منظومة عقلية وضرورية . ينطلق لهذه الغاية من مبدأ أن أسس هذه المنظومة ، الربح والتزاحم ، هي العناصر المحركة التي لا غنى عنها للتقدم الاقتصادي والاجتماعي .

هذا التسويغ وجد تعبيره الرئيسي في نظرية المنفعة . هذه النظرية بُسطت اولا في انكلترة على يد هوبس Hobbes ولوك Loche ، في الوقت الذي كانت تنفجر فيه ، في هذا البلد ، الثورات التي تتيح للبرجوازية الوصول الى السلطة . نظرية هوبس وخصوصا نظرية لوك تعكسان الدرجة العالية لتطور المانيفاكتورات والتجارة البحرية والاستعمار وتراكم الرأسمال التداولي الذي كان يسهّل خلق بنوك وشركات مساهمة (٩٧) .

النظرية المنفعية بسطها في فرنسا الفيزيوقراطيون . بما ان التطور الاقتصادي في فرنسا كان أقل تقدما منه في انكلترة وبما ان الزراعة كانت ما تزال غالبة على نحو واسع وبما ان المنظومة الاقطاعية لم تكن قد زُعزعت بعد على نحو عميق ، فان الفيزيوقراطيين يظلون في ايديولوجيتهم أسرى حالة الاشياء هذه . يعتبرون الزراعة النمط الجوهري للانتاج ، النمط الذي يحدد بكيفية أولية العلاقات الاجتماعية (٩٨) .

النظرية المنفعية بُسطت ايضا في فرنسا ، ولكن على صعيد آخر ، من قِبل هلفيسيوس Helvétius وهولباخ Holbach . فارزَين هذه النظرية عن التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي كانت ترتبط به ارتباطا وثيقا عند هوبس ولوك ، أعطياها طابعا فلسفيا. ما كان عند هوبس ولوك التعميم النظري للسمات الاساسية للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية صار عندهما، وقد كانا ناطقين بلسان البرجوازية الثورية الفرنسية ، منظومة المصلحة الشخصية المفهومة جيدا والتي

م.ن ، ص ١٠٥ : «هذه الملكية الخاصة الحديثة تتوافق معها الدولة الحديثة ، التي اشتراها المالكون بالضرائب ، التي جعلوها تماما شيئهم بمنظومة الدين العام ، والتي وجودها يتوقف ، بلعبة انخفاض وارتفاع أسهم الدولة في البورصة ، بشكل تام على الثقة التي يمنحها اياها المالكون ، البرجوازيون » .

٩٦ — م.ن ، ص ٦٢ .

٩٧ — م.ن ، ص ٤٥٣ .

٩٨ — م.ن ، ص‌ص ٤٥٣ — ٤٥٤ .

تتطابق في الهوية مع المصلحة العامة (٩٩) .

المذهب المنفعي وجد من حيث هو نظرية تبريرية للمنظومة الراسمالية شكله الناجز في انكلترة مع غودون Goduin ، بنتام Bentham ، وستيورت ميل Stuart Mill في الوقت الذي بدات فيه هيمنة البرجوازية الكبيرة تتأكد مليا. بتأكيدهم ان المنفعة العامة لها كقاعدة ضرورية التزاحم والربح اللذان يخلقان افضل العلاقات الاجتماعية الممكنة ، جعلوا النظرية المنفعية محض دفاع عن الراسمالية وتمجيد لها (١٠٠) .

ولكن كلما صارت الراسمالية قيدا على تطور قوى الانتاج يعيقه بالأزمات وبصراع الطبقات المتولد من النظام الراسمالي ، صار صعبا على البرجوازية ان تبرره وأن تدافع عن امتيازاتها الطبقية (١٠١) .

فهذا الدفاع يصطدم بمقاومة البروليتاريا التي لا تكف عن تشديد نضالها ضد البرجوازية مع سير تطور الصناعة الكبيرة وتمركزها في المدن الكبرى . بما ان الاستغلال الذي يصيب البروليتاريا يُشعَر به بشكل خاص في الصناعة الكبيرة ، لذا فان روح البروليتاريا الكفاحية والثورية نامية بشكل خاص عند عمال الصناعة،

---

٩٩ – م.ن ، ص ٤٥٣ : «هلفيسيوس وهولباخ كان أمامهما ، عدا النظرية الانكليزية وتطور البرجوازية الهولندية والفرنسية ، مثال **البرجوازية** الفرنسية المناضلة في سبيل انعتاقها . ان روح التجارة ، الذي كان قد تعمم في القرن الثامن عشر ، كان قد استولى على كل طبقات المجتمع وكان يتظاهر في فرنسا ، بشكل خاص ، في شكل المضاربة . المتاعب المالية للحكومة والمناقشات عن الضرائب ، الناجمة عن هذه المتاعب ، كانت آنذاك تشغل فرنسا بأسرها . أضف الى ذلك ان باريس كانت في القرن الثامن عشر المتروبول الوحيدة ، المدينة الوحيدة التي كانت تقام فيها صلات شخصية بين الافراد من جميع الامم . هذا ، مجتمعا مع الطابع الكلي – الكوني للمزاج الفرنسي ، أعطى نظرية هلفيسيوس وهولباخ هذا الطابع الكلي – الكوني الخاص بها ؛ ولكنه عرّاها من المحتوى الاقتصادي الوضعي ، الذي كان لا يزال موجودا عند الانكليز . النظرية ، التي كانت عند الانكليز لا تزال محض تسجيل لوقائع ، تصير عند الفرنسيين منظومة فلسفية .»

١٠٠ – م.ن ، ص ٤٥٤ .

١٠١ – م.ن ، ص ٣٢٣ : «كلما أكد الشكل الطبيعي – السوي للعلاقات الاجتماعية ومعه شروط وجود الطبقة المسيطرة تناقضها مع قوى الانتاج المتقدمة وتأكد الانقسام الذي يولّد في قلب الطبقة المسيطرة والهوّة التي تفصلها عن الطبقة المسيطر عليها ، تزيف ايضا الوعي الذي كان في الاصل يستجيب لهذه العلاقات الاجتماعية . مع انقطاعها عن التلاؤم معها ، التصورات السابقة التقليدية التي كانت تتفق مع العلاقات الاجتماعية والتي فيها كانت المصالح الشخصية تقدّم في شكل مصلحة عامة ، تنحدر وتنحط ، تتحول الى ثرثرة ممثلِنة ، الى وهم واع ، الى لؤم متعمد . كلما كذّبتها الحياة ، كلما فقدت قيمة بالنسبة للوعي ، قيّمت بشكل متعمد وصارت لغة هذا المجتمع منافقة واتخذت طابعا أخلاقيا ومقدّسا .»

وهي اقل نمواً عند عمال المناجم وأقل ايضا عند العمال الزراعيين، من هنا دور تطور الصناعة ليس فقط دورها الاقتصادي بل الاجتماعي والسياسي ايضا .

ان عمل البروليتاريا الثوري لا يمكن ان يكون له حظـــوظ من النجاح الا اذا تحررت تماما من الاوهام والتصويفات التي بها تسعى البرجوازية الى تحويلها عن كفاحها واذا لم تدع نفسها تُقاد في هذا الكفاح الا بمصالحها الطبقية وحدها .

ان هدف هذا النضال لا يمكن ان يكون سوى حذف المنظومة الرأسمالية بثورة شيوعية . فالإلغاء الكامل لهذه المنظومة ومعها لتقسيم الشغل وشكل الملكيـــــة النابعَين منها هو وحده يستطيع تحرير البروليتاريا من الاستغلال والعبودية (١٠٢).

ان هذه المهمة الثورية ، مهمة تدمير المنظومة الرأسمالية وخلق نظام اجتماعي جديد ، تقع على عاتق البروليتاريا ، في آن لان البروليتاريا مرغمة على الدخول في صراع ضد هذه المنظومة كي تحرر نفسها ولأن البرجوازية ، بحكم تفكك المنظومة الرأسمالية ، مضطرة الى التخلي عن الدور القيادي الذي اضطلعت به الى هنا في جميع المجالات .

ان الثورة الشيوعية تتميز بشكل عميق عن الثورات الاجتماعية التي وقعت حتى الان . فهذه الثورات لم تكن تستهدف الغاء منظومة الملكية الخاصة بل تحويل العلاقات الاجتماعية الموجودة وتبديل الطبقة الحاكمة بأخرى . بما أنها حصلت في شروط كان فيها الانتاج لا يزال محدودا وبالتالي غير كاف لتلبية حاجات الجميع ، فان روادها أكبوا قبل كل شيء على سد حاجات الطبقة ذات الامتياز على ظهـــر الطبقات الاخرى ، ولاسيما الطبقة العاملة التي ظلت تعاني استغلالا قاسيا (١٠٣) .

الثورة الشيوعية يسهّلها واقع ان البلدان الرأسمالية المتأخرة اقتصاديـــا واجتماعيا ، مثل المانيا ، مرغمة من قبل مزاحمة البلدان الاكثر تقدما ، لاسيمـــا انكلترة ، على تطوير قواها المنتجة ، الامر الذي يستتبع تشكل بروليتاريا ثورية في هذه البلدان (١٠٤) .

---

١٠٢ — **م.ن** ، ص ٩٦ : «... أما البروليتاريون فعليهم ، اذا ما ارادوا ان يؤكدوا انفسهم كأشخاص بشريين ، ان يلغوا شروط وجودهم التي هي ايضا شروط وجود المجتمع حتى ايامنا وان يلغوا هكذا الشغل كما هو موجود : انهم بحكم ذلك في تعارض مع الشكل الذي أعطاه الافراد حتـــى الوقت الحاضر للمجتمع بوصفه تعبيرا جماعيا ، اي مع الدولة ، وينبغي لهم ان يطيحوا بالدولة لكي يحققوا شخصيتهم .»

١٠٣ — **م.ن** : «الشروط التي يمكن فيها استعمال قوى انتاج محددة هي شروط سيطرة طبقة اجتماعية محددة ، سلطانها الآتي مما تملك يجد تعبيره العملي والمثلَن معا في شكل الدولة الخاص بكل عصر . هذا ما يفسر ان كل نضال ثوري يتوجه ضد طبقة مسيطِرة حتى ذلك الحين .

في كل الثورات التي وقعت حتى الان ، ظل نمط الفاعلية بلا تغيير ، المسألة كانت فقط شكلا آخر في توزيع هذه الفاعلية ...» .

١٠٤ — **م.ن** ، ص ٩١ .

الشرط الأولي لنجاح الثورة الشيوعية هو تطور المنظومة الرأسمالية التام الشامل ، الذي سيتيح للبروليتاريين ان يتملكوا جملة قوى الانتاج الواصلة الى أعلى درجات تطورها وأن يصيروا بتطبيقها رجالا كلّيين وأن يعطوا الشيوعية طابعا كليا ـ كونيا يستجيب للطابع الذي اتخذته الرأسمالية .

فطالما لم يتطور الانتاج الرأسمالي حتى النقطة التي فيها يصير التزاحم نافلا ، سيكون بالنسبة للبروليتاريا اضطلاعا بمهمة مستحيلة أن تريد استبدال المنظومة الرأسمالية بمنظومة شيوعية . فاذا ما نشبت الثورة الشيوعية قبل تمام تطور النظام الرأسمالي ، لن يكون لها سوى طابع محلي ، محدود ، وستنتهي الى فشل محتوم . بما أن منظومة الانتاج الرأسمالي ستواصل نموها وتطورها وبما أن البلدان الرأسمالية ستزاحم البلد الشيوعي مزاحمة منتصرة ، فان هذا البلد سيغرق في البؤس ، الامر الذي ستكون عاقبته دمار الشيوعية والرجوع الى وضع الاشياء القديم (١٠٥) .

نرى من ذلك ان البشر لا يستطيعون ان ينظموا على هواهم مجرى التاريخ .

---

١٠٥ ـ **م.ن** ، ص ص ٦٣ ـ ٦٤ : «ان الغاء هذا «الانخلاع» ـ كي يفهمنا الفلاسفة ـ لا يمكن حصوله الا اذا تحقق شرطان عمليان . كي يصير هذا الانخلاع سلطة لا تُطاق ، ضدها يثور الناس، يجب ان يكون جعَل من جمهور البشرية جمهورا من غير ـ المالكين وهذا في تعارض مع عالم من الثروة والثقافة ، وهما شيئان يفترضان نموا كبيرا في قوى الانتاج ودرجة عالية جدا من التطور الاجتماعي . هذا هو ايضا الشرط الاولي المسبق الضروري لنجاح الثورة . فبدون ذلك ، سيتعمم **النقص او القحط** و ، مع **الحاجة او العوز** ، سيُستأنف الصراع من اجل الضروري وسنعود حكما الى السقوط في الوحل القديم . هذا ضروري ايضا لان العلاقات **الكونية** بين البشر لا يمكن ان تقوم الا على قاعدة تطور كوني لقوى الانتاج ، لان هذا التطور قد ولّد في كل البلدان بتعمم المزاحمة كتلة من غير المالكين وجعل كل بلد تابعا للانقلابات التي تحصل في البلدان الاخرى وأحل محل الافراد الذين يعيشون على صعيد محلي أفرادا ذوي طابع كلي مشاركين في التاريخ العالمي . بدون ذلك : ١ ـ الشيوعية لن تستطيع ان تكون موجودة الا على صعيد محلي . ٢ ـ القوى المرتبطة بالعلاقات الاجتماعية لن تكون قد استطاعت ان تتطور في شكل قوى كونية كلية ولا تُطاق ، ستكون قد احتفظت بشكل ظروف محلية ، متصلة ومحاطة بوساوس وأباطيل . ٣ ـ كل توسع للمبادلات التجارية سيدمر الشيوعية المحلية . الشيوعية ليست ، تجريبيا او حسيا ، ممكنة الا كفعل تحققه معا في آن واحد الشعوب آخذة السلطة ، الامر الذي يفترض الانبساط الكلي لقوى الانتاج وللعلاقات الاجتماعية المرتبطة بها » .

[ندقق هذا المقطع على ترجمة موسكو الانكليزية لكتاب **الايديولوجيا الالمانية** الصادرة عام ١٩٦٤ ، ص ٤٦ . نجد فيها : «..... ٢ ـ قوى الـ intercourse نفسها لن تكون ٣... ـ كل توسع للـ intercourse ....» . الـ intercourse هو العلاقات الاجتماعية ، اي «التبادل» بهذا المعنى الشامل .]

فهو لا يتوقف لا على محض ارادة البرجوازية في ابقاء النظام الراسمالي ولا على محض ارادة البروليتاريا في تدميره ، اذ يلزم ، كي يستبدل هذا النظام بنظام شيوعي ، بلوغ درجة محددة في تطور قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية . ان تصور ارادة ثورية تكون قادرة على خلق نظام اجتماعي جديد قبل تحقق الشروط الضرورية لهذا الفرض هو تصور ينتسب الى اليوتوبيا ، الى الطوباوية . والشيوعيون ، بالمناسبة ، يعون ذلك تماما . وهم لا يتخيلون ان الشيوعية هي هدف التاريخ المحدد سابقا وانهم الكائنات المقدر لها من الأزل ان تحققه . بل يعتبرون انها ليست مثلا أعلى ولا يوتوبيا ، بل هي ، كالرأسمالية من قبلها ، مرحلة ضرورية في تطور التاريخ (١٠٦) .

بما ان الثورة الشيوعية هي ثورة تامة فانها ستحوّل بشكل كامل ليس فقط العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، بل ايضا العلاقات السياسية ، اذ سيكون عليها ان تستولي على الدولة كي تحقق اهدافها .

بخلاف الثورات الاجتماعية السابقة ، ستلغي تماما نمط الانتاج المرتكز على نظام الملكية الخاصة وانقسام المجتمع الى طبقات متناحرة وستحوّل هكذا وستقلب رأسا على عقب شروط حياة الافراد .

في المجتمع الشيوعي الذي ، بعد المجتمع البرجوازي في الازمنة الحديثة ، سيشكل اطار انبساط وتطور فاعلية الافراد وتاريخهم ، لن يكون هناك سيطرة طبقية ولا بالتالي تعارض بين المصالح الخاصة والمصالح العامة . هذا سيتيح تحقق شكل اجتماعي جديد ، فيه البشر لن يكونوا تحت هيمنة عالم الاشياء بل سيهيمنون عليه (١٠٧) .

---

١٠٦ ــ م.ن ، ص ٦٤ : «الشيوعية ليست بالنسبة لنا لا **حالة أشياء** يجب ان تخلق ، ولا **مثلا أعلى** سيكون على الواقع ان ينتظم بموجبه . ندعو شيوعية الحركة **الواقعية** التي تنزع الى الغاء حالة الاشياء الراهنة . ان شروط هذه الحركة تنتج عن حالة الاشياء الموجودة حاليا .»

م.ن ، ص ٩٧ : «الشيوعيون يعاملون الشروط المتولدة الى هنا من الانتاج والعلاقات الاجتماعية بوصفها عناصر غير عضوية دون ان يتصوروا لهذا أن هدف وعلة وجود الاجيال السابقة كانا ان تقدم لهم هذه الاجيال مواد عملهم ودون ان يعتقدوا ان هذه الشروط كانت ذات طابع غير عضوي في أعين أولئك الذين كانوا يخلقونها .»

١٠٧ ــ م.ن ، ص‌ص ٩٣ ــ ٩٤ : «ان تحوّل القوى الشخصية ، بتقسيم الشغل ، الى قوى موضوعية (اي تشيؤ العلاقات الاجتماعية) لا يمكن ان يُلغى ... الا اذا الافراد أخضعوا من جديد هذه القوى الموضوعية والغوا تقسيم الشغل . هذا ليس ممكنا بدون الاشتراك ــ الجماعة . فقط بالاشتراك ــ الجماعة يستطيع كل فرد ان يحصل على وسائل بسط ملكاته وإنمائها بشكل تام . فقط في الجماعة تكون الحرية الشخصية ممكنة . في كل بدائل الاشتراك التي وجدت الى الان ، في الدولة ، الخ ، لم تكن الحرية الشخصية موجودة الا بالنسبة للافراد الذين كانوا يستفيدون من

بعكس ما حصل حتى الان في ظل نظام الملكية الخاصة ، حيث أعيق نشاط الافراد بنتيجة نقص قوى الانتاج وتقسيم الشغل وسيطرة الطبقـــة الحاكمة ، ستمكن الثورة الشيوعية كل فرد من ان يبسط نفسه على نحو كامل ومنسجم وذلك باستخدام مجموع قوى الانتاج الواصلة الى أعلى درجات تطورهـا . بحكم هذا الواقع سيتطابق ويتماثل وجود كل فرد مع جملـة الحياة الاقتصاديـة والاجتماعية . وستتخذ العلاقات الاجتماعية ، المحدودة حتى الان ، طابعا كونيا وسيصير الافراد أنفسهم بشرا كلّيين (١٠٨) . هكذا فالثورة الشيوعية ضرورية ليس فقط من اجل الغاء المنظومة الرأسمالية وسيطرة البرجوازية وتحرير البروليتاريا، بل ايضا من اجل خلق نظام اجتماعي جديد ، سيتيح لجميع البشر ان يبسطـوا ويطوروا أنفسهم مليا ، نتيجة اتخاذ فاعليتهم طابعا كليا (١٠٩) .

شروط حياة الطبقة الحاكمة. الجماعةالظاهرة التي كوّنها الافراد الى الان اكتسبت وجودا مستقلا عنهم وصارت ، بحكم كونها ناجمة عن اتحاد طبقة بمعارضة طبقة اخرى ، صارت بالنسبة للطبقة المسيطَر عليها ، في الوقت نفسه مع كونها جماعة وهمية ، سلسلة جديدة . في الجماعة الحقيقية ، الافراد يحرزون ، بفضل اشتراكهم وفيه ، الحرية .»

١٠٨ — م.ن ، ص‌ص ١٠٣ — ١٠٤ : «كل أنماط التملك السابقة كانت محدودة . الافراد الذين كان تقريرهم الذاتي [تحديدهم لذاتهم] محدودا بواقع حد أدوات الشغل التي بتصرفهم وحـد العلاقات الاجتماعية ، ما كانوا يتوصلون ، بعدم تملكهم سوى أداة شغل محدودة ، الا الى تقريـر ذاتي هو ايضا محدود . أداتهم الانتاجية كانت تصير ملكهم ، ولكنهم كانوا يبقون خاضعين لهـا ولتقسيم الشغل . في كل أنماط التملك السابقة ، كان جمهور الافراد يبقى خاضعا لاداة انتـاج واحدة ، أما في نمط التملك الذي تؤسسه البروليتاريا فان كتلة من أدوات الانتاج ستكون تحت تصرف كل‌فرد والملكية ستكون خاضعة للجماعة ، للاشتراك . ان الطابع الكوني للعلاقات الاجتماعية الحديثة يجعل أنها لا يمكن ان تكون خاضعة للافراد ما لم تكن خاضعة للجميع .

هذا النمط من التملك ... لا يمكن ان يحقّق الا باتحاد لا يمكن ان يكون ، طبقا لطابـع البروليتاريا ذاته ، الا كونيا ، وبثورة . في هذه المرحلة فقط يتطابق تقرير المصير مع الحيـاة المادية . هذا يتوافق مع تحوّل الافراد الى أفراد تامين بتعرية كل محدودية . وهذه المرحلة يتوافق معها ايضا تحوّل الشغل الى تقرير ذاتي وتحوّل الصلات الاجتماعية ، التي كانت حتى ذلك الحين مقرّرة خارجيا ، الى صلات فرد الى فرد . مع تملك جملة القوى المنتجة من قبل الافراد مجتمعين ، تكف الملكية الخاصة عن الوجود .»

١٠٩ — م.ن ، ص ٦٨ : «من اجل خلق هذا الوعي الشيوعي جماهيريا ومن اجل التحويـل الاجتماعي على حد سواء ، من الضروري تحويل البشر جماهيريا . هذا التحوّل لا يمكن ان ينجم الا عن حركة اجتماعية عيانية ، عن ثورة . هكذا فالثورة ضرورية ليس فقط لانها الوسيلة الوحيدة للاطاحة بالطبقة المسيطرة ، بل ايضا لان الثورة وحدها يمكن ان تتيح للطبقة الثائرة تكنيس كل عفن المنظومة القديمة وتأسيس المجتمع على قواعد جديدة .»

شأنها شأن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ان ايديولوجيا مجتمع من المجتمعات ، اي مجموع تصوراته في عصر مُعطى ، مقررة ومحددة من قِبل تطور قوى الانتاج وتقسيم الشغل وأشكال الملكية . ان حياة البشر الروحية هي ، مثل حياتهم المادية ، نتاج نشاطهم الاقتصادي والاجتماعي . فالبشر لا ينتجون وعيهم وفكرهم بوصفهم كائنات مجردة بل بوصفهم أفرادا محددين من قبل فاعليتهم المنتجة (١١٠) .

من غير الممكن اذن فصل ألوعي والفكر عن الحياة الاجتماعية التي هما انعكاسها . الحقوق ، الاخلاق ، الفلسفة ، الدين ، ليست أشكالا للوعي مطلقة ومستقلة ، بل النتاجات الروحية للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية وهي تتحول معها (١١١) . الاتحاد العميق بين الفكر والعلاقات الاجتماعية يظهر في واقع وبدءاً من واقع ان الفكر له كشرط ضروري اللغة ، المولودة من حاجة البشر الى الدخول في تواصل فيما بينهم (١١٢) . بالوعي والفكر يتميز البشر عن الحيوانات التي

---

١١٠ — م.ن ، ص‌ص ٥٠ — ٥١ : «ان انتاج الافكار ، انتاج تصورات الوعي ، هو بادىء ذي بدء مرتبط مباشرة بفاعلية البشر المادية وبصلاتهم الاجتماعية ، انه لغة الحياة الواقعية . التصورات، المفاهيم ، الافكار ، العلاقات الروحية بين البشر تظهر هنا ايضا (قبل الانقسام بين الشغل اليدوي والشغل الفكري . — ا.ك) التعبير المباشر لسلوكهم المادي . الامر كذلك فيما يتعلق بالانتاج الفكري كما يتعبر في لغة سياسة وحقوق وأخلاق ودين وميتافيزياء الخ شعب بأسره . البشر هم منتجو تصوراتهم ، أفكارهم ، الخ ، ولكن بوصفهم بشرا واقعيين ، فاعلين ، محدَّدين من قبل تطور معطى في قوى الانتاج وفي العلاقات الاجتماعية الموافقة لها وهذا على طول التاريخ . الوعي لا يمكن ان يكون ابدا شيئا آخر سوى الكينونة الواعية وكينونة البشر هي سيرورة حياتهم الواقعية . لئن كان ، في كل الايديولوجيا ، البشر وعلاقاتهم يظهرون لنا مقلوبين كما في حجرة سوداء [صندوق المصور الفوتوغرافي] ، فان هذا الامر ينبع من سيرورة حياتهم عبر التاريخ ، تماما كما ينبع انقلاب الموضوعات على الشبكية من سيرورة حياة البشر الفيزيائية .»

١١١ — م.ن ، ص ٥١ : «حتى الاشباح التي تولد في الدماغ الانساني هي تصعيدات ، تنتج بالضرورة من سيرورة حياة البشر المادية ، يمكن ملاحظتها تجريبيا وهي ترتكز على قواعد مادية . الاخلاق ، الدين ، الميتافيزياء ، باختصار كل الايديولوجيا ، وكذلك أشكال الوعي الموافقة لها ، تفقد هكذا كل مظهر استقلال . ليس لها تاريخ ، تطور . بالعكس ، البشر هم الذين ، مع تحويلهم انتاجهم المادي وعلاقاتهم الاجتماعية ، يحوّلون في الوقت نفسه فكرهم ونتاج فكرهم . ليس الوعي هو الذي يقرر الحياة ، بل الحياة هي التي تقرر الوعي . في طريقة النظر الاولى الى الاشياء ، يذهبون من الوعي مفهوما على انه هو الانسان الواقعي والحي ؛ في الثانية ، التي تتوافق مع الحياة الواقعية ، نذهب من الافراد الواقعيين والاحياء ونعتبر الوعي وعيهم لا غير .»

١١٢ — م.ن ، ص ٥٩ : «من الوهلة الاولى ثمة لعنة تزن على الروح ، الذي هو لسوء حظه ملوّث بالمادة في شكل طبقات هواء مهتزة ، في شكل أصوات ، باختصار في شكل نطق . اللغة

ليس لها لا وعي ولا فكر كالبشر ، لان ليس لها لا حياة اجتماعية ولا علاقات اجتماعية (١١٣) .

الوعي يعبر باديء ذي بدء عن علاقات الانسان المباشرة والبدائية مع الطبيعة ومع البشر الآخرين . طالما الطبيعة لم تحوّل بعمق على يد فاعلية البشر المنتجة ، تظهر لهم في شكلها البدائي والمباشر ، عنصرا غريبا وقوة عالية . من صلات الانسان البدائية مع الطبيعة ومن الموقف الذي يتخذها ازاءها يولد دين الطبيعة (١١٤) .

في بداية تطور البشرية ، حين البشر يبدؤون وحسب يأخذون وعي ضرورة ان يتعاونوا وحين صِلاتهم فيما بينهم ومع الطبيعة لا تزال ذات طابع بدائي ، لا يزال الوعي ذا طابع حيواني ايضا . ذلك وعي جمعي قطيعي ، بدائي ، لا يتميز عن الغريزة الحيوانية الا بواقع انه ليس كالغريزة ذا طابع غير واع (١١٥) .

قديمة قدم الوعي . اللغة **هي** الوعي الواقعي ، العملي ، الموجود ايضا بالنسبة لبشر آخرين ، اذن ايضا بالنسبة لي ، بوصفه وعيا واقعيا ، عمليا . مثل الوعي ، اللغة لا تظهر الا مع حاجة البشر الى الاتصال ، مع ضرورة دخولهم في علاقة .»

١١٣ — **م.ن** ، ص ٥٩ : «حيث تولد علاقة اجتماعية ، توجد بالنسبة لي . الحيوان **ليس له علاقات** مع اي شيء ولا يعرف علاقات . بالنسبة للحيوان ، ليست صلاته مع شيء آخر عداه موجودة كعلاقات . »

١١٤ — **م.ن** ، ص ٥٩ (رقم ٣) : «يتبيَّن ان دين الطبيعة هذا او هذه العلاقات الخاصة معها محددة من قبل شكل المجتمع والعكس بالعكس . هنا ، كما في اي مكان آخر ، ان وحدة الانسان مع الطبيعة في الهوية تظهر محددة من قبل واقع ان علاقات الانسان المحدودة مع الطبيعة تقرر العلاقات المحدودة فيما بين البشر وان هذه العلاقات المحدودة تقرر بالمقابل علاقاته المحدودة مع الطبيعة ، الامر الذي يفسَّر بواقع ان الطبيعة لم تعدَّل بعد او تقريبا من قبل الانسان في سير التاريخ . »

١١٥ — **م.ن** ، صص ٥٩ — ٦٠ : «من الوهلة الاولى الوعي نتاج اجتماعي وهو يبقى كذلك ما دام هناك بشر . بالطبع ليس باديء بدء سوى وعي البيئة الطبيعية **المباشرة** والعلاقات المحدودة مع الاشخاص الآخرين ومع الموضوعات التي تقع خارج الفرد ، الذي يعيها . انه في الوقت نفسه وعي الانسان للطبيعة ، التي تنتصب في وجه البشر ، قوة غريبة ، جبارة ، ليس لهم عليها اي قبض، ازاءها يسلكون سلوكا محض حيواني ، وتفرض هيبتها عليهم كما على الدواب ، من هنا كون وعي الانسان للطبيعة وعيا محض حيواني (دين الطبيعة) ...

من جهة اخرى ، ان وعي ضرورة الدخول في علاقة مع الافراد الذين يحيطون به يسِم ، بالنسبة للانسان ، وعي واقع انه يعيش في مجتمع . بداية هذا الوعي ذات طابع حيواني مثل الحياة الاجتماعية في هذه المرحلة . ذلك وعي قطيعي بسيط والانسان لا يتميز آنذاك عن الخروف الا بواقع ان الوعي يحل عنده محل الغريزة او ان غريزته ذات طابع واع .»

كلما ازداد الانتاج ومعه تقسيم الشغل الذي يؤدي الى افتراق بين الشغل اليدوي والشغل الفكري ، تطور الوعي والفكر اللذان يبقيان دائما على ارتباط وثيق بالعلاقات الاجتماعية ويتحولان معها (١١٦) . الايديولوجيا ، في كل أشكالها ، دين، فلسفة ، أخلاق ، حقوق ، تتغير من جراء ذلك بقدر ما تتغير العلاقات الاجتماعية، الامر الذي يفسر ان الافكار المهيمنة لعصر هي دوما أفكار الطبقة الحاكمة (١١٧).

كل طبقة صاعدة او مهيمنة تسعى الى تبرير وتغليب مصالحها الطبقية باسم مبادىء عامة . بفصل هذه المبادىء عن العلاقات الاجتماعية التي تقررها ، من السهل اعطاؤها قيمة مطلقة ، تحويلها الى فكر في ذاتها ، الى مفاهيم ، واعتبارها بعملية قلب للعلاقات الواقعية العنصر المقرّر للتاريخ (١١٨) .

هذا القلب للعلاقات الواقعية بين الكينونة والوعي ، القلب الذي يطبع الايديولوجيا ، بالمعنى السيء للكلمة ، ينبع من اشتداد الانقسام بين العمل اليدوي والعمل الفكري : هذا الانقسام ولّد فئة من الافراد ، فئة المفكرين ، الذين لا يهتمون الا بالعمل الثقافي ووظيفتهم أن يفكروا . ان كون الفاعلية المادية والفاعلية

---

١١٦ — م.ن ، ص ٦٠ : «هذا الوعي القطيعي او القبيلي يتحول ويتطور مع سير ازدياد الانتاج والحاجات ونمو السكان الذي يقرر هذا الازدياد .»

١١٧ — م.ن ، ص ٧٥ : «ان أفكار الطبقة الحاكمة هي ، في جميع العصور ، الافكار المسيطرة، بتعبير آخر ان الطبقة التي تملك القوة **المادية** في المجتمع هي ايضا السلطة المسيطرة من الناحية **الروحية** . الطبقة التي تتصرف بوسائل الانتاج المادي تتصرف ايضا بوسائل الانتاج الفكري ، بحيث على نحو عام تكون أفكار المحرومين من وسائل الانتاج الثقافي خاضعة لها . الافكار المهيمنة ليست شيئا آخر سوى التعبير الايديولوجي للعلاقات الاجتماعية السائدة ، سوى ترجمتها في شكل فكر . بقول آخر ، هي تعبير العلاقات التي تجعل طبقة ما طبقة مهيمنة .... ان الافراد الذين يؤلفون الطبقة المهيمنة يحددون عصرا في جملته ... ككائنات مفكرة ، كمنتجي أفكار ، ينظمون ويضبطون انتاج وتوزيع أفكار عصرهم ...»

١١٨ — م.ن ، ص‌ص ٧٦ — ٧٧ : «اذا في تصور التاريخ فصلنا في كل حقبة أفكار الطبقة المسيطرة عن هذه الطبقة ، واعتبرناها في ذاتها ، اذا أكدنا انه في عصر محدّد سادت هذه الافكار وتلك بدون ان نكترث لشروط انتاج هذه الافكار ولا لمنتجيها ، اي مع حذفنا تجريديا الافراد والظروف التي هي في قاعدة هذه الافكار ، فاننا سنقول مثلا انه في زمن هيمنة الارستقراطية كانت مفاهيم الشرف والوفاء هي الحاكمة ، وأن أفكار الحرية والمساواة هي السائدة في زمن حكم البرجوازية . ذلك وهم خاص بكل طبقة مهيمنة .... كل طبقة جديدة ، تخرج طبقة مسيطرة قديمة ، مضطرة كي تحقق غاياتها ان تقدم مصالحها الخاصة على أنها مصالح عامة مشتركة لكل اعضاء المجتمع ، اي ، تعبيرا عن هذا على صعيد الافكار ، ان هذه الطبقة مضطرة ان تمنح أفكارها طابعا من كلية ، ان تقدمها على انها وحدها عقلية وصالحة .»

انظر م.ن ، ص ٧١ .

-الفكرية مشطورتين بين أفراد مختلفين يولّد افتراقا بين الواقع الاجتماعي المادي والوعي الاجتماعي ، افتراقا يتترجم عند المفكرين بالتعارض الـــذي يقيمونه بين الكائن والروح . بذلك يصلون الى تصور أن الفكر يمثل في ذاته شيئا ما جوهريا ويمكن ان يتطور بحرية ، بصورة مستقلة عن العلاقات الاجتماعية (١١٩) .

على هذه القاعدة تتطور الايديولوجيا بوصفها انعكاسا مشوّها عن الواقع . بحكم هذا الانفصال ، هذا التعارض بين الكينونة والوعي ، يُساق المفكرون الـى الاعتقاد بأن الكينونة ليست هي التي تحدد الوعي ، بل هي بالعكس محددة من قبله. وهكذا يصبح الوعي بالنسبة لهم شيئا ما مجردا ، متميزا عن وعي الحياة الواقعية، والروح عنصرا مستقلا عن الواقع المادي ، سلطة قائمة فوقه . من الطابع المطلـق الذي تتخذه هكذا الروح والفاعلية الروحية يولد عند الايديولوجيين التصور الذي يرى ان الروح هو العنصر المقرر للتاريخ الذي يرجع هكـــــذا الى تعاقب وصراع أفكـار (١٢٠) .

من هذا التحويل المثالي للتاريخ ، الايديولوجيـون ، ولاسيما الفلاسفـــة النظرانيون ، استنتجوا انه من الممكن ، بعمل الروح وحده ، بطريق نقد الافكـــار والمؤسسات ، تدبير مسيرة التاريخ . هذا الاعتقاد بدور الافكار المقرّر ليس اعتقادا خاصا بالفلاسفة ، بل يشاطره جميع الذين يساقون ، بحكم فاعليتهم الاجتماعية، الى تحميل أفكار ومؤسسات قيمة مطلقة ، مثلا رجال القانون والسياسة . فاصلين الحقوق والدولة عن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي تحددها ، رجال القانون والسياسة يصلون الى تصور حق مطلق ودولة مطلقة ، يتمتعان بارادة خاصـــة ذاتية (١٢١) . من هذا كله يتبين بطلان كل ايديولوجيا ، اي كل نظرية مفصولة عن النشاط العملي . من تحوّل أشكال خاصة للعلاقات الاجتماعية ، كالدولـــة والحقوق ، تنبع انخلاعات مماثلة للانخلاع الذي يولّده الدين . معزولة عن العلاقات الاجتماعية ، هذه الافكار تظهر ، فعلا ، للبشر قوى غريبة تسيطر عليهم وتصير ،

---

١١٩ – م.ن ، ص ٦٠ : «ان انقسام الشغل لا يتحقق فعليا الا بدءا من لحظة الانفصال بين الشغل المادي والشغل الفكري . اعتبارا من هذه اللحظة ، **يستطيع** الوعي حقا ان يتخيل انه شيء ما مختلف مختلف عن وعي الحياة العملية اليومية ، انه يمثل شيئا ما **واقعيا** دون ان يكون ذا طابع واقعي . اعتبارا من هذه اللحظة ، يستطيع الوعي ان ينعتق من العالم وأن يكرس نفسه لتشكيل النظرية «الخالصة» ، في شكل لاهوت ، فلسفة ، أخلاق ، الخ . يبقى من هذا كله ان هذه اللحظات الثلاث : القوة المنتجة والعلاقات الاجتماعية والوعي ، يمكن ويجب ان تدخل في نزاع ، مـن جراء انه بتقسيم الشغل لا يصير ممكنا فقط بل يحدث فعليا ان النشاط الفكري والنشاط المادي ، اللذة والشغل ، الانتاج والاستهلاك ، هما نصيب أفراد مختلفين .»

١٢٠ – م.ن ، ص ١٧٦ .

١٢١ – م.ن ، ص ٣٦٣ .

مثل الله ، موضوع عبادة . كالانخلاع الديني ، هذه الانخلاعات لا يمكن ان تُلغى الا بحذف العلاقات الاجتماعية التي تنجبها (١٢٢) .

بهذا التحليل النقدي لملامح التاريخ الانساني العامة ، كان ماركس وانجلز يكملان انضاج المبادىء الاساسية للمادية التاريخية . مرتكزَين على هذه المبادىء ، كانا سيتابعان الان في **الايديولوجيا الالمانية** الكفاح ضد المثالية والدوغمائية والطوباوية ، مكملَين نقدهما للفلسفة النظرانية وفاتحين النضال ضد الطوباوية في شكل نقد للاشتراكية **الحقة** .

نقد الفلسفة النظرانية الالمانية
برونو باور ، ماكس شترنر

ان تصورهما الموسَّع والمعمق للمادية التاريخية يتيح الان لماركس وانجلز ان يصفّيا نهائيا حساب الفلسفة النظرانية الالمانية ، وبوجه أعم المثالية . ما كانا شرعا يفعلانه في **العائلة المقدسة** ، بحربهما ضد برونو وإدغار باور ، بوصفهما رائدَي **النقد النقدي** ، ينجزانه في **الايديولوجيا الالمانية** بنقدهما المشترك لبرونو باور وخصوصا لماكس شترنر .

ان اتساع هذا النقد ، الذي يشمل اكثر من ثلثي الكتاب ، يبدو غير مبرر سيما وان المؤلفات التي ضدها يحاربان كانت قد فقدت كثيرا او قليلا راهنيتها . انه يعلل بتقديرهما المبالَغ للدور الذي كان يلعبه برونو باور وماكس شترنر آنذاك، بالمتعة الشخصية التي كانا يجدانها في هذه المجادلة التي كانت تتيح لهما أن يصفّيا ، ان صح القول ، ماضيهما الخاص ذاته ، وخصوصا بأنه كان يعطيهما فرصة التحقق من صواب تصوراتهما ذاتها ، بوضعهما في مقابل كل أطروحة مثالية من أطروحات الفلسفة النظرانية أطروحة مؤسسة على المادية التاريخية .

استنادا الى هذه المادية التاريخية ، يبدآن بتعليل المثالية الالمانية والفلسفة النظرانية التي هي تتويجها بأسباب تاريخية . المثالية الالمانية هي الانعكاس الايديولوجي لوضع المانيا الاقتصادي والاجتماعي منذ نهاية العصر الوسيط . في الوقت نفسه الذي كانت فيه تموت الصناعة والتجارة ، اللتان كانتا قد وضعتا ثروة المانيا ، كانت الزراعة في حالة ركود ناجمة عن غلبة العلاقات الاجتماعية الاقطاعية.

---

١٢٢ – م.ن ، ص ٧٧ : «كل الوهم الذي هو الاعتقاد بأن سيطرة طبقة محددة ترجع الى سيطرة بعض الافكار يتلاشى بطبيعة الحال حين تكف السيطرة الطبقية عن كونها هي الشكل الذي يتخذه النظام الاجتماعي ، حين لا يكون ضروريا من اجل احقاق مصلحة خاصة ان تقدم تحت شكل المصلحة العامة ، ان تُمنح طابعا كليا .»

اجل ، في المانيا ، كما في كل بلدان اوروبا الغربية ، كان التنظيم الاقطاعي يتفكك تدريجيا ، ولكن ذلك كان يحصل بوتيرة أقل سرعة بكثير منها في انكلترة وفي فرنسا (١٢٣) .

كما في كل الدول الاقطاعية ، كانت الملكية المطلقة قد شيدت في المانيا بإخضاع النبالة العليا . ولكن بينما في انكلترة وفي فرنسا كان الملوك قد نجحوا في السيطرة على كل البلاد وفي تأسيس سلطة مركزية قوية ، كان الاباطرة الالمان ، العاجزون عن اخضاع الأتباع الكبار لسلطتهم ، يرون ينتصب أمامهم ليس فقط رؤساء دولة أقوياء ، مثل ملك بروسيا ، بل ايضا عدد كبير من الامراء الصغار المستقلين نسبيا .

ان وضع المانيا المتأخر ، الذي يفسر أن الملكية المطلقة (بخلاف انكلترة وفرنسا، حيث لم تؤلف سوى شكل دولتي موقّت ، بنتيجة المعارضة المتعاظمة من جانب البرجوازية ، التي اصطدم بها الملوك) ألفت في المانيا شكلا دولتيًا ذا رسوخ وديمومة (١٢٤) ، يفسر ايضا اختلاف حالة النبالة والفلاحة والبرجوازية في انكلترة وفرنسا وفي ألمانيا .

النبالة كانت تعيش في الريف حياة تعيسة تافهة ما كان ليكتفي بها آخر نبلاء الريف الانكليز او الفرنسيين ، او كانت تعيش من الواردات النحيلة التي تجنيها من عمل في البلاط او في الجيش (١٢٥) . نظرا لركود الزراعة ، لم يكن هناك لا طبقة فلاحين قوية ولا بروليتاريا زراعية ثورية (١٢٦) . بنتيجة التأخر في تطور الصناعة والتجارة ، لم تكن البرجوازية الالمانية ، بخلاف البرجوازية الانكليزية التي كانت بتأسيس مستعمرات والاستيلاء على السوق العالمية قد اصبحت هي الطبقة المسيطرة وبخلاف البرجوازية الفرنسية التي كانت في أواخر القرن الثامن عشر تستولي على السلطة بالثورة ، لم تكن تتطور الا ببطء وكانت ستبقى حتى نحو منتصف القرن التاسع عشر أضعف من ان تتدخل بقوة في شؤون الدولة (١٢٧) .

كان هذا العجز يحدد موقفها المثالي ازاء المسائل السياسية . لم تكن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية قد بلغت في ألمانيا درجة التطور التي كانت ترجمتها على الصعيد السياسي ، في انكلترة وفي فرنسا ، صعود الليبرالية سلاح كفاح للبرجوازية . لذا كانت البرجوازية الالمانية ، التي لا تستطيع بحكم ضعفها ان

---

١٢٣ ــ م.ن ، ص ٢٢١ . عن وضع المانيا انظر مقالة انجلز ، في الفصل الثالث من هذا المجلد [الفقرة الاخيرة : «أعمال ماركس وانجلز بين عودتهما من انكلترة **والايديولوجيا الالمانية**»] .

١٢٤ ــ م.ن ، ص ٢٢١ .

١٢٥ ــ م.ن ، ص‌ص ٢٢٠ ــ ٢٢١ .

١٢٦ ــ م.ن ، ص ٢٢٠ .

١٢٧ ــ م.ن ، ص‌ص ٢٢٠ ــ ٢٢١ .

تشارك الا ايديولوجيا في النضالات السياسية والاجتماعية للبرجوازية في انكلترة وفي فرنسا ، كانت مساقة الى فصل الليبرالية ، من حيث هي نظرية ، عن المصالح المادية التي كانت الليبرالية تعبيرها السياسي . محوّلة الدافع المادي لليبرالية الى دافع أخلاقي بنقلها على صعيد ايديولوجي ، كانت تنظر الى النضالات السياسية والاجتماعية التي قامت بها البرجوازية لاسيما البرجوازية الفرنسيــة اثناء الثورة على أنها نضالات مكرسة لتحقيق ظفر مبادىء عامة ، مبادىء الحريــة والمساواة والانسانية . من هنا موقفها اللامصلحي اللامبالــي ازاء القضايا السياسيــة والاجتماعية ، الذي كان يميزها بشكل عميق عن البرجوازية الانكليزية والفرنسية، من هنا ايضا عداؤها ازاء الثورة الفرنسية ، فقد كانت تؤيدها طالما كان بوسعها ان ترى فيها نضالا في سبيل الحرية والمساواة والإخاء ، ولكنها أدانتها حين توجّب على هذه الثورة ان تلجأ ، دفاعا عن نفسها ، الى الارهاب (١٢٨) .

في ظل نابوليون ، فكرت البرجوازية الالمانية بصورة رئيسية في متابعــة شؤونها الصغيرة . كانت ترغي وتزبد ضد نقص القهوة ، ضد المصادرات والتجنيد، دون ان ترى ان نابوليون ، بتدمير الامبراطورية الرومانية ـ الجرمانية المقدســة وبنشر الافكار والمؤسسات الثورية ، كان قد فتح الطريق لتطور المانيا الحديثة . بالمقابل كانت معجَبة دون تحفّظ بأنكلترة التي لم تكن تفكر الا في استغلال المانيا، متفقة هكذا مع الامراء الالمان الذين لم يكونوا سوى مرتزقة انكلترة .

في هذه الشروط نفهم الدور الهام الذي لعبه اثناء حرب التحرير الايديولوجيون: أساتذة وطلاب (١٢٩) . حتى بعد ثورة ١٨٣٠ ، حين انفرست الليبرالية في كل مكان في اوروبا ، ظلت البرجوازية الالمانية ترى فيها ، من جراء تأخر المانيــا الاقتصادي والاجتماعي ، نضالا من اجل انتصار مبادىء ، الامر الذي يفسر قلـة نجاحها على الصعيد السياسي والاجتماعي . فقط بعد ان خلقت المانيــا **الاتحاد الجمركي** من اجل مقاومة المزاحمة الانكليزية واتخذت التدابير الكفيلة بتسهيــل انطلاق صناعتها وتجارتها ، شرعت البرجوازية الالمانية تدافع بعزيمة أشد عــن مصالحها الطبقية (١٣٠) . فقط بعد ١٨٤٠ ، بفضل انطلاق المانيا الاقتصادي الاكثر سرعة ، أظهرت البرجوازية الالمانية قدرتها على لعب دور سياسي واجتماعي مهم . صارت قومية ـ ليبرالية ، طالبت برسوم حمائية ، وبدساتير ليبرالية في كــل الدول ، ووصلت بذلك تقريبا الى المستوى الذي كانت قد بلغته البرجوازيــة الفرنسية في ١٧٨٩ (١٣١) .

---

١٢٨ ـ م.ن ، ص ٢٢٢ .
١٢٩ ـ م.ن ، ص ٢٢٢ .
١٣٠ ـ م.ن ، صص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ .
١٣١ ـ م.ن ، ص ٢٢٣ .

١٠ برونو باور

الاتجاه المثالي للبرجوازية الالمانية وجد تعبيره عند المفكرين التقدميين ، **الذين**، وقد نقلوا العمل الثوري للبرجوازية الفرنسية على الصعيد الايديولوجي ، اعتبروا ايضا الليبرالية نظرية مجردة ، مفصولة عن المصالح المادية التي هي قاعدتها . تلك هي الحال بشكل خاص عند كَنط Kant الذي ، في كتابه **نقد العقل العملي** ، حوّل مبادىء الثورة الفرنسية الى مفاهيم أخلاقية وأسس إثيقه [أخلاقه] على فكرة الحرية . كما أن البرجوازية الالمانية بحكم عجزها ما كان يمكن ان يكون لها سوى ارادات استقلال ممسوخة او شبحية ، كذلك فان كنط ، مستلهما اياها ، جعل من الحوافز المادية لعمل البرجوازية الفرنسية مجموعة حوافز قررتهـــا **الارادة الحرة** ، الارادة في **ذاتها** ، محوّلا بذلك هذه البواعث الى مفاهيم محضة (١٣٢) .

هذه المفهَمة المثالية تبنّاها ، بعده ، الفلاسفة النظرانيون الالمـــان ، لاسيما هيغل ، الذي جعل الروح المطلق العنصر المحدد للتاريخ (١٣٣) يصل الى هـــذا

---

١٣٢ ــ **م.ن** ، ص ص ٢٢٠ ، ٢٢٢ : «ان وضع المانيا في نهاية القرن الماضي ينعكس تماما **في نقد العقل العملي** لـ **كنط** . بينما كانت **البرجوازية** الفرنسية تصل الى الحكم بأكبر ثورة عرفهـــا التاريخ وتذهب لفتح القارة الاوروبية ، بينما كانت **البرجوازية** الانكليزية ، المُعتقة سياسيا مـــن قبل ، تقلب الصناعة رأسا على عقب وتقيم سيطرتها السياسية على الهند وسيطرتها التجارية على باقي العالم ، كان للبرجوازيين الالمان في عجزهم ان يبقوا في مرحلة طيف الارادة ، مرحلة **الارادة الطيبة** . كنط ايضا يرضى **بالارادة الطيبة** المحضة البسيطة ، حتى اذا انكشفت غير فاعلة ، واضعا في **عالم ما ــ بعد او عالم ما ــ وراء تحقيق** هذه الارادة الطيبة ، انسجامها مع حاجات وغرائـــز الافراد . هذه الارادة الطيبة لكنط هي الانعكاس الصحيح لعجز البرجوازية الصغيرة عن التحرر من الاضطهاد النازل بها ومن **شروطها الجباتية البائسة** ...» .

«ايضا عند كنط نجد الشكل المميز الذي اتخذته في المانيا الليبرالية الفرنسية ، التـي كانت مؤسسة على مصالح طبقية حقيقية . مثل البرجوازيين الالمان الذين كان ناطقا بلسانهم وكان يُمَثِّلِن تصوراتهم ، لم يكن يدرك ان الافكار النظرية للبرجوازية ترتكز على شروط مادية وتعتمد على ارادة محددة ومحفوزة من قبل شروط الانتاج المادية . هذا ما ساق كنط الى عزل هذه النظرية عـــن المصالح المادية التي تعبر عنها . من تحديدات ارادة **البرجوازي** الفرنسي ، التحديدات المؤسسة على مصالح مادية ، جعل تحديدات **خالصة للارادة لحرة** ، **تقريرات محضة** من الارادة في ذاتها ، مـــن الارادة الانسانية ، محوّلا هكذا هذه التعيينات الى تعيينات محض مفهومية ، الـــى مسلمات او مصادرات أخلاقية . »

١٣٣ ــ **م.ن** ، ص ٤٠ : «هيغل ، سابقا ، أكمل وأتم **المثالية الايجابية** ــ الوضعيـــة . **ليس فقط** مجموع العالم المادي تحوّل عنده الى عالم أفكار وكل التاريخ الى تاريخ أفكار ، بل ، ذاهبـــا الى أبعد ، لم يكتفِ بتسجيل مجموع الافكار ، بل سعى الى وصف الكيفية التي بها تُنتَج .»

التصور بفرزه ، في كل حقبة تاريخية ، الافكار المهيمنة عن الطبقات الحاكمة التي تتصورها في شروط اقتصادية واجتماعية محددة ، الامر الذي يمكنه من اعطاء هذه الافكار طابعا مطلقا ومن جعلها تعبير تطور روح العالم (١٣٤) . هذا التصور ، الذي بموجبه تكون الافكار هي العنصر المحدد للتاريخ ، يسوقه الى اقامة علاقة تعاقب بين الافكار ، الى جعل الافكار الخاصة تحديدات للفكرة المطلقة ، والى تأكيد ان تطور الوقائع التاريخية يتطابق في الهوية مع تطور المفاهيم (١٣٥) .

هذا يؤلف قاعدة التصور المثالي للتاريخ عند هيغل (١٣٦) ، التصور الذي عرضه بادىء ذي بدء بكيفية عامة في **فينومينولوجيا الروح** ثم بكيفية مفصلة في **فلسفة التاريخ** . في **فينومينولوجيا الروح** ، يقلص الانسان بوصفه ذاتا الى وعي الذات ، يجعل العالم موضوع وعي الذات ، ويرجع تطور التاريخ الى المواقف المتتالية التي يتخذها الروح ازاء العالم . في خاتمة تطوره يعي الروح انه يؤلف ويحوي في نفسه جوهر العالم فيصير ذاتا وموضوعا (١٣٧) .

في **فلسفة الطبيعة** وفي **فلسفة التاريخ** ، يعرض هيغل بالتفصيل تصوره للعالم ، مرجعا تطور هذه الاخير الى تعاقب مفاهيم (١٣٨) .

بما ان هيغل يسند عرض فلسفته على كتلة جبارة من الوقائع ، فانه ينجح

---

١٣٤ — **م.ن** ، ص‌ص ٧٧ — ٧٨ .

١٣٥ — **م.ن** ، ص ٧٨ : «لتحقيق هذه الضربة ألا وهي برهنة ان الروح يحدد التاريخ ... ينبغـي :

اولا : فصل الافكار عن الافراد الذين ، لاسباب تجريبية محسوسة وفي شروط محددة، يسيطرون بوصفهم أفرادا واقعيين على زمنهم ، وتأكيد سيطرة الافكار ، الاوهام ، في التاريخ .

ثانيا : اقامة نظام ، ترتيب ، في سيطرة الافكار هذه ، رابطة صوفية بين الافكار المسيطرة المتعاقبة ... ونتوصل الى ذلك بمفهمتها في شكل **تحديدات ذاتية للمفهوم** ، وهذا ممكن بواقع ان الافكار مربوطة فعليا فيما بينها بحكم قاعدتها التجريبية وانها، مفهومة كتفكيرات **محضة وبسيطة**، تصير تفريقات ، تمييزات ، يولدها التفكير نفسه» .

١٣٦ — **م.ن** ، ص ٧٨ : «هيغل نفسه يعترف في نهاية **فلسفة التاريخ** انه «لا يعتبر سوى تقدم **المفهوم** وحسب» وانه عرض في التاريخ «**الثيوديقيا** الحقيقية» . »

[Théodicée = علم عدالة الله ، وعنوان كتاب لـ لايبنتس] .

١٣٧ — م.ن ، ص ١٧٨ : «**في الفينومينولوجيا** ، هذه **التوراة الهيغلية** ، هذا **الكتاب المطلق**، الافراد محوّلون اولا الى **الوعي** والعالم الى **موضوع** هذا الوعي . هكذا فان كل ثراء وكل تنوع الحياة والتاريخ معادان الى المواقف المختلفة التي يتخذها **الوعي** ازاء **موضوعه** .»

١٣٨ — **م.ن** ، ص ٧١ : «ان **فلسفة التاريخ** لهيغل هي التعبير المنسجم ، المدفوع الى حده الاخير ، عن الطريقة التي بها الالمان يكتبون التاريخ ، التي ليس فيها لا مصالح واقعية ولا حتى مصالح سياسية بل فقط أفكار «محضة» . »

بقدر ما في اعطاء وهم ان تصوره النظراني للعالم يتفق مع تطوره الواقعي (١٣٩) .

فلسفة هيغل النظرانية قادها الى حدها الاخير خلفاؤه ، الهيغليون – الشباب. الحركة الهيغلية – الفتية وُلدت من تعفن وتفكك منظومة هيغل (١٤٠) . كل من الفلاسفة الهيغليين – الشبان – شتراوس ، برونو باور ، شتيرنر – استعار من هذه المنظومة احد عناصرها ، فاكًا اياه عن الآخر ، ليجعله مبدأ فلسفته الخاصة.

فاصلين الروح متصورا في شكل وعي الذات عن المادة التي يعتبرونها **ماهية**، وقد كانا عند هيغل مترابطين بشكل وثيق في الفكرة المتصورة ذاتا – موضوعا ، الهيغليون الفتيان وضعوا احد هذين العنصرين في معارضة الآخر وبسطوه منهجيا – نسقيا . هذا ما فعله شتراوس **بالماهية** وما فعله ب. باور وشترنر **بوعي الذات.** نتج عن ذلك ان الفلسفة الهيغلية تحولت اما ، كما عند شتراوس ، الى منظومة مؤسسة على الماهية ، بغياب الجدل ، واما ، كما عند ب. باور وشترنر ، الى منظومة مقلصة الى التطور الجدلي لوعي الذات ، خالية من كل محتوى واقعي ، من كل ماهية .

رغم ان هؤلاء الفلاسفة يتبجحون بأنهم تجاوزوا هيغل ، فانهم لم يتمكنوا ، نظرا لعجزهم عن التحرر من النظران ، من اتخاذ موقف نقدي ، ازاء هيغل وإزاء تصوراتهم الخاصة على حد سواء ، وهو الامر الذي كان وحده من شأنه ان يتيح لهم تجاوز الفلسفة الهيغلية (١٤١) .

---

١٣٩ – م.ن ، ص ٢٠٢ : «اذا مثل هيغل شرع المرء للمرة الاولى يعيد بناء كل التاريخ وجملة العالم الحديث بطريقة نظرانية ، فانه لا يستطيع ان يقوم بذلك الا اذا كان يتمتع بمعارف واسعة، بطاقة كبيرة ، وبنفاذ ذهن قوي ، واذا دخل احيانا في تفصيل التاريخ التجريبي .»

١٤٠ – م.ن ، ص ٤٢ : «انه حدث مثير للاهتمام في تفكك الروح المطلق . ما ان انطفأت آخر شرارة حياة في هذه المنظومة حتى دخلت عناصرها في تفسخ وشكلت تراكيب جديدة وكوّنت ماهيات جديدة . ان صناعيّي الفلسفة ، الذين كانوا قد عاشوا الى ذلك الحين من استثمار الروح المطلق، ارتموا على هذه التراكيب الجديدة ، وكل منهم يبدي اعظم حماس في حب القسط الواقع عليه .»

م.ن ، ص ٤٣ : «الحرب التي يخوضونها ضد هيغل وفيما بينهم تنحصر في الامر التالي : كل منهم يأخذ جانبا من جوانب منظومة هيغل ليعارض به على حد سواء مجموع المنظومة والجانب الذي اخذه الآخرون .»

١٤١ – م.ن ، ص ٤٣ : «حتى في جهوده الاخيرة ، النقد الالماني لم يبارح ارض الفلسفة . بعيدا جدا عن ان يحلل أسس تصوراته الفلسفية ، ذهب في كل المسائل التي طرحها على نفسه من منظومة فلسفية محددة هي منظومة هيغل . من جراء ذلك ، كان هناك تصويف ليس فقط في الاجوبة المعطاة لهذه الاسئلة بل في الاسئلة نفسها . هذه التبعية لهيغل تجعل ان احدا من هؤلاء النقاد الحديثين لم يحاول ، مجرد محاولة ، اجراء نقد اجمالي للمنظومة الهيغلية رغم ان كلا منهم يؤكد انه تجاوز هيغل .»

على اساس تضخيم الجانب النظراني للمذهب الهيغلي ، ان فيلسوفَي وعي ــ الذات ، ب. باور وشترنر ، اذ يفصلان الوعي عن الماهية المرتبطين على نحو وثيق عند هيغل ، يقيمان بشكل دائم ، على طريقة فيخته Fichte ، الوعي مقابل الماهية ، الروح معارض العالم . هكذا يجعلان وعي ــ الذات كيانا ، تجريدا ، والتاريخ خليقته : اذ يذوّتان وعي ــ الذات المعارض للعالم يجسدانه في ذوات مصطفاة ، في الفلاسفة ، ويمنحانهم رسالة ان يقرروا ، في مكان ومقام الفكرة المطلقة ، مسار التاريخ (١٤٢) .

من جراء ذلك ، ان التاريخ ، الذي كان يظهر عند هيغل نتيجة تطور الفكرة المطلقة الجدلي الموضوعي ، يصبح عند هؤلاء الهيغليين الشباب نتاج التقرير الذاتي لوعي الذات ويتخذ هكذا ، اكثر ايضا مما كان له عند هيغل ، طابعا تيليولوجياً [غائيا] . فالتاريخ ، المكوّن واقعيا من تعاقب الاجيال ، حيث يواصل كل جيل عمل الجيل السابق معطيا اياه طابعا جديدا ، يصبح تعاقب أطوار محددة سلفا حيث كل طور جديد هو الهدف الذي كانَ الطور السابق مكلفا بإعداد تحقيقه (١٤٣) .

ان تقليص تطور التاريخ الى تطور وعي الذات المعزول عن العالم والطابع التيليولوجي الممنوح له يعلّلان الطريقة العسفية تماما التي بها يعالج هؤلاء الفلاسفة التاريخ ، الطريقة التي يزيد في انحمالهم اليها كونهم بعكس هيغل يجهلون كل شيء عن الواقع التاريخي (١٤٤) .

---

١٤٢ ــ **م.ن** ، ص ٧٨ : «لتجريد هذا **المفهوم الذي يحدد نفسه بنفسه** من هيئته الصوفية ، يحوّل الى شخص ، الى أقنوم ، **وعي الذات** ، او للظهور في مظهر مادي تماما ، الى سلسلة اشخاص يمثلون **المفهوم** في التاريخ ، ألا وهم **المفكرون** ، **الفلاسفة** ، الذين يُعتبرون بدورهم خالقي التاريخ ، **مجلس الحكماء** ، اصحاب السيادة والهيمنة . بهذا استُبعدت وصفِّيَت كل العناصر المادية في التاريخ وأصبح ممكنا اطلاق العنان للخيل النظراني .»

١٤٣ ــ **م.ن** ، ص‌ص ٦٥ ــ ٦٦ : «التاريخ ليس شيئا آخر سوى تعاقب مختلف الاجيال، حيث كل جيل يستثمر المواد والرساميل والقوى المنتجة التي تركتها له كل الاجيال السابقة . من جراء هذا ، ان كل جيل يتابع من جهة ، ولكن في شروط مختلفة تماما ، نمط الفاعلية الذي ورثه ، ومن جهة اخرى يعدل الشروط القديمة بنمط فاعلية مختلف تماما . مع تشويه هذه الوقائع بالنظران ، بالمضاربة التأملية الاستدلالية ، يمكن ان نجعل التاريخ اللاحق هدف التاريخ السابق ، ان نؤكد مثلا ان هدف اكتشاف اميركا كان تهيئة الثورة الفرنسية . نحدد هكذا للتاريخ الاهداف التي عليه ان يحققها ، نجسّده في مفاهيم ، تُفَرِّدن [تجعل أفرادا] ، مثل الوعي ، النقد ، **الوحيد** ، في حين أن ما ندعوه بكلمات **تحديد** ، **هدف** ، **بذرة** ، **فكرة** ، ليس شيئا آخر سوى التعبير المجرد لما حققه التاريخ اللاحق وللتأثير المارَس على هذا اللاحق من قبل التاريخ السابق .»

١٤٤ ــ **م.ن** ، ص ١٥٣ : «الفكرة النظرانية ، المفهوم المجرد ، يصيران محرك التاريخ ، لدرجة ان هذا التاريخ يتقلص الى تاريخ الفلسفة . ولكن حتى هذا الاخير ليس متصورا كما يتبيَّن من

بما ان هؤلاء الفلاسفة لا يعتبرون البشر في فاعليتهم المنتجة وفي علاقاتهم الاجتماعية بل تقريبا فقط في فاعليتهم الروحية ، فانهم يحوّلون الانسان الى تجريد ، الى **وعي الذات** كما يفعل برونو باور ، او الى **الأنا** كما يفعل شترنر ، الامر الذي يفسّر الطابع الميتافيزي لنظراتهم النظرية ، التي تتحول الى شعوذة مجردات، شعوذة تنتهي الى كلامية محضة خالصة (١٤٥) .

ان الشيء الايجابي الوحيد الذي اتى به هؤلاء الورثة التابعون هو نقدهم للتصورات الدينية وأيضا ، جزئيا ، بحوثهم التاريخية عن أصول المسيحية (١٤٦). مستعيرين من هيغل الاعتقاد بدور المسيحية المقرر ، يفكرون ، بعكسه ، ان هذا الدور لم يكن مفيدا بل وخيما لانها كانت عقبة أمام التطور الحر للروح (١٤٧) .

المصادر الموجودة ، وأقل ايضا بوصفه مقررا من قبل العلاقات التاريخية الواقعية ، بل فقط حسب الكيفية التي بها نظر اليه وعرضه الفلاسفة الالمان الحديثون ، خصوصا هيغل وفويرباخ . ومن هذه العروض لم يُحتفظ الا بالعناصر القابلة لان تستخدَم في سبيل الهدف المتّخَذ ... . هكذا يتقلص التاريخ الى تاريخ أفكار كما تُتصور او تتخيّل ، الى قصة أرواح وأشباح ، ولا يستثمر التاريخ الحقيقي ، التجربي ، الذي يخدم كأساس لتاريخ الاشباح هذا ، الا لكي يعطي ... مظهرا من واقعية لهذه الاشباح .»

١٤٥ — **م.ن** ، ص ١٠٤ : «الافراد ، الذين لم يعودوا خاضعين لانقسام الشغل ، تصورهم الفلاسفة في شكل مُمثلَن ، تعبر عنه كلمة **انسان** النوعية — العامة . اعتبروا ان كل السيرورة التي عرضناها هي تعبير تطور الانسان ، لدرجة انهم في كل مراحل التاريخ الماضي أخضعوا الافراد الحقيقيين **للانسان** المعتبر العنصر المحرك للتاريخ . كل هذه السيرورة قدمت بوصفها سيرورة خلع الانسان لذاته ، الامر الذي جُعل ممكنا بنتيجة كونهم أحلّوا دائما الفرد المتوسط للحقبة اللاحقة محل الفرد المتوسط للحقبة السابقة وأعاروا وعي الافراد اللاحقين للافراد السابقين . بفضل هذا القلب الذي يغفل الشروط الواقعية مباشرة ، كان ممكنا تحويل كل التاريخ الى سيرورة لتطور الوعي.»

م.ن ، ص ص ٢١٠ — ٢١١ : «بعد ان أكد الايديولوجيون ان الافكار والتفكيرات ، ان المثل والافكار ، سيطرت الى هنا على التاريخ ، بعد ان تخيلوا ان العلاقات الاجتماعية قد حُدّدت من قبل الانسان في ذاته ومن قبل علاقاته الفكرية المثالية ، اي من قبل تحديدات مفهومية ، وبعد ان جعلوا من تاريخ الوعي ، وعي الانسان لذاته ، قاعدة التاريخ الواقعي ، لم يكن ثمة شيء أسهل من ان يعمّدوا — يسمّوا تاريخ **الانسان** هذا التاريخ ، تاريخ الوعي ، تاريخ **الافكار** ، تاريخ **المقدس** المكرس ، تاريخ المثل — الافكار الثابتة ، وأن يحلّوه محل التاريخ الحقيقي .»

١٤٦ — **م.ن** ، ص ٤٤ .

١٤٧ — **م.ن** ، ص ٤٤ : «كان الهيغليون الشيوخ **فهموا** اي شيء بمجرد كونهم أعادوه الى مقولة من مقولات المنطق الهيغلي . الهيغليون الشبان **نقدوا** كل شيء باعلانهم ان كل شيء انما يرتكز على تصورات دينية وله بالتالي طابع لاهوتي . الهيغليون الشبان متفقون مع الهيغليين الشيوخ على الايمان بحكم وسلطان الدين ، المفاهيم ، الكلي ، في العالم الموجود . الفرق الوحيد معهم هو انهم يكافحون هذه الهيمنة بوصفها اغتصابا في حين ان الهيغليين الشيوخ يعلنونها ملكية مشروعة .»

اذ يبدو لهم ان نفوذ المسيحية كان مقرّرا في التاريخ الحديث ، فانهم يعتبرون ان كل تظاهرات الوعي الراهنة ، التصورات السياسية والاجتماعية والاخلاقية ، ذات طابع ديني ، وهم ينقدونها من وجهة النظر هذه ، الامر الذي يجعل انه ليس عندهم سوى «عقائد» و«نقد عقائد» (١٤٨) . بما ان موقف وعمل البشر يبدوان لهم محدّدين فقط من قبل الوعي ، فانهم يدعون البشر الى التحرر من تصوراتهم الباطلة ، من أوهامهم الدينية ، وهكذا ينحصر نقدهم في نقد تصورات باطلة ، أوهام (١٤٩) .

---

١٤٨ ــ م.ن ، ص ص ١٣ ــ ١٤ : «كل النقد الفلسفي الالماني من شتراوس الى شترنر ينحصر في نقد تصورات دينية . ذهبوا من الدين الحقيقي ومن اللاهوت بمعنى الكلمة الحقيقي . ما كان يفهَم بالوعي الديني ، بالتصور اللاهوتي ، أُوِل فيما بعد بشكل مختلف . التقدم كان أن أخضِعت لدائرة التصورات الدينية او اللاهوتية التصورات الميتافيزية والسياسية والحقوقية والاخلاقية الخ المعتبرة سائدة ، كان الاعلان ان الوعي الساسي والحقوقي والاخلاقي هو وعي ديني او لاهوتي والتصريح بأن الانسان السياسي والحقوقي والاخلاقي وأخيرا «الانسان» حسب هو كائن ديني . هكذا وضعوا كمُسَلّمة أولية وغلبة الدين ، ثم أعلنوا شيئا فشيئا ان كل علاقة اجتماعية لها طابع ديني وحوّلوها الى عبادة ، عبادة الحقوق ، عبادة الدولة ، الخ . لم يبق شيء للتعامل معه سوى عقائد والاعتقاد بالعقائد . العالم قدّس Canonisé على نحو متزايد ، الى ان جاء القديس ماكس (شترنر) ونجح في تقديسه كتلة واحدة وهكذا في تصفيته نهائيا .»

[من الجدير بالاشارة ان Canoniser (تقديس ، اعلان قداسة شخص ، «تطويبه» ووضعه في عداد القديسين) من Canon : وهي قانون ، قاعدة ــ مدفع ، سبطانة (فكرة الخط المستقيم المباشر ، بلا وساطات او التواءات] ــ الخ . Droit Canon هو القانون الكنسي .)

١٤٩ ــ م.ن ، ص ٣٩ : «البشر كوّنوا دائما حتى الان أفكارا خاطئة عن انفسهم ، عن ما هم او ما يجب ان يكونوا . نظموا علاقاتهم حسب التصورات التي كانوا يكونونها عن الله ، عن الانسان الطبيعي السوي ، الخ . ان منتجات دماغهم هذه انتهت الى تجاوزهم والتسلط عليهم ، وهم ، وهم خالقو هذه الافكار ، انحنوا أمام مخلوقاتهم بالذات : فلنحررهم من هذه الخرفات ، من هذه الاوهام ، من هذه الافكار ، من هذه العقائد ، من هذه الاشباح ، التي يختنقهم نيرها . فلنثره ضد هيمنة الافكار . فلنعلّم البشر ان يبادلوا هذه الاوهام بأفكار تترجم عن جوهر الانسان ، هذا ما يقوله احدهم ، ان يتخذوا ازاءها موقفا نقديا ، يقول آخر ، ان يتحرروا منها كلها ، يقول الثالث ، وسينهار الواقع الراهن .»

م.ن ، ص ٤٤ : «بما ان الهيغليين الشبان يعتبرون ان التمثيلات ، الافكار ، المفاهيم ، باختصار أن منتجات الوعي ، الذي جعلوه عنصرا ذا كيان مستقل ، تؤلف العقبات الحقيقية في وجه التقدم ، بينما الهيغليون الشيوخ يعتبرونها الروابط الحقيقية التي توحد البشر ، ينجم عن ذلك ان ليس عليهم ان يناضلوا الا ضد أوهام الوعي . بما انهم يتخيلون ان العلاقات بين البشر ، مجموع فاعليتهم ، قيودهم وحدودهم ، هي منتجات وعيهم ، لذا فان الهيغليين الشباب ، منطقيين

اذ يعتبرون ، مع هيغل ، ان الروح يحدد مجرى التاريخ ، يفكرون أن تحويل وعي البشر بنقد تصوراتهم الباطلة انما يؤدي بالضرورة الى تحويل للمجتمع والدولة . من هنا اقتناعهم بأن نقدهم له ، بالنسبة لصيرورة العالم ، أهمية أكبر بكثير من الاهمية التي اتخذتها اية ثورة ، بأنهم الابطال الحقيقيون للأزمنة الحديثة وبأن كفاحهم ذو فائدة ومتعة لا نظير لهما . من هنا ايضا الازدراء المترفع الذي يبديه هؤلاء المتكلمون ، الممتلئون بقيمتهم وبالجرأة العجيبة لمذاهبهم ، ازاء المفكرين الآخرين والامم الاخرى (١٥٠) .

يتخيلون ، في اكتفائهم ، ان هدف كل التاريخ كان تهيئة ظفر تأملاتهم ، بينما في الواقع ليست الثورة المزعومة التي أتوا بها في ميدان الفكر والتاريخ سوى مناقشات فقيرة ، وُلدت من تعفن الفلسفة الهيغلية .

رغم مزاعمهم الثورية ، انهم محافظون بشكل عميق . فهم ، في محاولتهم احلال ملكوت البشر محل ملكوت الله ، يعملون على طريقة اللاهوتيين . يكتفون بأن يقيموا محل الانسان الواقعي تجريدات ، من نوع **وعي الذات** او **الأنا** ، ليست الا بدائل دونيَّة عن الله ، وبأن يستعيضوا عن الفاعلية البشرية بعمل هذه المجردات الذي ليس هو نفسه سوى تقليد زائف للفاعلية البشرية . بما ان نقدهم لا يلغي الا وهميا الانخلاعات التي تثقل عاتق البشر ، فان هذا النقد لا يؤدي الا الى اعطاء تأويل مختلف عن حالة الاشياء الموجودة دون لهذا ان يحوّلها (١٥١) .

بمذهبهم الذي ليس سوى محض صناعة جمل ، يعكس الهيغليون الشباب وضع المانيا المتأخر والبائس . كما ان الشعب الالماني لجأ ، بحكم شروطه الحياتية الداعية للرثاء ، الى الدين ليجعلها تحتمل ، كذلك ب. باور وشترنر يلجآن الى بدائل دونية عن الدين ، لا تستطيع ان تغير في شيء وضع الاشياء القائم . كل هذه الايديولوجيا لخلفاء هيغل التلامذة ستنهار فور ما ستتحول الظروف التي ولّدتها (١٥٢) .

مع أنفسهم ، يعظون الناس ويدعونهم الى مبادلة وعيهم الراهن بالوعي الانساني الحق ، المتميز بالروح النقدية او الانانية ، والى التحرر بذلك من قيودهم .»

١٥٠ – م.ن ، صص ٤١ – ٤٢ .

١٥١ – م.ن ، ص ٤٤ : «المطالبة هكذا بتحويل الوعي لا يعني اكثر من تأويل ما هو موجود تأويلا مختلفا ، اي قبوله بواسطة تأويل مختلف . رغم جُملهم الطنانة ، التي على حد زعمهم تقلب العالم ، هؤلاء الايديولوجيون الهيغليون – الشباب هم أكبر المحافظين . وأكثرهم شبابا وجدوا العبارة الصحيحة في وصف نشاطهم حين يؤكدون انهم لا يناضلون الا ضد **جُمل** . ينسون فقط انهم يعارضون هذه الجمل بجمل أخرى ، وأنهم لا يناضلون بأي حال ضد العالم كما هو موجود بقتالهم فقط ضد كلامولوجيا هذا العالم .»

١٥٢ – م.ن ، صص ٧١-٧٢ : «كل هذا التصور للتاريخ ، بما فيه تفكك هذا التصور ...

في مناظرتهما مع الهيغليين الشبان ، ماركس وانجلز يوجهان انتقاداتهما أقل بكثير ضد برونو باور ، الذي كانا ان صح القول قد صفَّياه في **العائلة المقدسة** ، من توجيهها ضد ماكس شترنر . بالنسبة لبرونو باور ، لم يكن اكثر من قتال مؤخرة ضد خصم يلهث . فقد كان رد باور على انتقادات ماركس وانجلز في مقاله المعنون «طابع اودفيغ فويرباخ» ضعيفا لدرجة كان معها يسوّغ تماما الحكم القاسي الصادر عليه في **العائلة المقدسة** .

في **الايديولوجيا الالمانية** ، ان نقدهما لبرونو باور ، الذي يندرج في المجادلة المفتوحة حول ب. باور ، بعد **العائلة المقدسة** ، يرجع لا الى **النقد النقدي** بل الى هذا المقال الذي يتلذذان في تقشيره وتفليته طويلا (١٥٣) . بما ان ملاحظاتهما ، التي تتصل على نحو رئيسي بالمناظرة التي فتحها برونو باور ضد خصومه ، لها بشكل خاص طابع آنيَّة ، فاننا لن نأخذ هنا سوى ما يسهم في اكمال نقدهما العام لبرونو باور وللفلسفة النظرانية .

آخذا عن هيغل فكرة ان الانسان والعالم هما من جوهر روحي ، برونو باور يخطو خطوة اضافية في طريق المثالية والنظرانية . فهو يعطي **وعي الذات** طابعا مطلقا وذاتيا بفصله عن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية . في الوقت نفسه الذي يعيد فيه الانسان الى **وعي الذات** يقلص العالم الى مفهوم الماهية (١٥٤) . بدلا من ان يتصور ، على طريقة هيغل ، الروح والعالم في تطورهما العضوي وفي وحدتهما ،

هو مسألة محض قومية ، لا تعني سوى الالمان وحدهم ولا فائدة فيها الا بالنسبة لالمانيا ... فالقضية بالنسبة لهؤلاء الالمان هي دائما اعادة كل نظرية حمقاء الى نظرية اخرى هي ايضا حمقاء ، الامر الذي يفترض اننا نعطي كل حماقة معنى خاصا يُراد تحريره وإبرازه ، في حين ان المشكلة الحقيقية هي تفسير هذه الجُمَللوجيا بالعلاقات الاجتماعية الموجودة . ان الغاء هذه الفرازيولوجيا ، تصفية أوهام وعي البشر هذه ، سيحصلان ... لا باستنتاجات نظرية ، بل بتحويل هذه العلاقات .»

١٥٣ – بخصوص هذه المجادلة انظر **(ج. يوليوس):** برونو باور او تطور الانسية اللاهوتية الراهن. نقد وطابع مميز . **في مجلة فيغان الفصلية** ، لايبتسيغ ، ١٨٤٥ ، ج٣ ، ص ص ٥٢–٨٧ .

رسالة سيليزيا – العليا ، T.O. ، **صحيفة ترير** ، ١٨٤٦ ، العدد رقم ٨٧ .

(ا. فون فستفالن) : برونو باور وممجِّدوه ، **مرآة المجتمع** ، ١٨٤٦ ، رقم ٧ .

ت. اوبيتس : برونو باور وخصومه ، برسلاو ، ١٨٤٦ .

١٥٤ – **م.ن** ، ص ١١٧ : «هكذا من جهة وضع في مكان البشر الواقعيين والوعي الواقعي الذي لهم عن علاقاتهم الاجتماعية – التي تبدو لهم موجودة بصورة مستقلة عنهم – مفهـــــوم **وعي الذات** المجرد ، وفي مكان الفاعلية المنتجة الحقيقية ، فاعلية وعي الذات المذكور المؤقنمة . من جهة اخرى، يستبدل الطبيعة الواقعية والعلاقات الاجتماعية الموجودة واقعيا بالمفهوم الفلسفي الذي يلخص بكيفية مجردة مجموع هذه العلاقات : الماهية ، وذلك لانه مع كل الفلاسفة وكل الايديولوجيين يأخذ الافكار، المُثل ، التعبير الروحي المؤقنَم للعالم الموجود على انه اساس هذا العالم .»

يعزلهما عن بعضهما واضعا **وعي الذات** في معارضة الماهية (١٥٥) .

على هذين التجريدين : وعي الذات والماهية ، اللذين يستطيع ان يلعب بهما ما شاء من ألعاب الخفة ، يبني برونو باور منظومته (١٥٦) . انه لا يرى ان التعارض الذي يقيمه بين **وعي الذات** والماهية قد حدده بالواقع انحلال الفلسفة الهيغلية الذي استتبع الانفصال بين الروح والعالم . لذا فانه يعتبر هذا التعارض الواقع الاساسي للأزمنة الحديثة ، المعضلة الرئيسية الكبيرة (١٥٧) .

فهو يفكر ان التاريخ البشري سيتخذ سيرا مختلفا تماما حسبما تكون الغلبة **لوعي الذات** او للماهية . ان السير العقلي للتاريخ لا يمكن ان يؤمَّن الا بالتطور الحر **لوعي الذات** الذي يتحقق ، كما هو الحال بالنسبة لأنا فيخته ، بمعارضة دائمة للماهية التي اليها يتقلص عنده العالم .

التاريخ ، بالنسبة له ، كما بالنسبة لجميع المثاليين ، تحدده الغاية التي يجب ان يحققها والتي هي ، كما عند جميع الفلاسفة النظرانيين في هذا العصر ، تحوّل مملكة الله الى مملكة للبشر (١٥٨) . هذا التحول لا يمكن ان يتحقق الا بتحرير **وعي الذات** من قبضة الماهية ، التي تنجب سيطرتها التصورات الباطلة والمؤسسات (الدين ، الدولة) التي تقيد التطور الحر **لوعي الذات** .

هذه النظرية لانخلاع **وعي الذات** تترجم عن نفسها كما في الدين بولادة أوهام ، فِكَر ثابتة ، تتسلط على البشر . انها ليست سوى تأويل مثالي عن التعارض بين حالة اجتماعية محددة وتطور التاريخ الذي يتجاوزها وعن العواقب الناجمة عن هذا التعارض (١٥٩) .

---

١٥٥ ــ **م.ن** ، ص ١١٦ .

١٥٦ ــ **م.ن** ، ص ٨٣ : «من البدهي انه بعد ذلك يستطيع ان يقوم بشتى أنواع ألعاب الشعوذة مع هذين التجريدين المحرومين من كل محتوى دون ان يعلم شيئا عن البشر الحقيقيين وعلاقاتهم.»

١٥٧ ــ **م.ن** ، ص ١١٧ : «انه ملك خاص لبرونو باور أن لا يرى في مشكلة العلاقة بين **وعي الذات** والماهية ، كما يرى مؤلفا **العائلة المقدسة** ، مسألة تنتسب الى الفلسفة الهيغلية، بل ان يرى فيها مشكلة ذات اهمية عالمية ، معضلة رئيسية . في هذا الشكل دون سواه تترجم عنده نزاعات العصر الراهن .»

١٥٨ ــ **م.ن** ، ص ٤٠٢ .

١٥٩ ــ **م.ن** ، ملاحظة ص ٤٠ : «ان المثليين الالمان للفلسفة النقدية يؤكدون جميعا أن **الافكار**، التمثيلات ، المفاهيم ، قد سادت وحددت البشر حتى الان وأن العالم الواقعي هو **نتاج عالم الافكار**. هكذا كانت الحال الى هنا ولكن يجب ان تتغير هذه الحال . انهم يختلفون فيما بينهم بالطريقة التي بها يريدون تحرير البشرية التي تئن تحت هيمنة أفكارها الثابتة ، يختلفون ايضا بما يعنونه بـ«**أفكار ثابتة**» ، ولكنهم متفقون على الاعتقاد بأن فاعليتهم النقدية ستقود بالضرورة الى نهاية وضع الاشياء الموجود ...» .

بما أن برونو باور يقلص التاريخ الى صراع بين **وعي الذات** والماهية ، اي الى صراع بين مفاهيم ، فان النزاعات الواقعية تعاد عنده الى نزاعات أفكار ، يمكن ان تحل بطريق الروح (١٦٠) . من هنا الدور المقرّر الذي يعزوه للنقد في تطور التاريخ. ان النقد ، مفهوما في شكل نقد مطلق ، **نقد نقدي** ، يصير عنده أداة **وعي الذات** والتاريخ يتقلص الى حملات التحرير التي يقودها **النقد النقدي** .

لما كان ماركس وانجلز قد حلّلا بالتفصيل في **العائلة المقدسة** المعارك التي يخوضها **النقد النقدي** ، فانهما يكتفيان هنا بإبراز ملامحها الجوهرية .

ان النضال الذي يقوم به **النقد النقدي** نضال وهمي ، اذ ليس له اي شيء مشترك مع انعتاق البشر الواقعي الذي لا يمكن ان يكون سوى نتاج ثورة اجتماعية (١٦١) . وهو ايضا ذو طابع رجعي ، لانه يتوجه، لا ضد الدولة البروسية والملكية المطلقة والمؤسسات الاقطاعية ، بل ضد الشعب ، الموصوف بإزدراء من قبل برونو باور بكلمة **جمهور** . بالفعل **الجمهور** ومعه الليبرالية والراديكالية اللتان تستندان اليه ، يعتبرهم برونو باور أعداء الروح الألداء .

بدلا من ان يرى في الليبرالية التعبير السياسي للنضال الطبقي الذي تخوضه البرجوازية ، برونو باور يعتبرها حركة ايديولوجية ويقلصها الى الكفاح الذي خاضه الهيليون ـ الشباب والذي وجد نهايته في أوائل ١٨٤٣ . فشل الليبرالية يعلله برونو باور بكونها تحالفت مع **الجمهور** ويستنتج من ذلك ان انعتاق البشرية لا يمكن احرازه مع مساعدة **الجمهور** بل على العكس بنضال ضده لا رحمة فيه .

فيما يتصل بالليبرالية كما يفهمها برونو باور، يلاحظ ماركس وانجلز أن ما اختفى في أوائل ١٨٤٣ لم يكن سوى الليبرالية الكلامية للهيغليين ـ الشباب ، في حين أن الليبرالية الحقة ، الليبرالية التي تعتمد على البرجوازية ، لم تكف ولا تكف ، بالعكس ، عن التوطد (١٦٢) . أما **الجمهور** ، فبعيدا عن أن يكون كما يؤكد برونو باور



م.ن ، ص ١١٩ : «سنكتفي باضافة بضع جمل يظهر منها اية درجة يؤمن (برونو باور) بجبروت الفلاسفة والى اية درجة يشاطر وهمهم ان تعديلا في الوعي ، في تأويل حالة الاشياء الموجودة ، هو قادر على قلب العالم رأسا على عقب .»

١٦٠ ـ **م.ن** ، ص ١٣٠ .

١٦١ ـ **م.ن** ، ص ٤١٦ : «انه الوهم القديم الذي يرى ان تغيير الشروط الموجودة يتوقف على ارادة الناس الطيبة وحدها ، اذ هذه الشروط هي أفكار . ان تحويل الوعي المعزول عن الشروط الواقعية ، كما يفعل الفلاسفة بحكم المهنة هو نفسه نتاج للظروف الموجودة وهو جزء منها ... ان زعم الارتفاع بالروح فوق العالم ليس سوى التعبير الايديولوجي لعجز الفلاسفة ازاء هذا العالم . ان غرورهم تكذبه الوقائع يوميا» .

١٦٢ ـ **م.ن** ، ص ١٣٣ : «سنة ١٨٤٢ تعتبر ذروة الليبرالية في المانيا ، لان الفلسفة كانت آنذاك تشارك في الحياة السياسية . بالنسبة للفلسفة النقدية ، نهاية الليبرالية تتطابق مع زوال

عائقا أمام التقدم ، هو ، في شكل البروليتاريا الثورية ، عنصره **المحرك** .

بنظريته ، التي تزعم انها تعين وتثبت للتاريخ الهدف الذي يجب عليه ملاحقته، برونو باور ينتسب الى هؤلاء الايديولوجيين الذين يتخيلون ان علة وجود التاريخ كله كانت تهيئة مجيء تصوراتهم النظرانية . حين يعلن تفـوّق وجبروت **النقد النقدي** ، برونو باور يتكشف عن متبجح مغرور ، ومذهبه الذي يتقلص الى ميثولوجيا مفاهيم يظهر عدم الفلسفة النظرانية (١٦٣) .

٢ ـ ماكس شترنر

لئن كان نقد برونو باور مقتضبا نسبيا في **الايديولوجيا الالمانية** ، فان نقد ماكس شترنر هو بالمقابل مفرط متجاوز الحد . انه يؤلف حوالي ثلثي الكتاب وهو يعادل في الاتساع مؤلف شترنر ذاته . وكثيرا ما يُدفع الى درجة معها يضيع حرفيا في التفاصيل ، الامر الذي يفسَّر بواقع ان ماركس وانجلز ، الواعيين لتفوقهما ، كانا يستمتعان شخصيا بلذة كبيرة في فضح كل نقاط ضعف شترنر فضحا لا رحمة فيه . كما بالنسبة لبرونو باور ، لن نحفظ هنا سوى الامر الجوهري في انتقاداتهما ، الانتقادات التي كانت تتيح لهما ان يعرّفا بشكل أصح وأدق وأن يكملا نظريتهما ذاتها بمعارضة نظرية شترنر .

منذ ديسمبر ١٨٤٤ ، اي منذ صدور كتاب شترنر ، كان ماركس يفكر بنقد لشترنر سينشر في **الى الامام** ولكنه لم ينشر بسبب حذف هذه الجريدة (١٦٤) .

الحوليات الالمانية والصحيفة الراينية ، لسانَي النظرية الليبرالية والراديكالية . في رأيه ، لم تترك الليبرالية سوى أصداء ، بينما في الواقع الان فقط ، في الوقت الذي فيه تشعر البرجوازية الالمانية فعلا بالحاجة ، المولودة من الشروط الاقتصادية ، حاجة الوصول الى السلطة السياسية والاستيلاء عليها ، الان فقط الليبرالية الالمانية توجد فعلا ولها حظوظ نجاح .»

١٦٣ ـ **م.ن** ، ص ص ٧٢ ـ ٧٣ : «الطابع القومي المحض لهذه الاسئلة وللاجوبة التي تعطى عنها يظهر ايضا في واقع ان هؤلاء المنظّرين يؤمنون اشد الايمانات جدية في العالم ان هذه الاساطير من نوع **الانسان ـ الاله** او **الانسان** حددت عصور التاريخ المختلفة . القديس برونو يذهب الى حد القول ان **النقد** والنقاد وحدهم صنعوا التاريخ ... حين يصلون الى تناول مواضيع تاريخية حقا ، مثلا القرن الثامن عشر ، هؤلاء الفلاسفة لا يعطون سوى تاريخ التصورات مفصولة عن الوقائع وعن التطور التاريخي التي تؤلف قاعدة تاريخ التصورات وهم لا يعطون هذا التاريخ الا بقصد تقديم العصر المعني بوصفه مرحلة ناقصة في ذاتها ولكنها تبشر وتنذر بالعصر التاريخي الحقيقي ، اي بنضال الفلاسفة الالمان بين ١٨٤٠ و١٨٤٤ ... »

١٦٤ ـ انظر ماركس الى هـ. بورنشتاين (باريس ، ديسمبر ١٨٤٤) : «ليس بوسعي ان أرسل اليك نقد شترنر قبل الاسبوع القادم ...» انظر **م.ا.م** ، جـ٢٧ ، ص ٤٣٢ .

في نقد شترنر (١٦٥) ، الذي يؤلف بالواقع متابعة النقد الذي كانا بدآه في تراسلهما مع هس ، يذهبان ، كما ذهب ماركس في نقده لفويرباخ ، من فكرة ان العيب الاساسي لشترنر يأتي من كونه ، مثل فويرباخ ، ولو بكيفية أخرى ، لا يقيم حسابا لدور **البراكسيس** ، فاعلية الانسان المنتجة (١٦٦) .

مثل برونو باور ، شترنر يستعير عن هيغل تصور ان الوعي والفكر يؤلفان جوهر الانسان ، يحددان حياته وبذلك التاريخ . ينجم عن ذلك عنده ، كما عند هيغل وبرونو باور ، قلب للعلاقات الحقيقية بين الوعي والكينونة ، قلب يندفع عنده الى الحد الاقصى من جراء تذويت الفلسفة الهيغلية تذويتا تاما . بعد برونو باور، الذي كان قد أكد القيمة الممتازة للشخصية بوصفها تجسيدا للوعي الكلي ـ الكوني، شترنر يضاعف تذويت الفكرة المطلقة الهيغلية ، بتقليصه الانسان الى الأنا متصورا في وحدانيته المطلقة وبإعادته كل التاريخ الى فاعلية هذا الأنا .

بعكس هيغل ، الذي كان يجعل التاريخ خلق هذه الفكرة المطلقة ، التي تجمع في نفسها ، بوصفها ذاتا ـ موضوعا ، الروح والكينونة ، الامر الذي كان يعطي التطور الجدلي طابعا موضوعيا ، شترنر يرى في التاريخ نتاج فاعلية الأنا الذي ينبسط ، على طريقة أنا فيخته ووعي ذات برونو باور ، بمعارضة دائمة للعالم ، مما يعطي الجدل طابعا ذاتيا .

من جراء تقليص الانسان الى أنا مطلق ، والتاريخ الى فاعلية هذا الأنا ، وتذويت الجدل المفروز تماما عن العالم الواقعي ، هذا الاخير يصير مملكة مجردات .

بدلا من اعتبار الحياة الانسانية سيرورة محددة بالتطور الجدلي لقوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية ، شترنر ، اذ يقلصها الى تطور الأنا معزولا عن كل واقع ، يحذف تجريديا الصفات الفكرية والفيزية التي تميز البشر بعضهم عن بعض وكذلك العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي تحددهم .

بما انه لا يعتبر الانسان كفرد في علاقاته الواقعية مع الطبيعة ومع المجتمع، بل في تعارضه الدائم معهما ، لذا ينجم عنده تصور خاطىء عن الطبيعة وعن المجتمع

---

١٦٥ ـ عن النقد المعاصر لشترنر انظر **ف. فريدنسبورغ** : اسهام في تاريخ الاخلاق في الفلسفة المعاصرة ، ماكس شترنر ، «الوحيد وخاصيّته» ، **في مجلة مراسل الحدود** ، لايبتسيغ ١٨٤٥ . جـ١ ، ص‌ص ٢٣٩-٢٤١ .

في **باخرة فستفاليا** ، ١٨٤٥ ، ص‌ص ٣٣٥ وبعدها ، ٤٢٤-٤٢٦ .

في **أوراق للتسلية الادبية** ، ٣ و٦ شباط ١٨٤٦ ، ص‌ص ١٤٢ ، ١٤٧ .

١٦٦ ـ عن السمات العامة لمذهب شترنر ، انظر الفصل الثاني من هذا المجلد [الفقرة الثانية].

في آن . فهو لا يرى ان الطبيعة ، التي يعتبرها فقط في هيئتها البدائية ، بوصفها مجموعة قوى أولية ابتدائية تؤلف تهديدا دائما للانسان ، انما تحوّل على نحو متزايد العمق من قبل الفاعلية الانتاجية للبشر ، وأن البشر بهذا التحويل يندرجون تكامليا فيها بالتدريج (١٦٧) . بما انه من جهة أخرى لا يحسب حسابا للعلاقات الاجتماعية التي بها يدخل البشر في صلة متبادلة ويقرر بعضهم بعضا بالتبادل ، ولا يعتبر سوى التعارض بين الافراد ، الناجم عن التزاحم ، لذا فهو لا يرى ايضا في المجتمع سوى خطر يهدد الانسان المقلص الى الأنا (١٦٨) .

بلا رابط مع الطبيعة ومع المجتمع ، الانسان يصير حتما ، بالنسبة له ، أنا مطلقا ، بما انه غاية في ذاتها فهو يدين ويرفض كل ما يعارض استقلاله الكامل . الانانية تؤلف ، من جراء ذلك ، الصفة الاساسية [الكيف الاساسي] ، المحمول الجوهري [الخبر الجوهري] للأنا .

الأناني الواعي ذاته ، شترنر يعارضه على حد سواء بالأناني السوقي وبالفرد الذي يضحي بذاته اخلاصا للغير (١٦٩) . عاملا ، مثل برونو باور ، مع عدد ضيّق

---

١٦٧ — انظر **الايديولوجيا الالمانية** ، المرجع المذكور آنفا [باريس ١٩٦٨] ، ص‌ص ٢١٢ وبعدها : «هذا (هذا التكرار لهيغل) يحصل عنده (عند شترنر) في مفردات او حدود التاريخ الطبيعي التي تأتينا بايضاحات هامة عن طريقته في اعتبار تاريخ الطبيعة العلم **الوحيد** . الامر الذي يعلّل بكون **العالم** ، حيثما يحدث ان يلعب دورا هاما ، يصير مباشرة الطبيعة . ان علم **الطبيعة** ، الذي يعتبره العلم الوحيد ، يبدأ ، عنده ، باعتراف بالعجز . هذا العلم لا يعتبر علاقات الانسان الواقعية مع الطبيعة ، العلاقات التي تنجبها الصناعة وعلوم الطبيعة ، بل هو يرتكز على علاقة خيالية بين الانسان والطبيعة . بما ان سلطة الانسان محدودة ، «ينبغي له ان يدع الشمس تتبع طريقها ، البحر يدحرج أمواجه ، الجبال تنصب ذراها نحو السماء» . »

١٦٨ — **م.ن** ، ص ٤٣١ : «اخضاع **الماهية للذات** الذي حوله يطبّلون (فرسان الفلسفة هؤلاء)، تخفيض الماهية المهيمنة على **الذات** الى دور **محمول** او **خبر** للذات ، ينكشف عن كونه محض **كلامولوجيا** . هذا يفسِّر كونهم يستغنون بحكمة وتعقل عن دراسة انقسام الشغل والانتاج المادي والعلاقات الاجتماعية ، التي تخضع البشر لصلات اجتماعية ولانماط نشاط محددة .»

١٦٩ — **م.ن** ، ص ٤٨١ : «الافراد دوما وفي كل الظروف «ذهبوا **من أنفسهم**» ، ولكن بما انهم لم يكونوا وحيدين ، بمعنى انه لم يكن بوسعهم الاستغناء عن بعضهم بعضا ، ان طبيعة حاجاتهم وكيفية ارضائها (علاقات جنسية ، مبادلات ، تقسيم الشغل) كانت تجعلهم في تبعية متبادلة ، فقد كان يتوجب عليهم بالضرورة ان يدخلوا في علاقة فيما بينهم . بما انهم ، من جهة اخرى، لم يكونوا يدخلون في صلة متبادلة بوصفهم **أنوات** معزولة ، بل بوصفهم أفرادا بلغوا درجة معينة في تطور قوى الانتاج والحاجات ، لذا فان هذه العلاقات كانت بدورها تحدد تطور الانتاج والحاجات ، بحيث ان سلوك الافراد الشخصي هو فعلا الذي خلق ويخلق العلاقات الموجودة ، ولكن سلوكهم بوصفه سلوكا اجتماعيا . »

من مجرّدات ـ وحدوية ، أنانية ، اخلاص ـ يعتبرها صفات فطرية ولا يكلف نفسه عناء تحليلها ، يستطيع ان يحدد **بصورة قبلية** ، مثل برونو باور ، طبيعة وسلوك الانسان وتطور التاريخ (١٧٠) .

الانسان الحقيقي هو في نظره الانسان الذي يتخذ مبدأ له الانانية وهو يضع مقابله الانسان الذي لا تستجيب طبيعته لهذا المبدأ . البشر يصيرون هكـــذا تجسيدات لمبادىء حقة او باطلة ، تثبيتات للحقيقة او نفيات لها (١٧١) . كما أن الصفات الانسانية تتحول عنده الى مجرّدات ، كذلك فاعلية البشر والعلاقـــات الاجتماعية تصير تعبير عمل هذه المجردات .

في الواقع ، بعكس ما يفكر شترنر ، الصفات الانسانية محـددة اجتماعيا . فالطريقة التي بها تولد وتتطور صفة او هوى [ـ انفعال] تتوقف على العلاقـــات الاجتماعية . اذا كان فرد من الافراد مَقادا ، تحت تأثير هذه العلاقات ، الى بسط كيف [صفة] او انفعال (هوى) على حساب الصفات او الانفعالات الاخرى ، فان هذا الكيف او الانفعال سيبقى محدودا عند رجل فاعليته ذاتها محدودة . وبالعكس ،

م.ن ، ص‌ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ : «كما سبق أن رأينا ... ان الاناني الحق الذي هو في وفاق مع نفسه لا يجب بتاتا ان يُخلط مع الاناني العادي ، مع الاناني بمعنى الكلمة المبتذل . هذا الاخير ، الذي يبقى أسير عالم الاشياء ... كما الاناني الذي يضحي بنفسه هو سجين عالم الافكار ... ليس الا مقدماته . بما ان القديس ماكس (شترنر) يريد ان يقدم لنا في الاناني الحق شيئا ما جديـــدا تماما ، مآل كل التاريخ السابق ، لذا ينبغي له ان يبرهن من جهة ، للذين يضحون بأنفسهم ، لرسل الاخلاص ودعاة التفاني ، انهم أنانيون يجهلون أنفسهم ، وللاانانيين ، بمعنى الكلمة المبتذل ، أن عندهم روح التضحية ، انهم أنانيين **حقين** ، أنانيين قدسيين .»

١٧٠ ـ م.ن ، ص ٢٤٥ : «بما ان كل صفاته معطاة له (للأناني) ، لذا لا يهمه كثيرا من ايـن تأتي . لا يحتاج الى بسطها ، لا يحتاج مثلا الى تعلم الرقص كي يسيطر على رجليه ،) لا يحتاج كذلك ، كي يسيطر على فكره ، الى ممارسة هذا الفكر على مواد ليس متاحا لجميع الناس امتلاكها او الحصول عليها . لا يحتاج كذلك الى الانشغال بالظروف المادية التي يتوقف عليها في الواقع مقدار قدرة الفرد على الانبساط .»

١٧١ ـ م.ن ، ص ٢٦٩ : «محمولات الله ، المستعارة من فويرباخ ، التي يعتبرها قوى واقعية تهيمن على البشر ، رؤساء مقدسين ، هو ذا العنصر المصوّف الخادع الذي أجل محل العالـــم التجربي والذي عليه يعتمد شترنر ، الامر الذي يبيّن الى اي حد كل منظومته مؤلفة من استعارات [عن آخرين] . شترنر (انظر ايضا ص ٦٣) يأخذ على فويرباخ كونه لا ينتهي الى شيء ، لانه يجعـل الموضوع محمولا ، المبتدأ خبرا ، والعكس بالعكس ، ولكنه هو ذاته يستطيع أقل من فويرباخ الانتهاء الى شيء ، لانه يقبل بلا تبصر التصور الفويرباخي لمحمولات تصير موضوعات وتتحول الى كائنـــات واقعية تهيمن على العالم ولانه يأخذ الكلامولوجيا عن شروط الحياة الناجمة عن التحول المذكور على انها تعبير العلاقات الاجتماعية الحقيقية .»

سينمو ويتطور عند رجل فاعليته متعددة (١٧٢) .

ليست الانانية والاخلاص موجودين في ذاتيهما في شكل كيفات فطرية . انهما ينموان وينبسطان تحت تأثير التعارض الذي يولد ، في منظومة الملكية الخاصة، بين المصالح الخاصة والمصلحة العامة . هذا التعارض بين المصالح الخاصة والمصلحة العامة وبالتالي بين الانانية والغيرية ليس ، على كل حال ، الا في الظاهر مطلقا ، اذ ان المصالح الخاصة والمصلحة العامة في تشارط متبادل، تكيف هذه تلك وبالعكس. فالصالح العام لا يؤلف دائرة مستقلة عن المصالح الخاصة ، انه يولد حين تتخذ هذه المصالح شكل مصالح طبقية ، تمثلها وتدافع عنها الدولة فترتدي عندئذ هيئة مصالح عليا ، مصالح عامة . ان ممثل مصالح خاصة لا يظهر أنانيا الا لانه بالضرورة مقاد الى معارضة الصالح العام الذي هو نفي مصالحه الخاصة . والامر كذلك بالنسبة للمدافع عن المصلحة العامة الذي لا يظهر تجسيدا للاخلاص والوفاء والتفاني الا لان دوره يرغمه على مكافحة المصالح الخاصة ومصالحه ايضا ، باسم مبادىء عليا (١٧٣) .

---

١٧٢ — م.ن ، ص‌ص ٢٩٥ وبعدها : «من جهة اخرى تلك حماقة ان نفترض ، كما يفترض شترنر، انه بوسعنا ان نرضي هوى نعزله عن الاهواء الاخرى ، بدون ان نرضي في الوقت نفسه الفرد الحي كاملا . اذا كان هذا الهوى يتخذ طابعا مجردا ، خاصا جزئيا ، اذا كان يعارض الفرد في شكل قوة غريبة ، واذا كان ارضاء هذا الفرد يبدو مقلصا الى ارضاء هوى واحد دون سواه ، فان هذا الامر ليس مردّه بتاتا الى الوعي ، الى الارادة الطيبة ، وأقل ايضا الى نقص التفكير في الطابع المفهومي لهذه الصفة او هذا الكيف ، كما يفكر شترنر . هذا الامر ليس سببه الوعي بل الكينونة . سببه التطور الواقعي والحياة الواقعية للفرد اللذان يتبعان بدورهما الظروف. اذا كانت الظروف التي فيها يعيش فرد من الافراد لا تتيح له ن يبسط سوى صفة واحدة على حساب الصفات الاخرى ، واذا كانت هذه الظروف لا توفر له سوى العناصر والزمن الضروري لبسط هذه الصفة الوحيدة ، فان الفرد لن يعرف سوى تطور جزئي وناقص ... ان الطريقة نفسها التي بها سيتطور هذا الكيف الاولي الغالب تتوقف على العناصر التي ستكون بتصرفه وأيضا على القدر والشكل اللذين بهما ستتقيّد الكيفات الاخرى ... »

١٧٣ — م.ن ، ص‌ص ٢٧٧ وبعدها : «انه (شترنر) يكتشف رغما عن أنفه ان الاتجاهين الكبيرين اللذين يتظاهران في التاريخ والمتمثّلين بالمصالح الخاصة للافراد وبالمصالح العامة يسيران دوما معا في نفس المستوى ... ويتساءل كيف يحدث ان الانانيين العاديين المبتذلين ، حمَلة المصالح الشخصية، يقبلون الخضوع لهيمنة مصالح عامة ، لهيمنة الهيرار كية [الرئاسة المقدسة] ...

اذا ترجمنا لغة شترنر الصوفية الى لغة دنيوية ، وصلنا الى السؤال الآتي : كيف يحدث ان المصالح الشخصية تنتهي دوما الى التحول رغم أنف الافراد الى مصالح طبقية ، الى مصالح مشتركة، تتخذ ازاء الافراد طابعا مستقلا ، ترتدي تحت هذه الهيئة شكل مصالح عامة ، تدخل بوصفها كذلك في نزاع مع الافراد ، وتستطيع في هذا النزاع الذي يوضح ويضبط صفتها كمصالح عامة ان تظهر

بنتيجة تقليص الانسان الى أنا مطلق وفاعليته الى تحقق مفاهيم ، يصير الانسان عند شترنر كائنا وهميا ، شبحا محضا ، ويصير التاريخ ، المعاد الى تعاقب مفاهيم ، اسقاط أشباح (١٧٤) .

كما عند هيغل يتحول التاريخ الى خلق الروح لذاته ، كذلك يتحول عند شترنر الى خلق الأنا لذاته بوصفه تجسدا للأنانية (١٧٥) . التاريخ يرتدي عنده

في الوعي تحت شكل مصالح **فكرية مثالية** ، بل دينية ومقدسة ؟ كيف يحصل أن ، في اطار هذا التحوّل للمصالح الخاصة الى مصالح طبقية مستقلة ، أن السلوك الشخصي للافراد لا بد ان يتشيّء ، أن ينخلع ، وأن يظهر سلطانا متولدا من العلاقات الاجتماعية ، مستقلا عن الفرد ، أن يبدو علاقات اجتماعية في شكل قوى تقرر الافراد وتخضعهم وبالتالي تبدو لهم قوى «مقدسة» ؟...
حتى في الشكل الاحمق ، البرجوازي الصغير والالماني ، الذي فيه يتصور شترنر النزاع بين المصالح الشخصية والمصالح العامة ، اضطر شترنر الى ملاحظة ان الافراد لم يستطيعوا يوما ان ينطلقوا الا من أنفسهم ؟ وبالتالي الى ادراك ان الوجهين اللذين سجّلهما ، وجهي تطور الافراد الشخصي ، متولدان من نفس شروط الوجود المادية ، ليسا الا **تعبيرين** مختلفين **لنفس** تطور البشر الشخصي ، وليسا بالواقع الا تناقضا **ظاهريا** ... . انهم (الشيوعيين) يعلمون ان هذا التناقض ليس الا **ظاهريا**، اذ انوجهَي المصلحة ، المصلحة المسماة **عامة** ، منتج بلا انقطاع من قبل الوجه الآخر ، من قبل المصلحة الخاصة ، **ولا** يؤلف بتاتا ازاء هذا الاخير قوة مستقلة لها تاريخها لخاص الذاتي ، ان هذا التناقض ، في الواقع العملي ، ينعدم وينولَد على الدوام ... . ان حامل المصلحة الشخصية ليس «أنانيا بمعنى الكلمة العادي المبتذل» الا بموجب معارضته **للمصالح المشتركة** التي ، في اطار نمط الانتاج والتبادل الذي لا يزال موجودا ، جعلت نفسها مستقلة في شكل مصالح عامة ، الامر الذي يمكّنها من ان تقدم نفسها وتفرض نفسها بوصفها مصالح فكرية مثالية . ان حامل المصلحة العامة لا يظهر **غيريا** ، مطبوعا بروح التضحية ، الا بحكم معارضته للمصالح الشخصية ، الموصوفة بأنها مصالح خاصة ، وبحكم وصف المصالح المشتركة بأنها مصلحة عامة ومثالية .»

١٧٤ ــ **م.ن** ، ص ٢١٩ : «هذا **الأنا** الشترنري ، الذي يظهر كأنه نتاج كل التاريخ السابق... ، ليس فردا جسديا بل هو مقولة بنيت حسب الطريقة الهيغلية ، بمساعدة بدلات .»

ص.ص ٢١٧ وبعدها : «قديسنا البطل انتصر الان على التاريخ ، حوّله الى أفكار ، الى أفكار طاهرة ليست الا مفكَّرة ، ولا يبقى أمامه ، الى دهر الداهرين ، سوى شرذمة أفكار .» .

١٧٥ ــ **م.ن** ، ص ٦٧ : «هذا التصور (تعاون البشر) يمكن ... أن يتصوّر مفهوميا بكيفية مثالية ونظرانية ، اي خيالية خارقة ، بوصفه **انخلاق النوع الانساني** (المجتمع يصير عندئذ ذات التاريخ) ، وبالتالي فان تعاقب **الافراد** ، الذين هم على علاقة فيما بينهم ، يمكن ان يمثّل في شكل فرد واحد يحقق هذا السر ، سر توليد نفسه بنفسه . نفهم ان الافراد يخلق بعضهم بعضا في المضمارين الفيزيائي والمعنوي على حد سواء ، ولكن ليس بالمعنى الاحمق للقديس برونو **وللوحيد**، ليس بمعنى الانسان خالقا نفسه بنفسه .»

م.ن ، ص ١٥٢ : «الفكرة النظرانية ، التصور المجرد ، يصيران محرك التاريخ ، بحيث ان

طابعا اكثر نظرانية ايضا مما عند هيغل . فهو يخدم ، اكثر ايضا مما عند هيغل ، من اجل اعطاء قاعدة لمضاربات ــ نظرية خالصة، بمنح هذه المضاربات مظهر كونها تترجم عن التطور الفعلي للتاريخ .

في حين ان هيغل كان يجهد دائما الى توفيق نظراته النظرية مع السير الواقعي للتاريخ (١٧٦) ، فان شترنر ، الذي يجهل كل شيء عن التاريخ ، يفصل الافكار عن العلاقات الاجتماعية التي تحددها ، بحيث ان الكيفية العسفية التي بها يصف التاريخ تتجاوز اي تخيل (١٧٧) .

اذ يصير التاريخ ، عنده ، اكثر ايضا مما عند هيغل ، تاريخا للفلسفة ، اي نشر مفاهيم ، ينجم عن ذلك ان موضوعه وهدفه ليس معرفة الوقائع الواقعة بل اكتشاف الحقيقة (١٧٨) . من هنا الطابع التيليولوجي [الغائي] الذي يرتديه عنده

التاريخ معاد ومقلص الى تاريخ الفلسفة . ان تطور هذه الاخيرة ليس متصورا كما ترويه المصادر الموجودة وأقل ايضا كنتيجة الظروف التاريخية الحقيقية ، ولكن حسب العروض التي أنشأها عنه الفلاسفة الالمان الحدثيون ، خاصة هيغل وفويرباخ . من هذه العروض ذاتها لا يُحتفظ الا بما يمكن استعماله للفرض المتخذ ... . التاريخ يتحول هكذا الى قصة فكر خيالية ، والتاريخ الواقعي، التاريخ التجربي ، غير النظري ، الذي هو القاعدة الواقعية الحقيقية لهذا التاريخ الشبحي ، لا يُستعمَل الا لاعطاء هذه الاشباح أجسادا تستعار منه الاسماء التي يحتاج اليها لمنحها مظهر واقع.»

١٧٦ ــ **م.ن** ، ص ٢٠٢ : «اذا كنا ، مثل هيغل ، نريد بناء مخطط تفسيري لكل التاريخ ولمجموع العالم الراهن ، فاننا لا نستطيعذلك بدون أن يكون لدينا معارف كبيرة ، بدون ان ندخل ، جزئيا على الاقل ، في تفصيل التاريخ التجربي ، بدون ان نمتلك طاقة عظيمة ونفاذا ذهنيا قويا . اذا كنا بالعكس نكتفي بأن نستثمر لغايات شخصية مخططا موجودا ، مع تعديله لكي نبرهن ، بمساعدة بضعة امثلة ... على صحة تصورنا **الشخصي** ، عندئذ ليس ثمة اية حاجة لمعرفة اي شيء من التاريخ.»

١٧٧ ــ **م.ن** ، ص ١٥٦ : «من التاريخ الواقع ، من التاريخ الدنيوي ، القديس ماكس لا يعلم شيئا واقعا ودنيويا ، فيما عدا كونه ، تحت كلمات **الطبيعة** ، **عالم الاشياء** ، **عالم الطفل** ، يقيم بلا انقطاع في معارضة الوعي ، كموضوع لنظره المضارب ، كونا وان كان يعدم على الدوام الا انه يستمر في نوع من الظلام الصوفي .»

م.ن ، ص ٢١٠ : «بعد ان أكد الايديولوجيون ان الفِكَر والافكار قد سادت التاريخ حتى ايامنا، بعد ان تخيلوا ان العلاقات الواقعية قد تقولبت حسب **الانسان** المعتبَر في ذاته وأن علاقاته تقلصت الى علاقات فِكَر ، اي حسب تحديدات مفهومية ، بعد ان جعلوا تاريخ الوعي ، وعي البشر عن انفسهم ، أس تاريخهم الواقعي ، لم يبق ثمة شيء أسهل من ان يعمّدوا تاريخ الوعي ، الفكر ، المقدس ، الفِكَر الثابتة ، وأن يسمّوا تاريخ **الانسان** الحقيقي . النقطة الوحيدة التي عندها يتميز القديس ماكس عن أسلافه ، هي انه لا يعلم **شيئا** عن هذه الفكر المعزولة عن الحياة الواقعية ، في حين ان هذه الفكر ليست سوى نتاج هذه الحياة .»

١٧٨ ــ **م.ن** ، ص ١٩٣ : «لماذا لم يكن ممكنا ، يتصور التاريخ على طريقة هيغل ، الا الانتهاء

التاريخ ، الذي له كهدف ان يفتح للبشر باب مملكتهم الحقة (١٧٩) .

هذا ، كما عند برونو باور ، عمل الوعي ، الذي يُحمَّل سلطة تحويل البشر والعلاقات الاجتماعية وتقرير سير التاريخ .

تحوّل البشرية بتطور الوعي ، يفسره شترنر بالطريقة التي بها يعرض هيغل في **الفينومينولوجيا** تطور الروح . الروح يظهر باديء ذي بدء في شكل الوعي الحسيّ ، الذي لا يتميز عن موضوعه ، ثم في شكل وعي الذات ، بالتعارض الذي يقوم بين هذا الاخير والعالم ، وأخيرا في شكل الروح ، حين يدرك انه يؤلف جوهر كل شيء (١٨٠) ، كذلك الانسان ، عند شترنر ، يظهر باديء ذي بدء مسيطرا عليه من قبل الطبيعة ، التي لا يتميز عنها جوهريا ، يتحرر من هذه السيطرة برَوحنَته العالم ، الامر الذي يخضعه لسيطرة جديدة ، سيطرة الروح ، يتحرر اخيرا من هذه السيطرة المزدوجة بأخذه وعي كينونته الحقيقية ، أناه ، مفهوما في وحدانيته وفي كيانه المطلق ، وبفعله وفقا لطبيعة هذا الأنا .

شترنر يعرض اولا بأول هذا التطور للانسان ، المقطوع الى ثلاثة ، بمساعدة تطوره البيولوجي الذي يجعل انه يكون طفلا فيصير مراهقا ثم راشدا (١٨١) . في عرضه ، شترنر يحول الطفل والمراهق والراشد الى بناءات نظرانية . فنمو الانسان يعود عنده ، كنمو الروح عند هيغل ، الى المواقف المختلفة التي يتخذها الوعي عند الطفل والمراهق والراشد ازاء العالم . الفروق بينهم تتقلص هكذا الى تصوراتهم المختلفة عن العالم .

الطفل الذي يبقى تحت سلطان الطبيعة واقعي . المراهق الذي بخلافه يسعى الى فهم جوهر العالم ويرى هذا الجوهر في الروح مثالي . فهو اذ يُرَوحِن العالم يتحرر من هيمنة الطبيعة ولكنه يسقط تحت هيمنة الروح . الراشد ، بوصفه انانيا ، يتحرر معا من هيمنة الطبيعة وهيمنة الروح ، مخضِعا اياهما لارادته . ان التطور البيولوجي للانسان يتقلص هكذا الى تشكّل وتحوّل تصور العالم ، اذ ان الطفل والمراهق والراشد صاروا ميتافيزيائيين يجعلون هذا العالم موضوع

الى ملكوت الارواح هذا ، الذي يجد تحققه ونظامه الكامل في الفلسفة النظرانية بوصفها الحد الاخير لكل التاريخ السابق ؟ الجواب على هذا السؤال ، كان بوسع شترنر ان يجده بسهولة فائقة عند هيغل نفسه . للانتهاء الى هذه النتيجة **يجب الارتكاز على مفهوم الروح ثم تبيان ان التاريخ كله ليس سوى انبساطه (تاريخ الفلسفة** ، III ، ص ٩١) . ما ان يكون المرء قد جعل من مفهوم الروح أس التاريخ ، يصبح من السهل جدا عليه ان يبيّن ان هذا المفهوم يُعثر عليه ثانية في كل مكان وان يقيم نظاما في انبساط هذا الاخير ، ترتيبا في تطوره .»

١٧٩ – م.ن ، ص ١٧٩ .

١٨٠ – م.ن ، ص ١٧٨ .

١٨١ – م.ن ، صص ١٤٢–١٥٢ : «سفر التكوين او حياة انسان» .

نظرانياتهم (١٨٢) .

بكيفية مماثلة يعالج شترنر التاريخ ، الذي له عنده كموضوع وهدف تبيان كيف يتحول الانسان ، عبر التاريخ ، الى أناني كامل .

شترنر يقسم التاريخ الى ثلاث حقب كبيرة : العصر القديم ، الذي هو طور طفولة البشرية ، العصر الوسيط ، الذي هو طور مراهقتها ، والأزمنة الحديثة التي تؤلف العهد الذي فيه البشرية الصائرة راشدة تأخذ وعي جوهرها الحقيقـي وتحققه واقعيا .

هنا ايضا هذه الحقب الثلاث تتميز حسب الموقف الذي يتخذه الوعـي ازاء العالم ، الموقف الذي هو واقعي في العصر القديم ، مثالي في العصور الوسطى ، وأناني في الأزمنة الحديثة . بهذه الثلاثية (طفل ، مراهق ، رجل ــ عصر قديم ، عصر وسيط ، أزمنة حديثة ــ واقعية ، مثالية ، أنانية) التي يكررها بلا ملل في تلوّنات لا نهاية لها (مثلا زنوج ، منغول ، قوقاسيون) ، يستطيع شترنر ان يبني

---

١٨٢ ــ م.ن ، ص ١٥٠ : «كل هذا التاريخ **لحياة انسان** يعود اذن ... الى ما يلي :

١ ــ شترنر لا يتصور المراحل المختلفة للحياة الانسانيـة الا بوصفها **اكتشافات الفرد من قبل نفسه** ، اكتشافات تتقلص دائما الى علاقة ما للوعي مع العالم . حياة الفرد تتقلص هكذا الى فروق في درجة وعيه . التغيرات الفيزيولوجية والاجتماعية التي تصيب الافراد والتي تؤدي الى تحوّل وعيهم لا تهمه . لذا فان الطفل واليافع والراشد موجودون دائما امام عالم جاهز ، كما ليس لهم الا عناء **اكتشاف أنفسهم** كذلك لا يفعلون شيئا ليجدوا اي شيء مما هو موجود . حتى علاقة الوعي مع العالم ليست متصورة بشكل صحيح بل بشكل باطل تحت الشكل النظراني وحده . لذا فـان اشخاصه لهم مع العالم علاقة فلسفية ، هي **واقعية** عند الطفل ، **مثالية** عند الفتى ، وهي عند الرجل بوصفه وحدة سلبية للاثنين الاولين تتخذ شكل سلب او نفي مطلق . هذا يكشف سر **حياة انسان**. **الطفل** ، كما ترون ، لم يكن سوى قناع **الواقعية** ، **اليافع** قناع **المثالية** ، والرجل محاولة **حل** هذا التناقض **الفلسفي** . هذا الحل ، هذه **السلبية المطلقة** ليست ، كما ترون الان ، ممكنة الا لان الرجل يتبنى «على العميانة» أوهام الطفل ويتصور (بتجاوزهما) انه سيطر على عالم الاشياء وعلى عالـم الروح . »

م.ن. ، ص ١٥٢ : «الكتاب الاول **حياة انسان** عنوانه ايضا **سفر التكوين** لانه يقدم لنا في شكل بذرة كل التاريخ ، ويعطينا ، في شكل نماذج ، طراز تطوره التالي ، حتى لحظة تحقق الازمنـة ومجيء نهاية العالم . كل التاريخ يتلخص في مراحل ثلاث : طفل ، مراهق ، رجل ، تعود بلا توقف تحت **استحالات او انسلاخات مختلفة**... حتى اللحظة التي فيها كل تاريخ عالم الاشياء وعالم الروح ينتهي بالانحلال في هذه العناصر الثلاثة .»

التاريخ كما يشاء (١٨٣) ، دون ان يكلف نفسه عناء دراسته (١٨٤) . كما في عرضه لانتقال الانسان من الطفولة الى سن الرشد كان قد أهمل التحولات البيولوجية التي تصحب هذا التطور ، كذلك في عرضه للتاريخ لا يقيم حسابا لتغير العلاقـــات الاجتماعية ولتقسيم الشغل ، لتشكل الامم والطبقات التي تحدد سير التاريخ(١٨٥).

من جراء الطابع التيليولوجي الذي يمنحه للتاريخ ، يساق الى تقسيم التاريخ واقعيا الى حقبتين كبيرتين : طور **البشارة** ـ العصر القديم والعصور الوسطى ـ وهو طور لا يزال ناقصا ، فيه البشرية لم تصل الى وعي الذات الحق ، وطـــور **التحقيق** ، الذي هو طور الازمنة الحديثـــة ، حيث الانسان يحقق كينونتـــه الحقيقية (١٨٦) .

---

١٨٣ ـ م.ن ، ص‌ص ١٥٢ وبعدها : «خلال هذه التجربة (تجربة البناء العسفي للتاريخ) يكتب قديسنا ، الذي يخرج من دوره مع ذلك ، محض قصص أشباح .

هذه الطريقة ، طريقة إلباس التاريخ لباسا تنكريا ، تجد عنده شكلها الاكثر سذاجة ، الاكثـر كلاسيكية . على هذه المقولات الثلاث الاولية : واقعية ، مثالية ، سلبية مطلقة بوصفها وحـــدة الاثنين الاوليين (وتسمى هنا أنانية) ـ التي سبق ان صادفناها في شكل الطفل والمراهق والرجل ـ يؤسس كل التاريخ ، ملبسا هذه المقولات أسماء مختلفة . انها ، مع رتل متواضـــع من مقولات مساعدة تابعة ، تشكل محتوى كل المراحل التاريخية التي يعرضها علينا والتي تؤلـــف ، حسب رايه ، التاريخ . القديس ماكس يعطينا هنا دليلا جديدا عن سرعة تصديقه الهائلة دافعا أبعد من كل أسلافه الاعتقاد بالمحتوى النظراني للتاريخ ، كما أنضجه بعض الفلاسفة الالمان . ان سر هـــذا البناء المهيب والابدي هو ايجاد سلسلة من اسماء فخمة وطنانة لثلاث مقولات ، صارت اغنيات مكرورة لدرجة انه لم يعد بوسعها ان تظهر أمام الجمهور تحت أسمائها الحقيقية .»

انظر م.ن ، ص‌ص ١٥٣ ـ ١٥٦ .

١٨٤ ـ م.ن ، ص ١٥١ : «كما هو لا يتحدث عن **حياة** الفرد الفيزيولوجية والاجتماعية ولا يعتبر ابدا **الحياة** الواقعية ، كذلك يبقى منسجما مع نفسه حين يحـذف تجريديا العصور التاريخيـــة والقوميات والطبقات . انه يكتفي ، وهذا **نفس الشيء** ، بتضخيم اهمية وعي الطبقة التي تمسه عن قرب والتي تؤلف وسطه المباشر ، لكي يجعل هذا الوعي الوعي الطبيعي ـ الســـوي لـ **حياة انسان** . كي يتجاوز وجهة النظر هذه المحلية والمحدودة الضيقة ، ليس عليه الا ان يقارن فتاة مع اي مستخدم تجاري ، مع عامل شاب في مصنع انكليزي ، مع فتى شمال ـ اميركي ، ولم نذكـــر الشبان القرغيز .»

١٨٥ ـ م.ن ، ص ١٥٦ .

١٨٦ ـ م.ن ، ص ١٤٢ : «**الكتاب** نفسه ، تماما مثل كتاب**الامس (فينومينولوجيا الروح)** ينقسم الى **عهد قديم وعهد جديد** ... . الاول هو التاريخ كما جرى وتدافع في بطن **المنطق** ، في بطـــن **اللوجوس** المكبَّل في الماضي ، الثاني له كموضوع **المنطق** كما ينبسط ويتطـــور الان في التاريخ ، **اللوجوس** المحرَّر الذي يغالب الحاضر ويغلبه .»

بدلا من ان يحلل كيف تطور العالم القديم وتفكك تحت فعل تحول قوى الانتاج وتقسيم الشغل ونمط الملكية ، يكتفي شترنر بأن يطبعه ويميزه بأنه طور طفولـــة البشرية ، حيث كان الانسان مسيطرا عليه من قبل الطبيعة وحيث كان وعيـــه يستجيب لعلاقاته مع الطبيعة (١٨٧) . من هنا تقليصه تاريخ العصر القديم الـــى تاريخ فلسفته ، خاصة تاريخ مذاهب الرواقيين والابيقوريين والريبيين ، الـــذي يفصله عن التاريخ الواقعي ويؤوّله بالتالي على نحو باطل (١٨٨) .

ينهج نفس النهج مع العصر الوسيط ، الذي يؤلف ، بوصفه مراهقة البشرية، الطور المثالي في تاريخها .

العصر الوسيط ، على حد قوله ، هيأه فلاسفة ما بعد أرسطـــــو ، لاسيما الرواقيون والابيقوريون والريبيون الذين ، اذ انفرزوا عن العالم ، سعوا الى فهم ما يؤلف حقيقته ، رأوا هذه الحقيقة في الروح ، ومهَّدوا بذلك الطريق للمسيحية، بوصفها تصورا روحانيا للعالم . جاعلا من هؤلاء الفلاسفة مثاليين يبحثون عـــن حقيقة العالم القديم ، شترنر لم ير أن موقفهم قد أملاه هذا العالم نفسه ، الذي كان آنذاك في طريق التفكك (١٨٩) .

العصر الوسيط بوصفه حقبة التاريخ المثالية يتميز ، حسب شترنر ، جوهريا

---

١٨٧ — **م.ن** ، ص ١٦٠ : «نرى ... الى حد الشبع ، كيف ان **جاك الطيِّب** (شترنر) ، الذي **لا يعلم كيف ينفرز باكرا بدرجة كافية** عن التاريخ التجربي ، يقلب الواقع ، جاعلا التاريخ المادي نتاج تاريخ الافكار ... . فورا يعلمنا تصورات الاقدمين المزعومة عن عالمهم . يضعها بوصفها عقيدية في معارضة العالم القديم الذي هو عالمهم ، بدلا من ان يبيِّن كيف أنتجوه . القضية الوحيدة هي علاقة الوعي مع موضوعه ، مع الحقيقة ، العلاقة الفلسفية التي كانت للاقدمين مع عالمهم . بدلا من تاريخ العصر القديم ، معنا تاريخ الفلسفة القديمة ، وأيضا فقط حسب الفكرة التي يكوّنها عنـه القديس ماكس عن طريق هيغل وفويرباخ .»

١٨٨ — **م.ن** ، ص‌ص ١٢١ — ١٢٦ .

١٨٩ — **م.ن** ، ص ١٥٩ : «ما ان نفدت **اللا — حقيقة في عالمهم** (اي ما ان بدأ هذا العالم يتفكك تحت فعل نزاعات) — والشيء الوحيد المفيد تبيان كيف حصل هذا التفكك عمليا — حتـــى تساءل فلاسفة العصر القديم ما هو عالم الحقيقة او حقيقة عالمهم ووجدوا بطبيعة الحال ان عالمهم كف عن كونه حقا . تنقيبهم نفسه كان قرينة عن **الانحلال الداخلي** لهذا العالم . أما جاك الطيِّب فقد جعل من هذه القرينة الايديولوجية السبب المادي لهذا السقوط ، وبوصفه أبا ألمانياً جيدا من آبـــاء الكنيسة فقد قدّم العصر القديم كأنه هو نفسه كان ساعيا وراء نفيه الذي هو المسيحية . ان اعارة هذا الموقف للعالم القديم كانت متضمنة في مماثلته القديمين مع **الاطفال** الساعين وراء كشف سر عالم الاشياء . اذ أحلّ هكذا محل العالم القديم الوعي الذي كوّنه البشر فيما بعد عن هذا العالم، لم يبق لشترنر شيء أسهل من ان يقفز بقفزة واحدة من العالم القديم ، المادي ، الى العالم الديني، الى المسيحية .»

بالمسيحية التي حررت البشر من سلطان العالم برَوحنَته ، ولكنها بالمقابل سلمتهم لهيمنة الروح . هذا التصور للمسيحية ، يعترض ماركس وانجلز ، ذو طابع محض نظراني . فهو يقلصها الى تصور مجرد للعالم ، الامر الذي يعفي شترنر من تحليل في اية شروط نمت وتحولت .

بالفعل ، ان سبب المسيحية الحقيقي لم يكن الميل الى رَوحنَة العالم بل البؤس الهائل الذي تبع نزع ــ الملكية العام وتركز الملكية الخاص الجبَّار في الامبراطورية الرومانية (١٩٠) .

بعيدا عن ان يعتقدوا أنفسهم أسياد العالم ، كما يتخيل شترنر ، المسيحيون الاوائل ، الذين كانوا أرقاء بائسين ، كانوا يتصورون تحررهم في شكل انفراز مطلق عن الارض ، انبعاث سماوي ، هذا ما أعطى تصوراتهم طابعا مثاليا .

الانتقال من العصر الوسيط الى الازمنة الحديثة هو ايضا قرره ، حسب شترنر ، تغير موقف الوعي ازاء العالم ، تحوّل الوعي الديني الى وعي فلسفي . هذا كان بادىء بدء عمل البروتستاتنتية ، التي برَوحنَتها الدين ، بجعلها اياه علاقة للانسان مع الحقيقة الدينية ، التي لم تعد متصورة في شكل الموضوع بل في شكل الروح ، وَسمَت تطور الفكر الديني نحو الفكر الفلسفي (١٩١) .

الفلسفة تابعت رَوحنَة العالم ، بتأليهها الروح ، بجعلها اياه كائنا عاليا متعاليا ، يصير خالق العالم . الروح ، اذ هكذا يتخذ طابعا مطلقا ، فقد تحوّلت المفاهيم الى كيانات ، الى فِكَر **ثابتة** ، وهذه ، في شكل روح العالم ، الوعي

---

١٩٠ ــ **م.ن** ، ص‌ص ٢١٤ ــ ٢١٥ : «يمكن الرجوع الى لوسيان Lucien ، بين آخرين، كي نرى الى اي حد هذا الرأي (وهو انه في نهاية العالم القديم صار القدامى جميعا رواقيين) يتفق مع الحالة الواقعية للرومان والاغريق في نهاية العالم القديم ،؛ مع ذلك التفتُّت والقلق الكاملين اللذين كانا يجعلانهم عاجزين عن مقاومة الضغوط الخارجية . الزلازل الجبارة التي أصابت الامبراطورية نتيجة تقطيعها بين القياصرة المتحاربين وتمركز الملكية الهائل في روما ولاسيما الملكية العقارية وأخيرا الضربات التي وجهها الهون والجرمان ، هذا كله ليس له اية اهمية لقديسنا المؤرخ ... . المسيحي البدائي لم يكن يمتلك شيئا في هذا العالم ، لذا كان يكتفي بوهم امتلاك شيء في السماء ، يكتفي بسندات ملكه السماوي . اذ لا يشارك فعليا في ملكية الشعب ، كان يعزي نفسه بوصفه نفسه وأخوية الصعاليك التي ينتسب اليها ، ب **شعب الملكية** (رسالة بطرس الاولى ، ٢ ٩) . حسب شترنر ، ان التمثيل المسيحي للعالم يستجيب للعالم كما كان ينتج عن تفسخ العالم القديم ، بالواقع انه لا يؤلف سوى تمثيل وهمي للعالم حيث يحل محل التصور السابق تصور جديد للعالم ، يتيح للمسيحي في الايمان بأنه قادر على نقل الجبال من مكانها أن يشعر نفسه قويا ...

في الواقع ، هذا المسعى البدائي ، الذي كان ، في مخيَّلة جاك الطيِّب ، مالك العالم القديم ، كان في معظم الاحيان ملكا للمالكين ، فقد كان رقيقا يمكن ان يباع .»

١٩١ ــ **م.ن** ، ص‌ص ١٩٥ ــ ١٩٨ .

الكلي ، **الجوهر** الانساني ، **الدولة** ، الخ ، تهيمن على الافراد وتضطهدهم . العالم هكذا صار عالم أطياف ، عالم أشباح ، والبشر بوصفهم عبدة هذه الاشباح صاروا **ممسوسين** (١٩٢) .

عن الطابع المقدس الذي تتخذه الفِكَر **الثابتة** والتي يؤلف سمتها النوعية ، ينجم تأليه ، تطويب وتقديس عام للعالم . اذ يطبق شترنر بلا فرق او مبالاة على كل الفِكَر **الثابتة** وصف «المقدس» ، لا يرى أن طابع التقديس الذي يعزوه للافكار والمؤسسات يختلف حسب الافراد والعصور (١٩٣) . يهمل ، من جهة أخرى ، دراسة في اية شروط وظروف تتخذ بعض العلاقات الاجتماعية ، بعض المؤسسات، طابعا مثاليا ، وتبدو للبشر قوى عليا . لو كان حلل مثلا في اية شروط تتحول المصالح الخاصة الى مصالح عامة ظاهرا مفصولة عن الافراد ، لكان فهم كيف يمكن، في ظروف معينة ، أن تـُمثلَن بعض العلاقات الاجتماعية وان تعارض الافراد بوصفها قوى مستقلة وغريبة . لكان هكذا مضى من ميدان النظران الى ميدان الواقع ، لكان اكتشف وراء ما يتمثله البشر المعنى الحقيقي والاسباب الحقيقية لتمثيلاتهم ورأى أن ما يبدو للبشر نتاجا لوعيهم انما ينجم في الواقع عن علاقاتهم الاجتماعية (١٩٤) .

من تقديس الفِكَر **الثابتة** وممثليها وُلدت الهيرارخية الاجتماعية ، التي تؤلف

---

١٩٢ — **م.ن** ، ص‌ص ١٧١ — ١٨٦ .

١٩٣ — **م.ن** ، ص ٣١٤ : «الصعوبة الاولى تبدو ناتجة من واقع ان المقدس هو في ذاته بالغ التنوع وان نقد ما يُعتبر مقدسا يتطلب في كل مرة نقد محتواه المحدد مع صرف النظر عن طابعه المقدس . شترنر يلف على هذه الصعوبة باعطائه كل تحديد على انه **مثال** عن المقدس .»

م.ن ، ص ٢١٥ : «الصخرة الثانية التي كان لا بد ان يتحطم عليها القديس سانشو ، لو فكّر قليلا بالامر : هي مسلمته ذاتها ، مصادرته عينها ، التي تعتبر ان كل فرد هو شيء ما وحيد فريد ، مختلف كليا عن كل الآخرين . بحكم هذا ... ما هو غريب ، مقدس ، بالنسبة لفلان من الناس لا يحتاج الى ان يكون كذلك بل ولا **يمكن** ان يكون كذلك بالنسبة لفلان آخر ... . التسميات العامة — دولة ، دين ، أخلاق — لا يجوز ان توقعنا في الخطأ ، فهذه الاسماء ليست سوى تجريد حُصل عليها انطلاقا من موضوعات ، تصير ، من جراء الفرق الكامل في سلوك الافراد ازاءها ، تصير موضوعات **وحيدة فريدة** بالنسبة لكل واحد منهم ، تصير اذن موضوعات مختلفة بشكل تام ليس لها شيء مشترك سوى الاسم .» . [سانشو هو البطل الثاني في رواية سرفانتس : «دون كيخوت»] .

١٩٤ — **م.ن** ، ص ٢٧٨ : «لو كان شترنر قد فهم انه ، في اطار بعض **انماط الانتاج** ، ... ثمة قوى عيانية غريبة ، مستقلة عن ارادة الافراد ، كما عن ارادة الجماعة ، ترتفع فوق البشر ... لكان نزل من ملكوت النظر التأملي المضارب الى مملكة الواقع ، ومضى مما يتصور البشر انهم ، الى ما هم ، من عالم تمثيلاتهم الى ميدان فاعليتهم المحددة بالظروف. لكان فهم ان ما يأخذه على انه نتاج **الفكر** هو في الواقع نتاج **الحياة** .»

وسيلة اضطهاد الافراد الرئيسية(١٩٥) . تحت اسم الهيرارخية [= الرئاسة المقدسة التسلسلية] ، شترنر يشمل كل أشكال الاستبداد : الكنيسة ، الحكم المطلق ، الشيوعية ، الخ ، التي بواسطتها تمارس الفِكَر **الثابتة** سيطرتها . آخذا عن العصور الوسطى مفهوم الهيرارشية الذي كان يستجيب للتنظيم الاجتماعي القائم آنذاك ، يعتبره في ذاته ، الشكل الذي فيه تتجلى السلطة [autorité] , ويطبقه عسفيا على الطابع المميز للأزمنة الحديثة (١٩٦) .

ان اساس الهيرارخية هو بالنسبة لشترنر احترام الناس للفكر **الثابتة** وللمؤسسات المرتكزة عليها . بما ان الاضطهاد الذي يثقل عاتق البشر لا يأتي اذن من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بل من هيمنة الفكر **الثابتة** والهيراركية المتولدة منها ، بما انه هكذا جوهريا نتاج الوعي الانساني ، لذا فان تحرر الافراد لا يمكن ان يحصل الا بانعتاقهم من هيمنة الفكر **الثابتة** ، الامر الذي لا يتطلب منهم سوى رفضهم تقديم شهادة احترامهم لها (١٩٧) . من هنا دعوة شترنر الافراد الى التحرر من كل سلطان للفِكَر **الثابتة** ، للمقدس ، الامر الذي يتيح لهم وعي طبيعتهم الحقة والصير أنانيين منسجمين وتأكيد أنفسهم بوصفهم كذلك (١٩٨) .

---

١٩٥ – **م.ن** ، ص ١٩٨ : «**الهيراركية هي هيمنة الفكر ، هيمنة الروح** . الى هنا نحن مضطهَدون من قبل الذين يستندون الى الافكار .»

م.ن ، ص ١٩٨ : «يقدم الان هيمنة المقدس ، الفكر ، الفكرة المطلقة لهيغل ، بوصفها تظاهرا تاريخيا راهنا ، بوصفها هيمنة المقدس ، هيمنة الايديولوجيين على العالم الدنيوي غير المقدس ، **في** شكل **هيرارخية** .»

١٩٦ – **م.ن** ، ص ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

١٩٧ – **م.ن** ، ص ٣١٣ : «بما ان المقدس هو شيء ما غريب ، فان كل ما هو غريب يتخذ طابعا مقدسا ، ولان كل ما هو مقدس هو رابط ، قيد ، فان كل رابط ، كل قيد يصير شيئا ما مقدسا. هذا يعطي شترنر امتياز ان يصير بالنسبة له كل ما هو غريب **ظاهرا** محضا ، **وهما** خالصا ، ينعتق منه بكل بساطة ، برفضه ، بالاعلان انه لا يشاطره . ولقد رأينا سابقا ، بهذا الخصوص ، بصدد الاناني المختلف مع نفسه ، ان ليس على البشر سوى ان يعدّلوا وعيهم لكي ينظموا كل شيء .»

«كل وصفنا بيَّن كيف ينقد شترنر الشروط الحياتية الواقعية بتحميلها طابعا مقدسا ويكافحها برفض التصور المقدس الذي يحمله الناس عنها . هذه الطريقة البالغة البساطة في تحويل كل شيء الى مقدس تعلل بواقع ان جاك الطيّب قد تبنّى بسذاجة أوهام الفلسفة وأخذ على انه الواقع نفسه التعبير الايديولوجي النظراني عن هذا الواقع ، فاصلا هذا التعبير عن قاعدته التجربية غير النظرية... الامر الذي أتاح له ان يتصور ان ليس أمامه سوى أفكار ، تمثيلات .»

١٩٨ – **م.ن** ، ص ٢٨٣ : «الفيلسوف يعترف هنا على نحو غير مباشر بأن وعيا ما محددا انما يتوافق معه او يوازيه بشر وظروف محددة . ولكنه في الوقت نفسه يتصور ان الدعوة الاخلاقية التي يوجهها الى البشر بأن يعدلوا وعيهم ستحوّل فعلا هذا الوعي ، وفي البشر المعدّلين من قبل تحوّل الظروف التجربية والذين تغير وعيهم ايضا لا يرى سوى تغير للوعي .»

بما أن الفاعلية الانسانية لها هكذا جوهريا كهدف أن تحرر البشر من أوهامهم، من تصوراتهم الزائفة ، فان النزاعات الواقعية تتحول الى نزاعات ايديولوجية ، تجد حلها على الصعيد الروحي (١٩٩) .

ان هذا التصور لانعتاق الافراد بحذف أفكارهم الخاطئة عن العالم تصور واهم بشكل مطلق ، اذ ان نمط الانعتاق المزعوم هذا لا يغير في شيء الشروط الواقعية التي تحدد حياة الافراد . بل هو عاجز عن تغيير شيء ما من التصورات والافكار التي تستمر في البقاء طالما لم تُلغَ العلاقات الاجتماعية التي ولدتها (٢٠٠) .

هذا التصور لانعتاق البشر ، الذي هـــو قريب ونسيب تصور الريبيين والرواقيين والابيقوريين ، هو تعبير أخلاق عبد ، يكتفي بالاحتجاج في النظرية ضد حالة الاشياء الموجودة ، بدون ان يعمل عمليا اي شيء لالغاء هذه الحالة ، ويتلخص في نداء الى السيطرة على الذات (٢٠١) .

بالنسبة لشترنر ، النضال ضد هيمنة الافكار **الثابتة** يؤلف حد او نهايـــة ما ــ قبل ــ تاريخ البشرية . هذا النضال ، الذي بدأ في الازمنة الحاضرة بنقـد الدين على يد برونو باور وفويرباخ ، يجب ان يتوجه الان ضد أخطر العقائد ، ضد العقائد السياسية والاجتماعية ، التي يلخصها تحت اسم الليبرالية . وهو يقصد بهذه التسمية ليس فقط الليبرالية السياسية بل ايضا الليبرالية **الاجتماعية** ، اي

---

١٩٩ ــ م.ن ، ص ٣١٨ : «ان مثالا آخر ، اكثر عمومية ، عن تطويب وتقديس العالم ، نجـده في تحويل النزاعات الواقعية ، نزاعات الافراد مع شروطهم الحياتية العملية ، الى نزاعات أفكار اي الى نزاعات هؤلاء الافراد مع تمثيلاتهم ذاتها ... . كما جعل سابقا أفكار الافراد مستقلة كذلـــك يفصل هنا الانعكاس الايديولوجي لهذه النزاعات الواقعية عن هذه النزاعات عينها ليجعله مستقلا . التناقضات الواقعية ، التي فيها الفرد مُقحم ، تحوَّل الى تناقضات للفرد مع تصوراته عينها .... بذلك ينجح شترنر في تحويل العلاقات الواقعية التي هي في اصل انعكاسها الايديولوجي الى عواقب لهذا الانعكاس . ينتهي على هذا النحو الى هذه النتيجة ، ألا وهي ان المسألة لم تعد حذف النزاعات الواقعية حذفا فعليا ، بل ببساطة هي الغاء التمثيل الذي للناس عنها ، وهذا ما اشار اليـــه شترنر ، بوصفه واعظا أخلاقيا جيدا ، يدعو البشر مناشدا مستحلفا .»

٢٠٠ ــ م.ن ، ص ٤٧٤ : «المسألة ، كما يفهمها سانشو ، تنتهي مرة اخرى الى حماقة محضة. انه يتخيل ان البشر قد أنشؤوا لانفسهم دائما الى هنا تصورا ما عن الانسان ، وانعتقوا منه ، بقدر ما كان هذا الانعتاق ضروريا ، لكي يحققوا في انفسهم هذه الفكرة ، ألا وهي ان درجة الحرية التي بلغوها في كل مرة كانت محددة من قبل مثَلهم للانسان ، كما يتصورونه ، الامر الذي كان ينطوي حتما على بقاء بقية في كل فرد ، بقية لا تتفق مع هذا المثل الاعلى ، بقية لا انسانية ، لم يكونوا متحررين منها او حين كانوا فرغم أنفهم . في الواقع ، ان البشر لم يتحرروا في يوم من الايام الا بقدر ما كان يمليه عليهم ويتيحه لهم ، لا مثَلهم الاعلى عن الانسان ، بل قوى الانتاج الموجودة .»

٢٠١ ــ م.ن ، ص ص ٢٨٧ ــ ٢٨٨ .

الاشتراكية ، والليبرالية **الانسانية** ، إنسانوية فويرباخ .

ب ـ الليبرالية السياسية

اذ صار رجعيا ، مثل ب. باور ، لم يعد شترنر يكافح الدولة البروسية ، بل بات يوجه نقده ضد جميع الاتجاهات والحركات التقدمية وأولا ضد الليبرالية السياسية .

لا يدرس الليبرالية السياسية ، في صلاتها مع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، اي بوصفها الشكل السياسي للكفاح الذي تخوضه البرجوازية ، بل بوصفها شكلا خاصا لهيمنة الروح ، الهييرارشية ، يقود الى سيادة الدولة (٢٠٢).

من هنا الطابع النظراني لنظراته على هذه الحركة وعلى هيمنة الدولة . بعملية قلب للعلاقات الواقعية التي تربط الليبرالية السياسية بالبرجوازية ، يرى في الليبرالية العنصر الذي يطبع ويحدد البرجوازي ، ينظر بالتالي الى هذا الاخير في شكله المجرد كمواطن Citoyen ، دون ان يدرك ان المواطن ، بعيدا عن ان يكون حقيقة البرجوازي ، ليس سوى شكله المُمثلَن . نقده لليبرالية السياسية ليس من حيث الجوهر اكثر من نقد الدولة المعتبرة أداة سيطرة . يضع نفسه ، في هذا النقد ، في وجهة نظر الطبقة الوسطى الآخذة في الانحطاط ، بخاصة في وجهة نظر البرجوازي ـ الصغير البرليني ، الذي يعتبره النموذج الممثل للبرجوازية . متجاهلا الكفاح القاسي الذي تخوضه البرجوازية الصاعدة ، انه يعتقد ان هذه تنفض يدها من الدولة ، لانها لا تهتم بالدولة الا بقدر ما يتطلبه الدفاع عن مصالحها الطبقية . هذه اللامبالاة ازاء الدولة لا تصح في الواقع الا على البرجوازية المتوسطة التي لا تتجرأ على الاحتجاج ضد الاضطهاد النازل بها على يد الدولة (٢٠٣) .

---

٢٠٢ ـ **م.ن** ، ص ٣٥٤ .

٢٠٣ ـ **م.ن** ، ص‌ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ : «حين نحكم ، على منوال الايديولوجيين البرلينيين الذين يبقون محصورين في تصوراتهم البائسة عن الليبرالية وعن الدولة ، او ، وهذا افضل أيضا ، حين نكتفي بنقد أوهام البرجوازية الالمانية حول الليبرالية ، بدلا من ان ندرس هذه الليبرالية في علاقاتها مع المصالح الواقعية التي تحددها ، والتي لا ينفصل عنها وجودها الواقعي ، فاننا بطبيعة الحال ننتهي الى النتائج الاكثر حماقة . حتى في شكلها الشعبي ، ان الليبرالية الالمانية كما تجلت الى وقت قريب جدا لم تكن ، وهذا ما رأيناه ، سوى أحلام ـ يقظة فارغة ، سوى ايديولوجيا بصدد الليبرالية الواقعية ، يكون من السهل بالتالي ان تُحوَّل الى فلسفة ، الى مفاهيم ، الى معرفة عقلية . وحين نبتلي ، فضلا عن ذلك ، بعدم معرفة هذه الليبرالية المُمثلَنة الا في الشكل المصعَّد الذي اعطاها اياه هيغل والمدّعون الحمقى الذين ينتسبون اليه ، حينئذ ننتهي الى نتائج تنتسب

بما ان شترنر لا يفهم أن تشكل وطابع وتطور الدولة محدّد من قبل علاقات الانتاج وأن الطبقة الحاكمة تستعمل سلطة الدولة كي تدافع عن مصالحها الشخصية في شكل مصالح عامة ، مصالح للدولة ، لذا فانه يرى ، مثـــل البرجوازيين ــ الصغار ، في الدولة تجسد المصالح العامة وبذلك عينه قوة عليا ، مستقلة عـــن الافراد الذين تسيطر عليهم (٢٠٤) .

هكذا تظهر الدولة فاعلة بموجب ارادة ذاتية . كم هذا قليل الحقيقة ، كـم الدولة في الواقع محددة من قبل العلاقات الاجتماعية وتابعة لها ، هذا ما يُرى في الفشل الذي تُمنى به في كل مرة تحاول فيها اصدار قوانين تذهب ضـــد مصالح الطبقة المهيمنة (٢٠٥) .

جميعا الى **المقدس** ، كما يعطينا شترنر عن ذلك مثالا كئيبا .

لم يفت معلّمنا الاستاذ انه مؤخرا قُرن الليبراليون تماثليا بالبرجوازيين . بمـــا ان القديس ماكس يخلط البرجوازيين الحقيقيين مع صغار ــ البرجوازيين الالمان الشجعان ، فانـــه لا يؤوّل الوقائع المعطاة في معناها الحقيقي ، في المعنى الذي حمّله لها كل المؤلفين الاكفاء ، لا يرى بالتالي ان الكلامولوجيا الليبرالية ليست الا التعبير المُمثلَن عن المصالح الواقعية للبرجوازية ، بل يعتقد بالعكس ان الغاية الاخيرة التي اليها يتجه البرجوازي هي ان يصير ليبراليا محققا وناجزا ، مواطنا. بالنسبة له ، ليس البرجوازي هو حقيقة المواطن،بل بالعكس المواطن هو حقيقة البرجوازي ... . يستطيع بالتالي ، فاصلا البرجوازي من حيث هو ليبرالي عن البرجوازي التجريبي ، الواقعي ، ان يجعل منه الليبرالي في ذاته ، **المقدس** ، تماما كما أعطى الدولة طابعا مقدسا وحوّل العلاقة التي تربط البرجوازي بالدولة الحديثة الى علاقة مقدسة ، الى طقس عبادة ، الامر الذي يضع سلفـــا بالحقيقة نقطة الختام لنقده الليبرالية السياسية .» . [Citoyen ، مواطن ، بالالمانيـــة = Burger ، «برجوازي» ، «مديني» ...] .

انظر ايضا ، ص‌ص ٢٢٧ ــ ٢٢٨ ، ٣٩١ .

٢٠٤ ــ **م.ن** ، ص ٣٨٣ : «من واقع انه يوجد في كل دولة أناس يستخدمونها ليؤكدوا بهـــا قوتهم وقدرتهم وسلطتهم ، يستخلص شترنر انها قوة وقدرة وسلطة تهيمن عليهم .... يستمر في حلم ان الدولة هي فكرة في ذاتها ويؤمن بالقوة المستقلة لهذه الفكرة ... . لقد كان هيغل يُمَثلِـــن التصور الذي كان رجال السياسة يكوّنونه عن الدولة ؛ ذهابا من الافراد الخاصين واعتبارا فيهم ارادتهم وحدها . هيغل يجعل من الارادة المشتركة لهؤلاء الافراد الارادة المطلقة . جاك الطيّب «يقبض» هذا التصور الايديولوجي بوصفه تصور الدولة الصحيح وينقده بوصفه كذلك ...» .

م.ن ، ص ٣٩١ : «يؤوّل ، على طريقة البرجوازيين ــ الصغار ، واقع ان الطبقة المهيمنة **تعطي سلطتها** شكل سلطة عامة ، سلطة دولة ، يؤوّله في اتجاه او معنى ان الدولة تكوّن نفسها فـــي شكل سلطان ثالث معارض للطبقة المهيمنة ويمتص في ذاته السلطات .»

٢٠٥ ــ **م.ن** ، ص‌ص ٣٦٢–٣٦٣ : «ان حياة الافراد المادية التي لا تتوقف بتاتا على ارادتهـــم وحدها ، نمطهم الانتاجي وعلاقاتهم الاجتماعية ، وهما في اشتراط وتكييف متبادلين ، هي القاعدة

رافضا سلطة الدولة ، يرفض شترنر ايضا سلطة الحق والقوانين التي تفعل ايضا ، حسب رأيه ، بموجب ارادة خاصة بها . فاصلا الحق والقانون عن العلاقات الاجتماعية التي تحددهما ، يرى فيهما لا الوسائل التي تستخدمها الطبقة المهيمنة كي تدافع عن مصالحها بل تظاهرات الارادة المطلقة للدولة (٢٠٦) . بالواقع ان الحق والقوانين تتغير ، شأنها شأن الدولة تماما ، مع تحوّل العلاقات الاجتماعية . انها تفقد كل محتوى واقعي وتتخذ طابعا محض شكلي حين لا تعود تستجيب لهـــذه العلاقات (٢٠٧) .

شترنر يعتبر ايضا بطريقة نظرانية الجريمة تمردا ، خطيئة ضد فِكَر نالت التقديس وتُعاقَب على هذا الاساس (٢٠٨) .

الواقعية للدولة وتبقاها في كل المراحل التي يظل فيها تقسيم الشغل والملكية الخاصة ضروريين ، وذلك بصورة مستقلة تماما عن **ارادة** الافراد . هذه الشروط الواقعية ليست ابدا معطاة من قبل سلطة الدولة ، بل بالعكس هي التي تخلق هذه السلطة . الافراد الذين يمارسون السلطة في هذه الشروط لا يستطيعون اذن ، نظرا لان سلطتهم يجب ان تتكـوّن في شكل **دولة** ، الا ان يعطـــوا ارادتهم المحددة من قبل هذه الشروط الواضحة الدقيقة التعبير العام لارادة دولة ، تعبير **قانون** او **شرع** ــ ومحتوى هذا التعبير محدد دائما من قبل شروط طبقتهم ، وهذا ما يظهر جليا من فحـص الحق الجزائي والحق العام ... ان هذه الارادة (ارادة الدولة) ليست موجودة قبل ان يستطيـع تطور الشروط الاجتماعية ان ينتجها واقعيا الا فـــي مخيلة الايديولوجيين . ما ان تكون الشروط القادرة على انتاجها متطورة بشكل كاف حتى يستطيع الايديولوجي ان يتمثل هذه الارادة كشـــيء محض عسفي ، اذن كشيء يمكن تصوره في كل زمان وفي كل ظرف .... ليست الدولة هي التي توجد بارادة سيدة ، بل الدولة المنبثقة من نمط الوجود المادي للافراد هي التي تتخذ ايضا شكل ارادة سيدة . »

«ان فحصا سطحيا للتشريع ، مثلا التشريع عن الفقراء ، يبيّن الى اية نتيجـــة وصلت الحكومات حين اعتقدت انها تستطيع ان تفرض هذا التدبير او ذاك بمحض **ارادتها السيدة** ، «على كيفها» وحده ».

٢٠٦ ــ **م.ن** ، ص ٣٦٣ : «رأينا سابقا كيف يمكن ان يولد ، لدى الفلاسفة ، نتيجة كونهـم يفصلون أفكار الافراد عن الوقائع التجريبية التي هي قاعدتها ، تصور تطور وتاريخ للفكر الخالص . كذلك تماما يمكن فصل الحق عن قاعدته الواقعية وتحميله **ارادة سيدة** تتعدل حسب العصور ولها بما تخلقه ، بمجموع القوانين ، تاريخها الخاص المستقل . على هذا النحو ، ان التاريخ المدني والسياسي يحوّل ايديولوجياً الى تاريخ لهيمنة القوانين المتعاقبة .»

٢٠٧ ــ **م.ن** ، ص ٣٦٣ : «من الممكن ان تنتقل الحقوق والقوانين **وراثيا** ، ولكنها في هذه الحال لا يبقى لها قوة سيدة ، لا يبقى لها سوى قيمة شكلية ، وتاريخ الحق الروماني البدائي والحـــق الانكليزي يقدم لنا أمثلة ساطعة على ذلك» .

٢٠٨ ــ **م.ن** ، ص ٣٧٠ .

وهو لا ينقد الليبرالية السياسية فقط لانها تسهل وتساعد الهيمنة الطاغية للدولة بل ايضا لانها لا تضمن وصول كل الافراد الى الملكية الخاصة . أجل تعترف الدولة بأنه ملك لطبيعة الانسان أن يكون مالكا ، ولكن بما أنها تترك كل فرد حرا بأن يغتني كما يشاء ، فان مزاحمة لا ترحم تظهر بين الافراد في تحصيل الملكية ، وينجم عن ذلك أن معظم الافراد يطردون خارج الملكية ولا يستطيعون بالتالي تأكيد شخصيتهم (٢٠٩) .

بما ان شترنر يجهل العلاقات الموجودة بين الانتاج والملكية ، بما أنه لا يرى ان الملكية ليست موجودة الا تبعا للانتاج ، أن تطورا محددا لقوى الانتاج يوافقه شكل محدد للملكية وأن هذه تتغير مع تحوّل تلك ، فانه يعالج ايضا مسألة الملكية من وجهة نظر نظرانية ، يقلصها الى الحق المطلق الذي لكل فرد بأن يصير مالكا والى الضمانات التي تمنح للملكية (٢١٠) .

بما ان الدولة هي التي تكفل الملكية ، فان شترنر يعتقد ان الشروط التي تخضع لها الملكية انما تضبطها وتنظمها الدولة وأن الحق يؤلف اساس الملكية الواقعي في حين انه ليس بالواقع سوى الاعتراف السياسي والحقوقي القانوني بها (٢١١). هذا يسوقه الى التفكير أن الدولة وحدها هي المالك الحقيقي وأن المالكين لا يتمتعون بالملكية الا بصورة وقتية وهشّة (٢١٢) .

---

٢٠٩ ــ **م.ن** ، ص‌ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠ .

٢١٠ ــ **م.ن** ، ص ٣٩٠ : «لو تجاهل سانشو ، لبرهة ، أفكار القانونيين والسياسيين الجارية عن الملكية الخاصة والمجادلة التي تثيرها هذه الافكار ، لو نظر الى الملكية في وجودها التجريبي ، في علاقاتها مع القوى المنتجة لدى الافراد ، لتبخرت كل حكمته السليمانية وتحولت الى دخان ... لو فعل ذلك لكان من الصعب ان يهرب منه ... أن الملكية ما هي الا علاقة اجتماعية ضرورية ، تستجيب لدرجة ما في تطور قوى الانتاج ، علاقة اجتماعية لا يمكن الاستغناء عنها في انتاج الحياة المادية طالما لم تخلق قوى انتاج تصير الملكية الخاصة بالنسبة لها قيدا وعائقا .»

ايضا ص ٤٣٩ .

٢١١ ــ **م.ن** ، ص ٣٩١ : «بما ان الملكية في ظل هيمنة البرجوازية ، كما في كل العصور ، مرتبطة ببعض الشروط ، الاقتصادية اولا ، التي تتوقف على مرحلة تطور قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية ، وهي شروط ترتدي بالضرورة شكلا سياسيا وحقوقيا ــ قانونيا ، لذا يعتقد سانشو ، في سذاجته ، ان **الدولة تربط حيازة الملكية ببعض الشروط ، كما تفعل بالنسبة لجميع الاشياء ...**» . (ص ٣٣٥) .

م.ن ، ص ٣٩٨ : «ان **الاعتراف** السياسي بالملكية الخاصة في الحقوق مُصاغ ومعتبَر **قاعدة** الملكية الخاصة : **الملكية الخاصة لا تعيش الا بنعمة الحقوق . الحقوق تؤلف ضمانها الوحيد .**» (ص ٣٣٢) .

٢١٢ ــ **م.ن** ، ص ٣٩٠ : «بتبنيه «على العميانة» وبتضخيمه ايضا ، على الطريقة الالمانية ، اوهام رجال السياسة والحقوق وغيرهم من الايديولوجيين الذين يقلبون العلاقات الواقعية رأسا على

شترنر يحتج على هذا الواقع ، مؤكدا حق الفرد في الملكية حقا لا يُخلع ، لا يُنقَل . بما ان أس الملكية ، وكل مؤسسة أخرى ، هو الاحترام الذي تُعطى شهادته ، لذا يفكر شترنر ان الفرد يستطيع ان ينصر ويحق حقه في الملكية بمجرد رفضه كل احترام للامتياز الذي تحوزه الدولة بكونها المالك الوحيد (٢١٣) .

بكيفية مماثلة يعالج مسألة تجزّؤ الارض واحتكارها ، التي تمس عن قرب بالغ الطبقة الوسطى الراغبة في رؤية الملكية الصغيرة مكفولة . يفسر تمركز واحتكار الارض بعدم الاحترام الذي يظهره الملاكون الكبار ازاء الملكية الصغيرة ويدعو الملاكين الصغار الى الدفاع عن أنفسهم برفضهم بدورهم اي احترام للملكية الكبيرة (٢١٤).

بالواقع ان تقطيع الاراضي ، مثل احتكارها ، ينتج عن شروط اقتصادية واجتماعية محددة (٢١٥) . ان تقطيع الاراضي حصل ، وهذا ما يجهله شترنر ، مرتين وبكيفية مختلفة . التقطيع الاول ، الذي سبق تشكل الرأسمالية ، كان مردّه جوهريا نقص الرساميل اللازمة للاستثمار الزراعي الكبير من قبل النبلاء وقد سهّل خلق طبقة فلاحية قوية ، متعطشة الى احتكار اكثر ما يمكن من الاراضي (٢١٦) . الثاني وقع بعد تشكل الرأسمالية وسهّلته البرجوازية الراغبة في اضعاف النبالة . بخلاف التقطيع الاول ، أدى الى خراب طبقة الفلاحين الصغار العاجزة ، من جراء المزاحمة ، عن توسيع ملكها وعن تحديث أسلوب الاستثمار الزراعي ، وأيضا الى احتكار الارض من قبل الرأسمال الكبير .

فيما يتصل بالمزاحمة ، ان شترنر ، الذي لا يدرك لا طبيعتها ولا شروطها ، يعيدها الى صراع بين أفراد . جاهلا صراعات البرجوازية والبروليتاريا ، الصراعات التي تلعب دورا بالغ الاهمية في تطور المزاحمة ، انه لا يرى فيها سوى الصراع الذي يقوم بين المستخدمين والموظفين ، الذي لا يلعب بالواقع سوى دور ثانوي في تطورها (٢١٧) .

مُحمّلا الافراد دورا أوليا في التزاحم ، يجعل هذا الاخير متوقفا على قدرة

عقب ، سانشو يحوّل الملكية الى ملكية دولة ، الى ملكية اساسها الحقوق ...»

م.ن ، ص ٣٩٤ : «ان تحويل الملكية الخاصة الى ملكية دولة يرجع في نهاية الحساب الى فكرة ان البرجوازي ليس مالكا الا من حيث هو عضو ممثل لطبقته ، التي مجموعها يؤلف الدولة ، التي تعطي الافراد الخاصين الملكية اقطاعا» .

٢١٣ – م.ن ، ص ٣٩٠ .

٢١٤ – م.ن ، صص ٣٨٨ ، ٣٩٠ .

٢١٥ – م.ن ، ص ٣٨٧ : «ليس علينا كذلك ان نشرح لقديسنا (شترنر) ان الشكل الذي يرتديه هذا التحوّل (تحوّل الملكية العقارية) تابع لدرجة التطور التي بلغتها صناعة ، تجارة ، ملاحة ، الخ ، بلد من البلدان .»

٢١٦ – م.ن ، صص ٣٨٩ – ٣٩٠ .

٢١٧ – م.ن ، صص ٤٠٧ وبعدها : «ان يجهل كل الشروط الجديدة التي خلقتها المزاحمة :

الافراد المتفاوتة الحجم على تملك الخيرات . هذا التصور ، الذي يصح بالنسبة لشكل المزاحمة البدائي الذي كان يحصـــل بالنهب ، لا ينطبق على شكلهـــا الحديث (٢١٨) .

اذ يعالج بعد ذلك الاسعار ، المرتبطة ارتباطا وثيقا بتكاليف الانتاج وبالمزاحمة، شترنر يفكر ان الاسعار تحدَّد عسفيا من قبل المنتج (٢١٩) . يتخيل ، من جهـــة اخرى ، انه توجد أملاك او خيرات مقدسة ــ الشرف ، الحرية ــ غير قابلة للشراء والبيع ، رغم كونها هي ايضا محدَّدة من قبل العلاقات الاجتماعية والمزاحمة (٢٢٠).

اذ يعزّ على قلبه بشكل خاص الدفاع عن الافراد الذين ليس عندهم وسائل الحصول على أملاك او خيرات (٢٢١) ، شترنر يطلب من الدولة منحهم الوسائل اللازمة لهذا الغرض ، جاهلا ان شروط الحصول على الملكية وعلى الوسائل اللازمة لذلك انما يقررها انتاج وتبادل السلع وهي لا تتوقف لا على ارادة الافراد ولا على ارادة الدولة (٢٢٢) .

حذف الاطار المحلي ، انشاء وسائل مواصلات ، تقسيم للشغل اكثر تقدما ، تجارة عالمية ، بروليتاريا، ماكينية ، الخ ، ليلقي نظرةحنين نحو ذهنية العصر الوسيط البرجوازية ــ الصغيرة . عن المزاحمة، لا يعلم سوى شيء واحد ، وهو انها **خلاف وحسد وخصام، ولا يُعنى** بتاتا بعلاقاتها مع تقسيم الشغل مع العلاقات بين العرض والطلب ، الخ» .

ص‌ص ٤١٢ ــ ٤١٣ : «ان فرض المساهمة بوسائل شخصية وليس بشروط مادية يقود الى وضع هذه المصادرة الاخلاقية ، الا وهي ان المزاحمة والشروط الموضوعية التي تؤلف مقدماتها يجب ان يكون لها آثار اخرى غير التي لها بالحتم والضرورة ... . ان وسائل الدخول في تزاحم ، المستقلة عن الشخصية ، هي شروط الانتاج والعلاقات الاجتماعية للاشخاص انفسهم التي ، في اطار التزاحم، تتخذ ، في وجه الاشخاص ، وجوه قوى مستقلة ...» .

٢١٨ ــ **م.ن** ، ص ٤١٢ : «حين يريد سانشو احلال تزاحم الاشخاص محل تزاحـم الاشياء ، هذا يعني انه يريد الرجوع الى بدايات التزاحم وهذا لانه يتخيل انه يستطيع ، بالارادة الطيبـة وحدها وبالوعي الهائل‌لدى الاناني ، توجيه تطور المزاحمة وجهة اخرى ...» .

٢١٩ ــ **م.ن** ، ص ٤٠٧ .

٢٢٠ ــ **م.ن** ، ص ٤٠٩ .

٢٢١ ــ **م.ن** ، ص ٤١٣ .

٢٢٢ ــ **م.ن** ، ص ٤١١ : «يدخل في هذه «الاشياء» (التي تفترضها المزاحمة) بين أمور اخرى، واقع ان المزاحم يعيش في بلد وفي مدينة ، فيهما يتمتع بنفس المزايا التي يتمتع بها المزاحمون الذين يجدهم فيها ، ان الصلات بين المدينة والريف بلغت حتما درجة تطور متقدمة ، انه يزاحم في وضع جغرافي وجيولوجي وهيدروغرافي مناسب ، انه صانع حريريات في ليون ، صانع قطنيات فـــي مانشستر ، او ، في عهد سابق ، صانع سفن في هولندة ، أن تقسيم الشغل متقدم جدا في فرعه كما في فروع انتاج اخرى مستقلة تماما عنه ، أن وسائل المواصلات تؤمّن له نفس رسوم النقل الملائمة المؤمّنة لمزاحميه ، انه يجد عمالا ماهرين ورؤساء ورشات خبيرين . والحال ، ان كل هذه الاشيـاء الضرورية للمزاحمة ، القدرة ذاتها على المزاحمة في **السوق العالمية** ... **لا** يستطيع ان يحصـــل عليها **بطاقته الشخصية** ولا ان **ينالها نعمة من الدولة**» (انظر ص ٣٨٤) .

كل هذا القدح من شترنر ضد الليبرالية السياسية والدولة يخفي رغبته في حماية الملكية الصغيرة . وبما ان هذا يقتضي ابقاء المجتمع البرجوازي والدولة البرجوازية ، لذا فان كل نقده لليبرالية السياسية ينكشف في الواقع وهميا .

ج ـ الليبرالية الاجتماعية

ان موقف شترنر من الليبرالية الاجتماعية رجعي مثل موقفه من الليبرالية السياسية على حد سواء . ان حقده يصيب بشكل خاص الليبرالية الاجتماعية ، ويعني بها الاشتراكية وخصوصا الشيوعية ، لان الطغيان الاجتماعي الذي تنجبه يظهر له أفظع ايضا من طغيان الدولة .

هنا ايضا يتصرف بطريقة نظرانية . كما في نقده الليبرالية السياسية يجعل الدولة فكرة **ثابتة** تخضع الافراد ، كذلك في نقد الليبرالية الاجتماعية تغدو الشيوعية شكلا خاصا **للهيرارخية** يضطهد الافراد .

مأخذه الجوهري على الليبرالية الاجتماعية انها تمنع شخصية الفرد من التفتح ، بمنحها كل الحقوق للمجتمع ، الامر الذي يجعل الفرد عبدا (٢٢٣) . محتقرة استقلال الفرد ، ان هذه الليبرالية او بقول أصح ان الشيوعية لا تعتبر سوى الفاعلية الاجتماعية ، الامر الذي يجعلها لا تحكم على العلاقات بين الافراد الا من وجهة نظر منفعية .

مذهب المنفعة ، الذي هو مذهب اقتصادي ـ اجتماعي يستجيب لنمط الانتاج الرأسمالي (٢٢٤) ، يجعله شترنر العلامة المميزة لليبرالية الاجتماعية ، التي يأخذ عليها أنها تعتمد عليه لتبرر موقفها من الافراد . بتحويلها الاجتماعي الاشتراكي للملكية ، تمنع ، اكثر ايضا مما تفعل الدولة ، الافراد من بلوغ الملكية، وبذلك تشدد الطغيان الذي يثقل كاهلهم (٢٢٥) .

بهذا التحريم ، تحريم الحصول على أملاك ، الليبرالية الاجتماعية تعمم البؤس والفقر ، جاعلة من كل البشر صعاليك .

---

٢٢٣ ـ م.ن ، ص ٢٣٧ : «ولكن المصلحين الاجتماعيين يعظوننا بحق اجتماعي يجعل الفرد عبد المجتمع » (ص ٢٤٦) .

٢٢٤ ـ م.ن ، ص‌ص ٤٥١ ـ ٤٥٥ .

ص ٤٥٥ : «في حين ان مذهب المنفعة كان له على الاقل مزية كونه يشير الى **الارتباط بين** العلاقات الاجتماعية والقاعدة الاقتصادية للمجتمع ، فقد فقد عند شترنر كل محتوى وضعي ـ ايجابي، انه معزول عن كل العلاقات الواقعية ...»

٢٢٥ ـ م.ن ، ص ٢٣٥ .

لتصفية البؤس ومكافحة الفقر ، وشترنر يحمّل مسؤوليتها ايضا ، بصورة جزئية ، للأزمات التي يعزوها الى نقص المال ، مع أنها في الواقع تولد حين تفقد السلع قيمتها التبادلية (٢٢٦) ، لا يقترح شترنر سوى وسائل وهمية . يجب ، على حد تفكيره ، للتحرر من البؤس ، مكافحة سلطة المال . وبما ان كل هيمنة ترتكز ، حسب رأيه ، على شهادة الاحترام المقدمة لها ، فهو يدعو الفقراء الى رفض الاعتقاد بقوة المال . يلاحظ ماركس وانجلز بهذا الصدد أن المال ليس ابداعا عسفيا من البشر ، ابداعا يستطيعون الغاءه حسب مشيئتهم ، بل هو النتاج الضروري لشكل ما محدد لانتاج وتداول السلع ، نتاج لا يمكن ان يُحذف ما دام هذا الشكل قائما (٢٢٧) .

لالغاء حالة الفقر ، شترنر يقترح ايضا ان تقوم الدولة بتحديد مبلغ الاجور، دون ان يرى ان هذا المقدار لا يتوقف على ارادة الدولة بل على سوق الشغل وعلى التزاحم القائم بين العمال (٢٢٨) .

الوسيلة الرئيسية لحذف الفقر هي ، في نظره ، حرية الشغل ، التي من شأنها ان تتيح للعامل الاستفادة التامة من نتاج جهده . بعكس ما يفكر ، ان حرية الشغل كاملة في النظام الراسمالي ، بحكم المزاحمة التي تسود بين العمال ؛ ولكنها ، بعيدا عن الاسهام في تحسين قدر الشغيلة ، تشدد ، مع تزاحمهم ، بؤسهم . ان علاج الفقر هو ، في الواقع ، لا حرية الشغل بل إلغاء نمط الشغل كما هو موجود في النظام الرأسمالي (٢٢٩) .

في نظراته على حالة الفقر ، شترنر لا يقصد البروليتاريا بل البرجوازية الصغيرة التي أصابها الخراب والشغيلة الساقطين من طبقتهم ، الـ lumpen - proletariat ، **البروليتاريا الرثة** ، الصعلكة gueuserie ، التي لا تؤلف في الازمنة الحديثة سوى ظاهرة اجتماعية ثانوية (٢٣٠) .

---

٢٢٦ – **م.ن** ، ص ٤٣٦ .

٢٢٧ – **م.ن** ، ص ٢٣٠ : « (ص ١٥٠) . كل شقاء الحالة الاجتماعية الراهنة يأتي من كون البرجوازيين والعمال يؤمنون **بحقيقة** المال . جاك الطيب يتخيل هنا انه يتوقف على **البرجوازيين** والعمال المتوزعين في كل بلاد العالم أن يشهدوا **بانهم لا يؤمنون بحقيقة المال** لكي ؛ مع افتراضنا ان هذه الحماقة ممكنة ، يكون ممكنا تغير شيء ما . يعتقد ان اي كاتب من برلين يستطيع ان يحذف **حقيقة المال** بنفس السهولة التي بها يلغي ، في ذهنه ، **حقيقة** الله او الفلسفة الهيغلية . بطبيعة الحال لا يهمه كثيرا ان المال هو النتاج الضروري لبعض أشكال الانتاج والعلاقات الاجتماعية ، وأنه يظل **حقيقة** طالما هذه العلاقات مستمرة في الوجود ...»

٢٢٨ – **م.ن** ، ص ٤٠٦ .

٢٢٩ – **م.ن** ، ص ٢٣٢ .

٢٣٠ – **م.ن** ، ص ٢٢٩ : «البروليتاريا في مجملها هي اذن مؤلفة من برجوازيين وبروليتاريين

خالطا هكذا البروليتاريين والصعاليك ، شترنر يلوم البروليتاريين علـــى قبولهم العبدي بشرطهم وعلى كونهم بالتالي عاجزين عن التحرر ، دون ان يرى ان البروليتاريين ، بعيدا عن ان يكونوا عبيدا قانعين ، يؤلفون طبقة ثورية (٢٣١) .

اما الشيوعية فشترنر يعتبرها يوتوبيا ، خيالا طوباويا ، ويعتقد أن الشيوعيين يحلمون بتأسيس مجتمع مثالي . في الواقع ، ان الشيوعية ، التي وُلدت مـــع تطور المنظومة الرأسمالية والتي هي هدف النضال الطبقي للبروليتاريا ، ليس لها شيء مشترك مع الطوباوية . فالشيوعيون ، بعكس ما يفكر شترنر ، لا يحلمون بتاتا بمجتمع مثالي ، يريدون جوهريا تدمير النظام الراسمالي والمجتمع البرجوازي لاقامة نظام جديد ومجتمع جديد في مكانهما (٢٣٢) . لذا فهم يمتنعون عن وعظ

أصابهم الخراب ، من جمع **صعاليك** ، وُجدوا **في** جميع العصور ووجودهم الكتلي ــ الجماهـــيري سبق ، بعد نهاية العصر الوسيط ، مولد البروليتاريا الحديثة ، كما يستطيـع القديس ماكس ان يقتنع من التشريع والادب الانكليزي والفرنسي . عن البروليتاريا يكوّن قديسنا نفس الفكرة التي لدى **البرجوازيين الجيّدين الراضين** وبخاصة **الموظفين الاوفياء** . على هذا الاساس ، يقيم تعـادلا في الهوية بين البروليتاريا والفقر [paupérisme ، حالة الفقر ، الفقران] ، في حين ان الفقر، الذي يميز فقط الحالة التي يوجد فيها البروليتاري الذي أصابه الخراب ، يسم درجة الذل الاخيرة التي يسقط فيها البروليتاري العاجز عن مقاومة ضغط البرجوازية ، وأن البروليتاري الذي فقد كل طاقة هو وحده يصير فقيرا un pauvre (انظر سيسموندي ، ويد ، الخ) .»

٢٣١ ــ **م.ن** ، ص ٢٤٢ : «شترنر **يعتقد** هنا ان البروليتاريين الشيوعيين الذين يقلبون المجتمع ثوريا ، الذين يقيمون أشكال الانتاج والعلاقات الاجتماعية على قاعدة جديدة بوصفهم مجددين ، طبقا لنمط حياتهم يبقون رجالا من الماضي . ان الدعاية الدؤوبة التي يقوم بهـــا **هؤلاء البروليتاريون** ، المناقشات التي ينظمونها فيما بينهم يوميا ، تدلل بشكل كاف على انهم لا يريدون ان يُبقوا رجال الماضي ، وان كل البشر الآخرين يبقون رجال الماضي . انهم لن يبقوا كذلك الا اذا **كانوا يبحثون عن الذنب في أنفسهم** ، كما يفكر القديس سانشو ، ولكنهم يعلمون جيدا جدا انهم **فقط** حين ستكون الشروط الموجودة قد عُدّلت سيكفون عن كونهم رجال الماضي . لذا فهم مصممون على تحويل هذه الشروط منذ الفرصة الاولى . في الفاعلية الثورية يحوّل الناس انفسهم في الوقت نفسه مـــع تحويلهم الظروف .»

٢٣٢ ــ **م.ن** ، ص ٢٣٩ : «لانه في المجتمع تتجلى الشرور الاكثر دمغا، لذا فان الناس **المدموغين بشكل خاص يسعون الى ان يجدوا في المجتمع علة هذه الشرور ويعطون انفسهم كمهمة ان يكتشفوا المجتمع الحق**» (انظر ص ١٥٥) .

م.ن ، ص ٢٥١ : «ثم يجعـــل القديس سانشو الشيوعيين **يكتشفون قانونا ونظاما اجتماعيا جديدا سيضع حدا لهذه التغيرات** ، نظاما عنه يعلم فقط ان الشيوعيين سيعلنون آنـــذاك ان هذا النظام مقدس» .

م.ن ، ص ٢٤٨ : «الشيوعيون لن يردعهم رادع عن قلب سيطرة **البرجوازيين** وتدمير **رفاههم** ما ان يملكوا القدرة على ذلك» .

البشر بأخلاق جديدة ودعوتهم ، كما يفعل شترنر، الى ان يصيروا بشرا **حقيقيين**، اذ هم يعلمون ان تحويلا للعلاقات الاجتماعية ولذهنية البشر لا يمكن ان ينجم الا عن تحويل اجتماعي (٢٣٣) .

هذا النقد لليبرالية الاجتماعية من قبل شترنر يستجيب للنفور الذي تشعر به البرجوازية ـ الصغيرة تجاه البروليتاريا والشيوعية ، اللتين تبغضهما اكثر مما تبغض الرأسمال الكبير ، لانهما أخطر التهديدات على الملكية الخاصة .

د ـ الليبرالية «الانسانية»

بالليبرالية **الانسانية** (٢٣٤) ، يقصد شترنر إنسية فويرباخ ، حيث الانسان يصير فكرة ثابتة ، عقيدة [دوغما] . فالانسان ، عند فويرباخ ، الانسان معتبرا في الشكل العام للنوع الانساني ، يؤلف ، مثل الفكرة المطلقة والوعي الكلي ، بديلا عن الله ، يحلّق مثله فوق الافراد المخضَعين له . فويرباخ يقدس النوع الانساني ، بجعله الصفات الانسانية صفات إلهية : تصير محمولات النوع التي يعبدها البشر. ان شترنر يدفع هذا التصويف الى أبعد من ذلك ، اذ عنـده الصفات الانسانية، المفصولة تماما عن البشر ، تصير هلوَسات (٢٣٥) .

---

٢٣٣ ـ **م.ن** ، ص‌ص ٢٧٩ وبعدها : «الشيوعيون لا يعظون ابدا **بأخلاق** ما ، الامر الذي يقوم به شترنر على النحو الاوسع . انهم لا يضعون للبشر مطالب او اشتراطات اخلاقية من نوع : «أحبوا بعضكم بعضا ، «لا» تكونوا «أنانيين» الخ » ؛ لانهم يعلمون جيدا ان الانانية ، مثلها مثل الاخلاص والتفاني ، **هي** احد أشكال التأكيد ، وفي بعض الشروط شكله الضروري ، للفرد . الشيوعيون لا يريدون اذن البتة ، كما يؤمن القديس ماكس ، الغاء **الانسان الخاص** لصالح الذي يدافع عن المصلحة العامة ويضحي بنفسه من اجلها .»

٢٣٤ ـ **م.ن** ، ص‌ص ٢١٥ ـ ٢١٨ .

٢٣٥ ـ **م.ن** ، ص‌ص ٢٦٩ وبعدها : «التصور الفويرباخي لمحمولات الله معتبرة قوى واقعية تهيمن على البشر هيمنة رؤساء مقدسين ، ذلك هو العالم المصوَّف ، الآخذ محل العالم التجربي ، الذي ينطلق منه شترنر ... انه يلوم فويرباخ على عدم انتهائه الى شيء لانه جعل المحمول الموضوع وجعل الموضوع المحمول ، ولكنه هو نفسه أقل قدرة ايضا على الوصول الى شيء ، من جراء قبوله، وعيناه مغلقتان ، التصور الفويرباخي عن موضوعات محوَّلة الى محمولات ، تهيمن في شكل مشخص على العالم ، اعتباره بمثابة علاقات اجتماعية واقعية جُمل فويرباخ عن هذه العلاقات ، إلصاقه عليها بطاقة «مقدس» ، **تحويله هذه البطاقة الى موضوع** ، هو **المقدس** ، عاملا هكذا بالضبط ما يلـوم فويرباخ عليه . اذ تخلّص من كل محتوى واقعي يتصل بالمقدس، يذهب الى الحرب ضد هذا المقدس، الذي بطبيعة الحال يبقى سرمديا لا يصيبه تغير . فويرباخ ، هـو ، يعي بعد **ان الامر عنده لا**

هـ ـ الوحيد

بطرد الفكر الثابتة وتصفية الهيرارخية في كل أشكالها ، تتحقق شروط مجيء الانسان ، بوصفه أنانيا حقيقيا ، أنا مطلقا ، مفهوما في وحدانيته .

الوحيد يخلق نفسه بنفسه ، بالطريقة التي بها عند برونو باور وعي الذات يؤكد نفسه بمعارضة الماهية ، برفض كل التحديدات التي لا تتفق وكينونته .

من جراء أن شروط حياة الافراد ، عند شترنر ، كما عند ب. باور ، ليست محددة من قبل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بل من قبل تحـــوّل للوعي ، تتحول الصراعات الحقيقية الى صراعات روحية تتقلص الى نقد تصورات باطلة ، منها يتحرر الوحيد بإنكاره لها كل قيمة وبرفضه لها اي احترام (٢٣٦) .

موقفه مماثل لموقف المسيحي الذي يتحرر من قبضة العالم بنفيه له . فهو ، كالمسيحي ، يقوم برمي الافكار **الثابتة** بأسلوب نفي محض ، يمكن تطبيقه بسهولة وبلا فرق على كل الاشياء ، الامر الذي يعفيه من قول اي شيء عن الشروط الواقعية لتحرر البشر (٢٣٧) .

لا يتعدى ... تدميرهم ، تدميرا لا يزال بالحقيقة يعلق عليه من الاهمية اكثر مما يجوز . عند شترنر هذا الوعي اختفى تماما ، فهو يؤمن حقا بسلطان مجردات الايديولوجيا في العالم الراهن ، وفـــي الكفاح الذي يخوضه ضد **المحمولات** ، ضد المفاهيم ، يؤمن حقا بأنه لا يهاجم او لم يهاجم أوهاما ، بل يهاجم القوى التي تسيطر فعليا على العالم » .

[موضوع = suiget ، ذات ، فاعل ، حامل ، مبتدأ ، مسند اليه . يقابلهـــا : محمول ، خبر ، مسندَ] .

٢٣٦ ـ **م.ن** ، ص ص ٢١٨ ـ ٢١٩ : «سانشو بانسا يحقق مآثره البطولية بأن يلاحظ ويسجل ببساطة بطلان وغرور كتلة الافكار التي تواجهه . مأثرته العالية لا تذهب ابعد من معرفة هي ، في آخر الحساب ، تترك الاشياء على حالها وتكتفي بأن تعدل تصوره لا للاشياء نفسها بل لفكرتـــه عنها ... . هيغل ، الذي بالنسبة اليه ايضا كان العالم الحديث يتحول ويتقلص الى عالم الافكار المجردة ، يحدد كمهمة للفيلسوف الحديث ، بمعارضة الفيلسوف القديم ، لا ان يتحرر مثل هذا الاخير من **الوعي الحسي كي يحرر الفرد من مباشرية المعرفة ويجعله ماهية منكّرة ، روحا** ، بل ان يتحرر الفِكَر الجامدة المجمدة في تحديداتها ، من الفِكَر **الثابتة**. هذا ، يضيف هيغل ، هو عمـل الديالكتيك . (انظر **الفينومينولوجيا**، ص ص ٢٦-٢٧) . شترنر يتميز عن هيغل بكونه يصل الى نفس النتيجة ولكن بدون ديالكتيك .»

٢٣٧ ـ **م.ن** ، ص ٣٠٩ : «القضية علاقة محضة للانا مع العالم ، علاقة معرّاة من كل علاقاته الواقعية مع العالم ، صيغة تصلح لمساواة كل المفاهيم الدنيوية في معادلة يقيمها قديس» .

ص ٤٧٨ : «لو كان سانشو يصل الى تصور الانعتاق كرغبة في التحرر ليس فقط من مقولات بل بالاحرى ونيف من قيود واقعية وعقبات فعلية ، لكان هذا التحرر يقتضي تغيرا أوليا يعنيه ويعني عددا كبيرا من اشخاص آخرين ، وتحولا لوضع الاشياء الموجود يعنيه هو والآخرين . اثر تحقق هذا

كي يؤكد نفسه مليًّا كواحد وحيد ، لا يكفي الفرد ان يبلغ الحرية الكاملة ، اذ أن التحرر من فِكَر ثابتة وحسب ليس له سوى طابع سلبـــــي ، يلزم ايضا ان يستطيع تملك كل شيء والتمتع به كما يشاء (٢٣٨) .

مثل تحرر الوحيد ، تملكه للاشياء ذو طابع محض وهمي . بما أن هـــذا التملك يحصل على غرار التحرر ، بواسطة ألعاب كلمات ، تسمح للوحيد بأن يعلن ان العالم مُلكه ، فان هذا العالم ليس ملكا له الا بوصفه موضوعا لتصوره ، بوصفه ملكية خيالية (٢٣٩) .

التحرر ، أجل يبقى «أنا»ه ، ولكنه أنا تغير تماما ، أنا هو مع الآخرين الشرط الاولي لحريتـــه وحريتهم . وبعد ذلك يكون مقضيا امر وحدانية أناه وعدم قابليته للمقارنة واستقلاله المطلق .»

ص‌ص ٣١٤-٣١٥ : «يُبدأ بتصنيف الدولة والشغل في مقولة خاصة للشغل فصِّلت «علـــى القياس» ، ثم تُعاد هذه المقولة الخاصة الى مقولة المقدس العامة ، وهذا يمكن عمله دون قول اي شيء وضعي موجب عن الدولة وعن الشغل . يمكن استخدام هذا الاسلوب الى ما لا نهاية بصدد كل شيء .»

ص‌ص ٣١١ - ٣١٣ : انا لست الدولة

الدولة = لا - انا يَ

أنا = نفي الدولة

نفي الدولة = أنا

٢٣٨ - م.ن ، ص ٣٣١ : «لا تريد فقط حرية حيازة كل هذه الاشياء الجميلة ، تريد حوزها فعليا ، جعلها **خاصتك** ، **ملكيتك** ta propriété ... يلزمك ان تكون ليس فقط **رجلا حرا** بل ايضا حائزا [مالكا] » (ص ٢٠٥) .

ص ٣٢٧ : «الحيازة بالمقابل تؤلف **كل** كينونتي ، **كل** وجودي ، انها تتطابق في الهوية مع اناي. أنا حر مما تحررت منه ، أنا مالك ما هو في قدرتي ، تحت سلطتي ، بتصرفي . أنا ملك نفسي في كل زمان وكل ظرف ، بمجرد انني **أعلم** حماية أناي دون ان اتخلى عنه لآخرين . ان وضع الحرية لا استطيع الا ان أرغبه ، أن أطمح اليه ، اذ يبقى بالنسبة لي مثلا اعلى ، شبحا .»

٢٣٩ - م.ن ، ص ٣٢٤ : «الان وقد اتخذ كل شيء طابعا **مقدسا** ... يستطيع الوحيـــد ان يمضي الى مرحلة التملك ، بنفيه ان المقدس هو قوة تهيمن عليه . بتحويله كل ما هو غريب عنه الى شيء ما مقدس ، اي الى محض تمثيل للذهن ، من الطبيعي تماما ان يصبح هذا التصور الخيالي لما هو غريب عنه والذي يأخذه على انه هو الواقع نفسه ، من الطبيعي ا ن يصبح ملكيته ، خاصته.»

ص ٢١٩ : «كما ان المسيحي يتملك عالم الاشياء ، بفضل التمثيل الخيالي المدهش الذي يكوّنه عن هذا العالم ، كذلك «الأنا» يتملك العالم المسيحي ، عالم الفكَر ، بفضل الاوهام الخيالية المدهشة التي يكوّنها بصدده .»

ص ٣٢٩ : «كما استطاع سانشو سابقا ان يعتبر مقدسا كل شيء غريب موجود خارجه ، يستطيع الان بنفس السهولة أن يعتبر كل شيء صنعه ، غير موجود الا به ، خاصته .»

ان تحرر الوحيد وتملكه العالم لا يحصلان بواسطة ثورة اجتماعية ، تتعارض بطابعها الجماعي مع طبيعة الوحيد ، بل عن طريق التمرد الفردي ، الذي لا يستهدف كالثورة الاجتماعية تحويل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية تحويلا فعليا ، بل يكتفي بنفي وضع الاشياء الموجود نفيا محضا بسيطا (٢٤٠) .

بما ان الواحد الأحد لا يستطيع ان يعيش وحيدا وبما أنه حتما مساق الى الدخول في صلة مع البشر الآخرين، لذا فان شترنر مساق الى اعطاء مكان للعلاقات الاجتماعية في منظومته . حتى لا تلحق هذه العلاقات ضررا بوحدانية الأنا ، يتخيلها على غرار العلاقات التي تسود مثلا في جماعة من اللاعبين ، من المقامرين (٢٤١) .

يستعير من فوريه فكرة الاجتماع arsociation التي تحل عنده محل فكرة المجتمع société . ولكن بينما عند فوريه يفترض اجتماع البشر الجديد تحولا عميقا للمجتمع ، يريد شترنر تأسيس الاجتماع على نظام الملكية الخاصة . يتصوره على طريقة الفالانستير * كاجتماع لملاكين صغار لهم حقوق متساوية ، يتكافلون في الملكية بالتبادل — ضمانا لا يمكن ان يعطى الا من قبل الدولة . ان تعميم اجتماعات كهذه ، فيها لكل مشارك حق الانسحاب حين يشاء ، سيسمح بتنظيم الشغل ، الذي يرى فيه شترنر ، مثله مثل كل الطوباويين آنذاك ، دواء عميم النفع من شأنه حذف عيوب المجتمع الراهن (٢٤٢) .

---

٢٤٠ — **م.ن** ، ص ٤١٤ : «الثورة «هي قلب النظام القائم او كيان الدولة والمجتمع . هي بالتالي فعل سياسي او اجتماعي» . التمرد «له فعلا كنتيجة حتمية قلب النظام القائم ولكن هذا ليس نقطة انطلاقه ، علته وسببه واقع ان **البشر مستاؤون من انفسهم**» . «انه **ثوران** للافراد ، **دفق** غير مبالٍ ازاء المؤسسات التي ستنبثق منه . الثورة كانت تسعى الى اقامة مؤسسات جديدة، التمرد يسوقنا الى ان لا ندع أنفسنا بعد الان نتأطر في مؤسسات ، بل الى أن ننظم انفسنا بأنفسنا. ليس كفاحا ضد النظام الموجود ، اذ ان هذا النظام ينهار تلقائيا . اذا نجح فهو ببساطة الجهد الذي أبذله لكي أخرج او أفلت من النظام الموجود . اذا خرجت فهو ميت ومصيره التفسخ . بما ان هدفي ليس الاطاحة بالنظام الموجود بل الارتقاء فوقه ، ان عملي ليس ذا طابع سياسي او اجتماعي ، انه فعل أناني لا يستهدف الا أنا ووحدانيتي» (ص ٤٢١—٤٢٢) ... «بالواقع ان ما يفصل الثورة عن التمرد على طريقة شترنر ليس ، كما يفكر شترنر ، ان تلك هي فعل سياسي واجتماعي وهذا فعل أناني ، بل ان تلك فعل وهذا ليس فعلا .»

٢٤١ — من المفيد ان نلاحظ ان الوجوديين ، شأنهم شأن شترنر ، مساقون الى ان يقيموا ، بطريقة ما ، رابطا بين الانسان الوجودي والمجتمع ، مع انهم في المبدأ يرفضونه . انظر **جان—بول سارتر : الوجودية هي مذهب انساني** ، باريس ، ١٩٦١ .

[* phalanstére الخلية او الكومونة في المنظومة الخيالية التي يقترحها فوريه . تتألف من عدد محدد من الافراد (رجالا ونساء) يشكلون la phalange (الكتيبة) .]

٢٤٢ — **م.ن** ، صص ٤٥٧ — ٤٥٨ : «ان فكرة فك المجتمع الى جماعات مرتكزة على الانضمام

ان ملكَة تملك كل شيء كما يشاء تؤلف أساس قوة الأنا المطلقة وحقه اللامحدود (٢٤٣) . بهذا التملك الوهمي ، الذي يرتكز على حرية خيار تامة مزعومة (٢٤٤) ، الوحيد يصير سيد العالم . محرّرا من كل ما يعارض كيانه المستقل ومتصرفا بالعالم كما يريد ، يستطيع الوحيد ان ينكبّ مليا على التمتع بالحياة ، وهو تمتّع ، عدا ذلك ، محض نظري ، له نفس الطابع الوهمي الذي للتحرر والتملك .

هذا التقرير الذاتي للوحيد بسيرورة تحرر وتملك وهمية ، الذي يعزله عن البشر الآخرين وعن العالم ، يجعله كاريكاتورا للانسان الحقيقي ، شبحا محضا (٢٤٥) .

الطوعي ، الفكرة التي راجعها وعدّلها شترنر حسب ما سمعه عنها في برلين ، هي ملك لفوريه . ولكن ، عند فوريه ، هذا التصور يفترض تحولا جذريا للمجتمع وهو مؤسس على نقد الاجتماعات الموجودة ... فوريه يصف منظومته عن تحويل البشر وتسليتهم في صلاتها مع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الموجودة والتي ينقدها ، بينما شترنر ، بعيدا عن ان ينقدها ، يريد أن يستوعبها بمجموعها في مؤسساته ، المكرسة لصنع سعادة البشرية ، وهو بذلك يبيّن مرة اخرى كم هو متمسك بالمجتمع البرجوازي الراهن ... . هكذا يصوغ أمنيته البارّة بأن يكون الجميع ، في اجتماعه الذي يرتكز على الاستثمار المتبادل لاعضائه ، متساوين في القوة والمكر ، كي يستثمر كل واحد منهم الآخرين بالضبط بقدر ما هم يستثمرونه ، حتى لا يؤذى أحد في مصالحه الطبيعية والجليّة او يستطيع بالعكس تلبية حاجاته على حساب حاجات الآخرين .»

ايضا ، صص ٤٢٧ – ٤٣٥ .

٢٤٣ – م.ن ، ص ٤٣٦ : «اعلم ان لديك من المال بقدر ما لديك من القوة او القدرة ، اذ أن قيمتك هي بقدر ما تجعل لنفسك قيمة» (صص ٣٥٣ – ٣٦٤) .

ص ٣٢٨ : «الحق هو ما هو الحق بالنسبة لي . الحق مساوٍ لقوة الانسان ، القوة مساوية لحق الأنا .»

٢٤٤ – من المفيد أن نلاحظ الدور الذي تلعبه عند الوجوديين ، كما عند شترنر ، حرية الخيار.

٢٤٥ – م.ن ، صص ٢٢٣ – ٢٢٤ : «جاك العميق يعطي نفسه مظهر أنه لا يستطيع ان يقول شيئا عن هذا الوحيد ، نظرا لانه فرد جسميّ لا يمكن بناؤه تجريديا . ولكن الامر هنا كما هو بالنسبة للفكرة المطلقة لهيغل في نهاية المنطق او بالنسبة للشخصية المطلقة في نهاية الموسوعة – اللتين لا يمكن ايضا قول شيء عنهما لان بناءهما ذاته يحوي كل ما يمكن قوله ... . هيغل يعلم ذلك جيدا ولا يجد حرجا في الاعتراف به ، بينما شترنر له نفاق الزعم أن وحيده هو شيء ما اكثر من بناء مجرّد ، شيء ما لا يمكن تحديده او تعريفه ، ألا وهو فرد واقعي فعلي .هذا الظاهر الزائف يتبدّد فيما اذا ، بمسيرة معاكسة ، عرّف الوحيد بأنه الذي يحوز نفسه واذا قيل عن هذا الاخير أن له كتعيين مقولة الحوز الخاص العامة ، الامر الذي يستنفد ليس فقط كل ما يمكن قوله عن الوحيد ، بل ايضا كل ما الوحيد هو ...»

ص ١٧٣ : «الامر اذن هو الروح ، الذي يخلق نفسه بنفسه ذهابا من العدم ، اذن الامر هو

هذا التقريظ للوحيد على يد شترنر ما هو سوى الانعكاس المُمثلَن للبرجوازي الصغير البرليني وللمثقّف المعزول (٢٤٦) . فموقف الوحيد ازاء المجتمع والدولة ليس الا تعبير موقف البرجوازي ــ الصغير ازاءهما . تمرد الوحيد هو تمرد البرجوازي ــ الصغير الذي ، واعيا عجزه عن تعديل وضع اشياء يثقل كاهله ، لا يعلن عاليا لا مساس شخصيته وحريته المطلقة الا لان ذلك وحده يسمح له بأن يؤكد كيانه المستقل ، بالأقل على الصعيد النظري (٢٤٧) . مثل ثورة الوحيد ، ادّعاؤه ارادة التمتع مليا بالحياة هو تعبير مطامح البرجوازي ــ الصغير الوهمية. ان فلسفة اللذة ، التي يأخذها شترنر عن الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر والتي كانت آنذاك تستجيب لنمط حياة واقعي ، تصبح عنده محض كلامولوجيا ، لان التمتع بالحياة ليس عند الوحيد سوى نتاج الخيال (٢٤٨) . هذه الفلسفة التي

عدم ، من كونه عدما يجعل نفسه روحا ...»

ص‌ص ٢٩٥ ، ٣٠٠ .

٢٤٦ ــ م.ن ، ص‌ص ٢٩٦ وبعدها : «عند معلم او كاتب لم يخرج من برلين ، تنحصر فاعليته من جهة في عمل عقوق ومن جهة أخرى في المتع الفكرية ، عالمه يمتد من موآبيت الى كوبنيك ولا يتخطى بوابة هامبورغ (هذه الاماكن كانت حدود برلين) ، صلاته مع العالم مقلّصة بحكم حالته المادية المزرية الى حد أدنى ، من المحتوم ، اذا شعر بالحاجة الى التفكير ، أن يتخذ فكره منحى مجرّدا بقدر ذاته ونوع وجوده ، أن يتحول الفكر ، في وجه هذا الفرد الذي لا دفاع له ، الى قوة مطلقة ، يمنحه استخدامها امكانية الافلات وقتيا من هذا العالم الرديء والتمتع موقتا بالحياة .»

٢٤٧ ــ ص ٣٤٥ : انه (البرجوازي الصغير) يعزّي نفسه بقوله ان الانسان ، او بالمصادفة هو نفسه ، لا يستطيع ان يكون حرا بشكل مطلق ، ولكنه ، بوصفه المانيا ، حتى اذا كان محروما من الحرية ، معوّض عن كل مصائبه بواقع أنه يحافظ بلا جدال على فرديته الخاصة .»

م.ن ، ص ٣٣٠ : «تركيب العاطفية والادعاء هو التمرد . خارجيا ، ازاء الآخرين ، هذه «الثورة» تتخذ شكل الادعاء والفطرسة . داخليا ، في شكل غضب مكظوم ، انها عواطف .»

٢٤٨ ــ م.ن ، ص ٤٥٩ : «الفلسفة التي توصي في اوروبا بالتمتع قديمة في اوروبا قدم مدرسة برقة . كالاغريق عند القدامى ، الفرنسيون عند الحديثين هم دعاة هذه الفلسفة وذلك لنفس الاسباب : مزاجهم ومجتمعهم كانا يجعلانهم أقدر على الاستفادة من اللذة . ان فلسفة اللذة لم تكن في يوم من الايام سوى لغة روحية لصالح بعض الاوساط الاجتماعية التي لها امتياز تعاطي اللذة . بصورة مستقلة عن واقع ان شكل ومحتوى ملذاتهم كانا دائما مشروطين ومكيّفين ببنية مجموع المجتمع ولم يكونا يفلتان من اي من تناقضاته ، هذه الفلسفة صارت كلامولوجيا محضة ، ما ان ادّعت طابعا كليا وأعطت نفسها كتصور للحياة يصلح للمجتمع كافة .»

م.ن ، ص‌ص ٤١٩ وبعدها : «ان فلسفة التمرد ... ليست في آخر تحليل سوى الدفاع المتبجّح عن وصولية الواصل ، تقريظها المفاخر (واصل ، وصولي ، «ثائر») . كل «ثائر» يجد نفسه، في فاعليته أنانيا أمام حالة خاصة يسعى الى الارتقاء فوقها دون ان يكترث للشروط التي تحددها. يحاول الخروج من النظام الموجود فقط بقدر ما هذا الاخير يشكل عائقا بالنسبة له . عدا ذلك يسعى بالاحرى الى الاستفادة منه .»

تعلن امكان تملك كل شيء طبقا للرغبة الذاتية ليست سوى التعبير عن رغبة البرجوازي الصغير العابثة في الاستفادة من الثروات ، في النظام الرأسمالي . اخيرا ، ان تصور الاجتماع الذي يضمن لكل احد ملكيته يستجيب ايضا لرغبة البرجوازي الصغير المهدد بنزع ملكيته من قبل المزاحمة والذي يطمح الى رؤية ملكيته مكفولة (٢٤٩) .

رغم مظاهره الشجاعة المفترسة ، ان شترنر ، الذي يكتفي بنفي حالة الاشياء الموجودة نفيا منهجيا دائما ، دونما تغيير في هذه الحالة ، هو في أعماقه محافظ. فبما انه يريد ابقاء الملكية الخاصة وتقسيم الشغل والمال والتزاحم ، فانه بالضرورة مساق الى التسليم ببقاء المنظومة الرأسمالية والنظام البرجوازي (٢٥٠) .

بما انه باقٍ تحت سلطان الفلسفة الهيغلية وبما أن تحويل العلاقات الاجتماعية، بالنسبة له ، مقلص الى تحويل للوعي ، لذا فهو يحافظ على كل أوهام النظران الفلسفي ، ويدع نفسه يروح ويسترسل في مواعظ أخلاقية وفي أعمال اللعب بمجردات ، سيما وأن كل علمه ينتهي عند ذلك . معه تصل الفلسفة النظرانية الى حدها الاخير (٢٥١) .

---

٢٤٩ ـ م.ن ، ص‌ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ : «اشتراطه ان يكون (في الاجتماع) كل شخص كلّي‐القدرة، اي أن يكون الجميع عاجزين بعضهم ازاء بعض ، الذي هو عنده مسلّمة منطقية ، يستجيب للرغبة الساذجة قليلا ، رغبة البرجوازي الصغير في أن يعيش في عالم يحكمه الاستغلال ولكن فيه يجد كل واحد صالحه ومنفعته .. أو أن قديسنا يتخيل مجتمعا فيه يستطيع كل واحد ان يلبي حاجاته ولكن ليس على **حساب الغير** ، الامر الذي يجعل نظرية الاستغلال ترجمة حمقاء عن العلاقات الواقعية فيما بين الافراد .»

م.ن ، ص ٤٤١ : «هكذا سانشو يفقد ، **رغما عنه** ، في الاجتماع فرديّته ... وأن يكون عليه ايضا أن يتخلى عن حريته بحكم التنظيم السياسي أمر منطقي تماما وهو يبيّن الى اي حد يميل شترنر الى إحياء نظام الاشياء الراهن في الاجتماع .»

٢٥٠ ـ م.ن ، ص‌ص ٣٣٠ـ٣٣١ : «الأناني الحق ، الذي كشفه هذا الوصف كأكبر محافظ موجود ، ينتهي الى تجميع بقايا العالم الموجود ... بما أن كل مآثره الجريئة تنحصر في تنفيذ بعض ألعاب الخفة الدقيقة عن عالم الفكر الفلسفي التقليدي ، فمن تحصيل الحاصل ان العالم الواقعي ليس موجودا بالنسبة له ، الامر الذي لا يمنع هذا العالم من الاستمرار في الوجود...»

م.ن ، ص ٤٤١ : «يدع المجتمع القديم يبقى ومعه تبعية الافراد لتقسيم الشغل . وبعد ذلك لا يستطيع الفرد أن يفلت من مصيره ، الذي هو ان يرى نفسه وقد أمليت عليه **فردية** بالغة الخصوصية من قبل تقسيم الشغل ونمط العمل والوجود الذي يعيّنه له هذا التقسيم .»

٢٥١ ـ م.ن، ص ٢٨٩ : «ان تمرد سانشو ضد تثبت الرغبات والافكار ينتهي الى مبدأ السيطرة على النفس الاخلاقي ويقدم دليلا جديدا على كونه يكتفي باعطاء تعبير ايديولوجي مدّعٍ للذهنية البرجوازية ـ الصغيرة المبتذلة .»

ص ٤٠٢ : «لنلاحظ ، مرورا ، ان الفلسفة الالمانية كان عليها ، بحكم كونها لا تعتبر سوى الوعي وحده ، ان تنتهي بالضرورة الى فلسفة أخلاقية واعظة ...» .

نقد الاشتراكية «الحقّة»

كان نقد الفلسفة النظرانية في **الايديولوجيا الالمانية** يؤلف الحد الاخير في الحقبة التي كان فيها ماركس وانجلز قد أقاما تصورهما المادي للعالم ، بمعارضة التصور المثالي لهيغل وللهيغلغيين ـ الشباب . بالعكس ، كانت مجادلتهما مع الاشتراكيين «**الحقين**» تفتح حقبة جديدة في فكرهما وعملهما الثوري ، فيها ، بعد أن انضما الى البروليتاريا وبدآ يشاركان في نضالها الثوري ، كانا سيأخذان قريبا قيادة هذا النضال ، الامر الذي كان يشترط رفضهما بشكل مطلق كل عقيدية وكل طوباوية ، ليس من شأنها الا ان تعيقه .

كما أن تفنيد الفلسفة النظرانية كان يُؤلف الشرط الاولي لاقامة مبادىء المادية التاريخية بوصفها الاساس النظري لنضال البروليتاريا الطبقي ، كذلك فان رفض كل طوباوية كان الشرط الضروري لقيادة هذا النضال قيادة منسجمة وصحيحة .

ان نقدهما للاشتراكية الطوباوية ، الذي كان يعتمد مثل نقدهما للفلسفة النظرانية على تصورهما المادي للعالم ، كان عليه ان يتوجه اولا ضد الاشتراكية **الحقة** . هذه ، شكل الاشتراكية الطوباوية النوعي في المانيا ، كانت تنتشر اكثر فأكثر وتمارس تأثيرا متعاظما على الطبقة العاملة الالمانية .

بخلاف الاشتراكيين والشيوعيين والانكليز الذين ، اذ كانوا ينطلقون في مذاهبهم من تحليل النظام الرأسمالي تحليلا نقديا ، كانوا يدافعون عن مصالح الطبقات الوسطى المُبرلتَرة او عن مصالح البروليتاريا ، كان الاشتراكيون «**الحقون**» ، الذين لم يكونوا يشاركون مباشرة لا في نضال الديمقراطيين صغار ـ البرجوازيين ولا في نضال الحرفيين والبروليتاريين الثوريين ، يرتكزون ، في اقامة نظرياتهم ، على أطروحات فلسفية مستعارة بصورة رئيسية من فويرباخ ومن هس . من هنا الطابع الخاص لمذهبهم الذي ، بخلاف النظريات الاشتراكية والشيوعية الفرنسية والانكليزية ، كان بحكم افتقاده الى قاعدة اجتماعية متينة يتكشف عن اتجاه شديد الى النظران والى الكلامولوجيا .

الاشتراكية **الحقة** ، ذاهبة من إنسية فويرباخ ومن شيوعية هس الإنسية ، كانت تحوّل الاشتراكية الى يوتوبيا عاطفية . كانت تشكل خطرا على تطور النضال الثوري للبروليتاريا الالمانية ، سيما وأن هذه البروليتاريا التي كانت آنذاك في طريق التكوّن كانت لا تزال ضعيفة جدا . من هنا ، بالنسبة لماركس وانجلز ، ضرورة مكافحة ونقد هذه الاشتراكية **الحقة** ، ومعها فويرباخ وهس اللذين كانا يعطيانها مبادىء مذهبها الاساسية .

١ ـ نقد فويرباخ

ان نقدهما لفويرباخ وخصوصا نقدهما لـ هس ليس له ، مثل نقدهما لـ باور

وشترنر طابع منهجي ـ دائم . انه خطوط أولى فقط .

في نقدهما لفويرباخ ، وتضاف اليه الانتقادات الموجهة آنـــذاك من انجلز لفويرباخ التي لا يمكن فصلها عن انتقادات **الايديولوجيا الالمانية** والتـــي تكملها ، ماركس وانجلز يذهبان من الافكار الاساسية المعروضة في **الأطروحات عن فويرباخ.** رغم أنهما يتبيّنان أقل حدّة في نقدهما منهما ازاء باور وشترنر ، اللذين باتا في نظرهما ثرثارَين مسيئَين ، فانهما مع ذلك يعاملان فويرباخ ، كما عامله ماركس في **أطروحاته** بلا تحفظ كبير او مراعاة (٢٥٢) .

أن استحقاق فويرباخ مردّه انه قام بنقد أساسي للفلسفة المثالية ، مبيّنا ان الافكار ليست موجودة في ذواتها ، أنها ليست مستقلة عن الانسان الذي يتصورها، أنها نتاج فكره . فضلا عن ذلك لقد تجاوز كل الماديين الذين سبقوه ، اذ اعتبر الانسان في هيئته العيانية ، في صلاته مع الطبيعة وعلاقاته مع البشر الآخرين معا في آن . الا انه لم يستطع نقد المثالية الى النهاية والوصول الى تصور صحيـــح للمادية ، لانه لم يحسب حسابا **للبراكسيس** ، لفاعلية البشر المنتجة ، الفاعلية التي بها يتطورون في الوقت نفسه مع تحويلهم الطبيعة . بما انه لا يعتبر ، مـن جراء ذلك ، الانسان في آن كموضوع حسّي وكفاعلية حسية ، وبما انه لا يستطيـــع بالتالي ان يدرك الدور الجوهري الذي تلعبه الفاعلية المنتجة في الحياة الانسانية، فانه ينتهي الى تصور نصف ـ مجرد وميتافيزي للانسان المعتبَر في عموميته ، الامر الذي يفسر كل عيوب فلسفته (٢٥٣) .

---

٢٥٢ ــ انظر **م.أ.م.** ، ج٣ ، ص‌ص ٥٤١ـ٥٤٣ . **الايديولوجيا الالمانية** ، المرجع المذكور آنفا، ص‌ص ٦٠٤ـ٦٠٧ : «فر. انجلز ــ فويرباخ» . بمناسبة نقده لفويرباخ ، انجلز أعاد قراءة **مبادىء فلسفة المستقبل** لـ **فويرباخ** وقرأ كتابه الاخير عن **جوهر الدين** ، الصادر في مجلة **الخلفاء ــ الأتباع**، لايبتسيغ ، ١٨٤٦ ، ج١ . بخصوص هذه القراءة ، كتب من باريس الى ماركس في بروكسل ، بتاريـــخ ١٩ نيسان ١٨٤٦ (**م.أ.م.** ، ج٢٧ ، ص ٣٣) : «تصفّحت فـــي **الخلفاء** ، **جوهر الدين** لـ **فويرباخ** . عدا بعض اللمحات التي تستحق الاهتمام ، انها دائما نفس اللازمة . فـي البداية ، حيث القضية هي دين الطبيعة ، انه مضطر للوقوف على ارض الوقائع ، ولكن بعد ذلك انها نفس المخلوطة . من جديد لا نجد سوى **الجوهر الانساني** ، **الانسان** ، الــخ . سأقرأه قراءة أعمـــق وسأرسل اليك قريبا المقاطع الاكثر فائدة كي تستطيع ايضا استعمالهـــا من اجل الفصل عـــن فويرباخ . »

٢٥٣ ــ **م.ن** ، ص ٥٦ : «أجل فويرباخ له على الماديين **الخالصين** كبير تفوّق كونـــه يدرك ان الانسان هو ايضا **موضوع حسّي** ، ولكن ، لانه يعتبر الانسان فقط **كموضوع حسي** وليس **كفاعلية حسية** ، لانه يبقى على الصعيد النظري ولا يقبض على البشر في السياق الاجتماعي وفي شروط الحياة التي تجعلهم ما هم ، فانه لا يبلغ ابدا البشر الواقعيين ، كما يوجدون ويفعلون ، ويكتفي بتجريد ، هو **الانسان** ... لا يقوم بشروط الحياة الراهنة . لا يستطيع هكذا ابدا ان يتصور العالم

مُنكِرا الدور الثوري **للبراكسيس** ، للفاعلية المنتجة ، التي بها الانسان يَحوّل على نحو متزايد العمق الطبيعة لتكييفها مع حاجاته ، فويرباخ يعتبر الطبيعة لا في شكلها الحقيقي الذي هو شكل الطبيعة المعدّلة بشغل البشر ، بل في شكلها البدائي كما لم تعد موجودة بالواقع الا في المناطق غير المسكونة او القليلة التمدّن . اذ لا يرى ان العلاقات الراهنة بين الانسان والطبيعة انما يحددها تطور قوى الانتاج ، يعتبر ان العلاقات بين الانسان والطبيعة تتألف من نفس الروابط التي كانت توحّد الانسان مع الطبيعة البدائية ، الامر الذي يسوقه الى تصور ان موقف الانسان ازاء الطبيعة ذو طابع جوهريا تأملي ومنفعل .

لادراك الدور الأوّلي الذي يلعبه تطور قوى الانتاج في تحول العلاقات بين الانسان والطبيعة ، يكفي ان نرى كم الطبيعة البدائية تَقلَب حين تصير بلدا زراعيا وبالاحرى حين يتحول هذا الاخير الى بلد صناعي . فضلا عن ذلك ، من الصعب ان نتصور الى اي درجة ستكون الطبيعة شيئا آخر فيما لو توقّف البشر عن الشغل مدة سنة فقط . من الموقف التأملي الذي يعيره فويرباخ للانسان ازاء الطبيعة ومن العلاقات بين الانسان والطبيعة التي تنبع من هذا الموقف ينتج واقع أنه ، على غرار الشعوب البدائية ، يؤلّه الطبيعة ، ممجدا روعتها وجبروتها . ان **تصور** Conceptionالعالم الحسي عند فويرباخ ينحصر من جهة في محض تأمّل هذا الاخير ومن جهة أخرى في الشعور البسيط او العاطفة العادية . وهو يقول **الانسان** مع تكبير الحرف الاول بدلا من أن يقول «البشر التاريخيين الواقعيين» . «في الحالة الاولى ، في **تأمل** العالم الحسي ، يصطدم حتما بموضوعات هي في تناقض مع وعيه وعاطفته وتعكّر الانسجام المفترَض لكل أجزاء العالم الحسي ، خاصة الانسجام بين الانسان والطبيعة . لطرد هذه الموضوعات ، انه مضطر الى اللجوء الى طريقة مزدوجة في اعتبار الاشياء ، الى طريقة رؤية دنيوية تقتصر على ما هو **مرئي للعين المجردة** والى طريقة رؤية اكثر علوّا ، فلسفية، تدرك **الجوهر الحقيقي** للاشياء . لا يرى أن العالم الحسي الذي يحيط به ليس موضوعا معطى مباشرة من الأزل ويبقى دوما مماثلا لذاته بل هو نتاج الصناعة والعلاقات الاجتماعية ، انه نتاج تاريخي ، نتيجة عمل سلسلة من الاجيال ، حيث كل منها ، مرتفعا فوق الجيل السابق ، قد حسَّن صناعته وتجارته وعدّل نظامه الاجتماعي تبعا لتحول حاجاته.

الحسّي بوصفه مجموع **الفاعلية** الحيّة للافراد الذين يؤلفونه ، وحين يرى مثلا بدلا من أفراد أصحاء عصابة من رجال جياع ، منتفخين ، منهكين ومسلولين ، فانه يضطر الى الاستنجاد **بتصور عالي للاشياء** ، الى اللجوء الى **النوع الانساني كتعويض مثالي عن التفاوتات بين البشر** ، ويسقط ثانية في المثالية بالضبط حيث المادي الشيوعي يرى معا ضرورة وشرط تحويل جذري للصناعة وللبنية الاجتماعية . »

انظر ايضا م.ن ، ص ٥٥ ، الملاحظة .

حتى موضوعات أبسط **يقين حسي** ليست معطاة له الا من قبل التطور الاجتماعي، من قبل الصناعة والتجارة . نعلم ان شجرة الكرز ، مثلها مثل كل أشجار الفاكهة تقريبا ، قد نقلت وغرست في مناطقنا بفضل **التجارة** ، منذ قرون قليلة فقط. اذن فقط **بفضل** هذا العمل الذي قام به مجتمع محدد في عصر محدد، صارت موضوع **اليقين الحسي** لفويرباخ .»

«فضلا عن ذلك ، في التصور الذي يرى الاشياء كما هي واقعيا وكما جرت واقعيا ، ان اية معضلة فلسفية عميقة انما تعود ببساطة الى واقعة تجريبية . لنأخذ مثلا المسألة الهامة ، مسألة العلاقات بين الانسان والطبيعة ... . هذه المسألة... تتقلص الى فهم واقع ان ... **وحدة الانسان والطبيعة** انما وُجدت في كل زمن ، من البداية ، في الصناعة ، حيث حضرت بشكل مختلف في كل عصر ، حسب درجة تطور هذا العصر ... . ان الفاعلية المادية ، الشغل ، الخلق المادي الدائم للبشر ، بكلمة الانتاج ، هو قاعدة كل العالم الحسي ، كما هو موجود في ايامنا ، بدليل انه اذا أوقف ولو سنة واحدة فان فويرباخ ليس فقط سيجد تغيرا ضخما في العالم الحسي ، بل ايضا سيندب بسرعة فائقة ضياع كل العالم الانساني ، وضياع قدرته على التأمل بل قدرته على الوجود . بطبيعة الحال ، ان أولوية الطبيعة الخارجية تبقى قائمة ، هذا كله لا يمكن ان ينطبق على البشر الاوائل المنتَجين بالتوالد العفوي وليس له معنى الا اذا اعتبرنا الانسان مختلفا عن الطبيعة. فضلا عن ذلك ، تلك الطبيعة التي تسبق تاريخ البشر ليست بتاتا الطبيعة التي يعيش فيها فويرباخ . تلك الطبيعة ، في أيامنا ، لم تعد موجودة في اي مكان ، ربما باستثناء بعض الجزر المرجانية الاوسترالية الحديثة التشكل . انها اذن غير موجودة لفويرباخ ايضا (٢٥٤) . »

كما بحكم تجاهل الدور الثوري **للبراكسيس** تمثّل الطبيعة بالنسبة لفويرباخ شيئا ما معطى من الأزل ، كذلك فهو يرى، بحكم هذا التجاهل نفسه ، في الانسان لا كائنا تطور خلال التاريخ بفاعليته المنتجة وتحدده العلاقات الاقتصادية والاجتماعية المتولدة من هذه الفاعلية بل كائنا محددا من الأزل بجوهره ، الامر الذي يعطيه طابعا مطلقا وميتافيزيا . صحيح انه يقول في **مبادىء فلسفة المستقبل** أن شروط حياة وعمل البشر تؤلف جوهرهم ، ولكن بما انه لا يرى ان هذه الشروط محددة من قبل العلاقات الاقتصادية والاجتماعية فان هذا التأكيد يبقى عنده بلا مدى ، من هنا تصوره المجرد للفرد وللمجتمع وعجزه عن تفنيد المثالية تفنيدا كاملا ، رغم موقفه المادي (٢٥٥) .

---

٢٥٤ ـ م.ن ، ص ص ٤٠ وبعدها .

٢٥٥ ـ انظر م.ا.م. ، ج٣ ، ص ٤٢ : «لئن كنا نجد أحيانا عند فويرباخ ملاحظات اجتماعية ذات طابع مادي ، فانها لا تشكل سوى ملاحظات معزولة وهي قليلا جدا ما تؤثر على تصوره العام

ان تصوره لعلاقات البشر فيما بينهم يتفق مع تصوره للصلات بين الانسان والطبيعة . هذه العلاقات ليس لها طابع اجتماعي بل انتروبولوجي [إنسانولوجي]. انها لا تستجيب لحاجة البشر الى ان يجمعوا فاعليتهم ويجعلوها مشتركة ، بل هي مقلصة الى الروابط الطبيعية التي توحد الافراد غير المميَّزين ـ المفروقين اجتماعيا، الروابط التي يصوّفها فويرباخ في شكل اتحاد الأنا والأنت (٢٥٦) . بما أنه لا يرى ان الصلات بين البشر هي علاقات اجتماعية محددة من قبل تطور قوى الانتاج وبما أنه يقلّص هذه الصلات الى صلات طبيعية ، تقوم بين البشر ، لذا فهو يتصور الجماعة الانسانية ليس في شكل المجتمع بل في شكل النوع الانساني ، الذي فيه يرى الجوهر الحقيقي لكل فرد (٢٥٧) .

مخفّضا العلاقات الاجتماعية الى الصلات الطبيعية التي يزاولها البشر فيما بينهم ، يعزو للعواطف ، خاصة للصداقة والحب ، دورا مقرّرا ، في حياة الافراد

للعالم كي تكوّن بلدورا خصبة لافكار جديدة . ان **تصوره المفهومي** للعالم الحسّي ينحصر من جهة في تأمل هذا الاخير ، ومن جهة أخرى (فيما يتصل بالانسان) في الشعور او العاطفة بوجه عام ، الامر الذي يقوده الى التكلم عن الانسان وليس عن البشر الحقيقيين كما انبسطوا وتطوروا عبر التاريخ . »

٢٥٦ ـ انظر **م.ن** ، ص ٦٠٤ . فر. انجلز : فويرباخ : «كل فلسفة فويرباخ تصبّ على : ١ ـ فلسفة للطبيعة ـ عبادة منفعلة لروعة وجبروت الطبيعة التي يُسجد لها بافتتان . ٢ ـ انتروبولوجيا اي : أ ـ فيزيولوجيا ، لا يُقال فيها شيء اكثر مما سبق ان قاله الماديون عن وحدة النفس والجسد ،/ الامر الذي يجري تأكيده بشكل أقل ميكانيكية ولكنه بالمقابل اكثر صوفيّة. ب ـ سيكولوجيا مقصلة الى أناشيد تمجد الحب وتتفق مع عبادة الطبيعة، سيكولوجيا ليس فيها اي شيء جديد. ٣ ـ اخلاق تطلب وتشترط من الناس ان يفعلوا طبقا لمفهوم الانسان وليست بالواقع سوى العجز موضوعا في التطبيق .»

انظر الفقرة ٥٤ ، ص ٨١ : «السلوك الاخلاقي والعقلي للانسان ازاء معدته قوامه أن نعاملها لا بوصفها عضوا حيوانيا بل بوصفها عضوا انسانيا ...»

الفقرة ٦١ : «الانسان ككائن أخلاقي» وكل الكلامولوجيا عن الاخلاقية **في جوهر المسيحية** .

٢٥٧ ـ انظر **م.ن** ، ص‌ص ٥٦ ـ ٥٧ : «أجل فويرباخ يُظهِر مزيّة على الماديين **المحضين** : يعتبر ان الانسان هو ايضا موضوع حسّي ، ولكنه يتصور الانسان فقط **كموضوع حسي وليس كفاعلية حسية** اذ يكتفي بنظرية مجردة ولا يدرك البشر في علاقاتهم الاجتماعية ، في شروط حياتهم ، التي جعلتهم ما هم . لذا فهو لا يبلغ ابدا تصور البشر كما هم موجودون وفاعلون ويبقى مع مفهوم **الانسان** المجرّد . انه لا يتوصل الى فكرة الانسان **الواقعي** ، **الفردي** ، **بلحمه وعظمه** ، الا في ميدان الشعور او العاطفة ، وهكذا لا يعرف **علاقات انسانية** ، **أنماط صلات بين البشر** ، سوى المحبة والصداقة ومُمَثلَنَتين ايضا . انه لا يقوم بنقد شروط الحياة الراهنة ولا يتوصل هكذا ابدا الى ادراك العالم الحسي بوصفه جمع **الفاعلية** الواقعية ، الحسية ، **للافراد الذين يؤلفونه** .»

انظر **م.ن** ، ص ٥٥ ، ملاحظة .

وفي الحياة الاجتماعية على حد سواء (٢٥٨) . من هنا تصوره للعلاقات الاجتماعية، التي تتقلص من حيث الجوهر الى اتحاد الأنا والأنت ، الذي يحصل عن طريق الصداقة والحب . فقط هذا الاتحاد يتيح للفرد ، بمطابقته حياته مع حياة الجماعة الانسانية في هوية واحدة ، ان يحقق جوهره ، الذي يجد تعبيره في النوع ، وأن يصير بذلك انسانا حقيقيا .

هذا التصور الانتروبولوجي الذي يفصل الانسان عن صلاته الاجتماعية فيحوّله الى تجريد (٢٥٩) يستجيب له تصوره المثالي للتاريخ ، الذي يجعله عاجزا عن فهم المعضلات الاجتماعية والايديولوجية وإعطائها حلا صحيحا .

المعضلة الاساسية هي ، بالنسبة لفويرباخ ، مشكلة العلاقات بين الفرد والنوع . انه يفكر أن الانسان ، في شروط الوجود الطبيعية ـ السوية ، بوصفه فردا ، يحقق جوهره ، اي يعيش حياة تتفق مع طبيعته النوعية ـ العامة générigue (٢٦٠) . يعتبر حالة وقوع تعارض بين الكائن وجوهره ، بين الفرد والنوع ، حالة مؤسفة لا يمكن ان تعالَج كثيرا .

اذ هو لا يرى ويرفض ان يرى ان هذا التعارض هو الحالة الطبيعية العادية

---

٢٥٨ ـ **م.ن** ، ص ٦٠٥ . انجلز : فويرباخ : «هذه الجملة (عن وحدة الأنا والانت) كانت تكون مستحيلة لو لم يفكر فويرباخ بالفعل الجنسي sexuel ، الفعل النوعي ـ العام ، الذي يمثل، غاية التمثيل، اتحاد الأنت والانا. وبقدر ما تصير هذه الجماعة ـ المشاركةعملية فهي منحصرة... في إنجاب الانسان ، الانسان المعنوي الخلقي والانسان الفيزيائي على حد سواء» (ص ٦٧) . أما بصدد ما سيفعله الانسان الذي أُنجِب ، عدا كونه **يخلق** بدوره **بشرا** ، معنويا وفيزيائيا ، فلا نجد كلمة واحدة . »

٢٥٩ ـ **م.ا.م.** ، جـ٣ ، ص ٦٩ : «الفلاسفة تصوروا الافراد ، الذين لم يعودوا تابعين لتقسيم الشغل ، **في** الشكل المثالي والمجرد **للانسان** ، وتصوروا كل التاريخ كتطور وانبساط **الانسان** ، بحيث ان **الانسان** قد أقيم بديلا عن الافراد الواقعيين **في** جميع درجات انبساط التاريخ واعتُبر العنصر المحرّك للتاريخ .»

٢٦٠ ـ **م.ن** ، ص ٦٠٥ . فر. انجلز : فويرباخ : «ان واقع أن البشر ، في المرحلة الراهنة من تطورهم ، لا يستطيعون ان يلبّوا حاجاتهم الا **في** اطار المجتمع الحاضر ، وواقع أن البشر ، على نحو عام ، قد احتاج بعضهم الى بعض ، من الوهلة الاولى ، ولم يستطيعوا ان يبسطوا ويطوروا حاجاتهم وقدراتهم الا بدخولهم في صلات فيما بينهم ، هذا الواقع يعبر عنه فويرباخ على النحو التالي : «الفرد ، **معتبَرا في ذاته** ، لا يحوي جوهر الانسان» ، «**هذا الجوهر** ليس محويا الا في الجماعة ، في الاشتراك ، الا في **وحدة الانسان مع الانسان** ، الوحدة التي مع ذلك لا ترتكز الا على **الفرق الواقعي** بين أنا وأنت . الانسان في ذاته هو انسان بالمعنى العادي للكلمة ، الانسان **متحدا** مع الانسان ، **وحدة الأنا والانت هي الله**» (اي الانسان بمعنى الكلمة الخارق غير العادي)» ، الفقرة ٦١ ، ص ٨٣ .

السوية ، التي فيها توجد الطبقات المضطهَدة ، بخاصة البروليتاريا ، التي تدفع الى الغاء وضع الاشياء الموجود بواسطة ثورة اجتماعية ، فهو ينفي ضرورة ثورة كهذه (٢٦١) .

وعدا ذلك انه لأمر ذو دلالة ان نرى ان فويرباخ ينظر الى النشاز الذي يمكن ان ينشأ بين الكائن والجوهر ، بين الفرد والنوع ، لا على الصعيد الاجتماعي بل فقط على الصعيد الديني . فهو يرى السبب الجوهري لهذا التنافر والميدان الذي فيه يتجلى هذا التنافر غاية التجلي في الدين . فهو يولد من واقع انخلاع صفـــات الانسـان النوعية ــ العامة générique في الله ، الانخلاع الذي لا يمكن ان يلغى الا بحذف الدين بواسطة نقد له .

بما أن فويرباخ يعالج المسألة الدينية ، كما عدا ذلك يعالج كل المسائل ، لا من وجهة النظر التاريخية والاجتماعية بل من وجهة النظر الانتروبولوجية ، فهـــو مساق بالضرورة الى التفكير ، مثل المثاليين ، أنها لا يمكن ان تحَل حقا الا على الصعيد الروحي . من هنا نقله للمسألة الدينية الى صعيد فلسفي وسيكولوجي، يعطي هذه المسألة مظهر أن القضية بصددها ليست علاقات اجتماعية معتبرة في شكل ديني ، بل هي معضلة تحوّل الجوهر الانساني بالدين . بما أن فويرباخ لا يطرح على نفسه ، بخصوص الدين ، المسألة الاساسية التي هي معرفة ما هـــي الاسباب الاجتماعية التي تولّد الوهم الديني ، فانه يتبين عاجزا عن ايجاد الحل الحقيقي للمعضلة الدينية (٢٦٢) . بالفعل انه يكتفي بإبراز ان العالم الديني هـــو

---

٢٦١ ــ **م.ن** ، ص ٦٠٦ . ف. انجلز : فويرباخ : «يا له من ثناء جميل على وضع الاشيـــاء الموجود . فيما عدا الحالات غير السوية ، وهي نادرة ، أنت تحبّ منذ عمر السابعة أن تغلق الابواب في منجم فحم ، أن تبقى مدة اربع عشرة ساعة وحيدا في الظلام ، ولأن هذا هو وجودك فهو ايضا جوهرك . »

م.ن ، ص ٤٢ : «كمثال عن الاعتراف وعدم الاعتراف بما هو كائن ، فويرباخ يشاطره ايضـــا مع خصومنا ، نذكّر بالمقطع من **فلسفة المستقبل** ، حيث يعرض أن كينونة شيء او انسان تؤلف ايضا جوهره ، ان شروط الوجود المحددة لحيوان او لفرد ، نمط حياته وفاعليته ، هي التي تستجيب لجوهره . يُبرِز هنا تصريحا ان كل استثناء عن هذه القاعدة يؤلف حالة مؤسفة ، غير طبيعية او سويّة او معيارية ، ولا يمكن ان نغير فيها شيئا . اذن ، اذا كان ملايين البروليتاريين غير راضين ابدا عن شروط وجودهم ، اذا كانت كينونتهم لا (فجوة في المخطوطة) .»

٢٦٢ ــ **م.ن** ، ص‌ص ٢٦٨ ــ ٢٦٩ : «بينما كان فويرباخ يبيِّن ان العالم الدينـــي ما هو الا الانعكاس الوهمي للعالم الارضي ، الذي ليس عنده سوى صيغة مجردة ، كان لا بد ان تنطرح ، حتى على المنظّرين الالمان ، مسألة لم يكن يعطيها حلا : «كيف يحصل أن البشر وضعوا في رأسهم هذه الاوهام ؟» . هذا السؤال شق حتى للمنظّرين الالمان الطريق نحو تصور مادي للعالم ، تصور غـــير **خال مـــن افتراضات مسبقة** ، ينطلق مـــن ملاحظة الشروط الماديـــة الواقعية ، وهو بحكم ذلك اول تصور له طابـــع نقدي فعلا . هـــذا الطريق كان قـــد اشير اليـــــه في **الحوليات**

عالم وهمي ، ينجم عن خلع الجوهر الانساني في الله . يفكر انه لحذف الوهم الديني لا حاجة لالغاء العلاقات الاجتماعية التي تولّده : يكفي لهذا الغرض ان نعطي البشر وعي جوهرهم الحقيقي ، الامر الذي يعيد حل المعضلة الدينية الى تحويل الوعي الانساني (٢٦٣) .

ان الموقف الانسانولوجي ، الذي يمنع فويرباخ من اجراء تحليل صائب للمعضلات الاجتماعية ، يعلل في آن الطابع المثالي والتيليولوجي لتصوره للتاريخ ، والطابع الميتافيزي لمادّيته ، والانفصال القائم عنده بين المادية والتاريخ . حيث هو مادّي لا يدخل التاريخ في خط الحساب ، وحيث يعالج مسائل تاريخية يتبنى وجهة نظر ليست مادية بل هي مثالية (٢٦٤) . في تحليله المسائل الاجتماعية ، يضع ، على طريقة الطوباويين ، في معارضة حالة الاشياء الموجودة الرديئة ، تصورا مثاليا للمجتمع ويعيّن كهدف للتاريخ ان يحقق هذا المثل الاعلى ، اذ هذا التحقيق وحده يتيح للانسان أن يصير انسانا **حقا** ، بعيشه حياة تتفق وجوهره .

هذا المثل الاعلى يتمثله فويرباخ في شكل الانسية ، التي ستتحقق لا بثورة اجتماعية بل بتعمم التعليم والتربية . هذه الانسية العاطفية التي ستسمح للبشر بأن يتآخوا ، فويرباخ يماثلها بالشيوعية ، التي لا يرى فيها حركة ثورية بل اتجاها محبا للانسان والانسانية (٢٦٥) .

الفرنسية ـ الالمانية ، في **المدخل الى نقد فلسفة الحق لهيغل** وفي **المسألة اليهودية** . لما كان ذلك يحصل بمساعدة المصطلحات الفلسفية لتلك الآونة ، بواسطة العبارات الفلسفية التقليدية **كالجوهر الانساني** ، **النوع الانساني** ، الخ ، فقد أعطى هذا الامر المنظّرين الالمان الذريعة المنشودة لكي يخطئوا فهم التطور الايديولوجي الحقيقي ولكي يعتقدوا ان القضية في هذه المرة ايضا ليست سوى ضبط او إحكام لصيغ فلسفية قديمة عفا عليها الزمن .»

٢٦٣ ـ **م.ن** ، ص ص ٤٢ ـ ٤٣ : «لتقرير وعي جوهر الاشياء الحقيقي يكتفي ، مثل المنظّرين الآخرين ، بأن يريد اعطاء البشر مفهوم الوقائع الصحيح ، في حين ان ما يهم بالنسبة للشيوعي الحق هو قلب حالة الاشياء الموجودة . ومع ذلك نعترف مليا ان فويرباخ ، اذ يريد اعطاء وعي الاشياء ، يذهب الى أبعد ما يمكن ان يذهب اليه منظّر دون ان يكفّ عن كونه منظرا وفيلسوفا.»

٢٦٤ ـ **م.ن** ، ص ٥٧ : «بقدر ما هو مادي فويرباخ لا يدخّل التاريخ أبدا ، وبقدر ما يدخّل التاريخ فهو ليس ماديا . عنده ثمة انفصال كامل بين المادية والتاريخ ...»

٢٦٥ ـ **م.ا.م.** ، جـ٣ ، ص ١٤١ : «نرى من هذه المجادلات كم يخطىء فويرباخ ، حين (انظر **مجلة فيغان الفصلية** ، ١٨٤٥ ، جـ٢) ، معتمدا على فكرة **الانسان** العمومية ، يعلن نفسه شيوعيا ، محوّلا الشيوعية الى محمول **للانسان** وجاعلا هكذا من كلمة شيوعي ، التي تعيّن حاليا نصير حزب ثوري محدد ، مقولة مجردة ... . انه لامر ذو دلالة ان القديسَين برونو وماكس يسارعان الى الاستعاضة عن الشيوعين الحقيقيين بالشيوعيين كما يتصورهم فويرباخ ، وهذا جزئيا لكي يستطيعا محاربة الشيوعية كتظاهر **للروح** ، كمقولة فلسفية ، بوصفهما خصمين جيدَين ...»

ان الطابع الانسانوي لفلسفة فويرباخ يفسر كونها تتحول ، في نهاية الحساب، الى مذهب أخلاقي يدعو ، مثل المسيحية ، البشر الى الصبر بشرا **حقين** ، وهذا بحكم استبعاد كل عمل ثوري ليس سوى اعتراف بالعجز .

ممثلَنتِها للتاريخ المُعاد ، في آخر تحليل ، الى تطور الوعي ، تنتسب فلسفة فويرباخ ، رغم أساسها المادي ، للفلسفة النظرانية ، ولها وان بشكل مختلف عن هذه الاخيرة طابع محافظ ، فهي تؤكد ان الزمن وحده قادر على التغلب على التعارض الذي قد يقوم بين الكينونة والجوهر ، وهذا معناه عمليا نبرير النظام القائم (٢٦٦) .

٢ ـ نقد موزس هس (٢٦٧)

رغم أن هس تعاون معهما في **الايديولوجيا الالمانية** وكان آنذاك لا يزال على ارتباط وثيق بهما ، ماركس وانجلز أخضعاه لنقدهما ، الذي كان بالحقيقة أقل تصريحا بكثير من النقد الموجه ضد فويرباخ ، لانه اذ كان يطبع الشيوعية بالانسانوية، فقد كان يقدم ، مع فويرباخ ، للاشتراكية **الحقة** قاعدتها النظرية .

في انشائه لمذهبه كان هس ينطلق من فكرة أنه فقط بنقد للمجتمع البرجوازي يُحقَّق من وجهة نظر انسانوية فويرباخ يمكن اعطاء المسألة الاجتماعية حلا صحيحا نظريا وعمليا في آن . ان عيب الاشتراكيين والشيوعيين الفرنسيين والانكليز ، على حد تفكيره ، يعود الى كونهم لم يسلطوا تأملاتهم الفكرية على جوهر الانسان وانخلاع هذا الجوهر . لذا لم يتمكنوا من ايجاد حل المعضلة الاجتماعية التي لا يعتبرون سوى جانبها العملي .

ان مأثرة فويرباخ كانت انه بيَّن بنقده للدين ، كيف انقاد البشر ، بالدين ، الى خلع جوهرهم ، وأنه أبرز أن المعضلة الرئيسية المطروحة حاليا هي تمكين البشر من أن يجدوا ثانية كينونتهم الحقيقية بحذف هذا الانخلاع . ان عيب مذهبه يأتي

---

٢٦٦ ـ **م.ن** ، ص ٦٠٦ : «الكينونة ليست مفهوما عاما يمكن فصله عن الاشياء . انها واحد مع ما هو كائن ... تتطابق في الهوية مع الجوهر . **ما هو جوهري هو كينونتي** ... ليس الا في الحياة الانسانية ، **ولكن فقط في الحالات غير السوية ، البائسة** ، تنفك الكينونة عن الجوهر... وبسبب هذا الانفصال لا يجد المرء نفسه حقا مع نفسه حيث هو في الواقع مع جسده . انت لست **انت** الا حيث يكون فؤادك . ولكن باستثناء الحالات المضادة للطبيعة ، كل الاشياء تحب ان تكون حيث هي وهي مسرورة بأن تكون ما هي .» (ص ٤٧) .

٢٦٧ ـ عن التطور الايديولوجي لـ هس ، انظر الفصل الاول من هذا المجلد [تحت عنوان : ٣ ـ الاشتراكية «الحقة»] .

من كونه لم يرَ أن الجوهر الانساني قوامه في الواقع فاعليـــة البشر الجماعية .
وهذا يفسر طابع انسيته النظري جوهريا .

من اجل المضي من هذه الانسية النظرية الى انسية عملية يكفي تطبيق مبادىء النقد الذي أجراه فويرباخ للدين على نقد المجتمع البرجوازي ، الذي هو السبب الفعلي للانخلاع ، للانخلاع لا النظري كما في الدين بل العياني ، العملي ، للبشر .

في نقده للمجتمع البرجوازي ، هس يذهب من فكرة أن الفاعلية الحـــرة والمنسجمة التي تؤلف الجوهر الانساني تجعل مستحيلة في النظام الرأسمالي ، اذ ان السعي وراء الربح والتزاحم يجعلان البشر أفرادا معزولين وأنانيين . ففـي هذا النظام ، تقام محلّ فاعلية الانسان الحرة التي لا تنفصل عن اللذة فاعليـــة مفروضة ، بالإرغام على الشغل ، تجعل من هذا الاخير شغلا منخلعا ، شغل عبدٍ. العاقبة أن نتاج الشغل يكفّ عن كونه ملكا للذي يخلقه ، يتحول الى سلعة وبالتالي الى مال ، صار الإله الوحيد للبشر ، الاله الذي يستعبدهم ويقهرهم .

بسبب الانفصال بين الشغل ومنتوجه ، حصل في المجتمع انفصال بين المالكين وغير ـ المالكين واستغلال لا رحمة فيه لهؤلاء من قبل أولئك يجعل المجتمـــع البرجوازي عالما بهيميا يسوده الظلم واللصوصية .

لا يستطيع البشر ان يحذفوا حالة الاشياء هذه الا بإلغاء المجتمع البرجوازي والاستعاضة عنه بمجتمع شيوعي . هذا الاستبدال لن يحصل دفعة واحدة وبصورة فظّة وحشية ، بل تدريجيا وبكيفية سلمية ، بتنظيم الشغل وبتعميم التربيـــة والتعليـم .

ان الشيوعية ستعيد الفاعلية البشرية الحرة والانسجام بين البشر . ففـي المجتمع الشيوعي سيسود ، بإلغاء التنافس واستغلال غير المالكين من قبل المالكين نفس التناسق الذي يسود الطبيعة ، والعمل لن يكون مفصولا عن اللذة .

بتجاهله الدور الثوري لنضال البروليتاريا الطبقي واستدعائه الدائم للتربية واعتقاده بالدور العجائبي للحب ، كان مذهب هس ينتهي الى إنسية عاطفية والى مواعظ أخلاقية . لما كانت هذه الشيوعية الانسية تخدم كقاعدة نظرية للاشتراكية **الحقة** ، كان ماركس وانجلز يجدان نفسيهما مضطرّين ، رغم الروابط التي كانت لا تزال تربطهما بـ هس ، أن يأخذا مسافتهما ازاءه . لم يفعلا ذلك فيَ **الايديولوجيا الالمانية** تحت شكل نقد منهجي ولاذع ، لان ذلك كان مستحيلا بالنسبة لهما آنذاك، بل بواسطة بضع ملاحظات . هكذا فقد كانا يشددان بالمناسبة على أنهما لا ينويان بتاتا حمل مسؤولية كتابات هس والتضامن معه على الصعيد النظري (٢٦٨) . وكانا يلومانه من جهة أخرى على كونه لم يحقق اي تقدم ايديولوجي ، ما دام يكتفـــي

---

٢٦٨ ـ م.ن ، ص ١٣٦ : «السيد هس» ، الذي يرفض ماركس وانجلز بشكل مطلق حمـــل اية مسؤولية عن كتاباته ...» .

بترداد نفس الافكار التي ، بعد أن كانت مفيدة في البداية ، باتت بحكم هـــذا التكرار ابتذالات سوقية (٢٦٩) .

٣ ـ نقد شتى أنبياء الاشتراكية «الحقة»

كان نقد فويرباخ وهس نوعا ما بمثابة مدخل الى نقد الاشتراكية **الحقة**، التي، بتحويلها مع هس الاشتراكية الى إنسانوية عاطفية ، كانت تتكشف عن خطر كبير على تطور النضال الثوري للبروليتاريا الالمانية ، سيما وأن هذه البروليتاريا ، التي كانت في طريق التكوّن ، كانت تتبين قابلة لهذه النظرية بما يكفي من السهولة .

هذا النقد ، الذي سبق أن خطّ انجلز خطوطه العامة في مقدمته ــ الملحقة بنشر **مقطع من فوريه عن التجارة** (٢٧٠) ، ينقسم الى قسمين الاول موجه ضـد مقالَين في **الحوليات الراينية** ، الثاني ضد كارل غرون .

أ ــ «الحوليات الراينية» او فلسفة الاشتراكية «الحقة»

ان نقد **الحوليات الراينية** يتصل بمقالين صدرا في هذه المجلة ، بعنـــوان «الشيوعية والاشتراكية والانسية» و«أحجار من اجل تشييد الاشتراكية» ، كان ماركس وانجلز يعتبرانهما نموذجين جيدين عن الاشتراكية **الحقة** (٢٧١) .

يبدآن ، في نقدهما ، بتفسير طابع الاشتراكية **الحقة** الخاص ، بالظروف التي

---

٢٦٩ ــ **م.ن** ، ص ٥٤٢ : «انها [أفكار كارل غرون] قد أُخذت عن هس ، الذي يترجمه السيد غرون فضلا عن ذلك بشكل عظيم . ان موضوعات ، كانت عند هس اصلا بالغة الغموض وصوفيّة ، ولكنها ، في البداية ، في الـ **٢١ ورقة** ، كانت ترتدي بعض الفائدة ، صارت مملّة ورجعية ، من فرط ما كررت الى ما لا نهاية في **كتاب المواطن** ، **والاخبار الجديدة** ، **والحوليات الراينية** ، فـــي وقت كان قد تم تجاوزها تماما ...»

٢٧٠ ــ انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب [، الفقرة الاخيرة : «أعمال ماركس وانجلــز بين عودتهما من انكلترة والايديولوجيا الالمانية»] .

٢٧١ ــ انظر **هـ. سميغ** : الشيوعية ، الاشتراكية ، الانسية ، فـــي **الحوليات الراينية** ، ١٨٤٥ ، صص ١٦٧ ــ ١٧٣ . ــ **ر. ماتي** : أحجار لبناء الاشتراكيـــة ، **المرجع نفسه** ، صص ١٥٥ ــ ١٦٦ .

انظر **الايديولوجيا الالمانية** ، المرجع المذكور آنفا ، صص ٥٠٠ ــ ٥٣٣ .

ولدتها . كما أن الليبرالية الالمانية كان لها ، في بداياتها ، بوصفها انعكاسا ايديولوجيا لنضال البرجوازية الثورية الانكليزية والفرنسية الطبقي ، طابع مثالي ، كذلك الاشتراكية **الحقة** لها هذا الطابع نفسه بوصفها انعكاسا ايديولوجيا عن النضالات الطبقية للبروليتاريا الثورية في انكلترة وفرنسا وايضا في المانيا حيث لا تزال هذه النضالات في بدايتها . يوجد بين هذا المذهب والمذاهب الشيوعية والاشتراكية الانكليزية والفرنسية نفس الفرق الذي كان موجودا في البداية بين الليبرالية الالمانية والليبرالية الفرنسية (٢٧٢) . بعكس الشيوعيين والاشتراكيين الانكليز والفرنسيين ، الذين يرمون الى ممارسة عمل فعلي على عصرهم والذين يذهبون بالتالي في اعتباراتهم من تحليل نقدي للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية في زمنهم، يقف الاشتراكيون **الحقون** ، بوصفهم ايديولوجيين ، مباشرة على صعيد النظران ويتصورون أنهم بذلك يفكرون ويعملون من اجل الابدية (٢٧٣) .

هذا الطابع النظراني يفسَّر بواقع ان الاشتراكيين **الحقين** وصلوا الى الاشتراكية بطريق إنسانوية فويرباخ . اذ لم يجدوا في المانيا مساندة حركة بروليتارية قوية من شأنها ان تسوقهم الى دراسة الظروف التي فيها كانت تتطور هذه الحركة اذن الى تحليل الوقائع الاقتصادية والاجتماعية ، فقد انساقوا بشكل طبيعي ، لتأسيس مذهبهم ، الى اللجوء الى تصورات فويرباخ وهس ، الامر الذي يعلل ميلهم الى النظران والميتافيزياء (٢٧٤) .

---

٢٧٢ ـ **الايديولوجيا الالمانية** ، المرجع المذكور آنفا ، ص ٤٩٩ : «نجد بين الاشتراكية الالمانية والحركة البروليتارية في فرنسا وانكلترة نفس العلاقة التي أبرزناها في المجلد الاول (انظر القديس ماكس : الليبرالية السياسية) بين الليبرالية الالمانية كما انبسطت الى هنا والحركة **البرجوازية** الفرنسية والانكليزية .»

٢٧٣ ـ **م.ن** ، ص ٥٠٩ : «اخيرا ان كل التعارض بين صاحبنا وبوجه عام بين الاشتراكيين **الحقين** والايديولوجيين الالمان ، والحركات الواقعية الحقيقية الموجودة في أمم أخرى ، يمكن تلخيصه في هذه الصيغة الكلاسيكية : الالمان يحكمون على كل شيء في شكل الأزلية (حسب جوهر **الانسان**) ، الاجانب يعتبرون كل شيء من وجهة النظر العملية ، حسب البشر الحقيقيين والظروف الواقعية التي ازاءها يوجدون . الاجانب يفكرون ويفعلون من اجل **زمنهم** ، الالمان من اجل **الابدية** .»

٢٧٤ ـ **م.ن** ، ص ٥٠١ : «كان محتوما ، بسبب الحالة الواقعية لالمانيا ، ان تتكوّن هذه الشيعة وان يُحاوَل اجراء تكيّف بين الشيوعية **والافكار** السائدة . كان محتوما بنفس الدرجة أن عددا كبيرا من الشيوعيين الالمان ، الذاهبين من الفلسفة ، لم يصلوا ولا يصلون الى الشيوعية الا بعد مرورهم بهذه المرحلة ، بينما الآخرون ، الذين لم يستطيعوا الخروج من قبضة الايديولوجيا ، سيواصلون التبشير بهذه الاشتراكية **الحقة** حتى نهاية عمرهم .»

م.ن ، ص ٥٠٠ : «انهم يفصلون الوعي الخاص ببعض شروط الحياة المحددة تاريخيا عن هذه الشروط ويحكمون عليه بموجب الوعي الحق ، المطلق ، الذي هو وعي الفلسفة الالمانية . بذلك

على منوال الفلاسفة النظرانيين وأيضا فويرباخ ، يحوّلون العلاقات الاجتماعية الى العلاقات التي للانسان المجرّد ، مفهوما في عموميته ، مع العالم ، ويعتبرون ان التصورات التي يكوّنها الافراد عن شروط وجودهم هي تصورات خاصة بهذا الانسان المجرد . يعملون على غرار الفلاسفة النظرانيين بواسطة مقولات ، مفاهيم، ويخلطون انبساط هذه المفاهيم مع التطور التاريخي الواقعي . من هنا الطابع المثالي والتيليولوجي الذي يتخذه عندهم التاريخ ، الذي هو ، كما عند الطوباويين كافة ، محدّد قبليا من قبل الهدف الذي يعيّنونه له .

ان مذهبهم مصنوع ، تقليدا لمذهب هس ، من مزيج خليط يجمع المبادىء الاساسية الفويرباخية وتصورات مستعارة من الاشتراكيين الفرنسيين ، الذين هم يكادون لا يعرفونهم الا من خلال التجميعات التي أنشأها شتاين Stein وأولكرس Oelkers (٢٧٥) .

انهم يذهبون ، مثل هس ، في اعتباراتهم ، من تصور أن الانسان لا يتجلى حقا كإنسان الا بفاعليته الحرة التي تجمع في ذاتها العمل واللذة (٢٧٦) . ان شقاء البشر الراهن يأتي من كون فاعليتهم صارت شغل عبد لا لذة فيه . الانفصال الذي حصل بين الشغل واللذة هو واقع وصنع نظام الملكية الخاصة التي ، بتوليدها البحث عن الربح والتزاحم ، عزلت البشر بعضهم عن بعض ، عممت الانانية ، الصراع بين البشر ، استغلال الضعفاء من قبل الاقوياء ، ودمرت هكذا الانسجام الذي كان في الاصل يسود بينهم (٢٧٧) . المجتمع الراهن ، الذي لم يعد البشر يجدون فيه الشروط اللازمة لتحقيق جوهرهم ، لم يعد تعبير جماعتهم الحقة ، كينونتهم النوعية ــ العامة ، بل أضحى قوة غريبة عنهم ومعادية لهم .

فقط بحذف النظام الرأسمالي ، بإلغاء الملكية الخاصة والربح والتزاحم ، ستعود فاعلية البشر فاعلية مرة ، تجمع في نفسها العمل واللذة وسيعود الانسجام

يحوّلون وضعية بعض الافراد المحددين الى وضعية **الانسان** معتبَرا في ذاته ويفسرون أفكار هؤلاء الافراد عن شروط حياتهم على انها أفكارهم عن **الانسان** . ينتقلون هكذا من ارض الواقع التاريخي الى ارض الايديولوجيا ويستطيعون عندئذ ، وهم يجهلون الظروف الواقعية ، ان يُحلوا محلها ، بيُسر وسرور ، بناء نظرانيا ، بمساعدة الطريقة **المطلقة** او اية طريقة ايديولوجية اخرى .»

٢٧٥ ــ **م.ن** ، ص ٤٩٩ : «الى جانب الشيوعيين الالمان ظهر عدد من الكتّاب الذين تبنّوا بعض الافكار الشيوعية الفرنسية والانكليزية ومزجوها بتصوراتهم الفلسفية الالمانية .»

٢٧٦ ــ **م.ن** ، ص ٥١٠ : «تَطابق الفاعلية واللذة عند الانسان ناجم عن نوعية الانسان ، هذه النوعية الخاصة هي التي تحدد الانسان وليس أسباب خارجية بالنسبة له .»

٢٧٧ ــ **م.ن** ، ص ص ٥١٠ ــ ٥١١ : «نتعلم ان المجتمع صار غابة متوحشة وأن البشر الذين يؤلفونه يعانون من شتى أنواع العيوب . هكذا ينفصل المجتمع عن الافراد الذين يؤلفونه ، يصير مستقلا ، يتحول بذاته الى غابة وفقط اثر هذا التحول يتعذب الافراد .»

الاول الذي كان يسود المجتمع ، كما يسود الطبيعة .

في الطبيعة ، يرى الاشتراكيون **الحقون** جمعاً عضويا ومتناسقا لكل الكائنات (٢٧٨) . يصلون الى هذا التصور ، بتحميلها كل صفات البشر بحيث تصبح انعكاس البشرية المثلى (٢٧٩) . هذا يسمح لهم بأن يتكلموا ويسهبوا عن التناسق الذي يسود في الطبيعة ، حيث ، في الواقع ، يستعر صراع في سبيل الحياة لا رحمة فيه (٢٨٠) .

من هذا التحويل المثالي للطبيعة والمجتمع البدائي ، يستنتج الاشتراكيون الحقون انه كما الطبيعة توفر للنباتات أفضل الشروط لنموها ، كذلك يجب أن يوفر المجتمع للافراد ، كما كان الامر في الاصل ، أفضل شروط الوجود . هذا شيء يحق للافراد ان يطلبوه منها (٢٨١) . على هذا يعترض ماركس وانجلز بأن لا النباتات تستطيع ان تشترط على الطبيعة شروط الحياة التي تحتاجها ولا الافراد يستطيعون ان يشترطوا على المجتمع أن يلبي حاجاتهم ويشبع أمانيهم . هذا يفترض أن الافراد يطلبون من المجتمع ويشترطون عليه ما لا يمكن ان يحقّق الا بثورة اجتماعية ، ثورة لا يمكن أن تكون الا عمل الافراد (٢٨٢) .

---

٢٧٨ – **م.ن** ، ص ٥٢٢ .

٢٧٩ – **م.ن** ، ص ٥٢١ : «الاشتراكي **الحق** يذهب من فكرة ان الطلاق بين الحياة والسعادة يجب ان يكف عن الوجود . للبرهنة على هذا ، يلجأ الى الطبيعة . يفكر انها لا تعرف هذا الطلاق ويستنتج من ذلك انه بما أن الانسان هو جسم طبيعي ويملك صفاته العامة فان هذا الطلاق يجب ان لا يكون موجودا بالنسبة له ايضا ... . بعد ان أعطى هكذا عن الطبيعة صورة **مشوّهة مصوّفة** ؛ ان اشتراكيّنا **الحق** يصوّف ايضا الوعي الانساني جاعلا منه مرآة الطبيعة المصوّفة على النحو المذكور . بما ان الوعي يترجم التصور الوهمي الذي يكوّن عن العلاقات الانسانية الموجودة في **الطبيعة** ؛ فمن تحصيل الحاصل ان الوعي ما هو الا **المرآة** التي فيها **الطبيعة** تتأمل ذاتها .»

٢٨٠ – **م.ن** ، ص ٥٢٠ .

٢٨١ – **م.ن** ، ص ٥٢٤ .

٢٨٢ – **م.ن** ، ص ٥٢٥ : «بيد أن المجتمع لا يستجيب للطبيعة ، نموذجه المبدئي ، لذا فان الاشتراكي **الحق يطالبه ويشترط** عليه ان ينتظم وفق الطبيعة ويؤسس هذا المطلب على شهادة **سيئة الحظ** ، هي النبات . اولا ، النبات لا **يشترط** على الطبيعة كل شروط وجوده ، **واذا لم يجدها** ظل بذرة . اذن في حين ان **الاشتراط** المعار الى النبات يتقلص الى تبعية تامة ازاء شروط الوجود **التي يجدها** ، على هذا الاشتراط نفسه يعتمد الاشتراكي **الحق** لمطالبة المجتمع بتنظيم يستجيب لطابع الشخص الانساني ... هذا كما لو كانت شجرة النخيل تطالب **الحياة الكلية – الكونية** بأن تمنحها **في** القطب الشمالي **تربة** ، **حرارة** ، **شمسا** ، **هواء ومطرا** .»

م.ن ، ص ٥٢٥ : « (هذه المطالبة بالانبساط والتطور الحر للاستعدادات الطبيعية) تؤسس نفسها على هذه الحماقة ، وهي أن الافراد الذين يشكلون المجتمع يريدون المحافظة على **فرديتهم** ، **البقاء ما هم** ، مع اشتراطهم على المجتمع تحوّلا لا يمكن ان **يأتي الا من تحولهم هم** .»

عند الاشتراكيين الحقين ، الفرد والمجتمع يصيران مجـــردات ، مقولات ، والعلاقات فيما بينهما علاقات بين مقولات . الفرد يصبح تجسيد الخاص ، المجتمع تجسيد العام ، علاقاتهما تتصور كصلات تنشأ بين الخاص والعام ، الامر الذي يجعل أنه لا يبقى علينا ان نكترث لما يؤلف الطابع الواقعي للفرد والمجتمع ، لعلاقاتهما الواقعية وتطورهما (٢٨٣) .

ان معضلة الفاعلية الانسانية ، المعتبرة اتحاد الشغل واللذة ، تعالج بنفس الكيفية المجردة . فالفاعلية الانسانية لا تُحلَّل في علاقاتها مع الانتاج ، بل تعتبَر صفة ميتافيزية للانسان . الشغل واللذة كعنصرين مكوّنين لهذه الفاعلية هما ايضا متصوران تجريديا ، سواء في ذاتيهما او في علاقاتهما . الشغل يصبح ، من جراء ذلك ، مقولة تنطبق بلا فرق او مبالاة على كل الاشغال وكل درجات تطور الشغل. معتبَرا في هذه الهيئة ، الشغل يعاد الى الفاعلية الحرة والخالصة ، الى الفاعلية في ذاتها ، التي ليس لها لا واقعية عيانية ولا نتائج مادية . هذه الفاعلية المحضة، التي ليست محددة من قبل بواعث عيانية بل من قبل الارادة الحـــرة لذاتها ، لحاملها ، الذي ليس هو الانسان الواقعي المحدد بعلاقات اقتصادية واجتماعية ، بل الانسان المعتبَر في ذاته ، الانسان المجرد ، تتطابق بالواقع مع الفاعلية الروحية

---

٢٨٣ ـ م.ن ، ص‌ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥ : «في مكان آنف ، أعيرت الطبيعة بضع فكَر ـ مثل يتمنى الاشتراكي **الحق** ان يراها محققة في المجتمع الانساني . كما سابقا الفرد ، الآن المجتمع كافة هـو مرآة الطبيعة . انطلاقا من هذا التصور للطبيعة ، يمكن الان استخلاص نتائج صالحة للمجتمـــع الانساني . بما ان المؤلف يهمل دراسة المجتمع الانساني ويكتفي بهذه المماثلة الناشفة لا نرى لمـــاذا المجتمع الانساني لم يكن من الأزل انعكاسا أمينا عن الطبيعة . ان الجمل الكبيرة عن المجتمع ، الذي يجده الفرد منتصبا أمامه كقوة تسعى الى ارغامه ، تنطبق بالتالي على كل أشكال المجتمع ... . المجتمع ، **الاشتراك** ، كاتبنا لا يتصوره كتفاعل **للحياتات الفردية** التي تؤلفه ، يجعله كيانا ـ جوهرا تفاعلاته مع **الحياتات الخاصة** لها طابع خاص . اذا كان ممكنا ان يكون لذلك كله أقل علاقة مع حالة واقعية ، فانه لا يمكن ان يكون سوى الوهم الذي يجعل من الدولة كيانا ـ جوهرا مستقلا ، ينتصب أمام دائرة الحياة الخاصة ، والاعتقاد بهذا الاستقلال الظاهر كشيء ما مطلق . أضف الى ذلك اننا قليلا ما نجد هنا ، كما على اي حال في كل المقال ، ذاكرا للطبيعة والمجتمع ، بل فقط لمقولتين : الفردية والعمومية . تعطيان أسماء متنوعة ويقال انهما طباقان ، أطروحتان نقيضتان ، توفيقهما امر يُتمنّى ويشتهى .

من العلاقة المفترضة لهذين الميتافيزيين : الفردية والعمومية ، وليس من التطور الواقعـــي للمجتمع ، يُستنتج المطلب المعروض أعلاه ، الذي يوجهه الفرد الى المجتمع . ليس لنا لهذا الفرض الا ان نعتبر الافراد الخاصين كممثلين مجسدين للخاص ، والمجتمع كتجسيد للعام ، والقضيـــة مقضيّة . »

وتتحد معها في الهوية (٢٨٤) .

ينتج عن هذه المثلنة للفاعلية المادية أنها تجد نفسها ، ان صح القول ، مدنّسة حين تتخذ طابعا ماديا . هذا يفسر ان الاشتراكيين **الحقين** يأنفون الانشغال بمثل هذه الفاعلية وبنتائجها (٢٨٥) .

على هذا التصور للفاعلية الانسانية تؤسس الاشتراكية **الحقة** نقدها للمجتمع البرجوازي وتصورها للاشتراكية .

العنصر المميز للمجتمع البرجوازي والذي يؤلف في الوقت نفسه عيبه الاساسي هو واقع أن الشغل واللذة ، في هذا المجتمع الذي يرتكز على الملكية الخاصة والتزاحم ، منفصل احدهما عن الآخر ، وأن المنتِج مفصول عن منتَج شغله . من هنا التعارض ، في هذا المجتمع ، بين المالكين وغير المالكين ، التعارض الذي يعيده الاشتراكيون **الحقون** الى الشكل البدائي للتعارض بين البطالين والمنتجين ، الذي يستعيرونه من الاشتراكيين الطوباويين الاوائل ، بخاصة من سان – سيمون (٢٨٦) . حل المشكلة الاجتماعية يجده الاشتراكيون **الحقون** في

---

٢٨٤ – **م.ن** ، ص ص ٥٣١ – ٥٣٢ : «لاقامة الدليل على ان الشغل بوصفه تظاهرا للحياة يجب ان يجلب لذة ، يفترض ان الحياة يجب ان تجلب **في كل واحد** من تظاهراتها لذة ويستنتج من ذلك ان تلك يجب ان تكون الحال ايضا بالنسبة لهذا التظاهر للحياة الذي هو الشغل .»

م.ن ، ص ٥٣١ : «الشغل يصير نقطة وصول تصور مجرد للانسان وللطبيعة . انه يعرَّف بكيفية تنطبق بلا فرق على كل درجات تطور الشغل» .

م.ن ، ص ص ٥١٢ – ٥١٣ : «نجد هنا فوق ذلك ما يعنيه **الاشتراكيون «الحقون» بالفاعلية الحرة** . ان كاتبنا يدع هنا يفلت من لسانه بلا حذر انها الفاعلية التي **ليست محددة من قبل أشياء خارجة عنا** . انها بتعبير آخر الفعل المحض ، الفاعلية الخالصة ، المطلقة ، الفاعلية التي ليست اي شيء سوى فاعلية ، وتعيدنا مرة اخرى الى وهم الفكر المحض ... الذات الموجودة في منشأ هذه الفاعلية لا تستطيع ان تكون هي ايضا ، بالتالي ، انسانا حقيقيا من لحم وعظم ، بل هي فقط الروح المفكر . **الفاعلية الحرة** ، متصورة هكذا على الطريقة الالمانية ، ليست سوى صيغة أخرى **للحرية المطلقة ، غير المشروطة ، المذكورة آنفا .**»

٢٨٥ – **م.ن** ، ص ٥١٢ .

٢٨٦ – **م.ن** ، ص ٥١٠ : «ان مجتمعنا الراهن أصبح غابة الى درجة ان الافراد يندفعون بجشع وحشي على منتجات شغل الغير ويدعون شخصيتهم الخاصة تنحدر وتنحط (أصحاب الايرادات الذين **لا يعملون**) ، الامر الذي له **كعاقبة حتمية** أن آخرين يدعون ايضا شخصيتهم تنحط ... ليس بالكسل بل بالجهد المضني الذي يبذلونه مرغمين كي ينتجوا مثل الآلات (البروليتاريون) .»

م.ن ، ص ٥١١ : «ذات دلالة بالنسبة لاشتراكيّنا **الحق** طريقة رؤيته في التعارض بين **اصحاب الايرادات** والبروليتاريين «**قطبي** مجتمعنا» . هذا التعارض ، **الذي وُجد تقريبا في كل المجتمعات الواصلة الى درجة محددة من التطور** ، والذي أفاض عنه وأسهب الكتّاب الاخلاقيون منذ أزمنة

اعادة الملكية الحقيقية التي تولد من الفاعلية الانسانية الحرة التي بها يتحقق اتحاد المنتج ونتاج شغله . على هذا التصور النظراني للملكية الحقة المعارضة للباطلة يرتكز اشتراطهم أن تكون الملكية الحقة في متناول الجميع ، وهذا يستجيب لأمنية البرجوازية الصغيرة ، أمنيتها في ان ترى الملكية العادلة مضمونة (٢٨٧) . استبدال الملكية الباطلة بالحقة سيكون عمل الاشتراكية .

اذ يبقون في منأى عن الصراعات الطبقية للبروليتاريا واذ يشاطرون بالواقع الايديولوجيا البرجوازية - الصغيرة ، الاشتراكيون الحقون ، مستلهمين إنسية فويرباخ وشيوعية هس الانسية ، يقلصون الاشتراكية الى تضامن انساني غامض، يستجيب لجوهر البشر النوعي - العام . خالصين من وحدة - جوهر الطبيعة الى وحدة - جوهر البشر ، يفكرون انها ستحقق من جديد بإحياء التضامن الانساني، بفضل الاشتراكية ، التي ستلغي النظام الرأسمالي مولد ضياع انسانية البشر وانخلاعهم (٢٨٨) .

سحيقة ، قد أبرز مجددا ، خصوصا في بدايات الحركة البروليتارية ، في وقت كان فيه لا يزال للبروليتاريا مصالح مشتركة مع **البرجوازية** الصناعية **والبرجوازية - الصغيرة** . انظر كتابات كوبت Cobet وبول لوي كوريه Paul Louis Courier او سان - سيمون الذي كان لا يزال يعد في البداية الرأسماليين الصناعيين في عداد **الشغيلة** بمعارضة البطالين ، أصحاب الايرادات . الافصاح عن هذا التعارض العادي لا في اللغة العادية بل في اللغة المقدسة ، لغة الفلسفة ، اعطاء هذه الفكرة المبتذلة **لا** تعبيرا مناسبا لها بل تعبيرا مصعدا ، مجردا : هذا ما يتقلص اليه ، في هذه الحالة ، كما في كل الحالات الاخرى ، عمق العلم الالماني الذي تؤلف الاشتراكية **الحقة** تتويجه .»

٢٨٧ - **م.ن** ، ص ٥١٧ : «هذه النظرية عن الملكية الحقة تتصور الملكية الخاصة ، كما وجدت **واقعيا** الى هنا ، كأنها ظاهر بسيط ، وبالعكس تتصور التمثيل المجرد ، المحرر من هذه الملكية الواقعية ، كأنه هو **حقيقة وواقع** هذا الظاهر ... : هي اذن ذات طابع ايديولوجي بشكل مطلق . انها تعبر فقط بمزيد من الوضوح والدقة عن تصورات البرجوازيين - الصغار ، الذين مشاريعهم الخيرية وأمانيهم الورعة تميل هي ايضا الى حذف غياب الملكية .»

٢٨٨ - **م.ن** ، ص ٥٢٨ : «من هذه الطبيعة **العامة** للانسان يستخلصون **المساواة الانسانية** والاشتراك الانساني . الشروط المشتركة لكل البشر تظهر هنا نتاج جوهر الانسان ، الطبيعة ، في حين هي ، وكذلك وعي المساواة ، نتاج التاريخ . ان كاتبنا ، اذ لا يرضى بذلك ، يؤسس المساواة على كونها حسب رأيه مجذرة ومضمونة **في القاع الاصلي المشترك للكينونة** ... . («اذ يعلمنا ان الطبيعة هي قوام كل حياة ، الاساس البدائي المشترك للوجود) الكاتب ذهب أبعد بكثير من الفرنسيين، فقد ... برهن ليس فقط مساواة البشر فيما بينهم ، بل ايضا مساواتهم مع برغوث ، فلينة ، حجرة .»

«نريد جيدا ان نعتقد ان **كل الفضائل الاجتماعية** لاشتراكيتنا الحق ترتكز على **عاطفة التضامن الانساني وشعور الوحدة الانسانية الطبيعية** ، رغم أنه على هذا **التضامن الانساني الطبيعي** ترتكز ايضا القنانة الاقطاعية والرق وكل التفاوتات الاجتماعية في جميع العصور .»

يتصورون ، على طريقة الطوباويين ، الاشتراكية كمثل أعلى يعارضون بـــه المجتمع الحاضر . مقتنعين كالفلاسفة النظرانيين بجبروت الـــروح ، يفكرون أن التناقضات الاجتماعية عائدة في آخر تحليل الى تعارضات أفكار يمكن ان تُحلّ بالطريق الروحي (٢٨٩) . بما أنهم من جهة أخرى يعتقدون ، مع محبي الانســـان والاصلاحيين ، ان المسألة الاجتماعية يمكن ويجب ان تُحلّ بكيفية سلمية ، بدون انقلابات عميقة اقتصادية واجتماعية ، فانهم يعلّقون ، في اصلاح المجتمع ، أهمية أولية على مسكّنات من نوع تنظيم الشغل وخصوصا تعميم التربية والتعليـــم والإخاء الانساني ، الذي يعيرونه دورا حاسما في تشييد الاشتراكية . بفضـــل اعادة الفاعلية الانسانية الحرة ، بواسطة الغاء المنظومة الرأسماليـــة ، سيعيش الافراد في النظام الاشتراكي حياة منسجمة ، تتفق وجوهرهم النوعي ــ العام ، وستعود الارض بالنسبة للبشر مكانا مصطفىً ، جنة عدن جديدة (٢٩٠) .

ان الطابع المثالي والطوباوي للاشتراكية **الحقة** يفسر ميلها الى النظران ، الى العاطفية ، وبذلك عينه الى الكلامولوجيا . من هنا ايضا واقع ان الاشتراكيين **الحقين** ، في كتاباتهم النظرية ، لا يتوجهون الى البروليتاريا بقدر ما يتوجهون الى الاذهان المستنيرة المطلعة على أسرار الفلسفة ، وفي مؤلفاتهم الشعبية ، لا يتوجهون الى فهم القراء بقدر ما يتوجهون الى احساسهم (٢٩١) .

---

٢٨٩ ــ **م.ن** ، ص‌ص ٥١٤ ــ ٥١٥ : «في الصفحة ١٧٢ ، نعلَم ان **العاقبة الاخيرة لنمط الفكر السكولاستيكي هي هذا الكسر لوحدة الحياة ، هذه القطيعة التي وضع لها هس حدا نهائيــا .** هكذا النظرية تُحضَر هنا بوصفها سبب **قطيعة وحدة الحياة** . لا نرى لماذا يتكلـــم الاشتراكيون **الحقون** عن المجتمع اذا كانوا يعتقدون ، مع الفلاسفة ، ان كل الانقسامات **الواقعية** مسبَّبة من قبل **انقسامات مفهومية** . بالفعل يستطيعون ، بفضل هذا الاعتقاد بجبروت المفاهيم الخالق والمدمّر في آن ، ان يتخيلوا ان فردا ما ايا كان قد وضع حدا **لقطع وحدة الحياة** بـ **ابادته لمفاهيم** . عند هؤلاء الاشتراكيين **الحقين** ، كما عند كل الايديولوجيين الالمان ، التاريخ الادبي والتاريخ الواقعي يُخلطان على الدوام ونتائجهما تُحضر بوصفها متعادلة متكافئة . هذا النهج بالحقيقة معلّل عند الالمان ، فهم ، تعويضا عن الدور البائس الذي لعبوه وما زالوا يلعبونه في التاريخ ، يضعون الاوهام ، التي كانوا دوما مزودين بها بشكل خاص ، على نفس الصعيد مع الواقع .»

٢٩٠ ــ **م.ن** ، ص ٥٣٠ .

٢٩١ ــ **م.ن** ، ص‌ص ٣٠٠ ــ ٣٠١ : «الاشتراكية **الحقة** ، التي تزعم انها مؤسسة على **العلم**، هي ذاتها قبل كل شيء علم باطني . كتاباتها النظرية مخصصة لأولئك الذين اطلعـــوا على أسرار **الروح المفكر** ، ولكن لها ايضا أدب ظاهري . اذ عليها ان تقوم بنوع من الدعاية ، على الاقل لانهـــا مهتمة بعلاقات اجتماعية . في مؤلفاتها الظاهرية لا تستدعي **الروح المفكر** الالماني ، بل **النفس** الالمانية. ويزيدها انحمالا الى هذا كونها لا تهتم بالافراد الواقعيين بل **بالانسان** ، وكونها ، وقد اضاعت كل هوى ثوري ، تمجّد حب البشرية الكلي . انها لا تتوجه الى البروليتاريين بل الى صنفي الناس

الاشتراكيون **الحقون** يعتبرون هذا الخليط من اشتراكية ومن إنسانوية الذي يؤلف مذهبهم ، يعتبرونه الشكل الحقيقي والاعلى للاشتراكية (٢٩٢) . فخورين بهذا المذهب ــ انه في نظرهم تعبير العلم الالماني الحق ، القادر وحده ان يعطـي المشكلات الاجتماعية حلا صحيحا نظريا وعمليا في آن (٢٩٣) ــ يُظهرون الصلف والادعاء ازاء المذاهبة الشيوعيين والاشتراكيين الانكليز والفرنسيين(٢٩٤) . فاصلين كتاباتهم عن الحركات الاجتماعية التي ولدتها والتي هي تعبيرها الايديولوجي ، يرون فيها لا نظريات ثورية ترمي الى تحويل العلاقات الاجتماعية بل مذاهب تعطي نفسها كهدف ، كما هم أنفسهم يفعلون ، تحديـد وتثبيت الملامح العامة للمجتمـع

الاوفر عددا في المانيا ، الى البرجوازيين الصغار مع أوهامهم الفيلانتروبية والى الفلاسفة وأتباعهم الذين هم ايديولوجيو هؤلاء البرجوازيين الصغار .»

٢٩٢ ــ **م.ن** ، ص ٥٠٠ : «ما هي هذه **الحقيقة** التي يجلبونها للاشتراكية والشيوعية ؟ يسعون، بواسطة الايديولوجيا الالمانية ، لاسيما ايديولوجيا هيغل وفويرباخ ، الى تفسير التصورات الاشتراكية والشيوعية التي تبقى خارج متناولهم تماما ، جزئيا بسبب جهلهم الظروف التي تندرج فيها هذه التصورات ، جزئيا بسبب الفكرة المغلوطة التي يكوّنونها عن الادب الاشتراكي والشيوعي . يفصلون المنظومات والانتقادات والمجادلات الشيوعية عن الحركة الواقعية التي هي تعبيرها ويلصقونها عسفيا على الفلسفة الالمانية ... . هذه الترجمة للافكار الفرنسية في لغة الايديولوجيين الالمان وهذا الجمع الكيفي والمصطنع للشيوعية وللايديولوجيا الالمانية يؤلفان ما يدعوه هؤلاء الناس **الاشتراكية الحقة** التي يمجدونها بصفتها **فخر الامة وموضع حسد للشعوب المجاورة** ، كما يفعل حـزب المحافظين الانكليز بالنسبة للدستور الانكليزي .

هكذا ليست **الاشتراكية الحقة** شيئا آخر سوى تصعيد الشيوعية البروليتارية والاحزاب والشيع المنتسبة اليها بروابط القربى في فرنسا وانكلترة ، في سماء الروح الالماني ، كما ايضا ... فـي سماء النفس الالمانية .»

٢٩٣ ــ **م.ن** ، ص ٤٩٩ : «ان فاعليتهم ازاء الفرنسيين والانكليز ، المعتبرين من قبلهم **غرباء عن العلم** ... قوامها انشاد المدائح على شرف **العلم الالماني** وتحميله رسالة كشف **حقيقة** الشيوعية والاشتراكية واظهار طابع الاشتراكية **الحقة** . يكبّون فورا على العمل بأنفسهم ، لاداء هذه الرسالة، بوصفهم ممثلي **العلم الالماني** ، الذي بقي عنهم في معظم الحالات غريبا بقدر ما بقيت غريبة كتابات الفرنسيين والانكليز الاصلية التي لا يعرفونها الا بواسطة تجميعات شتاين ، أوليكرس ، الخ .»

٢٩٤ ــ **م.ن**، ص ٥١٨ : «هذا الميدان، ميدان الحكم، ميدان **جوهر الانسان**، ينادي به الالمان، مع شعور عميق بتفوقهم ، ويدعون الشعوب الاخرى اليه ، بوصفه تتويج وغاية التاريخ الكوني . على كـل الاصعدة ، يعتبرون أحلامهم حاملة في ذاتها ادانة أفعال الامم الاخرى ، ورغم انهم لم يكونوا في كل زمن سوى مشاهدي وضحايا ما كان يحدث فهم يعتقدون انهم مدعوّون الى محاكمة العالم أجمع والى جعل المانيا الحد الاخير للتاريخ . رأينا مرارا ان هذا الزهو القومي المفرط والفارغ يتوافق مـع موقف عملي تعيس لحانوتيين وحرفيين .»

المقبل (٢٩٥) . انهم يظهرون قسوة خاصة تجاه الشيوعية ، التي يلومونها على عقيدتها وماديتها وطابعها البراغماتي المنحط . هذه السمات مردها جوهريا ان الشيوعية ، اكثر ايضا من الاشتراكيين ، لا تهتم الا بمسائل عملية ، الامر الذي يحول دون بلوغها المعضلات الكبرى الوحيدة والحقة ، معضلة الفاعلية الانسانية الحقيقية ومعضلة الجوهر الانساني (٢٩٦) . على هذه المآخذ ، يرد ماركس وانجلز أن الطابع المادي والدوغمائي والبراغماتي للشيوعية ، خصوصا للشيوعية الفرنسية، يأتي بالحقيقة من واقع أنها ليست كالاشتراكية **الحقة** مذهبا مثاليا وطوباويا بل هي تعبير صراعات اجتماعية واقعية يجهلها الاشتراكيون **الحقون** (٢٩٧) . بما أنها

---

٢٩٥ — م.ن ، ص ٤٩٩ : «هؤلاء **الاشتراكيون** او **الاشتراكيون الحقون** كما يدعون أنفسهم يرون في المؤلفات الشيوعية الاجنبية لا تعبير ونتاج حركة واقعية بل كتابات محض نظرية تكون برمتها مشتقة من **الفكر الخالص** ، على غرار ما يتصورون انه حالة المنظومات الفلسفية الالمانية . لا يأتيهم على بال انه توجد ، في قاعدة هذه الكتابات ، حتى حين تبشر بمنظومات ، الحاجات العملية ، مجموع شروط وجود طبقة محددة ، تعيش في بلدان محددة . انهم يقبلون ، وعيونهم مغمضة ، أوهام العديد من الممثلين الفكريين لاحزاب ، الذين يعتقدون ان القضية في كتاباتهم هي النظام الاجتماعي الاكثر **توافقا مع العقل** وليست حاجات طبقة وعصر معينين .»

٢٩٦ — **م.ن** ، ص‌ص ٥٠٥ — ٥٠٦ : «الاشتراكيون والشيوعيون الفرنسيون ... لم يبلغوا بأي شكل الفهم النظري **لجوهر** الاشتراكية ... حتى الشيوعيون الراديكاليون الفرنسيون لم يرتفعوا بعد حتى فكرة **الفاعلية الحرة** ... . ان الفرق بين الشيوعية والعالم التجاري قوامه ببساطة انه في الشيوعية يجب ان يكون **الانخلاع الكامل للملكية الانسانية الواقعية** محررا من كل عرض ، اي مُمتلَكًنا» (**كتاب المواطن الالماني** ، ١٨٤٥ ، ص ٤٣) . ان اشتراكيّنا **الحق** اذن يأخذ هنا على الفرنسيين وعيهم الصحيح لحالتهم الاجتماعية الفعلية ، بينما يجب عليهم في نظره ان يسهلوا بلوغ **الانسان** وعيا أفضل **لجوهره** . كل التوبيخات التي يوجهها هؤلاء الاشتراكيون **الحقون** للفرنسيين تتلخص في هذا : فلسفة فويرباخ ليست آخر موضة لمجموع حركتهم . ما يتخذه المؤلف نقطة انطلاق هو هذه الصيغة الجاهزة عن انفصال الشغل واللذة . بدلا من ان يبدأ بهذه الصيغة ، يبدأ ، بعملية قلب ايديولوجي ، بغياب الوعي عند الانسان ، يشتق منه **تبعيته ازاء المادة الخام** ويجعل هذه التبعية تتحقق واقعيا في **انفصال الشغل واللذة** .»

٢٩٧ — **م.ن** ، ص ٥٠٥ : «الشيوعية كما هي بالواقع ممثلة في فرنسا ، مركزها الرئيسي ، ليست سوى المعارضة **الفظة** ضد تعفن الدولة التاجرة الناجم عن الانانية . انها لا تتجاوز هذه المعارضة ولا ترتفع حتى **الحرية المطلقة وغير المشروطة**» (**كتاب المواطن الالماني** ، ١٨٤٥ ، ص ٤٣) .

«اليكم المصادرة النموذجية للايديولوجيا الالمانية : **الحرية المطلقة وغير المشروطة** ، التي ليست سوى نقل على الصعيد العملي للفكر **غير المشروط** . أجل الشيوعية الفرنسية فظة ، ولكن لانها التعبير النظري عن تعارض واقعي ، عليها حسب كاتبنا ان تتجاوزه مفترضة انه سلفا محلول في التصور» (انظر **كتاب المواطن الالماني** ، ص ٤٣ بين صفحات اخرى) .

تشكلت في وقت كانت فيه الطبقة العاملة لا تزال قليلة التطور ، لذا كان الشكل الاصلح لنشر أفكارها هو الرواية الطوباوية ، التي كانت تتفق على النحو الافضل مع وعي العمال الطبقي (٢٩٨) .

بالواقع ، ان المنظومات الشيوعية هي ، رغم طابعها العقيدي ، ذات قرابة وثيقة مع شروط حياة البروليتاريا التي تلهم هذه المنظومات . نرى ذلك بين أمثلة اخرى في مثال فايتلنغ Weitling . بما أنه لم يكن في المانيا بروليتاريا ثورية وبالتالي صراع بيِّن بين البرجوازية والطبقة العاملة ، كما كانت الحال في انكلترة وفي فرنسا ، لذا لم يستطع فايتلنغ ، لانشاء منظومته ، الا ان يستلهم حالة الطبقة التي اليها كان ينتمي ، الطبقة الحرفية .

هذا يفسر كون منظومته تكييفا للافكار الشيوعية الفرنسية مع شروط حياة الحرفيين وذهنيتهم (٢٩٩) .

بقدر ما تتوطد البروليتاريا ويشتد نضالها الطبقي الثوري ، الطوباويات الاشتراكية والشيوعية وبالاحرى تلك التي ، كالاشتراكية **الحقة** ، ليس لها قاعدة اجتماعية ، تفقد أهميتها اكثر فأكثر .

---

٢٩٨ ــ **م.ن** ، ص ٥٥٨ : «الحاصل ، بصدد هذه المنظومات (الشيوعية) ، لقد ظهرت جميعها تقريبا في بدايات الحركة الشيوعية . كانت تُحضر نفسها ، لحاجات الدعاية ، في شكل روايات شعبية ملائمة تماما للوعي الطبقي الذي كان لا يزال قليل التطور لدى البروليتاريين الذين كانوا يبدؤون وحسب في التحرك . كابه Cabet نفسه يدعو كتابه **إيكاريا رواية فلسفية** . لا يجوز مطلقا أن نحكم على هذا المذهبي بموجب منظومته بل بموجب كتاباته المجادلة وعلى نحو عام بموجب كل فاعليته كرئيس حزب . بعض هذه الروايات ، مثلا منظومة فورييه ، مطبوع بروح شعرية . بعضها الآخر ، مثلا منظومتا أوين وكابه ، بلا اية روح شعرية ، مبني على طريقة ميزان تجاري او بروح مرافعية ، ويتناسب تماما مع الافكار السارية في الطبقة التي كان مطلوبا **الفعل** عليها .»

٢٩٩ ــ **م.ن** ، ص ٥٠٨ : «المحتوى الحقيقي لجميع المنظومات التي تركت اثرا دائما هي حاجات الطور الذي ظهرت فيه . في قاعدة كل منها ، يوجد كل التطور السابق لدى أمة من الامم ، العلاقات الطبقية المحددة تاريخيا ، مع عواقبها السياسية والاخلاقية والفلسفية الخ . اذا اعتبرنا القاعدة الواقعية والمحتوى الواقعي للمنظومات الشيوعية ، فتلك جملة فارغة أن نقول عنها انها ذات طابع عقيدي ودكتاتوري . الالمان لم يكونوا يعرفون ، مثل الفرنسيين والانكليز ، علاقات طبقية متطورة ومنبسطة مليا . لم يكن الشيوعيون ، من جراء ذلك ، يستطيعون اقامة منظومتهم الا على تحليل لشروط الجماعة الاجتماعية التي كانوا منها . لذا فمن الطبيعي ان المنظومة الشيوعية الوحيدة الموجودة كانت نسخة عن الافكار الفرنسية ، في اطار تصورات الحرفيين المحدودة الضيقة التي قررها ضيق شروط وجودهم .»

ب ـ كارل غرون : «الحركة الاجتماعية في فرنسا وبلجيكا» (دارمشتادت ، ١٨٤٥) او : طريقة الاشتراكيين «الحقين» في كتابة التاريخ (٣٠٠)

مع كارل غرون يصل ميل الاشتراكية **الحقة** الى الكلامولوجيا الى ذروته (٣٠١) .

في هذا الكتاب عن الحركة الاجتماعية في بلجيكا وفي فرنسا ، المصنوع من خليط أزهار بلاغة خاصة بأدب ألمانيا الفتاة وإنسانوية ، ما كان بلا قوام عند الاشتراكيين **الحقين** يصبح هنا غير موجود بشكل مطلق . وهذا الامر الكريه يزيده قبحا واقع أن غرون يرفق هذا الحشو بطلقات بوق كما لو كان كشفا منزّلا عجيبا (٣٠٢) .

يغترف كل علمه من فويرباخ ومن هس . فويرباخ كشف له أن الدين يولد من انخلاع الجوهر الانساني في الإله ، أن الانسان الحق ، المحرر من الانخلاع ، يؤلف مقياس كل الاشياء وأن تحقيق الانسان **الحق** هو هدف التاريخ (٣٠٣) . يستعير ، من جهة أخرى ، عن هس تصور أن الشكل الجوهري لانخلاع الجوهر الانساني هو الذي يحصل في المال وأن هذا الانخلاع لا يمكن حذفه ألا بإلغاء النظام

---

٣٠٠ ــ **م.ن** ، ص‌ص ٥٣٥ ــ ٥٨٦ .

٣٠١ ــ **م.ن** ، ص‌ص ٥٠١ ــ ٥٠٢ : «يضاف الى هذا ان الاشتراكية الحقة نتحت الطريق لجمهرة من أدباء جاؤوا من حركة المانيا الفتاة ، من مشعوذين وكويتبيين ، وبواسطتهم لاستغلال الحركة الاجتماعية . ان غياب الصراعات الحزبية **الواقعية** ، المشبوبة العاطفة والرامية الى هدف عملي في المانيا جعل ان الحركة الاجتماعية كانت في البداية حركة محض ادبية . الاشتراكية **الحقة** تمثل الحركة الاجتماعية الادبية ، المولودة خارج الانشغالات الحزبية الحقيقية ، في شكلها الاكمل. حتى بعد تشكل الحزب الشيوعي لا تزال تريد البقاء . غني عن البيان انه ؛ منذ ميلاد حزب شيوعي حقيقي في المانيا ، يرى الاشتراكيون **الحقون** جمهورهم ينحصر اكثر فأكثر في الجمهور البرجوازي ــ الصغير وفي الكويتبيين العاجزين والساقطين الذين يمثلون هذا الجمهور .»

٣٠٢ ــ **م.ن** ، ص‌ص ٥٣٥ ــ ٥٣٨ .

٣٠٣ ــ **م.ن** ، ص ٥٣٨ : بمجرد أن نذكر اسم فويرباخ نكون لخصنا كل عمل الفلسفة من فرنسيس بيكون الى ايامنا ، نكون قلنا في الوقت نفسه ما تريده الفلسفة وما تعنيه في آخر تحليل ونكون وجدنا **الانسان** بوصفه نتيجة التاريخ الكلي الاخيرة . وبهذا العمل ، نتقدم نحو الحقيقة بشكل أأمن وأعمق مما لو انشغلنا بالاجور والمزاحمة ونقائص الدساتير ، الخ . به نصل الى تصور **الانسان ... الانسان المحض ، الحقيقي .»**

الرأسمالي (٣٠٤) .

مسلحا بالعلم الشامل الخاص بالعالم الالماني ، يوبخ باكتفاء مدّعٍ الاشتراكيين الفرنسيين ، الذين يعتبرم أذهانا صغيرة ، ويدعوهم الى استلهام الانسية كي يعملوا عملا مفيدا (٣٠٥) .

فضلا عن ذلك ، ليس له اية معرفة مباشرة بالمنظّرين الفرنسيين . الشيء القليل الذي يستطيع ان يقوله عن الاشتراكية في بلجيكا وفرنسا أخذه من شتاين ومن ريبو Reybaud وأكمل ملاحظاته بأفكار من هس (٣٠٦) .

بما انه لا يكلف نفسه عناء تحليل المذاهب الفرنسية في صلاتها مع العلاقات الاجتماعية ، لذا فان كتابه أسوأ ايضا من كتاب شتاين ، الذي حاول على الاقل ان يقيم علاقة بين المذاهب الاشتراكية والشيوعية الفرنسية والتطور الاجتماعي في فرنسا (٣٠٧) .

ان نقده لمختلف الاشتراكيين والشيوعيين الفرنسيين ليس أفضل من عرضه العام للاشتراكية والشيوعية . نقده لسان ــ سمون ما هو سوى انتحال لا حياء فيه لما كتبه عنه شتاين وريبو (٣٠٨) . من علٍ يعامل كابِه ، يعتبره ذهنا محدودا، وهذا لا يمنعه من أن ينهبه (٣٠٩) . في نقده لبرودون يهمل تبيان لماذا محاولة هذا الاخير الاستعاضة عن الجدل الهيغلي الذي يرتكز على انبساط المفاهيم بجدل متصور كتطور سلسلي كان لا بد ان تفشل (٣١٠) . صحيح ان هذا كان يشترط ان

---

٣٠٤ ــ م.ن ، ص‌ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ .

٣٠٥ ــ م.ن ، ص ٥٤١ : «بوصفه رسول الاشتراكية **الحقة** ، السيد غرون لا يكتفي بأن يقيم، مثل الرسل الآخرين ، زملائه ، بفخر ، علم الالمان الجامع الكوني في معارضة جهل الشعوب الاخرى ... . مضايقا ممثلي مختلف الاحزاب الاشتراكية والدمقراطية والشيوعية ، يحضر لهم بوصفه رسول الاشتراكية **الحقة** . ولا يبقى عليه عندئذ سوى ان يلقنهم دروسا وأن يطلعهم على أعماق الانسية.»

٣٠٦ ــ انظر م.ن، ص٥٢٢ : «لنبرز اولا بأول المخطط والافكار القليلة المنقولة التي تؤلف هيكل كتاب غرون . المجموع أُخذ من هس ، الذي ، عدا ذلك ، يترجمه غرون بشكل عظيم . الموضوعات ــ الافكار التي كانت عند هس بالغة الغموض وصوفية ... تصير عند السيد غرون محض حماقة .

هس ينشىء موازاة بين تطور الاشتراكية الفرنسية وتطور الفلسفة الالمانية : سان سيمون يوافقه شيلنغ ، فوريه هيغل ، برودون فويرباخ ... . هذه التخطيطية الاجمالية المستوحاة من هس تؤلف الهندسة الداخلية لكتاب غرون ، الذي لا يفوته ان يعطي جمل هس طابعا ادبيا صغيرا .»

٣٠٧ ــ م.ن ، ص ٥٤٣ .

٣٠٨ ــ م.ن ، ص‌ص ٥٤٤ ، ٥٦٤ .

٣٠٩ ــ م.ن ، ص‌ص ٥٤٢ ، ٥٧٤ ــ ٥٨٤ .

٣١٠ ــ م.ن ، ص‌ص ٥٨٥ ــ ٥٨٦ .

يكون قادرا على نقد الجدل الهيغلي ، وهو امر لم ينجح فويرباخ في ادائه ، وغرون اقل استطاعة ايضا (٣١١) .

اللوم الرئيسي الذي يوجهه الى فوريه هو أنه لم يبحث ، كما فعل فويرباخ ، عن الامر الذي يؤلف جوهر الانسان . وهذا يفسر تحليلاته السطحية للدين والسياسة بوصفهما سببي الانخلاع الانساني وكذلك للمجتمع (٣١٢) . يعترف له مع ذلك بمأثرة كونه أعلن أن الشغل واللذة يجب ان يترابطا ترابطا لا ينفصم في الفاعلية الانسانية وأن الانتاج والاستهلاك لا ينفصل احدهما عن الآخر ، فكل منهما شرط للآخر يكيفه (٣١٣) . كل اعتبارات غرون في موضوع الانتاج والاستهلاك انما تتقلص الى هذه الملاحظة العاميّة التي مفادها انه يلزم بشر لانتاج السلع وأنه في الانتاج تستهلك مواد أولية وبطريقة أعم نفقات الانتاج (٣١٤) .

وحدة الانتاج والاستهلاك ، متصورة كما عند جميع الاشتراكيين **الحقين** بوصفها وحدة الشغل واللذة ، تتخذ عنده قيمة تكافؤ مطلق ، مردّه انه ثمة دائما توافق كامل بين العرض والطلب (٣١٥) . في الواقع ، ان هذا التكافؤ المطلق بين العرض والطلب ، بين الانتاج والاستهلاك ، الذي عليه يعتمد الاقتصاديون البرجوازيون ليؤكدوا انه لا يمكن ان يوجد في النظام الرأسمالي لا فيض انتاج ولا

---

٣١١ – **م.ن** ، ص ٥١٩ .

٣١٢ – **م.ن** ، ص ٥٦٩ : «نرى بهذه الجمل الخرقاء كيف يرجع الاشتراكيون **الحقون** الى الايديولوجيا الجوفاء للفلسفة الالمانية كي يضعوها ، وهم يحضرونها كحقيقة مطلقة ، في معارضة اعمال الوصف العيانية التي ينشئها الاشتراكيون الفرنسيون عن المجتمع البرجوازي ، وكيف يضعون في الوقت نفسه الموضوع الذي يهمهم قبل كل شيء ، جوهر الانسان ، في معارضة نقد المجتمع الذي يجريه الفرنسيون . من البدهي انه اذا كنا نعتبر ان الدين والسياسة يؤلفان اساس شروط الحياة المادية ، عندئذ كل شيء يؤول في مرجع اخير الى دراسة جوهر الانسان ، اي دراسة الوعي الذي لدى الانسان عن نفسه .»

٣١٣ – **م.ن** ، ص‌ص ٥٦٩ – ٥٧٠ .

٣١٤ – **م.ن** ، ص‌ص ٥٧٠ – ٥٧١ : «ان ما يبرهنه السيد غرون جوهريا هو وجود علاقة ما بين الانتاج والاستهلاك . يشرح انه لا يستطيع ان يرتدي سترة ، أن يأكل خبزا ، بدون ان يكونا منتَجَين ، وأنه يوجد في المجتمع الراهن أناس ينتجون سترات ، أحذية ، خبزا ، يستهلكها آخرون ، ويعتبر هذا اكتشافا جديدا ... . الاكتشاف الثاني للسيد غرون انه يستهلك ، حين ينتج ، يستهلك المادة الاولية وبكيفية أعم تكاليف الانتاج ، اكتشف بذلك ان لا شيء يخرج من لا شيء وأن ثمة **موادا** هي في قاعدة الانتاج . كان بوسعه ان يجد في اي كتاب اقتصاد ، فصل «الاستهلاك المجدد الانتاج» ، عرض العلاقات المعقدة التي تنطوي عليها هذه التبعية بين الانتاج والاستهلاك ، شريطة ان **لا** يكتفي ، وهو يكتفي ، بهذا التأكيد البسيط وهو انه يلزم جلد لصنع احذية .»

٣١٥ – **م.ن** ، ص ٥٧٢ .

ازمة ، لا يمكن وجوده في هذا النظام بحكم كون الانتاج والاستهـــلاك لا يتطوران بنفس الايقاع . الطحين ، مثلا ، الذي كان بادىء بدء يُنتَج في مطاحن تشغَّـــل باليد ، ثم في مطاحن يحركها الهواء او الماء ، بات يُنتَج الآن في مطاحن بخارية. هذا التحول في نمط انتاج الطحين مستقل عن استهلاك الخبز . انه يتوقف بوجه عام على تغيُّر العلاقات بين الانتاج والاستهلاك ، التغير الذي يولّد تناقضات لا يمكن ان تلغى الا بتحويل نمط الانتاج والعلاقات الاجتماعية (٣١٦) .

ان عيب غرون الرئيسي يأتي من كونه ، في اعتباراته عن الاقتصاد ، لا ينطلق من الانتاج بل من الاستهلاك . اذا ذهبنا من الانتاج ، وجب علينا بالضرورة ان نهتم بفاعلية البشر المنتجة وبشروطها ، الامر الذي يتيح وحده فهم وحل المسائـــل الاقتصادية والاجتماعية . اما اذا بالعكس ذهبنا من الاستهلاك ، عندئذ يمكن ان نعفي نفسنا من تحليل نمط الانتاج والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية وفي هذه الحال نسقط في الكلامولوجيا : هذا ما يفعله غرون (٣١٧) .

---

٣١٦ ــ **م.ن** ، ص ٥٧١ : «الى هنا السيد غرون أقنع نفسه بأنه يجب ان يكون هناك انتاج لكي يكون هناك استهلاك . الصعوبة الحقيقية تبدأ بالنسبة له حين يشرع في تبيان انه ينتج حين يستهلك . السيد غرون ينتهي الى فشل تام حين يحاول القاء ضوء ضعيف على العلاقة المبتذلة والبالغة العمومية التي توجد بين العرض والطلب . من ذلك يصل الى هذه الفكرة وهي انيستهلكه، اي طلبه ، يسبب عرضا جديدا ، ولكنه ينسى ان طلبه يجب ان يكون **فعليا** ، أن عليه ان يقدم معادلا للمنتوج الذي يطلبه ، حتى ينجم عن ذلك انتاج جديد . الاقتصاديون هم ايضا يستندون الىالاتحاد الذي لا ينفك بين الانتاج والاستهلاك ، الى فكرة العرض والطلب المطلقة ، حين يريدون ان يبرهنوا انه لا يوجد ابدا فائض انتاج ، ولكنهم يفعلون ذلك بطريقة تعادل طريقة السيد غرون بساطـــة ورعونة ... . عدا ذلك ينسى السيد غرون ان الخبز المنتَج في ايامنا بفضل مطاحن بخارية ، أُنتج في الامس بمطاحن هوائية او مائية وسابقا بمطاحن ذراعية . انه ينسى ان اساليب الانتاج المختلفة هذه مستقلة تماما عن مجرد استهلاك الخبز وأن ثمة عاملا يتدخل : التطـــور التاريخي للانتاج ، الذي ... لا يفكر به السيد غرون . اما ان مراحل تطور الانتاج المختلفة تتوافق معها علاقات مختلفة بين الانتاج والاستهلاك وتناقضات مختلفة بينهما ، ان هذه التناقضات لا يمكن ان تُفهـــم الا اذا اعتبرنا أسلوب انتاج كل عصر ولا يمكن ان تُحل الا بالتحويل الفعلي لهذا النمط الانتاجي وللعلاقات الاجتماعية التي ترتكز عليه ، فهذا امر ليس لدى السيد غرون أقل فكرة عنه .»

٣١٧ ــ **م.ن** ، ص ٥٧٣ : «اذا ذهبنا من الانتاج ، انشغلنا حتما بشروطه الواقعية ، بشروط فاعلية البشر المنتجة . ولكن حين نذهب من الاستهلاك ، يمكن ان نبقى عند اعلانات من نوع اننا لا نستهلك حاليا بطريقة **انسانية** ، مع المطالبة **باستهلاك انساني** ، بنمط تربية من شأنه ان يسهل هذا

ليس عنده اية فكرة عن العلاقات الحقيقية التي توجد بين الانتاج والاستهلاك. انه لا يرى أن التكافؤ المطلق بين الانتاج والاستهلاك ، الذي يعتبره ضروريا ، سيفضي حتما الى توقف الانتاج ، وأن انتاج السلع الزائد بالنسبة للحاجات ، الذي هو ظاهرة طبيعية في النظام الرأسمالي ، بفعله على القيمة التبادلية ، يولّد حتما ازمات (٣١٨) . انه مساق ، من اجل تأييد اطروحته عن اتحاد الانتاج والاستهلاك، الشغل واللذة ، الى الاستنجاد بتخريفات الاشتراكيين **الحقين** عن الاستهلاك **الانساني** ، الذي هو وحده يستجيب **لجوهر** الانسان (٣١٩) .

الاستهلاك ، او عند جُمل من نفس الطراز ، دون ان نهتم اقل اهتمام بشروط الحياة الواقعية ، بالبشر ونشاطهم . يجب ان نذكر ايضا ، على سبيل الخاتمة ، انه بين الاقتصاديين انما الذين ذهبوا من الاستهلاك كانوا رجعيين وأنكروا العنصر الثوري الذي تحويه المزاحمة والصناعة الكبرى.»

٣١٨ — **م.ن** ، ص ٥٧٢ : «وحدة الانتاج والاستهلاك هذه ، التي ، في الاصل ، عند الاشتراكيين **الحقين** ، تعني ان الفاعلية هي بنفسها يجب ان تمنح لذة (وهذا عندهم محض خرافة)، يؤوّلها السيد غرون في معنى أوضح وأدق ، بقوله ان **الاستهلاك والانتاج مرئيّين من الزاوية الاقتصادية يجب ان يتطابقا** (ص ١٩٦) ، ولذا فانه يجب أن لا يكون ثمة زيادة في كمية المنتوجات على حاجات الاستهلاك المباشرة ، وهذا امر بطبيعة الحال يضع حدا لكل تطور اقتصادي . ولهذا السبب ايضا يلوم بوقار فوريه على كونه يريد ان يعكر صفو هذه الوحدة **بانتاج فائض** . السيد غرون ينسى ان الانتاج الفائض لا يثير ازمات الا بتأثيره على القيمة التبادلية للمنتوجات ...»

٣١٩ — **م.ن** ، ص ص ٥٧٢ — ٥٧٣ : «اذن ماذا كان قوام كل فاعلية السيد غرون ؟ كي يبرهن وحدة الانتاج والاستهلاك ، هذه المقدمة البديهية في الاشتراكية الحقة ، يلجأ الى اكثر صيغ الاقتصاديين اهتراء عن العرض والطلب ، ولكي يكيف هذه الصيغ مع الهدف الذي اليه يسعى ، يحذف منها الحلقات التي لا غنى عنها ، محوّلا اياها الى تخريفات محضة . ما يغطيه هذا كله هو مَثلنَة خيالية وجهل عميق لوضع الاشياء الراهن .»

«ذات دلالة ايضا النتيجة الاشتراكية جدا التي بها ينقل بعسر * مرة اخرى ، أسلافه **الالمان**. الانتاج والاستهلاك منفصلان لان عالما مقلوبا فصل احدهما عن الآخر . كيف فعل ذلك ؟ بادراجه بين الاثنين مفهوما (فكرة القيمة والسعر) كأنه إسفين ، **قطع وحدة الانسان** ...»

«ان استهلاك كل واحد لا يتصور بشكل مستقل عن استهلاك الجميع في اطار التزاحم ، هذا واقع دائم **كثيرا او قليلا** . وكذلك بالنسبة لانتاج كل واحد وانتاج الجميع . القضية هي فقط معرفة **كيف** وفي اي شكل يتحقق ذلك . هذا السؤال لا يجيب عنه السيد غرون الا بالمسلمة الاخلاقية حول الاستهلاك **الانساني** ، حول اكتشاف «الجوهر الحقيقي للاستهلاك» (ص ٤٣٢) . بما انه يجهل كل شيء عن شروط الانتاج والاستهلاك الواقعية ، لذا لا يبقى له من مورد آخر سوى الحديث عن **الجوهر الانساني** ، هذا الملاذ الاخير للاشتراكيين **الحقين** .»

ج ـ الدكتور جورج كوهلمان من هولشتاين
أو نبوّة الاشتراكية «الحقة» .
العالم الجديد أو ملكوت الروح على الارض . بشارة (٣٢٠)

تنتهي **الايديولوجيا الالمانية** بنقد لجورج كوهلمان ، عميل النمسا المأجور ، الذي كان يجوب سويسرة نبيًا ملهَما ، بقصد تحويل الحرفيين الالمان عـن الشيوعية . هذا النقد من صنع هس الذي كان قد نشر من قبل مقالا عن كوهلمان والانبياء الشيوعيين الآخرين في سويسرة . وهو يصنّف خطأ في نقد الاشتراكية **الحقة** العام . بالفعل لم يكن كوهلمان نصيرا لهذه الاخيرة بل كان بالاحرى علـى ارتباط مع الشيوعية الحرفية السويسرية التي كانت قد تشكلت تحت تأثير فايتلنغ و ا. بيكر ومالت نحو النبَوِيَّة مع آلبرشت . هذا الانحلال للشيوعية ، الـذي يعلّل بعدم وجود بروليتاريا قوية ، كان له أن اشتد مع كوهلمان . فما كان تعبيرا عن اتجاه ديني عتهي عند آلبرشت كان يتأكد عند كوهلمان محض خداع . كان يستغل جهل الحرفيين الالمان في سويسرة وسرعة تصديقهم ، ليصرفهـم بصورة منهجية عن النضال الثوري ، ملوّحا لهم بقرب مجـيء فردوس جديد علـى الارض (٣٢١) . بل استطاع ان يقنع ا. بيكر بأنه حل نهائيا المشكلة الاجتماعية وبأن معه وُلدت الاشتراكية الحقيقية (٣٢٢) . بالواقع لا نجد عند كوهلمان لا تحليلا للعلاقات الاجتماعية ولا فكرة أصيلة . كله إطناب وثرثرة . مواعظه كاريكاتور **أقوال** مؤمن للأب لامنيه Lamennais ، التي يعطيها منحى سوقيا . آخذا وضعيـة الدكتور ـ اعجوبة والنبيّ ، يبشر بقرب مجيء ملكوت جديد لله على الارض ، فيه سيكون جميع البشر سعداء (٣٢٣) . يرسم بشكل غزلي الانتقال من المجتمـع الحاضر الى المجتمع القادم ، الانتقال الذي سيتم لا بثورة اجتماعية بل بكيفيـة سلمية . معطيا هكذا الحاكمين والمالكين كل راحة واطمئنان ، يدعو مستمعيـه وقراءه الى الامل والرجاء في الصبر والهدوء (٣٢٤) .

---

٣٢٠ ـ **م.ن** ، ص ص ٥٨٧ ـ ٥٩٧ . عن هذا النقد لجورج كوهلمان انظر **ف. مونكه** : مساهمة م. هس في «الايديولوجيا الالمانية» ، **حوليات معهد جان جاكومو فِلترينلي** [بالايطالية] ، ميلانو ، ١٩٦٣ ، ص ص ٤٣٨ ـ ٥٠٩ . هذا المقال يحلل بالتفصيل شخصية وتحريض كوهلمان . وهو يثبت ان مؤلف النقد هو م. هس ، الذي سبق ان نشر بصدده مقالا في **مرآة المجتمع** ، ١٨٤٥ ، العدد السادس : «سويسرة : تحركات الانبياء الشيوعيين» . عن كوهلمان ، انظر ايضا الجزء الثاني من هذا المؤلف .

٣٢١ ـ **م.ن** ، ص ص ٥٨٧ ـ ٥٩١ .

٣٢٢ ـ **م.ن** ، ص ص ٥٨٧ ـ ٥٨٨ .

٣٢٣ ـ **م.ن** ، ص ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠ .

٣٢٤ ـ **م.ن** ، ص ٥٩٦ .

«ملكوته الربّاني ليس الا تقليدا للمنظومة الراسمالية . بعكس الشيوعيين ، الذين يفكرون ان اختلاف القدرات يجب ان لا يستتبع اختلافا في تلبية الحاجات، يسوّغ بتفاوت القدرات ابقاء الامتيازات ويؤسس عله هذه الاخيرة هيياركية يجب ان تؤلف قاعدة المجتمع الجديد وعلى راسها يجد بصورة طبيعية مكانه (٢٢٥) . هذا المذهب ، الذي ينادي بدوام اللامساواة بين البشر ، ليس شيئا آخر سوى دفاع عن المنظومة الرأسمالية وعن استغلال الطبقة العاملة من قبلها (٢٢٦) .

ص ٥٩٧ : «ليس عليكم أن تهدموا ولا ان تدمروا ما يسد دربكم ، بل أن تلفوا على الحاجز وأن تدعوه جانبا . حين ستتصرفون هكذا سيزول من تلقاء نفسه اذ لن تبقى له علة وجود .»

«اذا كنتم تبحثون عن الحقيقة وتنشدون النور ، الكذب والظلمات ستزول من بينكم .»

٢٢٥ – م.ن ، ص‌ص ٥٩٣ – ٥٩٦ .

٢٢٦ – م.ن ، ص ٥٩٣ .

الخلاصة

ان تطور ماركس وانجلز في ١٨٤٥ وأوائل ١٨٤٦ يتّسم بإنضاج المبادىء الاساسية للمادية التاريخية . هذا الانضاج يتحقق في ارتباط وثيق مع تطورهما السياسي والاجتماعي ، الذي كان يسوقهما الى الاتحاد بالبروليتاريا على نحو متزايد الوثوق والى المشاركة في نضالاتها . فهذا الانضاج للمادية التاريخية يستجيب للحاجة الى اعطاء البروليتاريا ، بطرد المثالية والعقيدية والطوباوية ، القاعدة النظرية الوحيدة القادرة على السماح لها بقيادة نضالها نحو النصر .

سابقا كان اعتناقهما الشيوعية قد قادهما الى تصور أول للمادية التاريخية، كان يبرز من تحليلهما النقدي للنظام الرأسمالي ولدور البروليتاريا الثوري .

في مقالَيه في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** (١٨٤٤) : «المسألة اليهودية» و«مدخل الى نقد فلسفة الحق لهيغل» ، كان ماركس قد أكد ، في نقده للنظام الرأسمالي ، على أهمية عمل البروليتاريا المدعوة الى الغاء هذا النظام بثورة شيوعية . ولكنه كان يظهر فيهما تصورا لا يزال نصف ـ مجرد عن البروليتاريا وعن الثورة الشيوعية ، حيث الاولى لها الى حد ما قيمة فكرة ـ قوّانية والثانية تحضر الى حد ما في شكل مسلَّمة او مصادرة .

في هذه **الحوليات** نفسها ، كان يأتي انجلز موضحا تصورات ماركس ، بتبيانه ، بصورة رئيسية في مقاله عن «**مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي**» ، كيف ان عين تطور النظام الرأسمالي ، بتفاقم المزاحمة والأزمات ، الذي يحدد خراب الطبقات الوسطى واشتداد صراع الطبقات بين البرجوازية والبروليتاريا ، يقود بالضرورة الى ثورة شيوعية .

بعد صدور مقالَيه في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** بوقت قصير ، يقوم ماركس ، في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** عام ١٨٤٤ ، بنقد اكثر تعمقا للنظام الرأسمالي . مستلهما فكرة الانخلاع الفويرباخية ، يبرز أن العيب الأساسي للنظام الرأسمالي هو توليده الشغل **المنخلع** الذي يؤدي الى نزع انسانية جميع البشر ، وبشكل خاص البروليتاريا ، من هنا ضرورة الاستعاضة عن هذه المنظومة بمنظومة شيوعية .

اذ بيّن له تحليل الشغل المنخلع كل أهمية الشغل في تحديد الحياة الانسانية وتطور التاريخ ، يؤسس على مفهوم **البراكسيس** ، اي الشغل المنتج ، تصورا ماديا جديدا للعالم ذا طابع جدلي وتاريخي . يعرض كيف ان الانسان ، بخلاف الحيوان، يعدّل على نحو متزايد العمق الطبيعة ليكيفها مع حاجاته ، يتحول هو نفسه بتعديله الطبيعة ، وكيف ان هذا التحول المترافق للطبيعة والانسان بالشغل يؤلف المحتوى الجوهري للتاريخ .

هذا المؤلف ، الذي يرتكز على تصور الشغل **المنخلع** والانسان **المنخلع** ، اللذين يعارضهما الشغل **الحق** والانسان **الحق** ، كان يشهد بنفوذ فويرباخ نفوذا لا يزال عميقا . من جهة أخرى ، بتقسيمه التاريخ الى طور غير انساني مطبوع بنظام الملكية الخاصة والشغل المنخلع ، الذي سيعقبه طور اعادة أنسنة الانسانية ، بإلغاء الشغل المنخلع بفضل ثورة شيوعية ، كان ماركس لا يزال ينهج الى حد ما نهج الطوباويين.

هنا ايضا ، كان لانجلز ان يقدم لماركس ، بمقاله عن «حالة انكلترة» (١٨٤٤) الذي صدر بعد انجاز **المخطوطات** بقليل ، العناصر التي تتيح له أن يصحح ما كان لا يزال يحمله تصوره عن التطور التاريخي من طوباوية وتجريد ، بتبيانه كيف ان حالة هذا القطر ، في العصر الحاضر ، كانت محددة من قبل تطور الثورة الصناعية .

في **العائلة المقدسة** (١٨٤٥) ، حقق ماركس ، بنقد فلسفة برونو باور وبتحليل بعض المسائل الفلسفية والسياسية والاجتماعية ، تحرره على نطاق واسع والى حد كبير من التجريد والطوباوية .

بما ان الانضاج الاكثر تقدما للمبادىء العامة للمادية الجدلية ولكن خصوصا التاريخية ، في **الاطروحات عن فويرباخ** ، و**حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، و**الايديولوجيا الالمانية** ، يحصل في ارتباط متزايد الوثوق مع الحركة الثورية للبروليتاريا في انكلترة وفرنسا وبلجيكا والمانيا ، وهي بلدان كان ماركس وانجلز على اتصال دائم معها، فمن الضروري ان نعرف التطور الاقتصادي والاجتماعي لهذه البلدان كي نفهم كيف يندرج تطور ماركس وانجلز الايديولوجي في الحالة العامة لزمنهم.

ان ما يطبع حالة انكلترة في الاربعينات هو التحول الاقتصادي والاجتماعي العميق الذي اتت به في هذا البلد الثورة الصناعية . مخربة بالتدريج الحرفيين وصغار الصناعيين بالاستعمال المتنامي للآلات وللبخار كقوة محركة ، تجعل البرجوازية الكبرى ، التي تملك **وسائل الانتاج** الصناعي الجديدة ، الطبقة الحاكمة

الرئيسية . ولكن الارستقراطية العقارية تبقى قوية ، بفضل احتكار الاراضي وتحسين وسائل الزراعة واستثمار مناجم الفحم والنحاس التي تتيح لها الاشتراك في الانطلاق الصناعي . التنافي بين البرجوازية الصناعية والارستقراطية العقارية يتترجم على الصعيد السياسي بالصراع الذي يقوم في البرلمان بين «الهويغ» ــ الاحرار و«التوري» ــ المحافظين . البرجوازية الكبرى والارستقراطية العقارية تتحدان ، عدا ذلك ، في النضال ضد عدوهما المشترك ، البروليتاريا . الى جانب البروليتاريا الريفية ، وليدة خراب صغار الفلاحين والمزارعين ، تتشكل ، من جراء تطور الصناعة الكبيرة المتسارع ، بروليتاريا مدن ، متعاظمة العدد ، ويدفعها البؤس الى الثورة . بفضل احراز حق التحالف والاضراب والتصويت ، تستطيع البروليتاريا الانكليزية ان تواصل بشكل ملائم ، على الصعيد النقابي مع **اتحادات ــ الشغل** وعلى الصعيد السياسي مع **الشارتية** ، كفاحها ضد البرجوازية والدولة البرجوازية .

بينما في انكلترة وصل الانقلاب الصناعي تقريبا الى حدّه في الاربعينات، فهو آنذاك في فرنسا وفي بلجيكا ما يزال في طريق التطور ، وهو بوجه الاجمال في بداياته في ألمانيا ، من هنا الفرق في التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لهذه البلدان بالنسبة الى انكلترة .

في فرنسا ، حيث لا يزال الانتاج الزراعي هو الغالب ، يحتفظ الانتاج الصناعي ، اجمالا ، بطابع حرفي ومانيفاكتوري ، مع رغم ذلك انطلاق متزايد الوضوح للصناعة الكبيرة . النبالة ، التي فقدت أملاكها على يد ثورة ١٧٨٩ ، باتت ضعيفة اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا ، وتكف بعد ثورة ١٨٣٠ عن اداء دور طبقة حاكمة .

باحتكار اراضي النبالة والاكليروس ، تشكلت طبقة وافرة العدد من متوسطي وصغار الفلاحين ، ولكن هذه الطبقة تضعف بنتيجة تقطيع الارض الى ما لا نهاية، التقطيع الذي يعارض تحديث وسائل الزراعة .

الحرافة ، التي تلعب دورا لا يزال هاما ، هي مع ذلك في طريق الانحطاط ، بسبب المزاحمة المتزايدة من جانب المانيفاكتورات والفبارك . ان تطور الفبارك السريع يقوّي البرجوازية الصناعية والمصرفية التي تصل الى السلطة بثورة ١٨٣٠ . انها تهيمن على الدولة و ، بفضل النظام الانتخابي الضريبي ، تستبعد من السلطة الطبقات الوسطى والطبقة العاملة . الطبقات الوسطى تتحد ، في معارضتها للبرجوازية الكبيرة ، مع الطبقة العاملة التي لا تزال مشكّلة ، في قسمها الاعظم ، من حرفيين يُبرلتَرون على نحو متعاظم . الحرفيون والبروليتاريون ، المحرومون من كل حق والذين لا يستطيعون ان ينتظموا لا على الصعيد النقابي ولا على الصعيد السياسي ، يلجؤون ، انتصارا لمطالبهم ، الى اضرابات غير شرعية والى نفضات ينظمونها بصورة مشتركة مع العناصر الثورية البرجوازية ــ الصغيرة في جمعيات سرية .

الحالة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لبلجيكا ، حيث تطور الثـــــورة الصناعية هو ايضا في تأخر عنه في انكلترة ، مماثلة بوجه الاجمال لحالة فرنسا. الصراع السياسي قائم بين الملاكين العقاريين الكبار المحافظين والبرجوازية الكبيرة الليبرالية . كما في فرنسا ، الطبقات الوسطى والطبقة العاملة ، المستبعَدة مـن السلطة بنظام الاقتراع الضريبي ، تميل الى الاتحاد في نضالهـــا المشترك ضد الدولـــة .

اكثر ايضا من فرنسا وبلجيكا ، المانيا في الاربعينات بلد زراعي جوهريا . ان تطور الثورة الصناعية ، المقيَّد بحالة لا تزال نصف ــ اقطاعية وبتجزّؤ البلد الى عدد كبير من الدول ، يحصل ببطء شديد ، حتى تشكل الاتحاد الجمركي ، في سنة ١٨٣٤ ، الذي يخلق شروطا اكثر ملاءمة لنهوض الصناعة الكبيرة . هـــذا النهوض يحصل في سيليزيا ، في ساكسونيا ، وخصوصا في رينانيا وفستفاليا، بينما تبقى شرقي نهر الإلب الملكية الكبرى نصف ــ الاقطاعية وتغلب في المانيـــا الوسطى والجنوبية الملكية الفلاحية الصغيرة والمتوسطة .

مع توطدها ، تشدد البرجوازية الكبيرة معارضتها لبقايا الاقطاعية وللحكـم المطلق وتطالب بنظام ليبرالي ، اي بدستور مع اقتراع ضريبي يتيح لها الوصول ، على الاقل جزئيا ، الى السلطة .

العناصر التقدمية في الطبقات الوسطى : أطباء ، محامـــون ، أساتذة ، صحافيون ، تناضل من اجل الحصول على اصلاحات لا ليبرالية بل ديمقراطية ، وهي مقتنعة بأن دَمَقرطة الدولة ستسمح بحلّ كل المشاكل السياسية والاجتماعية. ان اتجاهها شبه الاشتراكي يجعلها تميل ، كما في فرنسا وبلجيكا ، نحو تفاهـــم وثيق كثيرا او قليلا مع الطبقة العاملة .

الهياج الاجتماعي الذي أثاه تمرد الحائكين ، الذي يضع في امر اليوم مسألة الفقر ، يلد ، في نهاية ١٨٤٤ ، حركة الاشتراكية **الحقة** ، الشكل المميز للاشتراكية الطوباوية في المانيا . بما انه لا يوجد آنذاك لا بروليتاريا قوية ولا طبقة وسطـى ثورية ، تعتمد الاشتراكية **الحقة** بصورة خاصة على مثقفي الاتجاه شبه الاشتراكي. من هنا الطابع المثالي لهذه الاشتراكية ، التي ، بخلاف الاشتراكية والشيوعيـــة الفرنسية والانكليزية ، تنطلق من مفاهيم فلسفية . ترتكز على مذهب هس ، الذي يفكر أن العيب الاساسي للمجتمع الحاضر هو تعمم العزلة والأنانية المتولّدتين من المزاحمة والذي يعطي من جراء ذلك كهدف أولي للاشتراكية الغاء الانانية . ماسخة هذا المذهب ومزيلة طعمه اكثر ، بجعلها من الحب عنصرا رئيسيا في التحويـــل الاجتماعي ، لا تلبث الاشتراكية **الحقة** ان تسقط في اليوتوبيا [الطوباوية] المحضة وفي الفرازيولوجيا [صناعة الجُمل] . مع ذلك ، بالكيفية المثالية والعاطفية التي بها تتناول المسألة الاجتماعية ، تنجح الاشتراكية الحقة ، رغم الرقابة ، في نشر الافكار الاشتراكية على نطاق واسع ، هذه الافكار الاشتراكية التي كان الجمهور الكبير يجهلها حتى ذلك الحين ، وتمهد هكذا بطريقة غير مباشرة الطريق للماركسية،

كما أن الهياج والتحريض الثوري لدى الحرفيين والبروليتاريين يفتحه لها على الصعيد لا الايديولوجي بل الاجتماعي . مولودة في باريس من احتكاك الحرفيين الالمان مع الحرفيين والبروليتاريين الثوريين الفرنسيين ، الشيوعية الحرفية الالمانية تنتشر ، بعد الملاحقات ضد **رابطة العادلين** ، في انكلترة وبلجيكا والمانيا وسويسرة ، وتتخذ ، في كل من هذه البلدان ، طابعا مختلفا يحدده وضع البروليتاريا الخاص . في انكلترة ، الحرفيون الشيوعيون الالمان ، المتأثرون بالبروليتاريا الانكليزية القوية ، هم اول المتحررين من الطوباوية . في فرنسا ، في بلجيكا ، في ألمانيا ، وخصوصا في سويسرة ، حيث يبقى الانتاج الحرفي هو الغالب في كثير او قليل ، تحتفظ الشيوعية الحرفية الالمانية بطابع طوباوي ، تتحرر منه تدريجيا بقدر ما يشارك الحرفيون الثوريون في نضال البروليتاريا الطبقي .

في ألمانيا هذا النضال لا يبدأ حقا يظهر الا في ١٨٤٤ ، مع تمرد الحياكين . البروليتاريا ، التي لم تكن حتى ذلك الحين سوى كتلة بائسة ومنفعلة ، تثور في نفضات مبعثرة حين يدفعها الى نهاية التحمل بؤس لا يطاق ، تشرع ، بعد هذا الاضراب الذي هو في منشأ عملها الثوري ، في تنظيم نضالها الطبقي . تلتحق ، في هذا النضال ، بحركة الحرفيين الالمان ، وعملهما المتضافر يفتح على الصعيد الاجتماعي الطريق للماركسية في المانيا .

في هذه الحالة العامة يواصل ماركس وانجلز انضاج المبادىء العامة للمادية التاريخية بوصفها قاعدة نظرية لنضال البروليتاريا ويشرعان ، بمعارضة الاشتراكية الاصلاحية والشيوعية الطوباوية والاشتراكية **الحقة** ، في تنظيم حزب شيوعي دولي بروليتاري . في البداية ، لا يزالان في عزلة شديدة ، ولكن شيئا فشيئا يلتحق بهما ديمقراطيون ثوريون يتوجهون نحو الشيوعية : ف. فولف ، ج. فيرث ، ي. فايدماير ، ك. دِستِر ، الذين اذ يعتنقون أفكارهما ينضمون اليهما في نضالاتهما .

بعد **العائلة المقدسة** ، ماركس وانجلز يتابعان ، بادىء بدء بصورة منفصلة ، انضاج تصوراتهما الجديدة ، انجلز في بارمن في **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، ماركس في بروكسل في **الأطروحات عن فويرباخ** .

في **الاطروحات عن فويرباخ** حيث يتحرر تماما من النفوذ الفويرباخي ، يذهب ماركس من تصور الدور الاساسي للفاعلية المنتجة ، **للبراكسيس** ، الذي سبق ان شدد عليه في **مخطوطات الاقتصاد السياسي والفلسفة** ، لكي ينقد مادية فويرباخ التي لا تزال نصف – ميتافيزية ولكي يبلور ، بمعارضة هذه المادية ، كما فعل لتوّه في **العائلة المقدسة** بمعارضة **النقد النقدي** لبرونو باور ، بعض الوجوه الاساسية للمادية الجدلية والتاريخية ، سواء بسواء .

لانه لم يفهم الدور المقرّر الذي تلعبه الفاعلية المنتجة ، **البراكسيس** ، في الحياة الانسانية وفي التاريخ ، لذلك انساق فويرباخ الى تصور خاطىء عن الطبيعة والفرد والمجتمع ، وبذلك عينه عن المعضلات الاجتماعية والنظرية . اذ يعتبر الواقع

الحسي فقط في شكل الموضوع وليس في شكل فاعلية الانسان المنتجة ، يرى في الطبيعة لا موضوعا للفاعلية الانسانية بل فقط موضوع تأمل للانسان . من جراء ذلك ، ليست الطبيعة بالنسبة له هي الطبيعة المحوّلة اكثر فأكثر بالشغل الانساني، بل هي الطبيعة كما تحضر أصلا للانسان في شكلها الاول البدائي .

هذا التجاهل لدور **البراكسيس** يفسر تصوره الخاطىء هو ايضا عن الفرد وعن المجتمع . فهو لا يعتبر الفرد في علاقاته الاجتماعية بقدر ما يعتبره في علاقاته الطبيعية مع البشر الآخرين ، من هنا تصوره الانتروبولوجي للانسان ؛ وايضا للمجتمع في شكل النوع ، اي جماعة طبيعية لافراد غير متميزين اجتماعيا. من هنا عجزه عن ادراك علاقات الانسان الحقيقية مع الطبيعة ، وعلاقات الفرد الحقيقية مع المجتمع ، وعن فهم وحلّ المشكلات الاجتماعية التي يعيدها جوهريا الى المسألة الدينية ، المعالَجة من وجهة النظر السيكولوجية ، والمشكلات النظرية، خصوصا مشكلة العلاقات بين الفكر والكينونة .

فقط اذا انطلقنا من **البراكسيس** نصل الى فهم صحيح للصلات بين الانسان والطبيعة ، للفرد معتبَرا في علاقاته الاجتماعية، للمجتمع متصوَّرا بوصفه مجموع هذه العلاقات ، وللمسألة الدينية التي ليس طابعها سيكولوجياً بقدر ما هو اجتماعي والتي لا يمكن ان تُحَلّ الا بتحويل المجتمع . بالبراكسيس ايضا نقبض على العلاقات بين الفكر والكائن ، فالفكر ليس سوى انعكاس الفاعلية الانسانية والتحويلات التي تجريها في الوسط الطبيعي والاجتماعي .

من هذا النقد لفويرباخ كان ماركس يبلور هكذا بعض السمات الجوهرية لمادية جديدة ، تعارض مادية فويرباخ بطابعها التاريخي والجدلي والثوري .

هذا التصور ، الذي كان ماركس يخطّ خطوطه الاولى العريضة ليس اكثر، كان ماركس يوضحه ويبسطه ، لا شك ، في مؤلَّف عن **نقد السياسة والاقتصاد السياسي** ، كان يشتغل عليه آنذاك ، ولكنه لم يُنشر وفُقد .

بخلاف ماركس ، الذي توجب عليه ان يتعهد بالامتناع عن كل نشاط ثوري في بلجيكا ، انجلز متلهف منذ عودته الى بارمن للقيام بدعاية شيوعية نشيطة . يصاب بخيبة ان يجد ، لا ، كما في انكلترة بروليتاريا ثورية ، بل طبقة عاملة حطم البؤس معنوياتها ، وعليها ظاهرا لا تمسك الدعاية الشيوعية كثيرا . يستفيد آنئذ مع هس من واقع أن مسألة الفقر موضع نقاش متواتر ، ليكسبا عن هذا الطريق البرجوازية المستنيرة للشيوعية . في الاجتماعات التي ينظمانها في إلبرفلد ، يسعى الى برهنة أن الشيوعية ليست يوتوبيا بل هي النتيجة الضرورية لتطور النظام الرأسمالي . يعزز هذه الدعوة بخلقه مع هس مجلة ، **مرآة المجتمع** ، يجعلها اول لسان بروليتاري ألماني ، بعرضه فيها شروط حياة الطبقة العاملة ليس فقط في ألمانيا بل ايضا في انكلترة وفرنسا وبلجيكا .

ان تأثير اقامته في البلد الذي كان متأخرا ، ألمانيا ، وارتباطه مع هس ، يظهران في بقاء تصورات فويرباخية عنده ، وفي بعض التردد المذهبي الذي يتجلى،

بين أمور أخرى ، في تراسله مع ماركس حول شترنر ، حيث يفكر انجلز ، بعكس ماركس ، انه من الممكن استعمال نظريته الفوضوية المنحى لصالح الشيوعية .

ان تحرير مؤلفه عن **حالة الطبقة العاملة في انكلترة** ، الذي يؤلف عمله الرئيسي في تلك الفترة ، يسمح له بالافلات من هذا التأثير . فبالتحليل الذي يواصل انشاءه عن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في انكلترة ، يحافظ على المستوى الايديولوجي الذي كان قد بلغه في ذلك البلد .

في هذا الكتاب ، الذي ينجزه تقريبا في الوقت الذي كان فيه ماركس يحرر **أطروحاته عن فويرباخ** والذي فيه يعرض أن بؤس البروليتاريا ونضالها ضد البرجوازية والثورة الشيوعية هي النتيجة الحتمية لتطور المنظومة الرأسمالية ، انجلز يتخطى ، على نقطتين جوهريتين ، التصورات المعروضة في مقاله عن حالة انكلترة . فهو يشتقّ بكيفية اكثر تعمقا ودقة بكثير العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والايديولوجية لانكلترة من الثورة الصناعية ، ويبرز عدا ذلك بشكل أقوى العواقب الثورية لهذه الثورة الصناعية . يبيّن ان الاستعاضة عن الانتاج الحرفي والمانيفاكتوري بإنتاج الفبارك يولّد ، مع خراب الطبقات الوسطى ، توطد البرجوازية الكبيرة بتركز الرساميل ووسائل الانتاج بين أيديها ، وتطور البروليتاريا المستغَلة بشكل فظيع ، اذ يجب ان تبيع شغلها كسلعة وهي خاضعة للقوانين التي تضبط انتاج وبيع السلع . من هنا انحدارها الفيزيائي والثقافي والخلقي ، ولكن ايضا تصميمها الزائد على التحرر من شروط الحياة اللاإنسانية المفروضة عليها وتوطد نضالها الطبقي ضد النظام الرأسمالي والبرجوازية . رغم الوسائل الكبيرة التي تتصرف بها ، تتبيَّن البرجوازية الانكليزية عاجزة عن منع استفحال هذا النضال . مدعومة باتحادات الشغل وبالحركة الشارتية، ان البروليتاريا الانكليزية، اذ تعي على نحو أفضل مصالحها الطبقية واذ تدرك انها لا تستطيع التحرر الا بثورة شيوعية ، تدخل بعزيمة متعاظمة طريق الكفاح الثوري وتحلّ ، كعنصر اجتماعي محرك للتاريخ ، محلّ البرجوازية التي كانت قد لعبت هذا الدور الى ذلك الحين.

في هذا الكتاب ، الذي يشكل اول تحليل كبير لحقبة من التاريخ يُنشأ من وجهة نظر المادية التاريخية ، انجلز يتحرر بصورة تكاد تكون تامة من نفوذ فويرباخ والاشتراكية **الحقة** . يأتي ، بشكل مستقل تماما عن ماركس وعلى صعيد غير صعيده ، بإسهام بالغ الاهمية في انضاج المبادىء الاساسية للمادية التاريخية . يجيء هنا ، كما فعل من قبل في مقالاته في **الحوليات الفرنسية ـ الالمانية** وفي مقاله عن «حالة انكلترة» ، مكملا على الصعيد العياني تصورات ماركس النظرية .

فهو يُبرز ، في تحليله لحالة انكلترة ، بكيفية بالحقيقة غير منهجية وضمنية اكثر منها صريحة ، انه من غير الممكن الوصول الى فهم صحيح للتاريخ الا بتحليل متعمق للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، مع استبعاد كل اعتبار مثالي او عقيدي. بالفعل ان سير التاريخ محدد جوهريا من قبل تطور قوى الانتاج ، الذي يسبب ، مع تقسيم جديد للشغل وأشكال جديدة للملكية ، تحولا للعلاقات الاقتصادية

والاجتماعية والسياسية والايديولوجية . ان ايديولوجيا مجتمع من المجتمعات لها بالواقع ، مثل العلاقات الاجتماعية ، طابع طبقي ، ولا يمكن ان تفهم الا في علاقاتها مع صراعات الطبقات . من هنا بطلان التصور المثالي للتاريخ المعاد الى تطور أفكار ، وبكيفية عامة بطلان كل نظرية تقع خارج الحياة الاجتماعية .

لئن كان انجلز لا يتوصل بعد الى حمل أفكاره الى درجة تعميم عالية كما كان يفعل ماركس ، من جراء كونه لا يعادله علىالصعيد النظري ، الا انه كان بالمقابل يحلل بوضوح ودقة أكبر مما كان يفعل ماركس الصلات بين العلاقات الاقتصادية والاجتماعية . فرغم كون ماركس قد وصل الى تصور مادي للتاريخ أعلى وأوسع ، لم يكن يرى ، بالتفصيل ، بنفس وضوح انجلز ، كيف تطور قوى الانتاج يحدد العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

إبان لقائهما في بروكسل ، في نيسان ١٨٤٥ ، تأثر انجلز تأثرا عميقا باتساع وعمق نظرات ماركس الجديدة . وكان يسهم من جهته في اغناء فكر صديقه ، معطيا اياه ، بكتابه ، نموذجا عن تطبيق مبادىء المادية التاريخية على دراسة التاريخ ، ويكمل هكذا ، كما سبق وفعل مرتين ، تصورات ماركس ، عند منعطف حاسم في فكره . لئن كانا قد استطاعا ان يتعاونا بشكل مثمر في **العائلة المقدسة**، على قاعدة التصورات المادية ، التي كانا قد بلغاها كل" من جهته ، فقد كانا يستطيعان أن يتعاونا الآن على نحو أفضل اذ تصوراتهما تتكامل على مستوى أعلى.

ان رحلتهما المشتركة الى انكلترة كان لها أن تسمح بتوسيع معارفهما في الاقتصاد السياسي ، و ، بدخولهما في صلات أوثق مع قادة **رابطة العادلين** والشارتية ، بالشروع في ممارسة تأثير مباشر على تطور نضال البروليتاريا الدولي.

كلما كانا يدركان الاهمية التاريخية لهذا النضال ، كان يتوطد عندهما الاقتناع بأن البروليتاريا يجب عليها ، لكي تقود كفاحها نحو النصر ، أن ترمي تماما المثالية والعقيدية والطوباوية ، التي ليس من شأنها الا ان تعيق وتقيد نضالها .

هذا هو السبب العميق الذي جعلهما يكتبان **الايديولوجيا الالمانية** ، المؤلَّف الذي يمكّنهما في آن معا من اعطاء عرض اجمالي للمادية التاريخية ومن تصفية شكلي المثالية والعقيدية والطوباوية الاكثر انتشارا في ألمانيا آنذاك ، وهما : الفلسفة النظرانية والاشتراكية **الحقة** .

في الاصل كان هدفهما انجاز نقد الفلسفة النظرانية اللاحقة لهيغل ، الذي بدآه في **العائلة المقدسة** . هذا يقتضي بالنسبة لهما الوصول ، اولا ، الى ضبط تصورهما للمادية التاريخية . وهذا هو موضوع الفصل المعنوَن «فويرباخ» . يرفضان تصورات المؤرخين البرجوازيين الذين ، اذ لا يقيمون حسابا لقاعدة التاريخ الواقعية، الا وهي خلق حياة البشر المادية بتطور قوى الانتاج ، يعيدون سير التاريخ الى تعاقب صراعات دينية وسياسية ، ويرفضان اكثر ايضا تصورات الفلاسفة المثاليين الذين يقلّصون التاريخ الى تطور الفكر . في انضاج مذهبهما ، يذهبان من التصور المادي للعالم كما عرّفه ماركس قبل قليل ، ويحلّلان ، من

وجهة النظر هذه ، حقب التاريخ الكبرى، حسب الطريقة التي أعطى انجلز نموذجها قبل قليل ، محدّدين لكل من هذه الحقب نمط الانتاج الذي يطبعها ، مع تقسيم الشغل ونمط الملكية المتولّد منه ، ومعلّلين به العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والايديولوجية الخاصة بهذه الحقبة .

من وجهة النظر هذه ، ينقسم التاريخ الى عصرين كبيرين . في الاول ، يعيش البشر من المنتجات التي توفرها الطبيعة لهم بشكل مباشر (القطف ، الصيد البري، الصيد المائي) . في الثاني ، البشر يحولون الطبيعة اكثر فأكثر ، بشغلهم المنتج ، لتلبية حاجاتهم .

هذا العصر الثاني ينقسم بدوره الى اربع حقب كبرى ، يطبعها ويميزها التطور الخصوصي لقوى الانتاج وتقسيم الشغل وأشكال الملكية .

الحقبة الاولى ، التي هي طور الملكية الجماعية للقبيلة ، تستجيب لمرحلة في نمط الانتاج لا تزال بدائية .

الثانية هي طور الملكية الجماعية القديمة ، للكومونة والدولة . الملكية الخاصة تتكوّن في اطار هذا الشكل الجماعي للملكية . نظام الرق يتعمم كنمط انتاج ومعه يولد اول صراع طبقات كبير ، الصراع بين أسياد وعبيد . يحصل ، عدا ذلك ، انقسام كبير أول للشغل ، موسوم بالانفصال بين المدينة والريف ، و ، في المدينة، بانفصال بين الصناعة والتجارة وأيضا بانفصال بين الشغل اليدوي والشغل الفكري الثقافي .

الحقبة الثالثة هي طور الاقطاعية . الانتاج الزراعي هو الغالب . من هنا دور الطبقة الحاكمة الذي تلعبه النبالة التي تملك الارض وتستغل الأقنان الذين حلّوا محل الأرقاء القديمين . من هنا ايضا صراع طبقات جديد وكبير بين الاقنان والنبلاء. الصناعة والتجارة تتطوران في المدن تحت الشكل الحرفي ، حيث المنتج يبيع بنفسه ما ينتج . كما في الريف ، التنظيم الاجتماعي في المدينة مسلسل رأسيًا عموديا . ثمة انقسام ، داخل نقابات الحرف ، بين أسياد ورفاق وصنّاع . متجاوزة حدود المدينة ، تميل التجارة اكثر فأكثر الى اتخاذ طابع تجارة بين المدن وتصير العنصر الرئيسي للتقدم الاقتصادي والاجتماعي . التطور المتنامي للصناعة والتجارة يقوّي سلطان البرجوازية التي تتكوّن في المدن ، حيث تناضل في آن ضد هيمنة النبالة ، وضد الرفاق الذين تستثمرهم وأيضا ضد العامة التي تبدأ تتشكل في المدن . الرأسمال ما يزال له شكل رأسمال ثابت Fixe ، اذ هو جوهريا مكوّن من ملكية الارض او المشغل ، الامر الذي يعلل بطء خطوات التقدم في الانتاج وفي تقسيم الشغل .

الحقبة الرابعة تتسم بالانتقال من الانتاج الحرفي الى الانتاج المانيفاكتوري الذي يسهله التراكم التدريجي للرأسمال التداولي وتطور التجارة ، بخاصة التجارة البحرية ، التي تأخذ انطلاقا كبيرا جدا اثر خلق المستعمرات والتي تصير عنصرا جوهريا في التقدم الاقتصادي والاجتماعي . ان التراكم المتسارع للرأسمال

التداولي ، من جراء تطور التجارة والمانيفاكتورات ، يؤدي الى تشكل سوق المال مع البنوك والعملة الورقية وقروض الدولة . يحدث في الوقت نفسه تحـوّل اجتماعي عميق يتميز بازدياد قوة ودور البرجوازية الكبيرة بسبب التناقص النسبي لأهمية الزراعة والحرافة .

بما ان المانيفاكتورات لم تعد تستطيع تلبية الحاجات النامية ، لذا يستعاض عن الانتاج المانيفاكتوري بإنتاج الفبارك ، حيث يتحقق الشغل بمساعدة آلات وحيث البخار يستخدم اكثر فأكثر كقوة محركة . الانطلاق السريع للصناعة والتجارة ، الذي يسهّله تحسّن وسائل الاتصال والنقل ، يسرّع توسع الرأسمال التداولي ويفضي الى تحوّل عميق في العلاقات الاجتماعية .

في الوقت نفسه الذي يتعمم فيه تشيؤ العلاقات الاجتماعية التي ، إذ تفقد طابعها الشخصي ، تُخلي المكان لتبادلات سلع بواسطة المال ، نرى حصول تغيّر جذري في بنية المجتمع .

ان تطور الصناعة الكبيرة والتجارة المتزايد السرعة يسرّع انحطاط النبالة والحرافة لصالح البرجوازية الكبيرة التي تصير الطبقة القائدة ـ الحاكمة . تُخضِع لمصالحها سلطات الدولة وفي كل دولة كل الطبقات الاخرى ، محددة بذلك ، على الصعيد القومي والدولي معا ، كما سابقا فعلت النبالة ، العلاقات الاجتماعية والسياسية والايديولوجية .

للدفاع عن مصالحها ، البرجوازية الكبيرة لها تحت تصرّفها سلطان الرأسمال وسلطان الدولة وأيضا سلطان الدين والاخلاق والاقتصاد السياسي . كلّ على طريقته يبرر ويساند النظام الرأسمالي . بيد أنها تصطدم بالمعارضة المتزايدة التصميم من جانب الطبقة العاملة ، التي تتطور معها في الوقت نفسه ، ولكن على طريقة طِباق ، أطروحة ـ نقيضة . الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا يستفحل بقدر ما ينمو بؤسها وبقدر ما تأخذ بوضوح أكبر وعي مصالحها الطبقية .

بالنسبة للبروليتاري ، ليس الشغل هو الفاعلية المنتجة الحرة التي بها الانسان يحدد نفسه ، بل هو شغل مفروض ، شغل عبد ، يُنقصه بقدر ما يُنتج. انه مرغم لكي يعيش على بيع نفسه كسلعة وخاضع للقوانين التي تنظم وتضبط انتاج وتداول السلع . لا يستطيع ان يتحرر من الاستغلال والاضطهاد اللذين يقاسيهما الا بصراع لا رحمة فيه ضد البرجوازية ، صراع يعقب الصراع بين الاسياد والأرقّاء في العالم القديم ، بين النبلاء والأقنان في العصر الوسيط .

هذا الصراع يقود بالضرورة الى ثورة شيوعية . هذه تتميز جذريا عن الثورات الاجتماعية السابقة بواقع أنها ستلغي المنظومة الرأسمالية الغاء تاما ، في حين كانت تلك تكتفي باستبدال سيطرة طبقة بسيطرة طبقة أخرى ، دون ان تصيب نظام الملكية الخاصة بأذى . هكذا كان يستمر ، في شكل آخر ، استغلال الطبقة العاملة .

حتى تنتصر ثورة شيوعية يجب تحقق ثلاثة شروط : ينبغي أن تكون المنظومة

الرأسمالية متطورة تماما ، وأن لا تحصل هذه الثورة محليا بل كونيا ، اذ بدون ذلك يكون مصيرها الفشل ، وأن تكون البروليتاريا واعية مليًا مصالحها الطبقية، الامر الذي يشترط الغاء كل الاوهام والتصويفات والطوباويات التي تعيق عملها الثوري .

بنضالها ، تلعب البروليتاريا ، في الأزمنة الراهنة ، الدور الواقع قبلها على البرجوازية في تحديد سير التاريخ .

بالثورة الشيوعية ، التي ستلغي ، مع نظام الملكية الخاصة ، استغلال الانسان على يد الانسان ، وستأتي بتطور لقوى الانتاج لا حدّ له ، سيندرج ويتكامل البشر بانسجام في التنظيم الاجتماعي وسيكون بوسعهم ان يتطوروا تطورا كاملا . فالانطلاق اللامحدود لقوى الانتاج سيسمح بتقليص الشغل الاجتماعي المحقّق تحت شارة تقسيم الشغل الى حدّ أدنى . ان حصر هذه الفاعلية سيتيح لكل فرد ، باستعمال قوى الانتاج الواصلة الى درجة عالية جدا من التطور ، أن يتعاطى ، كما كان يفكر فوريه ، الفاعليات التي تناسبه على النحو الافضل ، وأن يصير ، باستخدام قابلياته استخداما كاملا ، انسانا كليا . هذا هو معنى الإنسية عند ماركس . ان النظام الشيوعي ، الذي فيه سيسيطر البشر على عالم الاشياء بدلا من أن يسيطر هو عليهم ، سوف يسِم بداية تاريخ جديد للبشرية .

من هذا العرض العام لتطور التاريخ الانساني كانت تتبلور ، ليس بكيفية مجزأة كماَ في **الأطروحات عن فويرباخ وحالة الطبقة العاملة في انكلترة** بل بكيفية منهجية نظامية كاملة وواضحة ، المبادىء العامة للمادية التاريخية . فقد كان يتبيَّن منه أن على المرء ، في تحليل التاريخ ، أن لا يعمل بكيفية مثالية منطلقا كالفلاسفة النظرانيين من الوعي والروح معتبرَين العنصرين المقرِّرين للتطور التاريخي ، او يقلص كالمؤرخين البرجوازيين التاريخ الى تعاقب صراعات دينية او سياسية ، بل بالعكس ان ينطلق من الانسان العياني معتبرًا فاعليته الاقتصادية والاجتماعية ؛ حيث قاعدة التاريخ هي وجود أفراد ينتجون حياتهم المادية بالشغل .

بالشغل ، يستطيع الانسان ، بخلاف الحيوان ، ان يحوّل الطبيعة لتكييفها مع تلبية حاجاته . الطبيعة هي ، من جراء ذلك ، أقل فأقل بالنسبة له ، ما تبقى بالنسبة للحيوان ، الطبيعة في شكلها البدائي ، بل تصير بقدر متعاظم الطبيعة المؤنسَنة بشغله .

مع تحويله الطبيعة بفاعليته المنتجة ، الانسان يحوّل نفسه بنفسه . هذا التحويل المترافق للطبيعة والانسان بالفاعلية المنتجة يؤلف المحتوى الجوهري للتاريخ الذي يكون هكذا عنصره المقرِّر تطور قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية المتولِدة من هذه القوى .

بما أن البشر لا يمكن ان يعيشوا الا بأن يتعاونوا في الشغل ، لذا فان حياتهم لها بالضرورة طابع اجتماعي . العلاقات الاجتماعية التي تولد من هذا التعاون يحددها تطور قوى الانتاج .

فلقوى انتاج معرّفة ، محددة ، تستجيب علاقات اجتماعية ملائمة لتطبيق هذه القوى .

ان تطور قوى الانتاج وتقسيم الشغل ونمط الملكية المتولّد منها يحدد ، في الوقت نفسه مع تحديده العلاقات الاقتصادية ، العلاقات الاجتماعية والسياسية والايديولوجية ، وبذلك يحدد سير التاريخ .

في منظومة الملكية الخاصة يحصل تمركز لقوى الانتاج بين أيدي أقلية من المالكين ، من هنا انقسام المجتمع الى مالكين وغير المالكين وصراعات الطبقات الناجمة عنه .

ان تقدم التاريخ الى هنا قد سبّبه التطور الجدلي لقوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية . لمرحلة معطاة في تطور قوى الانتاج تستجيب علاقات اجتماعية هي، بعد كونها في أول الامر ملائمة لاستخدام هذه القوى ، تصير بالتدريج قيدا على تطورها كلما أدى نمو الحاجات الى تحوّل في قوى الانتاج . عندئذ العلاقات الاجتماعية الموجودة يجب ان تخلي المكان لعلاقات اجتماعية جديدة ، وهذا لا يمكن ان يكون سوى عمل ثورة اجتماعية ، تولد من تفاقم صراعات الطبقات .

ان تطور قوى الانتاج يحدد ، في الوقت نفسه مع تحديده العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ايديولوجيا مجتمع من المجتمعات ، اي تحوّل وعي وفكر البشر . ان حياة الانسان الروحية مرتبطة ارتباطا وثيقا بحياته المادية . فهو لا ينتج وعيه وفكره بوصفه انسانا مجرّدا ، بل بوصفه انسانا عيانيا ، محدّدا من قبل فاعليته المنتجة . لا يمكن بالتالي فصل الوعي والفكر عن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي هما انعكاسها . هذا الانعكاس ليس ذا طابع منفعل ، كما كان يكون الامر في حال موقف تأملي للانسان ازاء الطبيعة ، بل هو ترجمة التحويل الذي يلحقه الانسان بالطبيعة ، وفي الوقت نفسه بذاته ، بواسطة شغله . هكذا فان كل وجوه او أشكال ايديولوجيا مجتمع من المجتمعات ـ الدين ، الاخلاق ، الفلسفة ، الحقوق ـ ليست أشكالا مجرّدة لوعيه وفكره موجودة خارج علاقاته الاقتصادية والاجتماعية ، بل هي نتاج هذه العلاقات . ان طابع وتحوّل هذه الاشكال يتوقفان جوهريا على تطور قوى الانتاج وتقسيم الشغل ونمط الملكية . وهي تتغير بقدر ما تتحوّل قوى الانتاج والعلاقات الاجتماعية ، الامر الذي يفسر مثلا ان الافكار المهيمنة في عصر هي دائما أفكار الطبقة الحاكمة .

ان الحياة الروحية لها بادىء ذي بدء طابع بدائي كحياة الانسان عينها . الانسان لا يتميز على هذا الصعيد عن الحيوان الا بواقع ان الغريزة يحلّ محلها شكل للوعي أولي ابتدائي .

الوعي والفكر يتطوران في الوقت نفسه مع تطور قوى الانتاج وانقسام الشغل. بتكاثر هذا الانقسام يولد الانفصال بين الشغل اليدوي والشغل الفكري . هذا الانفصال يحدد تشكل صنف خاص من الافراد ، صنف المفكرين ، الذين دورهم هو الانشغال بالامور الفكرية والذين يحصرون أنفسهم هكذا في ميدان التجريدات .

من هنا الانفصال الذي يحصل عندهم بين الكينونة والروح ، بين الواقع المادي والواقع الروحي ، الانفصال الذي هو في أصل الايديولوجيا بوصفها تمثيلا مشوّها للواقع . بعملية قلب للعلاقات بين الكينونة والروح ، يصل الايديولوجيون الى تصور ان ليس الكائن ، اي الانسان العياني ، هو الذي يحدّد الروح ، بل بالعكس الروح هو الذي يحدّده ، وان الفاعلية الروحية تؤلف فاعلية الانسان الجوهرية . هذا يسوقهم الى أن يروا في الروح ، معتبَرا في ذاته ، ككيان منفصل او هوية منفرزة عن الحياة المادية ، العنصر المقرِّر المحدِّد للحياة البشرية وللتاريخ . هذا التاريخ يتقلص بذلك الى تعاقب أفكار ، الامر الذي يسمح للايديولوجيين بأن يفكروا أنه يمكن تعديل مجرى التاريخ بفاعلية الروح وحدها ، بالنقد البسيط لحالة الاشياء الموجودة .

مرتكزَين على هذا التصور المادي للتاريخ ، ماركس وانجلز ، وقد تحررا من المثالية والعقيدية والطوباوية ، باتا الآن قادرَين على تصفية حساب الفلسفة النظرانية نهائيا وعلى الشروع في نقد الاشتراكية الطوباوية .

ان تصفية الحساب مع الفلسفة النظرانية تحصل بواسطة نقد ، يتوجه الآن الى برونو باور أقلّ مما يتوجه الى ماكس شترنر ، وهو ممثل اكثر نموذجية ايضا من ب. باور للفلسفة بعد ـ الهيغلية . هذه الفلسفة هي نقطة وصول الفلسفة المثالية الالمانية التي كانت تعكس وضع ألمانيا المتأخر . بخلاف البرجوازية الفرنسية والانكليزية ، ألتي كان صعودها السريع يستجيب للانطلاق الاقتصادي لبلدَيها والتي كانت دخلت بحزم في النضال ضد التنظيم الاقطاعي والملكية المطلقة واستطاعت ان تصفيهما ، البرجوازية الالمانية ظلت ، منذ حرب الثلاثين عاما التي وَسمَت بداية الانحدار الاقتصادي والاجتماعي لألمانيا ، حتى انشاء الاتحاد الجمركي ، ضعيفة ضعفا يمنعها من لعب دور سياسي واجتماعي مقرِّر . هذا يعلل موقفها المثالي ازاء المسائل السياسية . فاصلة الليبرالية ، التي كانت الشكل السياسي للكفاح الذي تخوضه البرجوازية في فرنسا وفي انكلترة دفاعا عن مصالحها المادية ، رأت البرجوازية الالمانية في الحركة الليبرالية نضالا من اجل ظفر مبادىء الحرية والمساواة والإخاء .

هذا الاتجاه المثالي وجد تعبيره عند المفكرين البرجوازيين الالمان في القرن الثامن عشر ، خاصة عند كَنط ، الذي جعل الافكار الليبرالية مبادىء أخلاقية ، والاهداف السياسية والاجتماعية التي تسعى اليها البرجوازية في انكلترة وفرنسا تحديدات ـ تقريرات للارادة الخالصة . مستوحين مثالية كنط ، الفلاسفة النظرانيون الذين خلفوه ، خاصة هيغل ، أعادوا التاريخ الى تطور الروح وجعلوه تعاقب أفكار بها يتحقق الروح تدريجيا .

ب. باور وشترنر قادا الى حدّها هذه الفلسفة النظرانية ، بمنحهما الفلسفة والجدل الهيغليين طابعا ذاتيا برجوع الى فلسفة فيخته . حوّلا الروح المطلق الهيغلي ، الذي بما أنه في آن ذات وموضوع ، ينبسط ويتطور بجدل داخلي ، الى وعي ذات ، مثل برونو باور ، او الى أنا مطلق ، مثل شترنر ، ينبسطان

ويتطوران لا كالفكرة الهيغلية في ترابط وثيق مع العالم الذي هو جزء من كينونتها بل في تعارض دائم معه . ان تَذويت الروح المطلق والجدل يفسِّر الكيفية الخيالية التي بها يعالج باور وشترنر التاريخ . بما أنها لا تستند كما عند هيغل الى معارف هائلة فقد صارت عندهما محض بناء يبنيه الروح ويؤول الى صناعة الجمل .

مقلِّصا الانسان الى وعي الذات ، ب. باور يجعل العالم ، اي مجموع العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، موضوع وعي الذات بإعادته الى حد الماهية المجرد . بمساعدة هذين التجريدين ، وعي ذات وماهية ، اللذين يتعارضان على الدوام مثل الأنا واللاأنا عند فيخته ، يبني برونو باور منظومته التي فيها يبيِّن كيف الوعي ، مثل أنا فيخته ، يبلغ درجة أعلى فأعلى في تطوره ، بتحرره المتدرج من قبضة الماهية .

بدلا من أن يرى في العلاقات التي تقوم بين الوعي والماهية مسألة خاصة بالفلسفة الهيغلية ، يعتبرها مسألة عامة من أعلى مدى تاريخي ، معضلة يتوقف عليها مستقبل البشرية .

مشاطرا اقتناع هيغل بأن الروح يحدد سير التاريخ ، يفكر ان هذا الاخير يمكن تثبيته بمجرد نقد تصورات باطلة ويحدد بالتالي للنقد مهمة تحرير الوعي من سيطرة الماهية ، المتصوَّرة جوهريا في شكل الدين والدولة و«الجمهور ـ الكتلة» التي تعيق تطوره .

ان مذهب ماكس شترنر يسِم نهاية سيرورة تذويت الفلسفة والجدل الهيغليين . فاصلا الفرد المعتبَر في ذاته ، في وحدانيته او فردانيته ، كأنا مطلق، عن العلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، يجعله العنصر المقرِّر للتاريخ . ان معنى وهدف التاريخ ، بالنسبة لشترنر ، هو تشكل الأنا المطلق ، الواحد الوحيد ، الذي يحقق كينونته بنبذه كل ما ، في شكل أفكار **ثابتة** ، يمنعه من أن يؤكد نفسه بوصفه كذلك . من هنا تقسيم التاريخ الى حقبتين كبيرتين ، حقبة ما قبل التاريخ، وخلالها يتحدد الأنا تدريجيا بتحرره من هيمنة الطبيعة وهيمنة الروح ، والحقبة التي فيها يتحقق الأنا مليا في وحدانيته .

الطور الاول يشمل بدوره درجتين كبيرتين : درجة طفولة الانسانية ، حيث الانسان لا يصل الى الافلات من قبضة الطبيعة ، ودرجة المراهقة حيث الانسان اذ يتحرر من هيمنة الطبيعة يسقط تحت هيمنة الروح . بينما الدرجة الاولى في تطور البشرية تتَّسم بالموقف الواقعي الذي يقفه الانسان ازاء العالم ، تتميز الثانية بموقفه المثالي ، مصدر الفِكَر **الثابتة** ، المثل **الثابتة** ، التي تُحوِّل العالم الى مشهد أشباح والبشر الى ممسوسين .

كي يتحرر من تسلُّط الفكَر **الثابتة** التي تضطهده في شكل الدين او سلطة الدولة او الهيمنة الاجتماعية ، يكفي للفرد ان يُنكر عنها كل طابع مقدس . بهذا تتحول النضالات الواقعية التي خاضها ويخوضها البشر في سبيل تحررهم ، عند شترنر كما عند ب. باور ، الى نضالات روحية .

الهدف الجوهري لهذا النضال ، في العصر الراهن ، هو نبذ الليبرالية السياسية التي تفضي الى سيطرة الدولة ، والليبرالية الاجتماعية اي الاشتراكية التي تُحلّ محلّ سيطرة الدولة سيطرة المجتمع ، والليبرالية الانسانية اي الانسية التي تُخضِع الفرد للنوع .

ان رفض الفكَر الثابتة يتيح للأنا تحقيق كينونته بأخذه حيازة العالم . بما أن هذا يتم بطريق التصور ــ التخيّل ، لذا فان الوحيد ليس سوى السيد الخيالي على العالم ، سوى كاريكاتور الانسان الحقيقي الذي يمارس قبضة الواقعي على العالم بشغله . مع وحيد شترنر ، الفلسفة النظرانية بعد ــ الهيغلية تصل الى حدها الاخير .

ان فلسفة ب. باور وشترنر الثورية ــ الزائفة تعكس ، كما من قبلها الفلسفة المثالية الالمانية ، وضع المانيا الذي لا يزال متأخرا ، وبشكل أخصّ ، ذهنية البرجوازيين الصغار والمثقفين الالمان . هؤلاء يزيد تلذّذهم في تأكيد استقلالهم وإرادتهم السيدة كونهم في الواقع عاجزين تماما عن تغيير حالة الاشياء التي هم ضحاياها .

هذه السيطرة المُحكمَة على التصور المادي للتاريخ كانت تتيح لماركس وانجلز، بعد أن صفّيا الفلسفة النظرانية بعد ــ الهيغلية ، أن يوجها نقدهما ضد هذا الشكل الآخر للعقيدية الذي كانت تمثله الاشتراكية الطوباوية الالمانية ، الاشتراكية **الحقة** .

بينما كان التفنيد النهائي للفلسفة الهيغلية وبعد ــ الهيغلية يسِم الحد الاخير للحقبة التي خلالها كان ماركس وانجلز قد بسطا وطوّرا فكرهما ان صح القول كلحن معارض لهذه الفلسفة ، كان نقدهما للاشتراكية **الحقة** يعني بداية حقبة جديدة في فكرهما وعملهما . هذه الحقبة كانت موسومة بواقع أنهما اذ كانا يشاركان عن قرب متزايد في كفاح البروليتاريا الثوري الذي كانا يبدآن أخذ قيادته فقد كانا مساقَين الى قتال لا رحمة فيه ضد الطوباوية التي كانت تحوّل البروليتاريا عن نضالها وفي الوقت نفسه الى تثبيت الشروط الكفيلة بتأمين انتصار هذه البروليتاريا .

هذا النقد للاشتراكية **الحقة** كان يزيد إلحاحه وضرورته واقع أنها كانت تمارس تأثيرا متعاظما على الطبقة العاملة الالمانية .

اذ يحلّلان باديء ذي بدء ، كما كانا قد فعلا بالنسبة للفلسفة النظرانية ، شروط تشكّل الاشتراكية **الحقة** ، ماركس وانجلز يبيّنان أن هذا التشكل يشبه تشكّل الليبرالية الالمانية . كما كانت الليبرالية الالمانية في بداياتها الانعكاس المُمثلَن للنضالات التي قادتها البرجوازية الانكليزية والفرنسية من اجل الاستيلاء على السلطة ، كذلك الاشتراكية **الحقة** هي الانعكاس المُمثلَن للنضال الطبقي الذي تخوضه البروليتاريا في انكلترة وفرنسا وتبدأ خوضه في ألمانيا .

بعكس الاشتراكيين والشيوعيين الفرنسيين والانكليز الذين يدافعون فعليا عن

مصالح البرجوازية ــ الصغيرة الثورية او الطبقة العاملة ، بالنقد الذي يجرونه للنظام الرأسمالي وبالكفاح الذي يفتحونه ضده ، الاشتراكيون **الحقون** ، اذ ينقلون، كما فعلت قبلهم البرجوازية الالمانية ، صراعات الطبقات على الصعيد الروحي ، يعتبرون ايضا هذه الصراعات مسائل نظرية جوهريا .

لما كان مذهب الاشتراكية **الحقة** يتأسس على إنسية فويرباخ التي أعطاها هس طابعا شيوعيا ، ينساق ماركس وانجلز الى إرفاق نقدهما للاشتراكيين **الحقين** بنقد لفويرباخ ول هس . في **الايديولوجيا الالمانية** لا يحصل نقد فويرباخ بطريقة منهجية نظامية ، كما في **أطروحات** ماركس ، بل بالاحرى بطريقة عارضة، مع أن فويرباخ على الارجح كان في الاصل ، كما يتبين من عنوان الفصل عن المادية التاريخية ، موضع نقد لا يقلّ تعمقا عن نقد شترنر .

في نقدهما لفويرباخ ، ماركس وانجلز ينطلقان من الافكار الاساسية المعروضة في **الأطروحات** . مهملا الدور الثوري **للبراكسيس** ، لم يتمكن فويرباخ من قيادة نقده للمثالية الى نهايته ، من هنا الطابع نصف ــ الميتافيزي الذي تحتفظ به ماديته . أجل يعارض المثالية ، التي ترَوحِن الانسان والطبيعة ، بالطبيعة المحسوسة والانسان العياني ، ولكن بما أنه يعتبر الواقع المحسوس فقط كموضوع وليس كذات ، في شكل فاعلية الانسان المنتجة ، فهو يتبنّى موقفا تأمليا ازاء الطبيعة وإزاء المجتمع على حد سواء .

من هنا تصوره الخاطىء للطبيعة التي لا يرى أنها تحوّل على نحو متزايد العمق من قبل فاعلية البشر المنتجة والتي ينظر اليها من جراء ذلك في شكلها المباشر والبدائي . من هنا ايضا تصوره الأنتروبولوجي للفرد وللمجتمع . معتبرا الانسان من وجهة نظر علاقاته الطبيعية وليس من وجهة نظر علاقاته الاجتماعية ، يعيده الى فرد مجرّد ، غير متميز اجتماعيا ، ويقلّص المجتمع ، المتصوّر كمجموع هؤلاء الافراد ، الى النوع الانساني .

محتجًا على العزلة والأنانية اللتين تزيفان الطبيعة الانسانية ، يفكر أن البشر لا يحققون مليا كينونتهم الا في الاشتراك ، في الجماعة ، التي يقلصها الى اتحاد الأنت والأنا . من هنا الدور الأوّلي الذي تلعبه عنده الصداقة والمحبة في العلاقات الاجتماعية .

هذا التصور الأنتروبولوجي يعلل الانفصال الحاصل عنده بين المادية والتاريخ. فماديته ليس لها طابع تاريخي وتصوره للتاريخ مثالي . يعتبر ، على طريقة الطوباويين ، أن هدف الانسان هو تحقيق كينونته بتدمير الوهم الديني ، التحقيق الذي يتمثله في شكل إنسية غامضة .

هذا التصور المثالي للتاريخ يفسر عجزه عن فهم الطابع الحقيقي للمسائل الاجتماعية وعن اعطائها حلا صحيحا ، لاسيما وأنه يستبعد بصورة قبلية كل منظور ثوري . فهو يفكر أن شروط وجود البشر هي ، عموما ، على نحو تتوافق فيه كينونتهم مع جوهرهم . اذا ما حدث تنافر بين الكائن والجوهر ، وهذا لا يمكن

ان يكون سوى اثر صدفة سيئة ، فان الامكانية الوحيدة لحذف هذا النشاز هو عمل الزمن . ان التنافر الوحيد العميق الذي يشدد عليه فويرباخ هو الذي ينجم عن الدين ، الذي لا يعالجه من وجهة النظر التاريخية والاجتماعية بقدر ما يعالجه من وجهة النظر السيكولوجية . فالدين يجب ان يدمَّر لا بحذف العلاقات الاجتماعية التي تنجبه بل بالتربية والتعليم .

ماركس وانجلز ينقدان باقتضاب اكبر بكثير هس ، الذي كان قد اخرج من إنسية فويرباخ اشتراكية عاطفية ، كان يستوحيها الاشتراكيون **الحقون** .

منطلقا من مبدأ أنه لا يمكن اعطاء حل عملي ونظري معا للمسائل الاجتماعية الا انطلاقا من إنسية فويرباخ ، هس ينقد نقص المنظّرين الاشتراكيين والشيوعيين الفرنسيين والانكليز الذين اهملوا وجهة النظر هذه . المعضلة الاساسية ، بالنسبة له كما بالنسبة لفويرباخ ، هي اعطاء البشر من جديد كينونتهم الحقيقية بحذف الانخلاع .

بخلاف فويرباخ، يعتبر الانخلاع لا تحت شكله الديني بل تحت شكلهالاجتماعي كما يحصل في الشغل وفي المال في النظام الرأسمالي . هذا النظام ، الذي فيه يهيمن الربح والتزاحم اللذان يولّدان عزلة البشر والأنانية لا يسمح بفاعلية الانسان الحرة التي بها وحدها يستطيع ان يتأكد كإنسان . ففي هذا النظام ، فاعلية البشر هي فاعلية عبد منها اللذة مطرودة . منتوجات الشغل تتحول فيها الى سلع والى مال . المال أصبح بالنسبة للبشر الإله الذي يهيمن عليهم ويستعبدهم. من الانفصال بين الشغيل ومنتوج شغله وُلِد انقسام المجتمع الى مالكين وغير مالكين مستغلَين استغلالا لا رحمة فيه . ان حالة الاشياء هذه لا يمكن ان تُحذَف الا بالاستعاضة عن المجتمع البرجوازي بمجتمع شيوعي ، الاستبدال الذي سيتحقق تدريجيا بتعميم التربية والتعليم .

ان اقامة الشيوعية ستسمح ، بحذف الملكية الخاصة ، مع التزاحم والأنانية المتولّدة منه ، بتطور الفاعلية الحرة ، التي فيها الشغل متّحد باللذة ، وبتعاون متناسق بين البشر . بمناداته التربية والتعليم والحب كان هس يجعل الاشتراكية مذهبا عاطفيا لا يمكن الا ان يكون عائقا امام عمل البروليتاريا الثوري .

هذا النقد الصريح لفويرباخ والضمني لـ هس لم يكن سوى تمهيد لنقد الاشتراكيين **الحقين** الذين كانوا يستعيرون من هس الامر الجوهري في تصوراتهم.

بخلاف الاشتراكيين والشيوعيين الفرنسيين والانكليز ، الاشتراكيون **الحقون** يقفون مباشرة على صعيد النظران ، بتحويلهم العلاقات الاجتماعية الى علاقات بين البشر معتبَرين بطريقة مجردة . ذاهبين من الانسية الفويرباخية ومن شيوعية هس ، ينتهون الى تصور ميتافيزي عن الطبيعة والفرد والمجتمع . يرون في الطبيعة مجموع كل الكائنات التي تعيش في انسجام وتناسق ويفكرون أن البشر ايضا كانوا أصلا يعيشون في انسجام متبادل في المجتمع البدائي القريب من الطبيعة . هذا التناسق دمَّره نظام الملكية الخاصة ، الذي ولد ، بالسعي وراء

الربح وبالمزاحمة ، انعزال البشر والصراعات التي تقسمهم . في هذا التصور ، الفرد والمجتمع يُعتبَران بكيفية مجرّدة ، الفرد صائرا تجسيد الوحدانية ، والمجتمع تجسيد الجماعة او الاشتراك ، وعلاقاتهما معادة الى التعارض الذي يقوم بين الوحدانية والاشتراك . بحكم انكسار الانسجام الموجود بين البشر اثر قيام نظام الملكية الخاصة ، المعضلة الاساسية هي اعادة هذا الانسجام بالاستعاضة عن المجتمع البرجوازي بمجتمع شيوعي . هذا سيسمح بإلغاء الشغل العَبدي الخاص بالنظام الرأسمالي وإقامة فاعلية الانسان الحرة التي تمكنه ، بتوحيد العمل مع اللذة ، من تحقيق كينونته تحقيقا مليئا .

كالفرد والمجتمع ، الشغل ، المعتبَر في ذاته ، يصبح مقولة مجردة : بلا ماهية ولا واقع ، تنطبق بلا فرق او مبالاة على كل نمط شغل ، ولا يمكن بالتالي ان تكون سوى ملك الانسان المقلص هو نفسه الى تجريد .

على هذا التصور المثالي لطبيعة الفرد والمجتمع والفاعلية الانسانية يؤسس الاشتراكيون **الحقون** نقدهم للمجتمع البرجوازي . هذا المجتمع يظهر لهم ، جوهريا ، مطبوعا بنمط الشغل والانتاج الذي ، في الوقت نفسه مع إفساده البشر، يقسمهم بالتعارض الذي يقوم بين مالكين وغير مالكين . بتأسيس الشيوعية ، التي ستلغي ، في الوقت نفسه مع الغائها الملكية الخاصة والمزاحمة ، انعزال الافراد والأنانية ، سيكون بوسع البشر من جديد ان يعيشوا ، تحت شارة الحب ، حياة منسجمة تتفق وطبيعتهم الحقة .

الاشتراكية **الحقة** ، مع طابعها الميتافيزي وميلها الى الكلامولوجيا ، تبلغ ذروتها مع كارل غرون . ناسبا نفسه الى العلم الالماني ، كارل غرون يوبّخ من علٍ المنظّرين الاشتراكيين والشيوعيين الفرنسيين والانكليز ، الذين ، وقد أهملوا النظر الى الجوهر الانساني ، لم يستطيعوا الوصول الا الى رؤيات سطحية جدا عن المشكلة الاجتماعية . بما أنه هو نفسه يجهل كل شيء عن المسائل الاجتماعية لذا فهو يسقط في الكلامولوجيا المحضة .

عند ج. كوهلمان ، اخيرا ، تتحول الاشتراكية الى شعوذة .

بتصفيتهما المثالية والعقيدية والطوباوية وبإنضاجهما المبادىء الاساسية للمادية التاريخية انضاجا اكثر عمومية وأكثر تعمقا ، أقام ماركس وانجلز ، وهذه هي مأثرتهما الجبارة ، في **الايديولوجيا الالمانية** ، قوانين التاريخ العامة ، مرتكزَين على طبيعة التاريخ عينها . التطور التاريخي لم يكن يعلَّل حتى ذلك الحين الا بعلل مجردة ــ ارادة الله ، ضرورة تحقيق الحق او الخير ــ او بظاهرات ثانوية ، كالصراعات الدينية او السياسية . اذ بيّنا أن فهم التاريخ لا يمكن ان ينجم الا عن تحليل متعمق للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، فقد صفّيا منه العقيدية والنظران .

المرحلة القادمة في تطورهما الايديولوجي المرتبط بنشاطهما الثوري يحددها واقع انهما لن يشاركا فقط في نضال البروليتاريا الدولي مشاركة بسيطة بل

يبدآن يأخذان قيادة هذا النضال .

ان تنظيم هذا النضال كان سيقودهما الآن الى انشاء **مكتب بروكسل الشيوعي الدولي للمراسلة** ، الذي ستحل محله فيما بعد **رابطة الشيوعيين** ، الى متابعة نقد الطوباوية في جميع أشكالها نقدا لا رحمة فيه ، وخصوصا نقد مذهب برودون ، الى توسيع وسائل الدعاية الشيوعية (انشاء **جريدة بروكسل**) ، والى اعطاء البروليتاريا العالمية ولاسيما البروليتاريا الالمانية اشارات عن التاكتيك والستراتيجية الواجب استخدامهما في الكفاح الذي كانت تخوضه . النتيجة الجوهرية لهذه المرحلة كانت **البيان الشيوعي**، الصادر في اللحظة التي كانت تنشب فيها ثورة ١٨٤٨ . في هذا **البيان** اجتمعت الأطروحات الاساسية للمادية التاريخية المعروضة في **الايديولوجيا الالمانية** والنتائج الجوهرية المستخلصة من تحريضهما الثوري في هذه الفترة .

فهرست

الفصل الاول : الحالة في أوروبا الغربية (١٨٤٠ – ١٨٤٧) ٥
الثورة الصناعية ٥
١ – انكلترة ٦
٢ – فرنسا ٨
٣ – بلجيكا ١٠
٤ – ألمانيا ١١
النضالات السياسية والاجتماعية في المانيا (١٨٤٠ – ١٨٤٦) ١٤
١ – الحركة الليبرالية ١٤
٢ – الحركة الديمقراطية ١٥
٣ – الاشتراكية «الحقة» ١٩
٤ – الشيوعية الحرفية ٣٠
الحركة البروليتارية وتطوّر الشيوعية حتى تمرّد الحياكين في ١٨٤٤ ٣٢
ماركس وانجلز وبدايات تشكّل حزب شيوعي ماركسي ٣٤
١ – فلهلم فولف (١٨٠٩ – ١٨٦٤) ٣٥
٢ – جورج فيرث (١٨٢٢ – ١٨٥٦) ٣٨
٣ – يوسف فايدماير (١٨١٨ – ١٨٦٦) ٤٠
٤ – كارل لودفيغ دِستر (١٨١٣ – ١٨٥٩) ٤٢
الفصل الثاني : فرء انجلز «حالة الطبقة العاملة في انكلترة» فرء انجلز في بارمن ٤٥
إنجلز في بارمن ٤٥
ماكس شتيرنر ٤٩
التحريض الشيوعي لإنجلز في رينانيا ٦٠
«حالة الطبقة العاملة في انكلترة» ٧٧
الفصل الثالث : ماركس وإنجلز في بروكسل ١١٣
حياة ماركس في بروكسل ١١٣
أعمال ماركس في بروكسل : «أطروحات عن فويرباخ» ١٢٢
التعاون بين ماركس وانجلز قبل لقائهما في بروكسل ١٣٣
لقاء ماركس وانجلز في بروكسل : الرحلة الى انكلترة ١٣٧
أعمال ماركس وانجلز بين عودتهما من انكلترة و«الايديولوجيا الالمانية» ١٤٤
الفصل الرابع : «الايديولوجيا الألمانية» ١٦٣
تحرير الكتاب ونشره ١٦٣
المادية التاريخية ١٦٨
نقد الفلسفة النظرانية الألمانية برونو باور ، ماكس شتيرنر ٢٠٤
١ – برونو باور ٢٠٧
٢ – ماكس شتيرنر ٢١٧
آ – المثالية الفلسفية ٢١٨
ب – الليبرالية السياسية ٢٣٢
جـ – الليبرالية الاجتماعية ٢٣٨
د – الليبرالية «الانسانية» ٢٤١
هـ – الوحيد ٢٤٢
نقد الاشتراكية «الحقة» ٢٤٨
١ – نقد فويرباخ ٢٤٨
٢ – نقد موزس هِس ٢٥٦
٣ – نقد شتّى أنبياء الاشتراكية «الحقة» ٢٥٨
آ – «الحوليات الراينية» او فلسفة الاشتراكية «الحقة» ٢٥٨
ب – كارل غرون ، «الحركة الاجتماعية في فرنسا وبلجيكا» ٢٦٩
جـ – الدكتور جورج كوهلمان من هولشتاين أو نبوّة الاشتراكية «الحقة» ٢٧٤
الخلاصة ٢٧٧

هذا الكتاب

يتابع اوغست كورنو في هذا الجزء الرابع والاخير حتى هذه اللحظة مواكبة سيرة ماركس وانجلز وتطورهما وكتاباتهما . وكما اشرنا في الاجزاء السابقة ، فان هذه الدراسة نالت اكبر التقدير والذي استحقته عن جدارة ، من قبل الماركسيين ، والعلماء المختصين بالماركسية على السواء ، باعتبارها المرجع الاوفى ، والاكمل ، والاعمق لا عن سيرة ماركس وانجلز وتطورهما الفكري ومؤلفاتهما فحسب ، بل والأهم عن عصرهما وعن الينابيع والمؤثرات والعوامل التي شكلت ارضيه الماركسية .

ان هذا الجزء يغطي سيرة ١٨٤٥ ـ ١٨٤٦ السنة التي تتسم بانضاج المبادىء الاساسية للمادية التاريخية .

في هذه السنة توثقت الصلة بين هذا الانضاج مع تطورهما السياسي والاجتماعي الامر الذي ساقهما الى الاتحاد بالبروليتاريا ، والمشاركة في نضالاتها .

دار الحقيقة ـ بيروت

ص.ب ٨١٤٧

الثمن : ١٠ ل. ل.